

# سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

تأليف : جوزيف داهموس

ترجمة : د. محمد فتحي الشاعر



مركز الأبحاث والدراسات والبحوث



Bibliotheca Alexandrina



014634



سبعة مؤرخين  
في العصور الوسطى

# الألف كتاب الثاني

الإشراف العام  
و. سمير سرهان  
رئيسة مجلس إدارة

رئيس التحرير  
لمنحى المطيعي

مدير التحرير  
أحمد صليحة

الإشراف الفني  
محمد قطيب

الإخراج الفني  
مراد فسيم

# سَبْعَةُ مَوْرخين في العصور الوسطى

تأليف

جوزيف داموس

ترجمة

د. محمد فتحي الشاعر

كلية الآداب - جامعة المنوفية



المكتبة المركزية لجامعة المنوفية

١٩٨٩



## مقدمة

جرت الصلحة على تحديد المصور الوسطى من تدور روما حتى سنة ١٥٠٠ م ، وتشمل حضارات أوروبا الغربية ، والإسلام ، والامبراطورية البيزنطية . إن مؤلفات العلماء السبعة الذين تقدم دراسة عنهم في هذا الكتاب تمثل نموذجاً لأفضل الكتابة التاريخية التي صدرت في تلك الجالات . وتساعد كتاباتهم على حفظ ذكرى الحوادث التاريخية التي تمت ، والقسموب التي عاشت ، إبان حوالى ألف سنة منذ القرن السادس إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

ويتصور بروكوبيوس Procopius ، المؤرخ الأول للامبراطورية البيزنطية ، القائمة بالنسبة إلى عصره وأسهم الإسلام بمؤرخين عن هذه الدراسة : الطبرى ، وهو أول المؤرخين للتاريخ الإسلامى فى الأهمية وأكثرهم تشيلاً له ، وكذلك ابن خلدون أشهر المؤرخين فى التاريخ الإسلامى بكل الحسابات . ثم يأتي دور المؤرخين الأربعة لأوروبا الغربية : يمينه المبجل . . Venerable Bede ، وأوتو انفرينجي Otto of Freising ومانى باريس Matthew Paris ، وفرواسار Frohsart الذين عاشوا فى قلب المصور الوسطى بدءاً من بيته فى القرن الثامن إلى فرواسار فى القرن الخامس عشر .

وتتضمن هذه الدراسة كتابات هؤلاء المؤرخين السبعة ، ووصفا موجزا عن سيرة كل عالم منهم ، وبعضاً منفصلاً عن مكانته فى عالم المصور الوسطى على عهده . ثم يلى ذلك تحليل لمؤلفات كل كاتب باعتباره مؤرخاً . وورد ذكر مقتطفات كثيرة من أعمال كل كاتب لائق الضوء على

أملوه في الكتابة ، ولإضافة الصفة الغالبة على شخصيته ، وهو ما يتضح بشكل أفضل في الوثائق التاريخية .

ونظرا لأن توالى القرون والأزمنة دفع المؤرخين إلى الاهتمام بها ، فإن العناية حتمت التركيز على الانجاز الثقافي لكل عصر في شكل أو قالب واحد حتى يسهل إدراكه . ولم تكن هناك فرصة سوى للثرعات ، وللتقييم العام إذا ما كان عصر قائم بذاته قد ساهم في الفن ، والفكر والعلوم . وتطور نمو أنماط السلوك الاجتماعي ولم تخصص فترة محددة للفرد ، أو لحلت تاريخي له خصائص نادرة يمكن أن تكون قد غيرت مجرى التاريخ . أو عن أي مفكر فاق عصره . وهذا أمر يؤسف له . إن التاريخ يبحث في الرجال والنساء الذين فكروا ، وتصرفوا كأفراد ، والذين أفرزت أفكارهم وأعمالهم ثقافة العصر الذي عاشوه . بإثراء وتنوع للمحد الذي تحقق منه محاولات عرضها بطريقة مبسطة .

وهذا صحيح أيضا بالنسبة للمؤرخين في العصور الوسطى . فعلى الرغم من أنهم عاشوا في نفس الفترة وتعرضوا للتهديد ، ووفقا لذلك - لحظر الوقوع في التماثل المتكرر - فانهم لم يكونوا كتابا للتاريخ يصعب تحديد هويتهم . وظلوا شخصيات قالة بذاتها . إذ عبرت كتاباتهم عن شخصيات مختلفة ، وعن فلسفات للحياة إلى حد ما . لقد كان بروكوبيوس مؤرخا من نوع يختلف عن بيبس ، ويبدو من أول وهلة أن متى باريس ، وفرواسار عاش كل منها حياة مختلفة عن الآخر اختلافا بعبدا ، وربما مثل الخلاف في الحياة الذي ياعد بين الطيرى وأوتو الفريزنجي . ومن ناحية أخرى كان كل من بروكوبيوس الذي عاش في القرن السادس الميلادي ، وابن خلدون الذي مات في القرن الخامس الميلادي صا اللذان انتهجا الطريقة الحديثة وغير الدينية عند تكوينهما وتحليلهما للحوادث التاريخية ، ولم يكن هناك فاصل زمني يقارب الألف عام فحسب ، وإنما بينهما الثقافية لم يوجد بها ما هو متشابه إلا القليل أيضا .

ومع ذلك ، تمازال كل من بروكوبيوس وابن خلدون لانظر لهما . فالكثير من كتاباتهما تقريبا ليست متعلقة بالقرون الوسطى بشكل دقيق . ولا يمكن أن يقال نفس الكلام عن المؤرخين الخمسة على وجه السرعة . إذ انتهى حديث فرواسار عن الفروسية إلى حد كبير بنهاية العصور الوسطى . بالرغم من أن السير ولتر سكوت Sir Walter Scott وجد جمهورا من القراء المتلهفين على قراءة القصص الخيالية الرومانسية التي كتبها عن عصر الفروسية ، وكان هناك من يؤمنون بفلسفة فريزنج عن الحياة المتصلة بصالم غير العالم الواقعي ، عاشوا بمسك انتهاء العصور الوسطى بوقت طويل . بيد أنهم ظلوا في أديرتهم أو كتبوا

لمصاعة قليلة التزمت بطريقة الصور الوسطى عند كتابة التاريخ . أما عن الطريقة الحولية التي سار عليها الطبري ، فإنها لم تعد شائعة قبل نهاية العصور الوسطى بزمان طويل ، ويمكن أن يقال نفس الشيء بالنسبة للتفسير الديني للحوادث التاريخية الذي سار عليه المؤرخ بهذه يتحسد شديد . على أن الشيء الذي يربط بين ياريس بالصور الوسطى هو حرصه على الحفاظ على استقلال الكنيسة الإنجليزية ، والطبقة الأرستقراطية ضد تدخلات البابوية والتاج ، وهو صراع ينتمي إلى العصور الوسطى بكل وضوح على مثال الأنماط الاجتماعية مثل المواطن من سكان المدينة والفن .

وعلى الرغم من أن شخصيات هؤلاء الكتاب كانت متميزة ، فإنهم كانوا يحملون جميعا طابع العصور الوسطى . وكان إيمانهم بالعناية الالهية ، من بين الخصائص التي ميزتهم كعلماء متخصصين في تاريخ العصور الوسطى وحضارتها . ويؤمن العلماء السبعة بأن الله الواحد الأحد فوق كل البشر ، وكل القوى ولا تخفى عليه خافية ، وكان هناك أناس في العصور القديمة ، بل حتى مؤرخين في القرون الحديثة سلخوا يتدخل القوي الخارقة للطبيعة في شئون البشر ، بيه أنهم لم يكونوا على الإطلاق على النمط اليقيني والشامل كما فعل انسان العصور الوسطى . لقد آمن المؤرخون السبعة بالله واحد وعبدوه . وعلى الأرجح فإنهم سمحوا للإيمان أن يؤثر في سلوكهم ، ويصنع تفكيرهم بالصيغة الدينية ، وأن يوجههم في تحليلهم للحوادث التاريخية .

إن تأثير هذا الايمان بالله المثل القدير والعالم بكل شيء ، ظهر بوضوح أكثر عند المؤرخ بيده البندكتي (\*) .

وعند أوتو الفريزنجي السيسترشيني Cistercian (\*\*) . بل إن بروكوبيوس أقر بقدرة العناية الالهية ، وكذلك فعل ابن خلدون ، إن الله هو الذي جنب هونوريوس Honorius غير المقتدر ، المأفك من العواقب الوخيمة لسياسته الرعناء ، ووفقا لما ذكره بروكوبيوس : « إن الله يدفع عن الضعفاء ، ويأخذ بأيديهم ، إذا ما كانوا غير أشرار » (١) .

وعلى ابن خلدون على القرار المصري الذي نفعه السلطان أبو سعيد ، والامامان أبو ثابت Abu Tahlil لهاجة ملك المغرب قائلا : « إذا كانت

(\*) البندكتي نسبة إلى القديس بندكت ( ٤٨٠ - ٥٤٣ م ) ونظامه الديري - الترجمة .  
 (\*\*) السيسترشيني نسبة إلى البندكتية في نظام الرهبان الذي ظهر في أواخر  
 فرنسا سنة ١٠٩٨ م - الترجمة .  
 (Cisterciensis Cistercium)

هذه هي إرادة الله ، ما كان في استطاعتهما رد القضاء ، وإن الأيام تكشف بوضوح كل شيء ، قدّمه الله لعباده . (٢) \*

إن فرواسار ، الذي صنعت له الفرصة لفترة قصيرة فحسب ليحبط أعمال القتال والشجاعة ، أدرك في مناسبات عديدة تدخل العناية الإلهية في شئون البشر بكل وضوح . فهناك مثل واضح للعقاب العاجل والرادع الذي أنزله الله بأحد الاقطاعيين الإنجليز ، الذي اعتدى بالضرب على قسيس في مذبح الكنيسة ، ثم ولى هارباً على صهوة جواده بعد أن أخذ صه الأواني المقدسة . ولم يكده يصل هذا الاقطاعي إلى تل قريب من الكنيسة حتى بدأ قرسه يشب بطريقة غامضة جداً ، مما ترتب عليه سقوط هذا الرجل وجواده أرضاً . ودق عتق كل منهما . وبعد ذلك ، تحول كل منهما على الفور إلى جمرات من النار والرماد ، (٣) (٤) . ويبدو في مقدمة الطبرى لتاريخه العالمي تضامه للتطبيق المفسر لسفر التكوين ، في حين أن سلسلة الحزن التي وردت ، إلى حد ما ، في العديد من كتابات حتى ياريس تظهر إيمان هذا المؤرخ للحوليات - بأن العصر السادس على وشك الانتهاء ، ويشير إلى اقتراب الساعة .

إن الله والدين لهما الأهمية الأولى عند هؤلاء المؤرخين . فمن بين المؤرخين السبعة ، أربعة من القساوسة أو الرهبان - بيد ، وأوتو الفريزنجي ، وحتى البارسي وفرواسار - وكان الطبرى عالماً من علماء الدين له مكانة عالية . وأما عن المؤرخين الآخرين فقد وعد بروكويوس بإصدار كتاب عن الدين ، وهو الذي لم تنجح له الفرصة لكتابته ، أما ابن خلدون فقد أصر على أن الدين ، ولا شيء غيره هو القادر على التصدي لقوى الانحلال المتأصلة في أي أمة - ولقد سلم كل هؤلاء المؤرخين السبعة بوجود المعجزات باعتبارها الرموز المحسوس لقدرة العناية الإلهية .

إن إيمان هؤلاء الكتاب السبعة بالله والعناية الإلهية يفسر تأييدهم للفكرة التاريخية التي تؤمن بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به غاية معينة . على أن المؤرخ البيزنطي بروكويوس كان أقلهم صراحة في الأخذ بتلك الفكرة ، إذ أخذ على عاتقه محاكاة طريقة ثيوكلیدس Thucydides اللاتينية . وهو الوحيد الذي نال الإعجاب الأكبر لبروكويوس من بين المؤرخين القدماء . ولولا وجود الاشارات المتكررة عن الله والشیطان في كتابه « التاريخ السري » ، وكتابه الآخر « المنشآت المسالمة الضخمة » ،

---

(\*) لا ينبغي على القارئ الكريم أن هذه الرواية لا يمكن أن يقبلها العقل أو التفكر ومن لهم القول أن المصادر التاريخية الأوربية في العصور الوسطى لا تفرق بالمراتب والمزجيات والأساليب الكثيرة - لتفريم .

مال المرء الى اعتبار بروكوبيوس حالة شاذة من كتب الصور الوسطى .  
ولقال انه كان منشبتا بالدور في تلك اسئلة الوثنيين وكسبيحي صادي  
الايمان . لم يكن لدى بروكوبيوس من الخيار الا الاعتقاد بان الله مدير  
الأمر في السموات والأرض .

وينطبق نفس القول على فرواسار ، الذي ورد في كتاباته القليل  
الذي يكشف على نحو لا يمتريه الشك ، عن أسلوبه المبر عن الايمان  
من كل شيء . في الطبيعة مقصود به سحق غاية معينة . اما عن الكتاب  
الفريسي الثلاثة ، بيده وأوتو الفرينجي . وعسى الباريسي ، فلا شك  
في ايمانهم بان الحوادث التاريخية تسير وفقا لإرادة الله . وكذلك كان  
حال الطبري . الذي وضع موقفه في الجبل الأولى من تاريخه العالمي حيث  
أشار بوضوح الى ان الله خلق المخلوقات ، وهو المهيمن عليهم جميعا ، واما  
نيبلونهم أيهم آمنون عملا (٤) .

ان هؤلاء المؤرخين السبعة الذين آمنوا بعبادة الله وصحته الإيوية ،  
اعتبروا أنه ليس أمرا متريا للعثمة ان يستخلصوا الدروس الأخلاقية .  
وقد ذهب مكي الباريسي أبعد من أوتو ، وبيده ، في رغبته في الحكم على  
قوافع المسئولين عما قد حدث ، اما الطبري فلم يكن لديه فرصة  
لاستخلاص الدروس الأخلاقية لأنه حصر عمله في تدوين ما كنهه الآخرون .

وأما عن أبي جعفر من النادر أن مارس دور القاضي ، على الرغم  
من أن اسماؤه على السلطان أبو ثابت . الذي خانته . وألقى القبض عليه .  
ثم دبح نفسه بالسيف . اسرعى منه هذه الملاحظة . « ان الشيطان هو  
الذي حرك يده » (٥) . أما بروكوبيوس فقد ورد في كتبه عن الحروب  
استخلاصا للدروس الأخلاقية أكثر مما أملاه المؤرخ الموضوعي ثيوكرديد  
**Thucydides** . ومن النادر أن أعلن بروكوبيوس موافقته بكل قوة على  
أمر ما ، مثال ذلك المبرر الذي قدمه توتلا Totila الى قواته عندما  
استفسروا عن الطريقة الوحشية التي عاقب بها أحد حرسه الخاص  
لاغتصامه فتاة رومانية . وحذرهم توتلا أن الله مع المحاربين الأبطال (٦) .  
أما فرواسار . فصوره انظر عن ميله نحو تسلط الأصواء على الفقهاء ،  
ومواطن الصنف عبد الاسكتلنديين والانجليز . فانه امتنع عن استخلاص  
الدروس الأخلاقية . اذ كتب فرواسار بهدف تسليية قرائه ، لا لكي يقدم  
الموعظة ، رغم أن ما قام به جيا لامب John Lamb في عمل مشي عنهما  
لمن أيقاظه Evan البطل الولري Welsh في ظهره . كان عملا شجيرة  
الجميع .

ان ميل المؤرخين في الصور الوسطى تجاه استخلاص الدروس  
الأخلاقية أثار مشكلة الموضوعية . فالى أي مدى استطاع المؤرخ الذي

انزعم باستخلاص الدروس الأخلاقية كان صادقا ، وموضوعيا ، وغير متميز من الباحة الصلية ؟ ان هؤلاء المؤرخين السبعة لم يسلّموا بوجود أى مشكلة . قد كانوا يستغفون أن المسؤولية الوحيدة للملقة على عاتق المؤرخ هي العمل على ذكر الحقيقة ، وفيما على ما يؤكد هذه الآراء . إذ يذكر بروكوبوس أن « الحقيقة دون غيرها صانعة للتاريخ » . ثم أعلن بيده تأييده لهذا القول .

وبى خطاب أوتو الفريرجي الى رئيسه Raimond ، مستشار فريدريك الأول برونوسا ، اعترف بأمرألة المؤرخين للكتابة التي سر رجال السلطة أمر له اغراء كبير ، بيد أنه صرح قائلا : « انه لى الاتصال أن يحرم المؤرخ من حرية الشخصيه عن أن يخل عن مهمه المؤرخ بأبحاثه المشاهد التأويخية الكريسة بتقديم الفرائع التي تخفى الحقيقة » . أما فرواسار فقد اضجر غضبا ، علما اقترح عليه أحد الأفراد أن يحرف من كتابة حويلانه ارضاء لاحدى الشخصيات المهمة - أما الطبرى فلم ير من مسئوليته سوى أن ينقل بكل أمانة وحرف ما كتبه من سقوطه . وعلى الرغم من مقدرة ابن خلدون على أن يكون مع الجانب الفائق ، من كثير من التصورات السياسية الى واحده ، فانه يستوفى القارى كمؤرخ أمين ومدقق ، من معالجهته للماضى . أما عن أكثر المؤرخين ميلا الى استخلاص الدروس الأخلاقية - فهو حتى الباريسى ، فلدنيا نصيحته الى الكتاب بضرورة الالتزام بالصدق ، حتى لو أغضب ذلك الآخرين ، وإذا ما دونوا مادة تاريخية غير صحيحة ، قلن يصموا برضى الله عليهم » .

ويصف عامة أصر المؤرخون السبعة على إبلاغ القارى عن مصادرهم التي استعوا منها مادتهم التأويخية ، كأنهم يقدمون الدليل على إيمانهم بتصريحاتهم عن أنهم يكتبون بكل صدق . وكان يفسد أكثرهم تفصيلا من هذا المجال . ويقرر بروكوبوس في مقبسته ما كتبه « عن الحروب » أنه كان شاهد عيان لما كتبه ، وهو ما يعتبره دليلا كافيا على صحة ما كتب . أما الطبرى فقد اعتاد الاستشهاد بمصادره . وقام أوبو الفريرجي بوصف قائمة لأعلام المؤرخين المسلمين ، وللمؤرخين للمسلمين له ، الذين يبادل الرأي معهم . واعتمد حتى الباريسى على الإشارة الى المصادر التي أمعته بالمطلومة التي تحت يديه وعلى سبيل المثال - خطاب من فريدريك الثانى Frederick II الى هنرى الثالث Henry III ، أو زائر قادم من سوريا ويضم كتابه « كتاب الإضافات Liber Additionum » عن إدراكه العميق لقيمة الوثائق . ويبدو فى ملاحظات عديدة أنه يرغب فى أن يبعد الشكوك عند القارى بالتاكيد له . انه استقى معلوماته عن أى حادثة معينة من كلا الجانبين ، وعلاوة

على ذلك وجوده في اجلثرا لمدة خمس مستويات بالإضافة الى معرفته الشخصية للوثق فرنسا ، كل ذلك يمكنه من أن يكتب دراسة صادقة عن الحروب ، التي نشبت بين ملوك البلدين ، على أن ابن خلدون هو الوحيد ، الذي احدى اهتماما قليلا يذكر المصادر ، وهو الشيء الواضح بجلال ، في مقدمته ، لأنها قائمة على التحليل للشخصيات الى حد كبير ، وفي تاريخه العالمي ، فإن تناوله للتاريخ العربي باستثناء أسبانيا ، يوحى بما بأنه لم تتوفر لديه من المصادر سوى القليل ، أو أنه لم يبدل جهودا كبيرة بشية الحصول على مصادر أفضل .

كان حتى البيروني أكثر من غير عن اهتمام المصور الوسطى العربي بالظواهر الطبيعية ، وشأركه كتاب المصور الوسطى في هذا المجال ، عندما كانوا يمزجون أشبه تلك الظواهر الطبيعية انذارا للرعب ، والذعر ، والحروب ، والدمار ، الى غضب الله ، وعندما كانت الحيوانات المريية هي موضوع الظاهرة الطبيعية ، وكان من النادر مشاهدتها ، فلقد أثار اهتمام انسان المصور الوسطى ، عدم توافر معلومات عنها ، على أن ظهور تلك الحيوانات الغريبة يمكن أن يكون نادر شر أيضا ، وبسبابة تكون موضع اهتمام ، وعلى مثال ذلك العيل الذي قال عنه حتى البيروني ، أن لويس التاسع أهداه الى هري الثالث ، وشعر كل من شاهده من الاضطراب بدعشة لضخامة حجم ذلك القيل (٧) ، بيد أن ذلك كان هو كل ما حدث ، ومع ذلك فإن أي شيء غير عادي على نحو مرعج كان كلفيا لدفع المشر على التفكير ، بل أن بروكوبيوس المؤرخ الغير اكديكي من بين المؤرخين المسيحيين ربط بين دلالة التنبؤ بالمستقبل ، وبين مولد طفل له رأس في مدينة الرما Edessa عند ذلك أعلن بروكوبيوس مؤكدا أن هذا الحدث يسمى بحفوت قتال بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على أراضي الرما ، وفي « الجرة الأكبر من شمال حدود الامبراطورية الرومانية » .

على أن ما يحده الفاري في العصر الحديث أكثر إثارة لعنصر التشويق في حويلات المصور الوسطى عن ملاحظة الظواهر الطبيعية ، هو رغبة كتاب تلك الحويلات ، في ذكر القصص الخيالية ، والنادر المسلية ، انها عادة مارسها الكتاب القدامى ، وكذلك مار بروكوبيوس على بهج هيرودوت ، عندما سرد قصة الطفل الذي حملته عذرة على ظهرها ، كحديث عرسي لا علاقة له بالموضوع الأصلي عندما يصف الحرب في إيطاليا بين الرومان والقوط ، واعتاد اسمه على نسج قصص من بنات أفكاره ، في كتاباته التاريخية ، كما ظهر عند اعتناق نورلومبريا Northumbria للمسيحية ، عندما ذكر أنه أجبر كوطي Offa ، ومستشاري الملك ادوين Edwin على تحديد موافقهم .

وعلى الرغم من أن الطبرى يكتب في إطار المصادر التي ذكرها ، فإنه لابد أن يكون صحيحا ، لأنه أورد ذكر الحادثة العرضية المتعلقة بالعصاة وحفر . وكان لدى اوتو الفريونجي ، أمل من أن يجد قرائن الثمة ، والنظرة الاخلاقية في قصة بيريلوس *Pertelus* والشور التحاسي . أما عنى الباريسي فقد تحدث عن مقتل ابن ميو وليوليس . *Llewelyn* ، الذى سقط من برج ، وقال أن الفتى صعد جبلا من معارض السير . ومائة للعظام ، والسنائر التى وجدها فى مسكنه ، ثم سقط رأسا على عقب عندما تقطع الحبل - وكان رجلا بديا - مرتطبا بالأرض بصف شديد لبوابة أن رأسه وعفته . غاصبا فى صدره بين كفيه ، ( ٨ ) . أما فرواسار فقد ذكر بواند لا حصر لها ، ومن بينها الطريقة البارعة التى سلكها بيريرانت ذو حيووسكيلين *Bertrand du Guesclin* للحصول على حريته : ويرى عن الأمير الأسود أن الناس ردحوا أنه كان حائفا من شخص اسمه ولذلك لم يسمح له بفتح القيدية . بل أن العلامة ابن خلدون ، الذى لم يكن يهتم بذكر البواند والحكايات الا قليلا ، أورد بعضها فى مقصده ، عندما أراد أن يوضح إحدى النقاط - فحكى ابن خلدون أن أحد أبناء البوران عاش عند الصفر فى سحر ، ولذلك فإنه لم يكن يتصور أن يحصل الكسب عن الفتران . التى كانت تعيش معه فى نزائه ، إذ كانت الحيوانات الوحيدة ، من ذوات الأربع المعروفة له .

واعتماد المؤرخون فى العصور الوسطى على جعل الشخصيات البارزة تلقى الخطب ، أو بحرى المعادلات مع من حولهم وذلك استمرازا لمادة الكتاب الفيلسوفى هذا من ناحية ، وعلى أمل جذب انتباه قرائهم من ناحية ثانية . ولجا كل من بروكوسوس مؤرخ القرن السادس ، وفرواسار مؤرخ العصور الوسطى المتأخرة الى ممارسة تلك العادة الثمينة كثيرا . ونظرا لأن الطبرى قام بدور المسجل للوثائق فى المقام الأول ، لذلك لا نجد سوى القليل من الخطب فى أعماله . على الرغم من أنه جعل شخصياته تسمد الروايات بصير الفاعل ، فى عدة حالات . وهناك مثال على ذلك فى حالة كاتبه كبرى الذى تجلور حده عندما لفت انتباه ملكه الى أهمية احترام سلطته الرسمية -

وإذا ما اذهب القارى الحديث لوجود خطب ، ومعادلات - وبواند صلية ، ودروس اخلاقية ، ومعشرات فى كتابات المؤرخين فى العصور الوسطى فسيبحث عن عدم وجود شئ له طبيعة اقتصادية أو اجتماعية - فاعتبر المؤرخون فى العصور الوسطى أن مهاتهم انتهت بتوفير المعلومات السياسية أو الدينية المهمة . باستثناء ابن خلدون العالم المدبل ويمكن ارجاع وصف الظواهر الطبيعية الى أنها تحمل بعض الأهمية التنبؤية

ولم يجد المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون سوى شذرات من المعلومات في صفحات حوليات العصور الوسطى ، مثل اببائي الذين دعاهم بيتهم إلى الحضور في دير وير ماوث **Wearmouth** ، من بلاد المال ، أو تمن الخير في إنجلترا في عهد متى الباريسي ، أو عن الأسلحة التي استخدمها المحاربون على عهد مرواسار . وكان المؤرخون في العصور الوسطى أقل تمسكاً مع متطلبات العصر في هذه الناحية . ومع ذلك فقد ظل قراءهم يتوقعون منهم تقديم معلومات عن الحروب ، وعن الشعوب القريبة خلف الحدود التي صارت مصدر تهديد ، أكثر من الأبناء عن الشخصيات المسيحية والكلمية . وكان من الأفضل أن يضم كتاب الحوليات في العصور الوسطى كتاباتهم بالحلة والحيوة واليهمة ، وذلك بذكر القصص المسلية . على أية حال فإن نوعية المعلومات التي يتنى المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون ، في العصر الحديث دراساتهم عليها ، لم تظهر إلا في عصر متأخر .



## بروكوبيوس

• كان هذا الرجل شريفا ويمكن تحريضه لفصل الشر بسهولة . فهو من النوع الذى يطلق عليه مازق من التفصيله ... ويبدو ان الله نزع كل النقاص من صائر الجنس الشرى وجمعها فى نفس هذا الرجل . (١٦) هكذا كتب بروكوبيوس عن جوستنيان الشهير ، الذى حكم الامبراطورية البيزنطية ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) . ويظهر بحامل بروكوبيوس الشديد من اصوله ، بكل وضوح ، للقراء الذين لم يسبقوا عن جوستنيان ولماذا . حينئذ ، يعتبر بروكوبيوس المؤرخ الأول للامبراطورية البيزنطية وأقدم مؤرخ يونانى بمد بوليبيوس Polybius ( ت حوالى ١١٨ ق ٠ م ) .

ان الاجابة عن هذا السؤال فى عصرنا الحالى أكثر مسجوبة من الاجابة من جيل مضى فتمت مستويات قلائل مال الباحثون الى عدم الاعتراف بأن بروكوبيوس هو مؤلف كتاب التاريخ السرى ، الذى ورد فيه التنس الأول فى الفترة السابقة بسبب تطرفه الشديد فى الأسلوب . وكانوا قد نفروا بأنه لا يمكن أن يكون الرجل الذى كتب هذا الكتاب الراخر بالقصف والافتراء هو نفس الرجل الذى كتب المجلدات التسلمعة عن الحروب . غير أن الباحثين على أيلعنا وافقوا على أن بروكوبيوس هو كاتب ومؤلف الحروب وكذلك التاريخ السرى . ويحتل بروكوبيوس مكانة سامية بطرا لروعة مجلداته عن الحروب وهى التى حققت له سمعة عالية ، برغم السمة المريبة التى اتصف بها كتابه عن التاريخ السرى .

ولد بروكوبيوس حوالى سنة ٥٠٠ م فى قيصرية عاصمة فلسطين . وأما عن المكان الذى تلقى فيه تعليمه فهى مسألة تتوقف على الشخصين ،

برغم أن جزءاً من تعليمه ، من المحتمل أنه تلقاه في القسطنطينية - ويبدو  
أيضاً أنه أعد نفسه لكي يكون رجل قانون أو ليشتغل إحدى الوظائف  
الإدارية - وتكشف كتاباته عن لمام كبير بالآداب الإغريقية القديمة - وتعلم  
اللغة اللاتينية أيضاً لأن رجل القانون لا يمكنه الاستغناء عن هذه اللغة  
في أي مكان بالإمبراطورية - ويستطيع المرء أن يستخلص من آرائه التي  
افصح عنها في كتاباته بين الغيبة والغيبة أنه يسمي إلى الطبقة  
الإستقراطية السناطورية المحلية التي كانت أكثر العناصر محافظة على  
التقاليد ومقاومة للتغيير في المجتمع البيزنطي .

ولابد أن بروكوبيوس كان عظاماً ناشئاً في أواخر العشرينيات أو  
أوائل الثلاثينيات عندما لفت انتباه البلاط الإمبراطوري إليه - لأنه في  
تلك الفترة تم تعيينه سكرتيراً ومستشاراً قانونياً ليليزاريوس القائد  
الشاب المقترن ، الذي عهد إليه جوستينيان بقيادة الجيش البيزنطي في  
الشرق في مواجهة العرس الساساني - إذ كان سكان غرب آسيا يتحدثون  
اللغة الآرامية بجانب اللغة اليونانية ، ولابد أن يمكنه من عدة لغات كان  
مظهراً جيداً . بالتقدير إذ أثنى عليه الباحثون لمعرفة الفصحى البسيطة من  
الآرامية ، والعبرية ، والقوطية ، والسلاوية ، والفارسية .

وفي سنة ٥٢٧ م - وهي السنة التي تم فيها تعيينه سكرتيراً  
ليليزاريوس ، ذهب بروكوبيوس في مهمة القائد في حملاته في سوريا  
وبلاد ما بين النهرين . وبعد ذلك بست سنوات ذهب بروكوبيوس مع  
يليزاريوس إلى أفريقيا في حملة ناجحة وقصيرة ضد الوندال . وفي سنة  
٥٣٦ م عبر بروكوبيوس البحر إلى إيطاليا حيث انضم إلى يليراريوس  
لقضاء سنوات من أطول وأقسى سنين الحرب في شبه الجزيرة الإيطالية .  
ولم يقتصر دور بروكوبيوس على ملازمة القائد وأما بول مهاماً أسندها  
ليليزاريوس إليه ويؤكد بروكوبيوس للقارىء أنه أنجزها كلها بكل نجاح .  
وفي إحدى المناسبات اقترح على يليزاريوس إجراء مناورة حربية قام  
القائد بتنفيذها (٢) .

وعاد بروكوبيوس إلى القسطنطينية بعد الاستيلاء على روما سنة  
٥٤٠ م . ويبدو أنه كان شاهداً عياناً للوباء الرهيب الذي تاحم المدينة  
سنة ٥٤٢ م - وبعد تلك المرحلة اكتنف الضوضى تحركاته . ويمكن للمرء  
أن يفترض أن القرار الإمبراطوري المتعلق بعزل يليزاريوس عن منصبه  
سنة ٥٤٢ م ، شمل بروكوبيوس أيضاً - وربما قطع بروكوبيوس علاقاته  
مع يليراريوس ببعض اختياره لأن مطالبة التاريخ السري ترك الانطباع  
بتعرض رأيه في القائد إلى تغير جوهرى في ذلك الحين .

على أن الأمر الذي لا ريب فيه هو اتخاذ بروكوبيوس القسطنطينية  
 قفرا دائما له ببقية حياته . ومن المرجح أن بروكوبيوس ظل يتم ببطء  
 جوستينيان رغم تعرض الأخير للتنشيط اللادع على يد الأول في كتاب  
 التاريخ السرى . وفي مقالة كتاب بروكوبيوس الذي كان عن الاشدات  
 المصارية الضخمة كتب يقول : « إن الشعوب التي أطلتها رعاية الامبراطور  
 قد عسروا عن عرفاتهم بالجميل بجلاء ولي تمتهم » (٢) ، وهي فترة تم  
 تفسيرها على أساس أنها تشير الى الكاتب نفسه . وإذا كان الأمر كذلك ،  
 فإن هذا التفسير يؤكد قيام جوستينيان بمنع بروكوبيوس لقب اللامع  
 أو الشهير أو النبيل *illustre* سنة ٥٦٠ م ، وقد مكّن هذا اللقب  
 بروكوبيوس من الانضمام الى الطبقة الأرستقراطية ، وفتح له فرصة  
 الحصول على منصب إداري مهم . ويعتقد بعض الكتاب أن بروكوبيوس  
 هو الذي ورد ذكره كوال للقسطنطينية سنة ٥٦٢ م رغم أن هذا قد يكون  
 مجرد تخمين . أما لا يعرف شيئا عن سنواته الأخيرة . وربما مات بعد  
 سنة ٥٦٠ م بوقت قصير ، نحو سنة ٥٦٥ م .

وتتكون مؤلفات بروكوبيوس من كتب عن الحروب ، والتاريخ السرى  
 والانجازات المصارية الضخمة وهي مجموعة في خمسة مجلدات في طبعة  
*Loeb Classical Library* - وأثيرت حلالات كثيرة حول تحديد تواريخ  
 كتابة أعمال هذا المؤرخ . وكان كتاب التاريخ السرى هو المنسوب في  
 حدوث هذه المشكلة بأكملها الى حد كبير . ولولا ظهور كتاب التاريخ  
 السرى المنسم بالافتراء والتنشيط لكانت مسألة تحديد مواعيد ظهور أعمال  
 بروكوبيوس عن الحروب وعن الانجازات المصارية الضخمة . مسألة  
 لا تشكل أدبي مشكلة أو أهمية ، ونظرا لأن بروكوبيوس هو مؤلف كتاب  
 التاريخ السرى ، فإن بعض الباحثين مالوا الى اظهار النقد المتحيز ، الموجّه  
 للامبراطور جوستينيان ، من بين سطور مجلدات بروكوبيوس عن الحروب ،  
 ويفترض أن هذا المؤرخ كان منهمكا في تأليف كتبه عن الحروب وكذلك  
 التاريخ السرى في الوقت نفسه (٣) .

ظهرت الكتب السبعة الأولى عن الحروب حوالي سنة ٥٥٠ م ، أما  
 الكتاب الثامن فقد ظهر بعد سنة ٥٥٤ م بقليل . أما الكتاب الحامن  
 بالانجازات المصارية الضخمة فقد أصبح تحديد سنة ٥٦٠ م كتاريخ  
 قصده مبعثه أسرا في حكم المنفق عليه . ونظرا لأن المسالم لم  
 يكن على معرفه بوجود كتاب التاريخ السرى قبل تدوينه ضمن دائرة  
 المعارف البيزنطية في القرن العاشر الميلادي ، والمعروفة باسم *Suidas*  
 ، فلم يكن لدى الباحثين مشكلة نشر مرسومه للمضايقة .  
 بيد أن هؤلاء الباحثين اختلفوا حول تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب .

واحد الأدلة المشيرة لذلك هو الرصلة التي أُنشِأ فيها بروكوبيوس إلى أن جوستينيان ظل يدير دفة الأمور بالامبراطورية لمدة اثنتي عشرة عامًا . ونظرا لأن الامبراطور ينفذ حكم الامبراطورية بصفة رسمية سنة ٥٢٧ م ، فإن فترة اثنتي عشرة عامًا تشير إلى أن فترة إعداد كتاب التاريخ السري كانت ما بين ٥٥٨ - ٥٥٩ م . ويسيل الباحثون بصمة عامه إلى تحديد سنة ٥٥٠ م على اعتبار أن بروكوبيوس أسقط جوستين ، خلال جوستينيان من حساباته ، والذي كان قد حكم ( ٥١٨ - ٥٢٧ م ) ، باعتبار أنه كان مجرد امبراطور صوري ، في الوقت الذي كان فيه جوستينيان يحكم الامبراطورية من الناحية العملية .

واحتوت كتب بروكوبيوس عن الحروب ، على كل الصراعات الحربية ضد الغرس الساسانيين وصد الوندال في ليبيا ، وضد القوط الغربيين في إيطاليا . وحاول بروكوبيوس تقديم تحليل على أنه كان شاهد عيان للأحداث ، وأنه كان أمسا في صرحها ، ودققا في وصفه للحملات والمعارك الحربية ومن ناحيته أخرى ، فإنه اتبع مواقف مختلفة في كتيبه عن الاتجار المصارية المصححة ، وعن التاريخ السري . ففي كتابه عن الاتجار المصارية المصححة كان بروكوبيوس مفرطاً في التثنية والممدح للامبراطور جوستينيان ، أما في كتابه عن التاريخ السري ، فإنه كان أشد الناس عداوة له وحقدًا . بما كتيبه من فحش وهجاء لم يسبق له مثيل .

ويجد القارئ في الوقت الحاضر ، والذي يهتق قذرا بالدعاية ، حتى لو كانت في أبسط صورها ، أن كتاب بروكوبيوس الخاص بالانجازات المصارية المصححة ، لا يستحق الاهتمام ، وأن هذا اللون من الدعاية غير مقبول . بيد أنه إذا كان بروكوبيوس معاصرو قد قبلوا ما استواء هذا الكتاب من اطراء على مستوى الأسجاع الأدبي الرفيع ، فإنه احتوى على معلومات قيمة في الوقت نفسه أيضا ، ففي سبيل المثال ، يوجد في ذلك الكتاب معلومات يقينية ولا ريب فيها عن الانتماءات المصارية التي تمت في عصر جوستينيان تفوق المعلومات عن أي عهد قبل القرن الثاني عشر . ويعدنا الكتاب بقدر هائل من المعرفة عن الكنائس ، والخصائص ، وتوزعات المياه ، ويأبى المياه المدية ، وصوامع الشلال التي أقامها جوستينيان أو أمر بإصلاحها وترميمها . وفيما على الوصف الشعري لكنيسة أيا سوفيا Hagia Sophia من الداخل ، وهي الكنيسة المصححة بقيتها الرائعة التي ما زالت أعلى المباني في مدينة استانبول . . . يظن البعض بالخاص كل صممت القبة ، مصيفا روعة لحملاتها ، ويحل الضوء المنعكس على الأحجار على زيادة لمعان الذهب . ويداخل الكنيسة عمودان من الأعمدة المقنطرة ملتصقان ببنيان الكنيسة ، ويوحيان للرائي زيادة

حرض وطول وارتفاع الكنيسة - ولهذه الأعمدة سفوف مسقوفة ومزينة بالذهب - وبالكنيسة مكان مخصص للرجال لتأدية الصلوات ، وأخر للنساء للفرس معه - وإن كان لا يوجد هناك ما يميز أحدهما عن الآخر ، كما لا يوجد خلاف بين المكائين - وإنما عملا على روعة الكنيسة وبهجتها - ولكن من ذا الذي من استغلاته وصف القاعات التي بالجانب المخصص للنساء على نحو دقيق ، أو أن يحصر عدد الأعمدة الكثيرة والطرق المزودة بالأعمدة والتي تحيط بالكنيسة ؟ أو من ذا الذي يستطيع أن يتحدث عن جمال الأعمدة والأحجار التي تزين الكنيسة ؟ وللمرء أن يتصور أنه قد شاهد روضة بها أزهار متفتحة - وبكل تأكيد سيصاب المرء بالدهشة عند مشاهدته الألوان الأرجوانية ، والحمراء ، والقرمزية التي تتألق ، والبيضاء الناصبة اليباس ، وسيختلط عليه الأمر من شدة تباين الألوان ، وكلما دخل أى فرد تلك الكنيسة للصلاة أدرك على الفور أن ما شاهده ليس من صنع بشر ، وإنما من صنع الله ، وأن هذا العمل قد أحس صنعا - وغلفا يتجلى المرء يقلبه إلى الله ، ويعتمد - يشعر بوجود الله الذي رغب عن هذا المكان ، واختاره لمادته - على أن هذا الشعور يتكرر في كل مرة لم يقد له أن يزور تلك الكنيسة عدة مرات ، وكأنه يزورها للمرة الأولى - والواقع أن المناظر التي تتلك الكنيسة تجعل المرء يشعر بأنه قد شاهد مالا عي رأت ولا أذى سمعت من قبل ، ولذلك يشعر الناس بالبهجة الجارمة ، وهم في داخلها ، وغلفا ينادروها يتجشئون عنها بكل الفبطة والجور - وبالإضافة إلى ذلك ففيا يتطلو بكنوز هذه الكنيسة - الأواني المصنوعة من الذهب والفضة وكل الأشياء الملمعة بالأحجار الكريمة والتي أهلها الإمبراطور جوستيان للكنيسة - فانه من المستحيل تقديم وصف دقيق لها جميعا - بد أمي سأتبع للقراء تكوين رأى من خلال مثال واحد محسوب - وهو أن المحراب الداخلي ، الذي لا يدخله سوى القساوسة ، قد استوى على زخارف من الفضة بلغ وزنها أربعة آلاف رطل ، (5)

وإذا كان بروكوبيوس قد استهدف من كتاب التاريخ المرى محاولة تصحيح ما ورد في كتبه عن الحروب من معلومات تاريخية ، على حد قوله ، إلا أنه من النادر أن التزم بذلك الهدف : فالكتاب لا يحتوى على شئ أكثر من محاولة متممة للتأليف إلى سمعة جوستيان وزوجته ثيودورا ، وبليزاريوس وزوجته انطونينا *Antonia* وخلع بروكوبيوس على كل من جوستيان وثيودورا ، وانطونينا قدرات شيطانية ، إذا لم يكن قد ادعى أنهم كانوا حقيقة شياطين .

أما بالنسبة إلى بليزاريوس فقد نعت بروكوبيوس بممارسة دور ديوث حقر - ونظرا للبيون القاسم بين الصور التي رسمها بروكوبيوس

من تلك الشخصيات الأربع في كتيبه عن الحروب ، والصور التي قسها  
عنه في كتاب التاريخ السرى ، فقد مال الكثير من الباحثين الى الشك  
في اعتبار بروكوبوس مؤلفا لكتاب التاريخ السرى .

وفيما يتعلق بمصادر معلومات بروكوبوس التي اوردتها في كتيبه  
عن الحروب ، وعن الانجازات العسكرية الضخمة ، وعن التاريخ السرى .  
كان هذا المؤرخ ملتزما بكتابة كل ما هو معروف مثلما فعل أسلافه القدماء  
الذين سار على هذاهم في في الكتابة التاريخية . على ان البيان الوحيد  
والصريح الذي تركه لنا بروكوبوس بخصوص ذلك هو مقدمته في كتيبه  
عن الحروب . فيعد ان كتب كتيبه عن هذه من تأليف ذلك الكتاب صرح  
قاتلا : « وبالإضافة الى ذلك فإنه كانت لديه التسامح بالقصور . أكثر  
من غيره ، على الكتابة في تلك الأحداث لأن قصره شاء له أن يعنى مستشارا  
للقياد مليرابوس ، فكان بذلك شامدا ضمان لكل الأحداث من الناحية  
الواقعية مما يمكنه من الكتابة عنها » . (٦)

ومن المؤكد تقريبا أن بروكوبوس حصل على حق الاطلاع على  
السجلات التاريخية الخاصة بالامبراطورية عند اعداده كتابه الذي نعت  
فيه عن الانجازات العسكرية الضخمة . فالوصف الذي قدمه بروكوبوس  
للانشاءات المدهشة ، والمتنوعة والتي ليس من اليسر حصرها بسهولة  
يجعل هذا الاستنتاج امرا لا بد من التسليم به . واذا كان جوستيان قد  
عهد بالفعل الى بروكوبوس باعداد هذا الكتاب ، كما يعتمد بعض  
الباحثين ، فلا شك أنه استطاع الاعتماد على الحكومة في تزويده بهذه  
المعلومات . أما قسما يتعلق بالمصادر الخاصة بالتعداد المشية والتفاسيل  
التي تدرى القصر والتي تسمى نبودورا ، روجة حوسنيان ، وانطونينا زوجة  
بليزاريوس ، والتي اثار بها بروكوبوس كل قارئ لكتاب التاريخ  
السرى ، فيستطيع المرء الافتراض بأن مصدرها هو مروجى الشائعات  
الذين كانوا على استعداد لمرض سميتهم لكل من يرغب في الحصول  
عليها . نظرا لقربهم دائما من ملأ القصر وبالإضافة الى ذلك فقد أدى  
خيال بروكوبوس والسوداوى الى الصالح انطع الأسباب والدوافع المكنة  
الى الشخصيات التي عمل بكل جهده على القضاء عليها . ويظهر أقوى  
دليل على أنه درس قواعد علم البلاغة في التكرار الذي قدمه على لسان  
شخصياته في الخطب وفي الجمل المدهشة . وهناك دليل آخر على  
استخدامه الأساليب البلاغة في ذلك الوقت وهو اقتيابه لأساليب البيان  
والجواز التي ذكرها أباء دله في الصور القديمة . من أمثال هيرودوت  
Herodotus وتيركديس Thucydides وبعض تلك الأساليب كان  
مناسبا لمصر بروكوبوس . أما البعض الآخر فكان من الأفضل تركه  
لصوره القديمة . فقد يستمتع المرء بالقول المأثور الذي قاله هيرودوس

**Homero** : « ان كل شيء قدومه الالهة بعد » . وعندهما كتب بروكوبيوس ان حنا القبطي التميم والوعد قال : « ان الله شاء لهذه الامور ان تحدث » (٧) عما ربما يشعر القارىء بشيء من عدم الارباج .

وسيجد الباحث الحريص على معرفة اللواضع التي حدثت بروكوبيوس الى كتابه عن الحروب ، وعن الانطباعات المعمارية الفصحى . وعن التاريخ السرى ، أنه كانت لديه شخصية قادرة على التكيف وفقا للواقف - ففي بداية كل كتاب اوضح بروكوبيوس عن حافزه للكتابة . فحينما يتعلق بكتابة عن الحروب كتب يقول : « لكى لا يدفع مرور الوقت الأعمال التي لها أهمية الى ان تصبح أعمالا مغمورة نظرا لعدم وجود سجل رسمي يتضمن ذكرها ، وبذلك يرسخها الى النسيان وعدم الذكر كليه » . لذلك اعتمد بروكوبيوس ان العمل على احياء ذكرى تلك الأحداث عمل عظيم ، ومفيد للغاية لأهل عصره ، وللأجيال القادمة أيضا ، لذا ما أحسرتهم الأيام على التمرض لموقف صحيح مشابه .

ووضح بروكوبيوس في اعباراه الظروف التي دعمت الناس الى شن الحروب . ولذلك ذكر الكثير منها في كتبه عن الحروب ، بعد ان وجد الناس ان الحرب تحقق مصالحهم - « فقد يستطيع الناس الذين يعقلون العزم على بدء حرب او الاستعداد لأي نوع من الصراع ان يحتوا بعض الفوائد من قصة موقف مشابه في التاريخ ، بعد ما تكتشفه هذه القصة على ضوء ما أحده من سقوطهم من نتائج نهائية ، كما أنها تشير الى مدى ما يمكن أن تنخص به الأحداث بالنسبة لأولئك الذين يتعنون بعد النظر » (٨)

ولم يفسح بروكوبيوس بوضوح عن الدرس الجدير بالذكر الذي استخلصه الناس الذين عملوا العزم على التحول في الحرب ، من التاريخ . ورغم أن هذا صار واضحا في النهاية . اد لا شك أنه ترك انطباعا في فكر القارىء أن الحرب شر . وبالإضافة الى تعلم هذا الدرس فحقق التاريخ أهدافا أخرى . وأدرك بروكوبيوس ادراكا كاملا أهمية عنصر التشويق الذي يمكن أن تحققه دراسة الحروب . ولهذا السبب يعلن بروكوبيوس بكل إصرار أن الحروب السابقة « لم تشهد أعمالا أكثر أهمية لو أكثر دراسة عبر التاريخ مثلما حدث في الحروب التي سرت في عهدنا ... ذلك لكثرة ما بها من أعمال بطولية فذة ، جديرة بالإشادة بها على نحو يفوق ما حدث في أي حرب من الحروب السابقة التي علمنا بتفاصيلها » (٩) .

ويقدم بروكوبيوس الدليل القوي ، في مقدمة كتابه عن الانجازات المعمارية الفصحى . على أهمية كتابة التاريخ لما يحفظه من عبرة تتعلق

بالفضيلة والرذيلة • وقال انه من الواجب على الاجيال القادمة ان تتلمذ  
بالاعمال الفاضلة ، وتجنب الأعمال الشريرة ، ثم قال متعجبا : « ما اكثر  
العوائد التي من الممكن أن تحققها الدول من دراسة التاريخ ! وما أعظمها !  
ان التاريخ ينقل الى الاجيال التالية ذكرى الذين رحلوا ، ويقف يثبات  
ضد عوامل التسيان • ويحضر الذين يظلمون عليه من حين الى آخر ، على  
الفضيلة ، يعضل التفاء الذي يطرحه عليها ويهاجم التاريخ الرذيلة  
باستمرار بالعمل على تجنب الوقوع تحت سيطرتها • وهكذا يجب أن  
يكون ذلك هو اهتماما الكلي - فكل أعمال الماضي ستوضح بجلال • مع  
ذكر ماعليها • أيا كانت شخصيته » (١٠) •

وكان هدف بروكوبيوس من كتابه التاريخ السرى أن يقدم سجل  
مفصلا يتضمن معلومات مؤدية تتعلق برجال وسماه في مواقع السلطة ،  
لأنه لم تكن لديه الجرأة على ذكر تلك المعلومات في كتبه عن الحروب •  
ويفسر بروكوبيوس عدم ميكنة من ذكرها في كتبه عن الحروب قائلا :  
« طالما ظل الفاعلون على قيد الحياة .... لأنه لم يكن من الممكن مزاوعة  
يقظة حشد الجواسيس الضخم ، أو الهجاة من موت في أبشع الصور  
في حالة الضبط - في حالة تلبس ... لذلك من المحتم أن اكتشف الستار  
عن الأعمال التي ظلت حتى اليوم في على الكتان • بل وفي أذكر أسباب  
تلك الأحداث التي وصفتها من قبل » (١١) •

ويترف بروكوبيوس بأن ما يكتبه في كتاب التاريخ السرى « حبيبو  
للانسان في جيل لاحق انه انباء لا يمكن تصديقها أو ممكن حدوثها » •  
وكان بروكوبيوس قد تردد في اماطة اللثام عن الأعمال الاجرامية التي  
اقتربها الحكام في عهده خشية أن يقلبهم أصحاب الأفكار والوايا  
الشريرة • وأخيرا قرر بروكوبيوس ما مخالف ذلك ، « بطابع الاقتناع  
بأن تلك الأعمال الاجرامية مسكون واحدة تماما لكل من يتولى السلطة  
الملكية فيما بعد ، وإن المقاب سجل بهم بكل الاحتمالات أيضا ، بنفس  
القدر الذي صلوه مع هؤلاء الناس • وإن أفعالهم وشخصياتهم ستدون  
في سجل التاريخ للأجيال القادمة ونتيجة ذلك أنهم ربما سيكونون أكثر  
حذرا إذا ما حاولوا الميل الى الطفيل » (١٢) •

ان سمة التباين في كتابات بروكوبيوس تجعل من المحتم علينا أن  
ندرس كل كتابه من كتبه على حدة إذا ما أردنا تقييم مصداقية هذا  
الكورخ • ففي سبل المثال ، يستطيع المرء القول بأن كثيرا من مخالفات  
قواعد الصق تنضج في كتابه عن الانجازات المعاصرة الضخمة ، لأن  
هذا الكتاب كتبه بروكوبيوس بقصد الثناء على جوستينيان ، وتظهر صورة  
واضحة لابتعاد بروكوبيوس عن الحقيقة عند وصفه لبناء كنيسة أيا سونيا

**Hagia Sophia** إذ كتب أنه قبل أن توضع وكيزة أحد عقود البناء الكبرى في موضعها ، بنات الدعامات التي تركز عليها في أن تحتل بها شروحا ، ، لمسم قفرتها على حمل الكتلة التي تركز عليها ٠٠٠ عند ذلك أصاب الفرع كلا من **Antheion** وأيريدوروس **Ialeros** (١٣) ، نتيجة لما قد حدث ، وأبلغوا الإمبراطور بالموقف بعد أن خذلته مهارتهم الفنية ، وعلى ما اعتقد قبلهم من الله ( لأن الإمبراطور لم تكن لديه معرفة بعمليات البناء ) أمر جوستيان المهتمسين بأكمل بناء العقد إلى أن يصل إلى نهايته ، إذ قال لهم ، عندما يستقر العقد في موضعه فإن يحتاج إلى الدعامات التي من تحته ، ، وعلى ذلك فقد اليونانيون تعليمات الإمبراطور ، وظل العقد كله قائما في أماكن ، مؤكدا بالتجربة على صلفك فيه الفكرة ، (١٤) .

وفيما عدا تلك التصريحات التي حبلت سمة المديح والاطراء في كتب الاسعارات المعمارية القديمة والتي قبلها معاصروه دون اعتراض ، فليس هناك داع للشك في مدى دقة المعلومات التي أوردها بروكوبيوس المتعلقة بالكثاني والتحصينات التي أمر الإمبراطور جوستيان بإقامتها أو بنائها ، ونظرا لأن بروكوبيوس قضى بعض الوقت في كثير من الأماكن التي ذكرها في كتابه عن الاسعارات المعمارية الضخمة ، فمقاربه أن يغفل بشيء من الثمة الأوصاف التي ذكرها ، والمتعلقة بالطبوغرافيا والساح أيضا .

ولمقاربه أن يقبل نفس الوضوح فيما يتعلق بصداقية كتب بروكوبيوس عن الحروب إلى حد كبير ، وحرص بروكوبيوس على أن يؤكد لمقاربه في مقدمته أنه ، ، كان قادرا على كتابة تلك الأحداث التاريخية بأعيانه كان شاهد عيان لكل أحداثها من الساحة الواقعية ، ، وهي المسلة التالية تقريبا لحد بروكوبيوس المبدأ الأول عند المؤرخ ، ومعنى بذلك : ، أن الحقيقة دون غيرها هي الأمر الذي لابد أن يؤخذ به عند كتابة التاريخ ، ، وعلى الرغم من إصرار بعض الباحثين على وجود انتقادات غير مباشرة ضد الإمبراطور جوستيان في كتب بروكوبيوس عن الحروب ، فإن تلك المجلدات لها تأثير شديد على القارئ العادي باعتبارها من تأليف كاتب كان شاهدا عيان ، كل هذه تقديم رواية صادقة لكل ما حدث ، ومع ذلك توجد بعض الأخطاء في المجلدات الخاصة بالحروب ، وقليل منها لا يمكن أن يتوقع المرء حدوثها من كاتب على قدر عال من الثقافة مثل بروكوبيوس ، قبل مبعث المسال كتب أن أتيليا **Atilla** مات بعد **Attila** (١٥) ، وذكر أن أمستيلاد **Tonila** توتلا على الأعلام الرومانية : ، كان حدثا لم يشهده الرومان من قبله ، (١٦) .

وعلى ما يتوقع المرء من مؤرخ قديم ، فقد وقع بروكوبيوس في أخطاء جغرافية - إذ قال : « أن الأرض يحيطها محيط مستدير » - وكتب يقول : « سند المحيط حول الأرض إما كلية أو في معظم أجزائها ( لأن معلوماتنا ليست واضحة تماما عن هذا الموضوع ) ، وتنقسم الأرض الى قارتين بواسطة جريان ماء المحيط » ، وتشتمل مياه هذا المحيط الجزء الغربي وتكون هذا البحر الذي نعرفه ، والذي يبدأ من حاديرا *Gadira* ( قادش *Cadiz* ) ، وسند حتى بحيرة مايوسك *Maeotic Lake* ( بحر آزوف *Sea of Azov* ) ، ويطلق على القارة الأولى اسميا وتقع على يمين المرء الذي يسبح حتى بحر آزوف ، بعد أن يبدأ الانحياز من مضيق جبل طارق *The two Pillars of Heracles* أما القارة (المواجهة للاولى فمطلوب، عليها أوروبا ، (١٧) .

إن مسألة مصداقية ما ورد في التاريخ السري موضوع قائم بذاته والوحيد الذي حظي باهتمام شديد عند تقييم بروكوبيوس كـ مؤرخ - وإن كان بروكوبيوس قد وقع أن يترك هذا الكتاب في عقول قرائه شكوكا تتعلق بمدى صحة ما تحسه من معلومات - إذ كتب صحترا « أن ما أكتبه ليس صدقه حيل في المستقبل » بل ولن يقل أن من الممكن حدوثه ، (١٨) . ولما كان هناك اعتقاد بأن هذا الأسلوب المتطرف لا يمكن أن يصدر عن كاتب مسئول ، لذلك تردد الباحثون طويلا أمام الاعتراف به ككلمة أعمال بروكوبيوس - وإذا كان هناك قدر من الصحة فيما كتبه بروكوبيوس ، فإن التعريف الذي لا يعيله عقل ، والذي وقع فيه ، يجعل من الصعب التعرف على الشخصيات - فكما قال أحد الباحثين : « أن الصورة غير الملهمة ( عن ثيودورا ) لم تترك شيئا عن الفساد الذي يمكن أن نسلط إليه أشد النساء مجورا ، ولقد نجح المؤلف في الخط من قدر أدلته وبراهينه » ، والتي اعتقد أنه قنصها بكل ثقة ، بيد أنها ظهرت كأدلة واضحة نتيجة لشدة الباطلة فيها ، (١٩) .

ونجد أن بروكوبيوس هو المصدر الوحيد الذي يمكن للمرء الرجوع إليه لاستقراء المعلومات عن ثيودورا في فترة صباها ، وأنه تحدث عنها باعتبارها مشاة وترعرعت في محيط مبدل سباق العيل المملوء بالمساوي ، وكان ذلك بعد موت والدها الذي عمل حارسا للحبوانات في السرك - ولما كانت والدتها تعاني من ظروف مالية صعبة لذلك اضطرت الى إرسالها وسها اهتماما للفصل على خضبة السرج بمجرد السماح أعمارهم بذلك - « فلما عن كوستو *Comito* ، الابنة الكبرى ، فكانت قد حقت بحاجها لمرء بين بنات الهوى ، أما ثيودورا الابنة الوسطى ، فكانت ترتدي جلبابا له أكمام قصيرة يتناسب إحدى الجوارى ، وكانت تسير خلف أخته

الكبرى ، وتؤدي خدمات عديدة ، ويصفه حاصة كانت محل معاملة صغيرة على كتفها لتجلس عليه أثناء الكبرى في المجلات - ولما كانت ثيودورا لم تبلغ سن النضج بعد ، فانها كانت غير قادرة تماما على النوم مع رجل او ممارسة ما تقتضيه امرأه مع رجل ، ومع ذلك مارسست تلك العملية الجنسية كما يعمل الذكور من السفلة . والعبد الذين يتبعون ساداتهم الى المسرح ، حيث تتاح لهم الفرصة ، على نحو عرضي ، لممارسة هذه العملية الشاذة ، وكانت تقضى وقتا طويلا في مكان اللعارة تسبح جسدها على هذا النحو الشاذ . بيد انها ما أن وصلت الى سن النضج ، وصارت في كامل ابونها حتى انضمت الى مساء المسرح ولصيحت احسانه المحرفات » (٢٠) .

وكتب بروكوبيوس انه يقدر ما اردادت ثيودورا بصحا وحرية ، يقدر ما اردادت مسقا واصباحا في الشهوات ومع ذلك فقد صارت اذلة وبراهين بروكوبيوس غير منطقية لدرجة انها اذهبت من شعرة كونها مثيرة للسخرية وعلاوة على ذلك فان ما قلل من قدر صداقته بروكوبيوس في كتابه التاريخ السرى في جهوده في تصوير أبطوسا *Aspasina* . روحة بليزاريوس باعتبارها من نفس نوع النساء الفاسقات . ويبدو أن بروكوبيوس اعتقد ان لا شيء اكثر شاعة يمكن أن يقال عن امرأه من اثبات انها مصابة بالشيخوخة ، على الرغم من انه في حالتي ثيودورا وأبطوسا قد حاول اثبات أن حدة الرغبة الجنسية عندهما كانت أمرا متصلا لذهنها .

وعمل بروكوبيوس على تشويه سمعة جوستينيان تشويها كاملا في كتابه التاريخ السرى ، ووصفه بأنه ابسا للشيطان ولتقديم المزيد من امكانية ذلك . فقد ذكر بروكوبيوس أن والده جوستينيان شابهت ضد انها . إذ كتب بروكوبيوس يقول : « ويقال ان والده جوستينيان صرحه للمقربات اليها انه ليس ابا لزوجها ساباتيوس *Sabatinus* - او لاي رجل آخر . لانها عندما كانت على وشك أن تحبل به زاولها عفريت غير مظهر ، غير انه حرك مشاعرها على نحو ما يفعل الرجل مع المرأة ابان ممارسة العملية الجنسية ثم اختفى كما لو كان الأمر حلما » (٢١) .

واذا ما كان القارىء لديه الاستعداد على الاعتقاد بأن جوستينيان كان ابنا للشيطان ، فانه سيكون مستعدا لقول ما استمر بروكوبيوس يقوله عن الامبراطور :

« كان هذا الرجل شديرا ويمكن تحريضه لفعل الشر بسهولة ، فهو من النوع الذي يطلق عليه قاري عن العفلة . ولم يحتم على الإطلاق

أن تكلم بصدق ، وعلى طواعية مع من يبحث اليهم ، وإنما كانت لديه  
نوايا مضللة وماكره خلف كل كلمة وعمل - - وكان جوستينيان غير  
مخلص ، ومتظاهراً كذيباً بالتصيلة والدين ومضطرباً غصبه بعهده الخداع ،  
ومناقياً ، وذكياً ، ومخادعاً بكل معنى الكلمة ، في التعبير عن أي رأى  
يظهر بالاعتقاد به ، بل وكان قادراً على رعب السموع ، ليس من قبيل  
التعبير عن الفرح الشديد أو الحزن ، وإنما تميل تلك السموع على التور  
وفقاً للموقف ، وكان يتصرف دائماً على نحو يتم على الفقد والخداع ،  
ومع ذلك كان يصف توقعه وأغلق القسم للتأكيد على مواقفه على  
اتفاقاته ، وكل ذلك في معاملته مع رعاياه - بيد أنه كان ينكث بعهده  
واتفاقاته وبمسه على التور كما يفعل أحقر العبيد - - ولكن جوستينيان  
صديقاً متقلباً ، وعموا غير مهائدين ، وكان في غاية الخطش للاغتتيال  
والسلب والتهب ، ومولماً بالزراغ والحصام ، ومبتكراً مبتدعاً ، ومن السهل  
قيادته ليجيد عن الصراط المستقيم - بيد أنه لم يكن يأتري بتصبيحة تحمله  
فعل الخير - - وكيف يستطيع أي انسان أن يكون قادراً على وصف  
شخصية جوستينيان على نحو كاف ، تلك التناقض وأكثر منها اتصف بها  
جوستينيان بوضوح إلى حد جعلها لا تتفق مع الطبيعة البشرية - ويبدو أن  
لقد قد نزع كل التناقض عن سائر الجنس البشري وجعلها في نفس  
هذا الرجل ، (٢٧) .

وعلى الرغم من الاعتراف بالمبالغة القديمة في أسلوب كتاب التاريخ  
السري ، فإن بعض الباحثين يحاولون الدفاع عن معظم هذا الكتاب  
باعتباره حدير بالثقة على أساس عدم ظهور تناقض مباشر مع ما كتبه  
بروكوبيوس في كتبه عن الحروب (٢٢) - ولا ريب أن في ذلك مبالغة  
في الرأى .

فعل سبيل المثال نكتب بروكوبيوس في كتبه عن الحروب مقتل  
أمالاسونتا Amalasuntha ، ملكة الفوط الشرقيين في إيطاليا إلى بعض  
القوط من أقاربها ، الذين كانت قد أمرت باغتالهم (٢٤) - أما في كتابه  
عن التاريخ السري فقد أشار بكل وضوح إلى ثيودورا باعتصارها الحرم  
والحقيقى ، وأنها تأمرت على اغتيال أمالاسونتا خفية أن يفتتن بها زوجها  
جوستينيان السريع التأثير ، لشدة جلالها وحداية قوامها ! (٢٥) ، ويظهر  
جوستينيان محباً للسلام من حين إلى آخر في كتب بروكوبيوس عن  
الحروب (٢٦) - أما في كتاب التاريخ السري اتخذ جوستينيان موقف  
متبر الحرب العنيد الذي لن يتوقف إلا بعد أن يقضى على كل الجنس  
الشرى قضاه تلمأ (٢٧) - ويتحدث بروكوبيوس في كتابه عن الحروب

عن مسجدة تيودورا المملوكة والتي ، كانت تدعى دائما الى مسجدة  
السيدة المتبذوات ( المتحرفات ) ( ٢٨ ) . وعندما تحدث في كتاب التاريخ  
السري كيف قامت تيودورا بجمع تلك النسوة من شوارع القسطنطينية .  
واسكنتهن في بيت التوبة الذي شيده لهن على القسطنطينية . الآخر من  
اليسفور ، يجد أن بروكوبيوس يترك انطبعا عند القارئ بأنها لم تقل  
ذلك الا بدافع الحمق . ( ٢٩ ) . وبالإضافة الى المظاهر الواضحة لعدم الترابط  
بين كتبه عن الحروب وكتاب التاريخ السري فإن التناقض الصارخ يمكن  
في وصف بروكوبيوس لحوستانيا وبليراريوس ونيودورا ، وأنطونيا  
في كتبه عن الحروب كمشخصيات سوية تماما . أما في كتاب التاريخ  
السري فقد وصفهم بروكوبيوس بأنهم شياطين أو منبوذون حلقيا وأهم  
يتصرفون وفقا لذلك .

لقد ترك المؤرخون الاغريق القدامى من أمثال هرودوت وثوكيديد  
Thucydides أثرا واضحا عند بروكوبيوس . ويستطيع المرء ، بكل  
تأكيد ، أن يستشف اتساع بروكوبيوس لطريقة هرودوت في صياغة  
القصص القصيرة الشيقة أو المسلية عن الشخصيات أو الأحداث ، وكذلك  
الحوادث العارسة الصعبة ، في سرده التاريخي ، بالإضافة الى الأمور غير  
المهمة ، عن البرف وعادات الجماعات ، وعن الجغرافيا ، وعن الأساطير ،  
وكلها مرتبطة بموضوع الكتابة التي قدمها بروكوبيوس ، وهو أسلوب  
لا يمكن للمؤرخ في عصرنا اللحوق اليه . ولم يسر أبو الساريح  
أو بروكوبيوس أن القارئ يريد أن يشعر بالتمتع والتسلية بقدر رغبته  
في أن يعلم ومعلم . وعلى ذلك فقد وصف بروكوبيوس لنحركات  
الجيش البيزنطي في المناطق المحاورة لمدينة بيسنوم Picenum ،  
كتب كثيرا عن حادثه حانية تتعلق بطفل سقطت عنه أمه بصفة نهائية .  
وفي هذا الوقت حدث أن أنجبت إحدى سيدات هذه المدينة طفلا ،  
وتركت الرضيع في قباطه على الأرض ، وسواه اضطرت الى أن تنشد  
المسألة في الهرب ، أو أسرها أحد الأشخاص فأنها لم تتمكن من الرجوع  
الى المكان الذي تركت به الطفل ، لأنها اختفت من الدنيا أو على الأقل من  
إيطاليا . وبدأ الرضيع في السكاء بعد أن تركته أمه على هذا النحو .  
جاءه أن عمة زوجته شاهدها الرضيع ، وأشفقت عليه ، وأرضعته من  
شربها وتولت رعايته بكل حرص ، خشية أن يهسه كلب أو حيوان  
مفترس بأي أدى . ونظرا لأن حالة الاضطراب والفوضى طالت مدتها فقد  
حدث أنه استمر الطفل لبن المنزة وعاش عليه ولما علم سكان مدينة  
بيسنوم ، فيما بعد ، أن الجيش الامبراطوري قد جاء للقضاء على القوط ،  
وأنه لن يصيب الرومان من الأهل بأي أدى ، سارع هؤلاء السكان

بالعودة الى ديارهم • وعندما عادت النسوة الرومانيات الى اقليم يورفيزاليا Urvisalia مع اروعجهن • وشساعدن الطفل الرضيع ما يزال على قيد الحياة ، ومنى قباطه ، لم يستطعن فهم ما حدث على الاطلاق • واعتبرن بقاء الطفل على هذا النحو أمرا عجيبا جدا ومثيرا للفضة • وعرضت كل منهن ثدييها على الطفل • بيد أن الطفل لم يكن راغيا في لبن الرضاعة • كما كاث العنزه غير راضية على الاطلاق عن حدوث ذلك • واسما ظلت تشكو حول الطفل دون توقف • حتى بدا الأمر للنسوة اللاتي تجمعن حوله وكأنهن شعرن بالإحباط وأنهن قد أزعجن الطفل • وخلاصة القول • أصرت المزة على التعبير عن أن الطفل الرضيع يحسها وحدها ودون غيرها • ونتيجة لذلك نوعت النسوة عن لرعاج الطفل • واستمرت العزة في ارضاعه دون خوف • ورعاه بكل عناية • ثم أطلق سكان المنطقة على الطفل اسم ايجيسثوس Aegisthus (٣٠) • ولا ذهبت الى ذلك المكان لأقيم به بصفة مؤقتة • بفصد القاء نظرة على هذا المشهد المدهش • تبعت أن أبحث أما جسديا بالطفل كي يبكى وبدأ الطفل في البكاء • وعندئذ جرت المزة صوب الطفل بمجرد سماعها بكاء • واستمرت في التفاء بصوت عال بجواره • ووقفت فوقه حتى لايمكن أى فرد من الحاق أى اذى به • تلك كانت قصة الطفل ايجيسثوس • (٣١) •

واستطاع بروكوبيوس أن يؤكد على خلق هذه القصص المهمة – اذ يقول أنه شاهد الطفل الرضيع بنفسه • ولم تحمل كل القصص التصورة الشقية أو المسلية التي اورد ذكرهما مثل هذا التأكيد • وكما فصل هيرودوت ترك بروكوبيوس مسألة الحكم على مدى مصداقية أى قصة الى القارىء نفسه (٣٢) •

على أن الطريقة الموضوعية التي انتهجها بروكوبيوس في كتبه عن الحروب ربما كانت إحدى الأساليب التي اغفها عن توكيدهم في الكتابة • فيذكر أن توكيده لم يشر الى اسمه سوى مرة واحدة في الحرب البلوبونيزية مستخدما ضمير الغائب المفرد • ومن قبيل الصدفة • حتى أن القارىء قد لا يدرك في العادة • أنه يتحدث عن نفسه • ولم يكن بروكوبيوس موضوعيا غاية للموضوعية • على الرغم من أنه من النادر أن استخدم ضمير الفاعل ويمثل وصفه للمهمة التي كلفه بها بليزارايوس عندما حاصر القوط روما • السمة الموضوعية التقليدية عنه • عندما فضل الا يفسح عن شخصته • وكان بليزارايوس قد وحده خطابا الى الرومان الذين كانوا يتضورون جوعا • والذين طالبوه باتخاذ مواقف • بشأن وضع أحد المصير السمي الذي يتعرضون له • وذلك بشأن معركة واسعة ضد العدو •

• وتلك الكلمات شجع بليزاريوس جساير الشعب الروماني ثم سمح لهم بالانصراف - وأمر بروكوبيوس ، كاتب هذا التاريخ ، بالذهاب الى نابلي تورا •• وكله بأن يشحن أكبر عدد ممكن من السفن بالحبوب ، وأن يشهد كل الجنود الذين وصلوا من مدينة بيزنطة في تلك الفترة • وكذلك كل الجنود الذين تولوا رعاية الخيول بالقرب من نابلي أو الذين كانوا يؤدون مهاماً أخرى •• ووافق بروكوبيوس موديلاس *Mordilas* وهو أحد الحراس ، هذا بالإضافة الى عدد قليل من القربان • ثم رحلوا جميعاً ليلاً عبر بوابة بولس الرسول • ما بين خلصة بالمندودون أو يراهم • والذي أقام معسكره على مشارف طريق آيبان *Appian Way* لغزاسته • (٣٣) •

كانت الكتابة بموضوعية الطابع العام للمؤرخين اللطانيين في الماضي • وتجنبوا أيضاً الاشارات الى القوى الخارقة للطبيعه • وأعطى بذلك • الآلهة باعتبارها قوى حركت مجرى الأحداث • ونظروا الى بروكوبيوس كأن مسيحياً فانه كان من المستحيل عليه أن يعارض أسلافه المؤرخين في تجاهل قدره الله المثل القدير • ومع ذلك فانه كان بروكوبيوس وانغياً في أن يظل بمسما يسمعه حسنة بين جمهور الطبقة المثقفة في القسطنطينية الذي كان يكتب اليهم • فقد كان عليه أن يحاول ذلك • وعلى الرغم من أنه تحدث عن الله وعن العناية الإلهية ، فانه فضل أن يخفي إرادة السماء تحت عبارة القضاء والقدر والحظ والمصداقة • وكان بروكوبيوس حريصاً على أن يظل بعيداً عن المنازعات اللاهوتية التي سادت عصره • وهو ، بالطبع ، لأحرار المسيح الوحيد ، الذي كان يتحسم على المؤرخ العلماني اتخاذه •

وعلى الرغم من أن لقب « أمير التاريخ » ينسب في العادة الى هرودوت فحسب ، فإن توكيديد يطلق عليه من باب التشريف لقبه أمير التاريخ • العلمي • ولا ريب أن توكيديد هو أول من قدم بحثاً مسجّفاً عن الحرب • فقد حاول عند كتابته عن الحرب البيلوبونيسية أن يثبت أن الحرب عديدة الجذوى ومحفوفة بالمخاطر ومدمرة للقيم والامكانات المادية والمعنوية • ولاشك أن بروكوبيوس الذي شارك الرأي أولئك الذين عارضوا الحرب • عندما أوشك على الانتهاء من كتابة عن الحروب • وبذلك يكون قد شارك ذلك المؤرخ القديم في شجب الحرب منذ بداية كتابته • ففي الفقرات الأولى من كتبه عن الحروب ، عبر بروكوبيوس عن رأيه • بالمعنى الضمني على الأقل ، عن الأدلة والبراهين التي تمارس قيام الحرب والتي كان توكيديد قد عرضها منذ القرن الخامس الميلادي - ففي كثير

من الأحوال يجبر الذين يشغلون نيران الحرب عن اسرار النصر يمد أن  
أتحوا أنفسهم فيها عن جهالة (٣٤) \*

ومن بين المأذات التي أسدها بروكوبيوس على المؤرخين الأول .  
وبصفة أساسية عن ثيوكلد ، كانت احتواء كتاباته على حطب من بذات  
أفكاره ، أقمدها ، وقطع بها تساميل عرضه للأحداث التاريخية -  
وبالمقارنة فإن قليلا من تلك الخطب ظهرت في كتبه عن الانجازات للمبارية  
الضخمة ، وفي كتابه عن التاريخ السرى - في الوقت الذي استوت فيه  
كتبه عن الحروب على الكثير منها - وتخدم تلك الخطب أمداقا متعددة -  
فربما قصد بروكوبيوس من تقديم تلك الخطب محاولة التخفيف من  
حدة الرقابة للجرعة الناجمة من سرده للأحداث التاريخية - وعلمنا يحصل  
بروكوبيوس الشخص الذي يلقي الخطبة يسير عن أفكار لها طبيعة  
فلسفية ، ملقاري ، الحق في الليل إلى الاعتقاد بأن بروكوبيوس كان يعبر  
عن وجهات نظره الشخصية - وإذا ما أثار متحفته الذي يلقي الخطبة  
قضايا يمكن أن تكون تهجما على الإمبراطور ، فللمرء أنه يفرخ أن  
بروكوبيوس وظف الخطبة للتعبير عن نقده لبعض السياسات والتصرفات  
الإمبراطورية دون عقاب \*

إن أفضل تحليل للعديد الكبير من الخطب هو أن هذا النمط من  
الكتابة كان على الأرجح مألوفاً في تلك الأزمنة - والواقع أن هذا النمط من  
الكتابة كان موجوداً لعدة قرون ، واستمر كلون من الأدب الشعبي حتى  
الصور الحديثة - وقد يرفض القاري في عصرنا تلك الخطب لاعتبارات  
عديدة - إذ غالباً ما تتعرض تلك الخطب لتسلسل سرد الأحداث التاريخية  
من الناحيتين الأدبية والمنطقية - بدءاً من المعاصرين لبروكوبيوس قبلوا  
تلك الخطب كقبولهم للمديح والاطراء ، بكل ارتياح والطمأنينة - وعند  
عصر بروكوبيوس أصبح التاريخ علماً ، في مختلف الأحوال والظروف -  
ولم يعد من الممكن السماح بوجود مثل تلك « الانحرافات » الأدبية -

ويمكن توصيف إحدى الخطب التي أوردها بروكوبيوس والتي  
ربما تكون قد استوقفت القاري الحديث ، بالمثال التالي - وهذه الخطبة  
ألقاها بليزاريوس على مسمع من وبيته عندما نيا إلى عليه حياة زوجة  
أنطونيا للحياة الزوجية - إذ لم تكف عنه السيدة بمرحى مفاتها على  
الآخرين - وإنما قامت بتبديد ثروة زوجها ومن ثم ناشد القائد وبيته ،  
فوتيوس Photius التمدنى لهذه الحالة : « أيها الابن العزيز ، ليست  
لديك معرفة عن أحوال والدك ، إذ أنه قد فارق الحياة وأنت في سن  
الرضاعة ولم يترك لك شيئاً لثرتة عنه ، لأنه لم يكن محفوظاً فيما يتعلق

ياقتناء المستلكات • بيد أنك بشأت وترعرت في كنفى • باعتبارى زوجا  
لوالدتك منذ طفولتك • والآن وقد أصبحت في عتقوان شبابه فإن الواجب  
يحتم عليك أن تدافع عني بكل جهلك • إذا ما تعرضت لأذى ظلم • ولا سيما  
أنك تملك ثروة ضخمة • يا ولدى الضمير • الواقع أنتى أستطيع القول •  
يكلم حق وصلى أنتى والد لك • ولوالدتك • ولكل عميرتك • ذلك لأن  
الرباط الذى يربطنا جميعا ليس مجرد رباط الدم • وإنما رباط الأفعال  
بكل الحقيقة المطلقة • والتى يمرر عنها الناس يحسم لبعضهم البعض •  
ولقد حان الوقت الذى لا يصح فيه أن نتخذ موقف المتفرج • وتتركتى  
وحدى فى اللحظة التى يتعرض فيها بيتى للخراب • بالإضافة إلى حرمانى من  
تروى الضمير • بالإضافة إلى أن والدتك خلعت على نفسها المار والسنار  
فى أعين كل الناس وضع فى اعتذارك أن خطابا السبا لانسى إلى أزواجهم  
محسب • وإنما تلحق الأذى الأشد لفريتهن • لأنه سيكون قدرهم حمل  
وزر أمهاتهن فى السمعة المنة التى تلتصق بهم أيضا ذهوا وكأنهم  
يشابهون أمهاتهم • ومن ثم أرانى أطلب منك الاستشارة فى أمر يخصنى •  
وهو أمر أسب روحى حيا حيا • وأذا ما سمح لى أن أثار للفساد الذى  
ذهب فى بيتى • فأنى لن أصيبها عاقبة • بيد أنه فى وجود ثيودوسيوس  
Theodosius فأنى لن أستطيع أن أنقبى من الاتهامات الموجهة  
صداما • (٣٥) •

ويبدو أن بروكوبيوس لجأ إلى ذكر الخطب • من حين إلى آخر •  
كوسيلة للتعبير عن وجهة نظره فى مسألة معينة • ومن الراجح أن تكون  
الخطبة التى ألقاها جنا القمدوقى John the Cappadocian مثلا موضعا  
لهذا النوع من الخطب عندما أراد أن يثنى عن القيام بحملة عسكرية •  
استهزئت أحصاع مملكة اليونان فى شمال أفريقيا وحده من  
نتيجة مثل تلك الحملة الطموحة والمشكوك فى نجاحها • وتساءل قائلا •  
« ولماذا عبره ما حدث فى الماضى • أو ليس من الأفضل أن نحب الهدوء  
عن مخاطر الحرب الضروس » (٣٦) •

ولا يخامر قارئ الخطبة التى ألقاها بليزاريوس على مسبح  
ستيفانوس Stephanos • المبعوث المقوص من قبل أمال مدينة نابلى •  
فى أن بروكوبيوس كان يصبر عن وجهة نظر القسائد نفسه  
وكان بليزاريوس قد أحكم البصار حول مدينة نابلى لفترة من الوقت وقد  
أدى فشل بليزاريوس فى الاستيلاء على المدينة إلى شد أبرز المدافعين عنها  
والاعتقاد بأن مدنتهم ليس من السهل سقوطها • ثم تم اكتشاف قناة  
للدياء بعضى الصدقة • ولكن رخصة أحد الأبحار الضمعة • واستطاعت

خرقة من الجلود الانطلاق الى داخل المدينة وأصبح في الامكان فتح أبواب المدينة بسهولة . وأحد الملاحظ على حفي غيرة . وما أن دخلت قوات بليزاريوس على هذا النحو حتى تعرض كل مسكن المدينة لأهوال « عمليات السلب والنهب » ، ومن أجل تجنب حدوث مثل تلك الكارثة فقد تمكنت بليزاريوس الى ستيفانوس عن الحوادث الوحشية التي يمكن أن تنجم . وكل بليزاريوس يأمل في أن يكون ستيفانوس قادرا على اقتناع المدينة بالاستسلام .

« لقد شاهدت سقوط العديد من المدن ، واني لعل بينة بما حدث في مثل تلك الظروف . اذ يقوم جنودى بذبح الذكور من كل الأعمار ، وأما عن النساء ، فبرغم أنهم يتخون الموت ، فإنهم لا يسمعون بنسبة لموت ، وإنما ينقلن عنوة لاغتصابهن ، ويتعرضن لمعاملة لا انسانية ومثيرة للذلة . » وما عن الأطفال الذين قد حرموا من التربية والاعالة المناسبة فيتحولون الى رقيق رغم أنوفهم . أما الرجال فتتطلع أيديهم بسفاه أيانهم ويا عزيزي ستيفانوس . ليس هذا هو كل شيء . اذ أنتى لم أذكر لك شيئا عن الحريق الضخم الذى يلتهم كل الممتلكات ، ويقضى على جمال المدينة قضاء مبرما . واني لأشوق عليك وعلى مواطني نابلي ، عندما يحول بخاطري صورة القديس الذى استوليت عليها فيما حضى ، وأتصور المصير الذى ستعرض له نابلي ، عندما تفتحها عنوة . ان مثل تلك الأساليب تلقى استحسانا ضد أى مدينة تجد صعوبة في الاستيلاء عليها . »  
أتى أتمنى لهذه المدينة القديمة ، والتي يسكنها المسيحيون والرومان منذ عصور طويلة الا تتعرض لثل هذا المصير ، وبخاصة على يدي بالختارى قائدا للقوات الرومانية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن محيطي لعلها كبيرة من البرابرة ، الذين فقلوا إخوانهم وأقاربهم أمام سور هذه المدينة ، وليس في استطاعتى كبح غضبهم الشديد ، اذا ما استولوا على المدينة بقوة السلاح . وعلى ذلك فما زال الأمر بين يديك لتختار وتدل بدلولي بما يعود عليك بالخير ، وأن تسلك طريق النجاة وتتجنب الفضياع .  
لأنه اذا ما دارت عليك المأثرة . فلا تلوم الا نفسك » ( ٢٧ ) .

ان كتب بروكوبيوس عن الحروب هي أروع أعماله بلا حفال . ومن بين الخصائص التي ساهمت في علو مكانة كتبه عن الحروب ، كانت الطريقة الموضوعية التي عرض بها المؤرخ مادة التاريخية . وربما عمل على زيادة روعة كتبه عن الحروب الافتقار الشديد للاستقلال بالرأى في كتابه عن التاريخ السرى ، وكتابه عن الإيجازات المسارية الضخمة . والتي ظهر بكل وضوح فيها . وعلى سبيل المثال ، لا يستطيع الاتساع أن يستشعر

أسوة قلم بروكوبوس اللّاذع سوى مرة واحدة في كتبه عن الحروب - عندما تحدث عن حننا القنوصي . أمين خزانة الامبراطور جوستينيان ، اذ كان حننا هذا متحجر القلب ، « وأندل مخلوقات الله » (٢٨) وأظهر بروكوبوس أيضا ، في كتبه عن الحروب ، قدراته على الملاحظة ، ومعرفة أنواع الأسلحة ، والنظم والترتيبات الحربية ، ومهارته في وصف مظاهر الطوبوغرافيا ، والأحوال المشاجة التي مكنت القاري من مضايقة قراءة سرده للأحداث التاريخية بذهن متقد وكان بروكوبوس يكتب يادراك حتى كبير في النظم والترتيبات الحربية يجعل القاري يفترض أن المؤرخ كان يحظى بنقطة بليزاريوس عندما كان يضع المخطط الحربية -

وطرا لأن بليزاريوس وجد أن الجيوش القوطية نوعه عندما ابدان حروبه في إيطاليا ، فانه كان مستمعا على النوم أن يخلص نفسه من أي موقف خطير ، أو أن ينتهر أي فرصة طيبة ممكن استغلالها ، والحادثه التي عرّضها بروكوبوس لها حدثت عندما كانت مدينة روما في أيدي القوط ، وكان جيش بليزاريوس واقفا تحت الحصار ، بيد أن وصوله مستماتا والده من الفرسان ، الرومان ، مكن اللقاء من أن يتخذ موقفا هجوميا ، على أن طبيعة وصف بروكوبوس توحى بشدة انه كان على يديه ثامه يحبط بليزاريوس ، أو على الأقل على علم بها .

« وكان بليزاريوس في غاية السرور لقوم الفرسان وحكم بمجرد وصولهم في قباب جيشه بشن هجوم على العدو - وينتد على ذلك ، ففي اليوم التالي لقوم النجدة ، أمر بليزاريوس تراجان Trajan أحد رجال حرسه القمحي ، والذي كان محاربا مقدما ومقصا بالانشاط ، أن يصطحب معه مائتي من الفرسان من الحرس ، وأن ينطلقوا جميعا على الفور صوب العدو وعليهم وبمجرد وصولهم الى مقرية من حصنات العدو ، احتلال قل عالي ( أشار بليزاريوس اليه ) ، وأن يظلوا هناك دون أدنى حركة وإذا ما حاول العدو مهاجمتهم ، فلا يسمح بتحول الحركة الى حة التلاصق مع العدو ، وليس عليه استخدام السيف أو الحرية بأي حال من الأحوال ، وانما عليه أن يستظم الأقواس فحسب ، وعندما يقصر بأن كثافته لم يعد بها سهام ، فان عليه أن يلوذ بالفرار بقصى ما يمكن دون التفكير في الخزي أو العار ، وأن يعود ثانية الى الاستحكامات بكل قوة وتشاط . ووضع تراجان كل المعدات اللازمة لاطلاق السهام والرجال المهرة في استخدامها في حالة استعداد - ثم خرج تراجان معه مائتي من الفرسان من بوابة سالاريان Salarian Gate صوب معسكر العدو ، ولكن العدو أخذت منه الدهشة كل ماخذ بمسب سرعة طوحت

الموقف المفاجيء . واطلقوا من معسكرهم على وجه السرعة ، بعد ان حمل كل منهم ما استطاع حمله من سلاح . بيد ان الرجال الثابطين لتراجان اطلقوا بسرعة صوب قبة التل وبنلوا يسيطرون العدو بالتدافع . ونظرا لسموط سباعهم بين حشد كثيف من العدو ، فانها كانت حارقة في اغلب الأحوال . في اصابة أحد رجال العدو أو احد حيوله . بيد انه عندما نفذت سباعهم ، ولوا الاذيال في الخلف باقصى سرعة ممكنة ، في الوقت الذي ظل فيه القوط يهاجمونهم ويطاردونهم . وعندما اقرب القوط من الاستحكامات ، أسطروهم الرماحون يوابل من السهام فحصر البرابرة بالخوف وتوقفوا عن المطاردة . ويقال ان ما لا يقل عن آلف من القوط لقوا حتفهم في هذه العملية . وبعد ذلك بعثه أمام أرسل بليزاريوس كلا من مونديلاس *Mundilas* ، وديوجيسر *Diogenes* . وهما من الحاربين الذين تميزوا بالشجاعة الفائقة . وهما من بين حرسه الشخصي ، ومعهما ثلاثمائة من الحرس الشخصي أيضا ، وأمرهم حيفا بالقيام بعملية مماثلة للحملة السابقة . ونصرفوا وفقا للتعليمات التي صدرت اليهم . وعندما التقى العدو بهم كانت تنبئه هذا اللقاء لا تقل عن اللقاء السابق . بل ربما كانت خسائر العدو تفوق خسائره في المرة الأولى بكثير . وللمرة الثالثة أرسل بليزاريوس أحد حرسه ، اوليلاس *Ollas* ، ومعهم ثلاثمائة من الفرسان ، وروده بالتعليمات عن كيفية التعامل مع العدو . وتمكن من احرار نفس النتيجة . واستطاع بليزاريوس القضاء على أربعة آلاف من أعدائه ، في تلك الهجمات الثلاث ( ٣٦ ) .

وأيتما كان بروكوبيوس قامه حرص على تقديم وصف دقيق للمراحل المتعقدة التي تمر بها أي معركة . وأبدى مقدرة أصيلة عند وصفه للأحداث التي استحدثت في تلك المارك أيضا . وفي الوصف التالي قدم بروكوبيوس للقارئ وصفا للمعدات الحربية التي تستخدم في اقتحام الاستحكامات ، أو في الدفاع عنها ضد المهاجمين . ويتحدث الوصف عن الملك القوطي فيججر *Vitige* الذي كان على وشك شن هجوم على الاستحكامات التي كانت تحمي مدينة روما .

« وشيد أبراجا خشبية في مستوى ارتفاع سور العدو ، وعرف الحجم الحقيقي للسور من خلال حسابات عديدة مبتنية على طريقة تركيب الأسجار . وكانت تلك الأبراج الخشبية لها عجلات مثبتة تحت أرضيتها ، لينسك الجيش المهاجم من تحريكها إلى أي منطقة وفقا لرغبتهم ، في أي وقت ، وبحر تلك الأبراج ثوران مرتبطة ببعضها البعض . وبعد ذلك أعد علجا كبيرا من السبالم ، التي يمكن أن تعمل إلى غتراس سور المدينة .

وأعد أربعة من آلات الحرب التي يطلق عليها منجنقات ، وكان المنجنق على النحر التالي : أربع دعائم خشبية عمودية ، متساوية في الطول تقام في مواجهه يضبطها اليصن ، ويثبت بها ثمانية قطع من الخشب أفقية ، أربع قطع موز ، وعدد مساو لها في القاعدة ، وبذلك يشد الخشب بمصه بضاً ، وبعد أن يأخذ المنجنق شكل المبني الذي له أربعة جوانب ، فاهم لا يحيطونه من جوانبه باليدان الخشبية أو الحجرية ، وإنما يسطرون بالجلد ، لكي ينقل المنجنق خفياً ولا يجد من يحرقه صعوبة ، كما يسهل على من يرقب الاحتياط بداحله حتى لا يتعرض لأذى خطر من جراء قذائف العدو . وفي داخل المنجنق يلقون دعامة خشبية كبيرة في السبع بواسطة سلاسل حيث تنحرك تلك الخشبية بسهولة ويكون موضعها في منتصف المنجنق من الداخل - ثم يحملون طرف هذه القطعة الخشبية مديها ، ويغطون هذا الطرف برأس سهم من الحديد وعلى السهم نفسه يغطون الطرف المسدير للقذائف ، وأحياناً يحملون الرأس الحديدية على شكل حريم مل مسدان الحديد . وتعمل هذا المنجنق أربع عجلات مبنية كل واحدة منها في العمود الأمامي ، وتنحرك ما لا يقل عن خمسة رجال وهم بداحله . وبعد استخدام المنجنق لهدم أحد الأسوار ، فاهم يقومون بسحب الدعامة الخشبية المعلقة إلى الحبل يحرركها بحركة آليه ماصة ، ثم يتركون تلك الدعامة تتأرجح إلى الامام بقوة شديدة تجاه العدو . وبذلك تستطيع تلك الدعامة الخشبية عن طريق الضربات المتكررة أن تحطم أي سور وتحت به قبوه بسهولة تامة ، ولهذا السبب تحمل هذه الآلة اسمها ، لأن الطرف الذي يسند الضربات من الدعامة قادر على أن يهشم أي شيء يصطدم به ويصله يتأثر في كل اتجاه ، تماماً كما يعمل المذكور بين التماح . تلك هي المنجنقات التي يستعملها المشيرون على أي سور من أسوار المدن أو القلاع . وكان عند القوط أعداد لا حصر لها من مجموعات الحزم من الأخشاب والفلب لكي يلقوا بها في أي خندق مائي يوجه حول حصن أو قلعة حتى يجعلوا هذا الخندق مساوياً للأرض ، وحتى تستطيع منجنقاتهم المرور فوق الخندق وبعد أن أعد القوط عديم، كانوا متلهفين على شن هجوم على سور مدينة روما .

وفي الوقت نفسه أعد بليزاريوس أسلحة مضادة وآلات حربية على أمل المقاومة على صد الهجوم المتوقع .

• وضع بليزاريوس آلة حرب في أبراج السور يطلق عليها « الباذخة » ballistae ، وكانت تلك الآلات على شكل قوس ، ومن تحتها قنبلة زرع ومصنوعة من الخشب ، وهذه القنبلة تسمح للقوس بالتحرك

يسهولة ، ويرتكز القوس على قاعدة جديدة مستقيمة ، وعندما يرغب المتاربون في استخدام هذه الآلة الحربية ضد العدو ، يصلون على اعتماد طرفي القوس ببناء بعضها بواسطة حل قصير مثبت بطرفي القوس ، ويضعون القدم في قصبة الرمح المجرمة ، الذي كان طوله حسب طول القديفة السادية ، التي يلففونها من أي قوس ، ولكن عرضه كان يماثل أربعة أضعاف عرض القوس السادي ، ومع ذلك فانهم لا يضعون ريش السهام من النوع السادي الذي يشت بها ، وأما يصون رقائق صغيرة من الخشب بدلاً من الريش ، وتطلى هذه الرقائق السهم شكله المألوف ، مع جبل المنطقه التي بها الرقائق كبيرة جدا ومتناسقة مع حبيبه الخشب ويحمل الرجال الذين يقعون على جانبي تلك الآلة على اعلاها للفصل بالحكام بواسطة أدوات معينة ، ثم تطلق القصبة المجرمة الى الأمام وتقف ، بيد أن القديفة تطلق من القصبة بشده ، وتقطع مسافة لا تقل عن ضعف مسافة صرشي قوسين ، وعندما تصطدم القديفة بشجرة أو بصخرة فانها يحترق أيا منها بسهولة ، تلك هي الآلة التي نحمل الاسم السابق ذكره لأنها تنطلق بقوة ضديدة جدا ، ويشترق آلات حربية أخرى على اعتماد متراس السور ، مصنوعة لآلها - الأجبار - وتتشبه تلك الآلات السال التي يستخدمها الأطفال ويطلقون عليها اسم «الحجر المتوحش» Wild Asses أما خارج بوابات السور ، فقد وضعوا استحكامات أطلقوا عليها اسم «ذئب» Wolves ، وأعلوها على النحو التالي . أقاموا اثنين من قطع الخشب الكبير والتي امتدت من الأرض حتى فتحات السور التي تنطلق منها القذائف ، ثم كبتوا الدعائم الخشبية ، الواحدة بالأخرى ، بعضها في وضع عمودي والبعض الآخر في وضع مستعرض ، حتى بدت المسافات بينها في نقطة التقاطع وكأنها سلسلة من الثقوب ، وتوزع مسطرة مسددة الطرف بين كل وصلة ، وهي تشبه شوكة مسيكة الى حد كبير - ثم يملأون القطع الخشبية المتصلة بقطع الخشب الكهبة السوداء ، مبتدئين من أعلى حتى المنتصف ، ثم يستندون قطع الخشب الضخمة على بوابات السور ، وعندما يصعد العدو بالقرب منها ، يقوم من يتولون الحراسة فوق السور بالإمساك بالطرف الألواح الخشبية ودفعها ، فتسقط تلك الألواح ، الضخمة ، مجة ، على المهاجمين ، وتقتضي عليهم التسلط المديبة . تلك كانت الأعمال التي ابدعها بليراريوس في انجازها (٤٠) .

وبناء على ماورد بهاليه ، فإن بروكوبيوس لم ينس على الإطلاق أن كاتب التاريخ يجب ألا يكون هدفه مجرد تقديم المعلومة التاريخية للقاري . فحسب ، وإنما عليه أن يعمل على اشاعة المتعة والتسلية في نفسه أيضاً . ومن أجل تحقيق هذا الهدف سعى بروكوبيوس الى جعل سرده التاريخي

مغصا بالحيرة والبهجة كلما كان ذلك ممكنا ، بتقديمه القصص والأحداث العرضية المرتبطة بالأفراد ، الذي شاركوا في الانعطفة التي يامل في أن يحظى باهتمام قارئه . مثل الحادثة التي طورت الى معركة قريب دارا Dura ، إحدى القلاع الحربية الكبرى في شمال بلاد ما بين النهرين .

قضى ذلك المكان استطاع فيربارديوس سنة ٥٢٠ م أن يحقق لنفسه مجدا وشهرة بانتصاره على حش فarsi بهوكة عندما . فقد استمد الجيشان للحرب ولكن لم يكن أحدهما رائجا في أن يكون البداية للقتال . فقام أحد المعارين الفرس بالعمل على الخروج من هذا الطريق المسدود ، اذ امتطى صهوة حواده واقترب من المعسكر الروماني ، وبنا في إحدى الجميع طالبا من أي حشفي القدوم لمبارزته - ولم يجرؤ أحد من الجيش الروماني على مواجهة الخطر باستثناء شخص يدعى أندريس Andrias أحد الحرس الشخصي للقائد بوزيس Bozes . ولم يكن حنديا لو لديه دراية بأساليب القتال على الإطلاق ، وإنما كان يعمل مديرا للضرائب على المصارعة ، في إحدى مفاخر مدينة بيزنطة Byzantia ، وكانت مهمته رعاية القائد بوزيس في الحمام وكان من مواليد مدينة بيزنطة .

وكان هذا الرجل هو الوحيد الذي لديه الشجاعة في الذهاب بسحق ارادته للقائه الشاب الفارسي في قتال حربي ، دون أن يامر بوزيس أو أي شخص آخر . واستطاع أندريس أن يأخذ البريري على حين غرة ، وأن يعضه بحريته في صدره الأيسر . في اللحظة التي كان يفكر فيها هذا الفارسي في كيفية مهاجمة أندريس - ولم يحتل الفارسي الطمنية التي سعدا أندريس صاحب القوة الفائقة إليه ، وسقط الفارسي أرضا من على جواده . ثم قام أندريس بذبح الفارسي كما يذبح حيوان الضحية مدينة سقيمة . في الوقت الذي كان فيه هذا الفارسي مستلقيا على الأرض ، وصدرت صيحة عالية من سور مدينة دارا ومن الجيش الروماني . وكان الفرس قد استشاطوا غضبا لتلك النتيجة ، وأرسلوا على الفور فارسا آخر ، لنفس الفرس وكان رجلا متمسكا بكل صفات الشجاعة والقوة واللياقة المدينية ، بيد أنه لم يكن في سن الشباب ، اذ علا الشيب رأسه . واقترب هذا الفارسي من الجيش الروماني ، وظل يلوح بشدة بالسوط الذي يضرب به جواده ، ودعا للمبارزة أي روماني يقبل هذا التحدي .

وعندما لم يتقدم أحد لقبول هذا التحدي . ذهب اليه أندريس للمرة الثانية ، دون أن يلحظه أحد ، ويرغم محاولة هرموجينيز Hermogenes ثيبه عن ذلك . وانقض المتبارزان على بعضهما البعض بصنف شديد ، واستخدم كل منهم حريته ، بيد أن سلاحيهما اصطدم بذرعيهما ، فانقطع

المتبارزان بعيداً عن بعضهما البعض واسطلم رأساً جواديهما ببعضهما البعض . وسقط الجواد على الأرض بعد أن طرحاً راكبيهما من فوق ظهرهما . وسقط المتبارزان بحوار بعضهما ، وصاروا في النهوض . بيد أن الفارسي لم يتمكن من ذلك لأن سخامة جسده لم تسقطه ، في الوقت الذي تفوق عليه أندريس في سرعة الحركة ( لأن تدريبه في مدرسة المصارعة أعطاه تلك الميزة ) ، وسدد أندريس ضربة عنيفة للفارسي ، الذي حاول النهوض . وعنتما سقط الفارسي على الأرض للمرة الثانية قتل أندريس . ثم انطلقت صيحة الانتهاج عالية من السور ومن الجيش الروماني ، وكانت أكثر علواً عن ذي قبل وقوض القوس خيام معسكرهم ، واستحووا إلى بلدة أمودريوس Amoudios . في الوقت الذي عني فيه الرومان انشودة الشكر والتسبيح والصر ، وذهبوا إلى الاستحكامات ، لآل الظلام كان قد حل بالفعل وهكذا قضى الجيشان الليل ( ٤٦ ) .

وعادة ما يجار جدل عند الدراسة لأي مؤرخ يتعلق بتفسيره للتاريخ . وما هي وجهات نظر الكاسب فيما يتعلق بالقوى التي تشكل الأحداث ، سواء كانت تلك القوى نفس : حاكماً فرداً ، أم شعباً ، أم عصراً ؟ وباختصار لنا هي فلسفته عن التاريخ . وبالسبب لبروكوبيوس ، هل التزم بأي فلسفة معينة ؟ هل يؤمن بروكوبيوس بأن العوامل والقوى هي التي تحدد أو تؤثر في حركة التاريخ ؟ أم أنه أحجم عن التعبير عن أي أفكار تتعلق بهذا الموضوع كما فعل المؤرخون الأول ؟ هل كان التاريخ بالسبب لبروكوبيوس مجرد تتابع للأحداث وأن هي واجبه تسجيلها بأقصى ما يمكن من الدقة والموضوعية ؟ وإذا كان بروكوبيوس قد ظل صليماً بشأن القوى العسكرية التي أثرت في التاريخ ، فهل في استطاعته الفأري ملاحظة وجود أي فكرة في الطريقة التي عرض بها روايته التاريخية أو سرده للأحداث ؟

ويدعو أن أسلاف بروكوبيوس ، وعلى رأسهم جيودوت وثوكيديد قد أحلوا بمفكره التفسير العصري للتاريخ عند معالجهم للكتابة التاريخية . فاعتقدوا أن للقول معنى حياة مثل الشعوب . فالقول تظهر ، وتقوى ، وتندهر ، وفي الوقت الذي تأخذ فيه تلك القول في الصعاب والاختفاء من مسرح الحياة تبدأ قول أخرى في أخذ مكانها . وهكذا حتى آخر الزمان . ويدعو أن كلا من بوليبيوس Polybius وليفي Livy لم يمتصا عن موافقتهما على هذا الرأي بالكامل ، وإنما اعتقدا أن القضاء والتقدير أو الآلية أودا أمراً غير عادي ، وأن الإمبراطورية الرومانية ربما كبحرس للمحن في المستقبل الذي لا يعلمه أحد . ولم يفاخر بروكوبيوس

باعتباره مواطن في امبراطورية رومانية حليفة ويرغم احوال الامبراطورية في عصره ، عندما كان معظم القسم الغربي من المتطهر استرداد والحرب المستمرة في إيطاليا قد حولت شبه الجزيرة الى ارض مختصة ببناء القتل ، فنادرا ما أخذ يوجهي نظر بوايوس وليقي .

ويمتطيع المرء ان يجد تطابقا شديدا بين وجهتي نظر هيرودوت وتوكليد وجه نظر بروكوبوس مما يعلق بالحركة التاريخية - ذلك لأن الثلاثة لم يدافعوا عن وجهات نظرهم على نحو منهجي . وكان بروكوبوس على اتفاق مع أملاؤه القدامى من المؤرخين في الاعتقاد بأن التاريخ له استمرارية في المستقبل كما حدث في الماضي ، وأن الدول تقوم وتسلط وتضعها أخرى من غيرها وأكثر ضاء ، بيد انها حتما تعرض لخسائر التدهور والزوال حتما . وكان هيرودوت مستعدا لقبول عامل غير الامتثال الذي يمارسها الحسنى الشرى له القدرة على التأثير على سيطر الأحداث او تغييرها - إذ كان يرى أن مقبلة الآلهة قد تدخل وتدخلت الآلهة في الحرب بين الاغريق والعرب عندما منحت النصر للاغريق عقابا للأسيويين على صلتهم وكبريائهم .

تعهد توكليد عدم ذكر الآلهة . ولذلك حصار المثل المحذى عند المؤرخين العلمانيين ، بما فهم بروكوبوس - وكان توكليد يرى أنه اذا كانت تلك الآلهة موجودة ، ماها تعيش حياتها الخاصة بعيدا عن حياة عالم البشر . ويرى توكليد أن التاريخ يكشف عن تفراقة التي لا نهاية لها وفقا لما يصره ارادة البشر ، والمواقف مع وجود استثناء واحد ألا وهو عامل الصدفة . والواقع أن الصدفة لها وجود ، وربما وحده دورها في الفصل الحظ ، وكثيرا ما تلعب الصدفة دورها . ومع وجود هذين الاستثناءين ، وهما تدخل آلهة هيرودوت ، وصدفة توكليد ، ستظل الحركة التاريخية مستمرة ويكون توقف .

ولما كان بروكوبوس مسجبا . قلم يكن في استطاعته قبول آلهة هيرودوت أو فرصة توكليد بنفس الطريقة التي عرصها كل منهما . على أن الشيء الذي قام به هو ضم أفكار هذين المؤرخين ووضعها في قالب مسجى . وكان تحويل آلهة هيرودوت الى الله الواحد الذي يصدق المسيحيون أمرا يسيرا . وماذا يستطيع ان يفعله مع صدفة توكليد ؟ احتفظ بروكوبوس بالصدفة ، ولكن لكي يبعد الطمانينة الى قرائه المسيحيين ، وحتى لا يفر استثناء العلمانيين ، رمز الى العناية الالهية باعتبارها القوة الأساسية خلف الصدفة . ونظروا لأن بروكوبوس كان مقتنعا تماما بأن الله قادر على كل شيء ، وأنه مدبر الأمر ، فللمرء أن

يعترف بأنه لم يرفض عامل الفرصة عند تأكيد محاولته الاحتفاظ  
بخطبه القراء المتقنين عليه وتأيدهم له . على أية حال ، قلما كان  
بروكوبيوس مؤرخا علمانيا . فمن المستحيل عليه قبول وجهة النظر  
القائلة بأن التاريخ يسير لتحقيق غاية أو هدف ، وهي الفكرة التي أخذ  
بها كتاب التولييات الفريون فيما بعد .

ومن حين إلى آخر كتب بروكوبيوس كمسيحي ملتزم غاية الالتزام  
دون الأخذ في الاعتبار لرد فعل استحقاقه العلمانيين ، الممكن حدوثه .  
وعلى ذلك فمنه كتابته عن الإمبراطور هوروريوس Honorius الضعيف  
الذي وجد أن امكاناته المحدودة دون مستوى التعامل مع الارك *Alatic*  
في جنوب إيطاليا ونصحيح السلام للأقاليم الغربية . ذكر أن الله أقعد  
الإمبراطور - . وفي الوقت الذي كان فيه هوروريوس ينتظر مايمكن أن  
تتمحور عنه تلك الأحداث من نتائج ، وهو على أحر من الجمر ، وتقدمه  
أمواج البحر الجهور ، صهلت عليه ضربات حظ واثمة بسحق الصدمة .  
ولما كان الله في عون الماخرين عن تدبير أمورهم والمستسلمين لقصائهم  
صهلت رحمته الله على هذا الإمبراطور بعد أن أخذ منه القنوط كل  
ماحسب « (٤٢) » .

وبعد ذلك بقليل كتب بروكوبيوس عن الحروب نفسه  
في مواجهة فترة يبالغ فيها هذا المؤرخ بحرى الحوادث التاريخية على السحر  
التي يفعله ياخذ وتني وفي هذا التل الشخص يباي بروكوبيوس نفسه  
بشأن احتلال نارميس *Narica* لديه روما - إذ كتب يقول : « لقد  
جال بضاربي أن أعلق على الطريقة التي بسخر بها الالهة الحظ *Fortune*  
في أحوال البشر ، فانها لا تزور الناس بحالة واحدة دائما ، أو تنظر  
اليهم بظرة متعائلة وانما تغير طريقتهما بتغير الرمي والكان فآلية الحظ  
بمازس معهم طريقة معينة ، إذ يمر من تشاء من النصيب ، وفقا لتغير  
الزمان ، والكان ، أو الظروف . فلهذا حدث أن فقد القائد بيسباس  
*Beaspa* روما ، وبعد ذلك بوقت قصير استرد مدينته السراء *Petra*  
في اقليم لاريا *Larica* لصالح الرومان ، وعلى العكس من ذلك فان  
داغيتيوس *Dagisthus* (٤٣) الذي مثل عن البتره للأعداء ، اسرد  
روما في وقت قصير . على أن مثل تلك الأمور نحدث ضد به الخليفة  
وستبقى ظلما ظلت الالهة الحظ ذاتها تحكم في مصائر البشر » (٤٤) .

وعبر بروكوبيوس عن رأيه مستخدما الطريقة العلمانية تقريبا عندما  
علق على موت توتيل *Totila* ، ملك القوط الشجاع . ففي قمة نجاح

توتيلاستطاع أن يمتد كل شبهة الجريرة الإيطالية من بليزارىوس  
 بما فى ذلك مديته روما - ثم صار من عند الموتى وأندرس حيشه - رده  
 أتباعه ورحلوا - تلك كانت نهاية عهد وحياة توتيلاستطاع - الذى يحكم القوط  
 لمدة إحدى عشرة سنة - عبر أن النهاية التى حلت به لم تكن تتناسب  
 مع اتجاراته السابقة - لأن الأمور سارت وفقاً لما اشتبهى هذا الرجل -  
 إلى أن حدثت له تلك النهاية التى لا يمكن أن تكون مكانة له على عاتقه  
 وأعماله ، وللمرة الثانية يبدو واضحاً أن الهة الحظ كانت نمرج ، وتلهو ،  
 وتبعد جهود البشر ، وحولها هباء متوراً بغيره استعراض طبيعتها  
 المشاكسة وأرادتها التى يصعب تفسيرها - إذ بعد أن أصبحت النعم على توتيلاستطاع  
 بمحض إرادتها دون سبب محدد ولفترة طويلة من الوقت ، أنهت حياة  
 الرجل نفسه ، حيث مات مذعوراً وموصوماً بالجبن والضياع ، دون سبب  
 مقبول - ولكنى أعتقد أن تلك الأمور لم يدركها الإنسان على الإطلاق ،  
 ولما يدركها فى أى وقت من المستقبل - ومع ذلك فهناك على العوام كثير  
 من الأحاديث والآراء المتبادلة وفقاً ليل واتحاد كل فرد عندما ينفسه  
 السلوى لعدم معرفته التفسير الذى يبدو مقبولا (٤٥) .

ويُعرف بروكوبيوس أيضاً سروده عن تفسير سبب الوفاة ، الذى  
 اجتاحت القسطنطينية ، والعالم كله - سنة ٥١٢ م ، - وحده أرواح  
 الناس ، - بعض النظر عن العمر ، أو الجنس ، أو الوضع الاجتماعى -  
 بيد أنه استطاع أن يصف ما أحدثته الوفاة - فكتب بروكوبيوس يقول :  
 « والآن فلندع كل امرئ يعبر عن رأيه فيما يتعلق بهذا الأمر - سواء كان  
 فلسوفاً أم صحباً ، أما بالنسبة إلى : قارئ ساروى عن المكان الذى بدأ  
 فيه هذا المرض وعن الطريقة التى قصى بها على النفس » (٤٦) -

وليس فى استطاعة الإنسان تفسير تسلسل الحوادث ، بل أنه غير  
 قادر على إيقاف مجرى الحوادث ، إذا شاء القدر أو شئت إرادة الله أن  
 يستمر جريانها ويحول إلى الإنسان قد يصبح مشهوراً رغم أنه طالما كانت  
 تلك هى إرادة الهة الحظ Fortune - عن الحالة التى من بها كسرى ملك  
 الفرس - الذى استولى على مدينة انطاكية الكبرى ونجح فى ضميرها -  
 فكل مرة أرادت الهة الحظ أن تجعل من إنسان ما رجلاً عظيماً - فإنها  
 تفعل أموراً فى الوقت المناسب وفقاً لتحديثها ، دون استطاعة أحد  
 التصدى لإرادتها ، ولا تنظر إلى وضع هذا الإنسان أو محاولاته لمنع  
 حدوث تلك الأمور ، ولا تبالى بالصلوات التى ينزلها عليها الكثيرون بسبب

تلك الأمور ، وهم يسخرون باستهزاء لما فعله لطمع مستحقاق الإنسان للنعم التي أسبغت عليه ، ولا يصح في الاعتسار أي شيء على الإطلاق .  
 إذ ما تحقق الأمر الذي قررت حدوثه أما فيما يتعلق بتلك الأمور فلا بد أنها إرادة الله » (٤٧) .

ومن الواضح أن يروكوبيوس يحصل مشيئة الله فوق مشيئة إلهة الخط وفقاً لما ذكره في السطر الأخير من الفقرة السابقة . وكان هذا موقفه بلا ريب . برغم أنه كان يروى له أن يكسب عن الصدفة على نحو يذكرنا بالمؤرخ توكيديد . وحيث ترك توكيديد الصدفة والتقدير يسلان وفقاً لما يستخلص من الظروف أو الهوى ، وضع يروكوبيوس الله فوقهم جميعاً ، ووصفه في جانب العدل أيضاً (٤٨) . وجسبل يروكوبيوس قائمه بليزارىوس يقول نفس الأفكار في الحالة التي تورط فيها إنسان من حدود البلدان كانا من أفراد شعب الماساجيائي Massagetae - قتلا رميلا لهما لجرد أنه مخترعتهما . فقام بليزارىوس بإعدامهما على خاروق عنده قل قريب من مدينة أبيدوس Abydos \* وعندما تعرض رميلا للجديين اللذين أعدمهما بليزارىوس ، على القسوة الشديدة التي عاملهما بها القائد ( كان الخمر قد لمسه بلبعضهما ) ، عند ذلك استدعى بليزارىوس الجميع وحلث إليهم عن أهمية أن يكون الله راضياً على الإنسان على النوم .  
 « لو أن كلنا في القيتها على رجال يخصوصون الحرب للمرة الأولى ، لامتزق ذلك وقتاً طويلاً لاتساعكم بالأهمية القصوى لتحقيق العدل من أجل إمرار النصر . إن أولئك الذين لا يدركون ما يمكن أن تتمتع به تلك الصراعات الدموية يستدعون أن نتيجة الحرب تحسمها قوة السلاح فحسب . ولكنكم مزعمتم مراراً عدواً لا يقل عنكم في القوة أو الشجاعة . وأنكم غالباً ما جربتم قوتكم ضد أعدائكم . وأعتقد أنه يجب على حاطركم أنه إذا كانت الحرب تنور بحدوث الرجال في الجيرش المتصارعة ، فإن الله هو الذي يبتدئ مصلح المعركة وفقاً لشيئته . وهو الذي يمنح النصر في المعركة .  
 ولما كان الأمر كذلك فمن المناسب القول بأن اللساقة البدنية الفاقة والتدريب على السلاح وكل مستلزمات الحرب الأخرى أقل أهمية من تحقيق العدل وكل الأمور التي ترضى الله » (٤٩) .

وأبدي يروكوبيوس تحفظاً فائق فيه غالبية معاصريه بشأن استعماله للاعتقاد في أقوال المنتبين . فكتبه كتابته عما فسره كثير من الناس

(١) الماساجيائي هو شعب كان يعيش في شرق بحر قزوين في القرن السادس للميلاد - المترجم .

(٢) أبيدوس هي مدينة تقع في آسيا الصغرى - المترجم .

باعتباره اقوال متشبهين احجم عن ابداء رايه وتترك الامر للقراء . وفي سنة ٢٤٩ م عجل ظهور المذنب يحدث فيض وافر من السوبات المادية ، بيد ان بروكوبيوس لم يثابر بذلك - وكتب يقول : « وفي ذلك الحين ظهر المذنب ، وكان طوله مساو لقامة رجل في بداية الامر ، ثم ازداد طوله فيما بعد . وكانت نهايته تجاه الغرب ونهايته تجاه الشرق . وكان موقعه خلف الشمس ، إذ كانت الشمس في برج الجدي Capricorn اما المذنب فكان في برج القوس والرامي Sagittaries ويطلق عليه البعض « ابو سيف » بسبب طوله الكبير ولوجود طرفه المذهب ، ويطلق عليه البعض الآخر « النجم الملتحي » . وتذكر الناس من مشاهدته لمدة اربعين يوما متصلة . وفي ذلك الحين اختلف المتخصصون في علم الفلك مع بعضهم البعض كلية ، واعلن كل منهم رأيا مخالفا لرأي الآخر بشأن ما يشير اليه هذا النجم . بيد اني اكتب ما حدث ، واترك لكل فرد مسألة تكوين رايه وفقا لما تتخض عنه قريحته » (٥٠) .

وفي سنة ٥٤٧ م حدثت سلسلة من الظواهر الطبيعية جعلت الناس في حيرة من امرهم بخصوص احتمال حدوث شيء غير عادي . وبالإضافة الى حدوث عدد من الزلازل ، فاضى بحر النيل وارتفع مسبب فياضه الى مستويات لم تسجل من قبل . ثم ظهر حوت ضخم ، طوله حوالي خمسة واربعين قدما ، ظل يحلث انبثاات شديدة بالسف ، وعرفته بالقة لحركتها في المنطقة القريبة من القسطنطينية لمدة خسين عاما . واحيرا جثع هذا الحوت في الوحل وم قتله . وبعد ان انتهى بروكوبيوس من عرض وصف مفصل لحادثة الحوت قدم الملنص التالي - « والان وقد شاهد البيروطيون الزلازل وعلموا بالتعاضيل الامة عن فيضان نهر النيل واصططاد هذا الحوت ، بدأوا يتنبئون على الفور بأن مثل تلك الأمور يمكن أن تحدث وفقا لطروف كل منها . وعندما تأخذ تلك الحوادث من الناس كل ماخذ ، ينزعون الى اطلاق السوبات المروعة ، وعلمنا يكونون في حيرة من امرهم مسبب الحوادث غير المتوقعة . والى صيبيهم بالتلق والاضطراب يطلقون الصنادق للتحيين بما يمكن أن يحصل عنه المستقبل - اما بالنسبة الى ، فسأترك لغيري ما شاء له من نبوءات وتفسيرات » (٥١) .

ويقودنا ذكر موقف بروكوبيوس بخصوص اقوال المتنبئين الى مسألة تتعلق بموقفه من المثلولوجيا (\*) وهل سلم بروكوبيوس بالنقص الخيالية الرومانتيكية التي كتبها الشاعر الاعرضي هوميروس Homer ، او القمص التي احتوت على حوادث واقعية أو خيالية للكاتب المسرحي

(\*) المثلولوجيا هي مجموعة الاساطير الفصل بالآلهة واسلاف الآلهة والاطال.

المرافيق عليه تنصب ما - للفرج .

الاعريقي سوفوكليس *Sophocles* ، والتي استمد منها كتاب المسرح الاعريقي حينه مسرحياتهم ؟ ان الاجابة على مثل هذا السؤال بالاجابى او بالنفي - فالاجابة بالاجابى تسمى انه اعتقد ، او بدا انه مال الى الاعتقاد ، ان هؤلاء الناس كانوا موجودين بالفعل ، اما اذا كانت الاجابة بالنفي ، وأنه لم يقبل بتلك القصص ، او على الأقل لم يسمو أنه قد قبل القصص الخيالية المتضمنة للمخاطرات وغيرها . ويعد مثل هذا التحليل ما يؤيد فيما كتبه بروكوبوس عن إقليم تيراكيا *Terracina* (٥٢) اد تحث عن المراعى الواخرة النماء هناك والتي حملت من ذلك المكان مسكرا مثاليا للجيش الرومانى . ثم اشار الى جبل كيركيوم *Mt. Circeus* القريب من ذلك المكان والنهر الذى يجري هناك . ويقولون انه اوديسيوس *Odysseus* قابل كيركى *Circe* . بالرغم من ان ذلك يبدو غير حدير بالثقة ، ذلك لان هوميروس أعلن ان محل اقامة كيركى كان فى احدى الحر - ومع ذلك استطاع القول ان جبل كيركيوم يمتد داخل ساء البحر ، ويشابه الجزيرة ، فالدين يحرق بصفاته وكذلك الدين يشهد الى الصاطي والقرب منه يدعو اليهم كل منظر من مظاهر الجزيرة . وعندما يصل الانسان الى ذلك الجبل يعرف انه قد اتحد عندهما اسماء رايه السابق . وربما أطلق هوميروس على الملك اسم جزيرة لهذا السبب نفسه ، (٥٣) .

لقد بروكوبوس الانتباه الى وجود يون شاسع بين التاريخ والميتولوجيا . فعن بروكوبوس ذلك اثناء ذكره للمساحات الجغرافية والطوبوغرافية لاقليم لاريكا *Larissa* ، الذى يطلق على الشاطيء الشرقى لساحر الاسود . وقدم الدليل والحجة بهذا التاكيد على ان اللاتين *Lazi* الذين سكنوا هذا الاقليم على عصره ليسوا سوى الكولخيان *Colchians* القدامى . « الذين قاموا بمجرد تغيير اسمهم فى الوقت الحاضر الى لارى . كما فصل اسم البشر . وكما يسلت تماما لكثير من الأشياء . » ولهذا السبب لم تعد الروايات التاريخية المتعلقة بهذا الاقليم موضع قبول . ان ظهرت هناك احوال جديدة ، وانتقلت الى تلك المنطقة شعوب اخرى - وكان لابد ان تختص كل تلك التغيرات للدراسة والبحث ، « انى لا ادرى قصصا ميتولوجية عنهم او معلومات قديمة ، او حتى اسمى عن اى جزء فى البحر الاسود مثل قول الشعراء انه بروميشوس *Prometheus* » (٥٤) كان موثوقا هناك ، لاني اعتر ان

(٥٤) تتكى الميتولوجيا ان بروميشوس هو سارق النار من السماء ومعلم البشر اتصالها ومن اجل ذلك تم ربطه فى احدى الصخور فى بلاد القوقاز الى ان انقضى احد القرون كيم - المترجم .

التاريخ بعيد كل البعد عن الميثولوجيا - وإنما اعرض بكل دقة وتنسيق  
إسناد تلك الأماكن والحقائق التي تتعلق بها في الوقت المناسب - (٥٤) .

رفض بروكوبيوس قبول الأعمال الساحرة للعادة في الميثولوجيا  
القديمة ، بيد أنه اعتقه اعتقاداً جديداً أنه إله المسيحيين قائم على صنع  
المجرات - ويصف بروكوبيوس كيف أن جوستينيان نفسه أصبح  
مستفيداً من المجرة - وكان الإمبراطور قد أصيب بمرض في ركبته  
سبب له ألماً مبرحاً - وكنت بروكوبيوس لأن الإمبراطور جلب هذا المرض  
لنفسه بسبب الطريقة الصارمة التي اتبعها أبان الصوم الكبير ، إذ عاش  
الإمبراطور دون تناول للطعام لمدة أيام ، وبأدرا ما كان يذهب إلى  
القراش ، وإذا ما أراد أن يأكل فاه ، امتنع عن تناول الخبز والخمر وكل  
أنواع الطعام الأخرى ، واكتفى بأكل الأعشاب البرية فحسب والمنقوعة  
تماماً في الملح والحل - واستمر بروكوبيوس يقول : ولهذا السبب  
تمكن المرض من الإمبراطور وصار خارج نطاق قهره الأطباء - وظل  
جوستينيان يعاني بشدة من تلك الآلام ، لفترة طويلة من الوقت ، ولكن  
أبان ذلك الذي سمع جوستينيان عن وفات مقصدة تم الكشف عنها ،  
والنفس عندئذ الملاج بفضل إيمانه بها ، وبعد أن قطع الأمل في القهرة  
البشرية ، وفي لحظة من الضرورة الملحة ، حقق ثمار إيمانه الصادق بها -  
لأنه ما أن وضع القساوسة المنحر الذي به وفات المومي reliquary  
على ركبته الإمبراطور حتى زال المرض المزمع ، بفعل رفات الرجال الذين  
كأنوا قد نفروا أنفسهم لأعلاء كلمة الله - (٥٥) .

على أن ذكر هذه المجزة في كتاب بروكوبيوس عن الانجازات  
المصاربية الفصحى ربما يجعل القارئ في ريبة بشأنه إذا ما كان بروكوبيوس  
مؤمناً حقاً بما كتبه - بيد أنه كتب عن مجزة أخرى في كتبه عن الحروب  
وقزيل هذه المجزة أي شك بهذا الخصوص - وتتلحق هذه المجزة بأحد  
التسابك السريان - و كان هذا السرياني يدعى يعقوب ، الذي ولد نفسه  
على الالتزام الشديد بالأمور الدينية - وعاش هذا التائب منفرداً لمدة  
سنوات في مكان يدعى اديلون Badialon . على بعد مسافة يوم من  
مدينة آمد Amidia . حتى يتمكن من التفرغ للتأمل الروحي في أماكن -  
ولكى يمارونه سكان ذلك المكان على تحقيق هدفه ، قاموا بإقامه حجاج  
حوله ، ولم تكن الأوتاد متصلة ، وإنما أقيمت على مسافات متباعدة حتى  
تسمح لمن يقترب منه من متابعاته والتحدث إليه . وأقاموا له سقفاً  
صغيراً فوق رأسه كانه لحياته من الأمطار والجليد ، وظل الرجل هناك  
قابلاً لفترة طويلة من الوقت ، دون أن يستسلم لحرارة الجو أو للبرد

على الاطلاق ، وظل مقبلا لوجه على القليل من الجيوب النباتية التي اعتاد على تكوّلها على فترات متباعدة وليس كل يوم . وما أن شاهد بعض الهياطلة Ephulhiac ، الذين اجتاحتها الاقليم بالقرب من ذلك المكان ، يقطوب حتى استلوا اقواسهم بجلوب شديد لاسايتة . بيد أن القمل اصاب ايديهم جميعا واصبحت غير قادرة على استهلاك الأقواس كلية . (٥٦) .

ولا بد ان هذه الفترة قد حطت اقتراس هؤلاء الباحثين الذين حاولوا وصف بروكوبوس بأنه كان صاحب فكر متحرز فيما يتعلق بالشئون الدينية . على أن ترك بروكوبوس عمل القضاء والقدر والخط لارادة الله يجب أن يدحض زعمهم بأن افكاره عن القضاء والقدر كانت وفقا لطريقة توكيديه الى حد كبير . كما أن حديث بروكوبوس عن اليأس على أنه « الأسقف الأكبر في روما » لا يمكن اعتباره دليلا على دهرية agnosticism المرعومة . إذ ربما استخدم هذا التعبير لمجرد ارضاء قرائه العلمانيين . ولاشك أن تلك الاشارة المتعلقة بالبابا انما كانت لارضاء السواد الأعظم في القسطنطينية الذين كانوا غير مؤيدين لادعاء روما بعقها في الأولوية في المرحلة والأهمية . ومن المحتمل أن تلك الأغلبية اشتملت على عدد من رجال الدين والعلمانيين ، ومعهم بروكوبوس ، وكلهم جميعا لم يؤيدوا بالكامل التعاليم الهرسية (٥٧) Patristic Doctrine على التحرر الذي قدمه المفوضون عن تلك التعاليم بالقرب .

عبر بروكوبوس عن بعض الضيق بالناس الذين كثر جعلهم حول المسائل اللاهوتية المتيقنة إذ جعله الخلاف حول طبيعة المسيح ، والذي طال مناه يسدي برونا تاما فقد كتب يقول : « أما متصوس المناط المتنازع عليها فبرغم أني على بيّنة تامة بها ، فاني لن أذكرها على الاطلاق . لأنني أعتبر الخوض في محاولة معرفة طبيعة الله للوصول الى ماهيته صريبا من الحماقة الجحونية . لأنني أعتقد أن الانسداد لا يمكن أن يدرك الأمور البشرية بكل دقة ، فما بالك عن قصوره في محاولة ادراك الأمور التي تخص طبيعة الله . ولذلك فاني سألتزم الصمت المطبق فيما يتعلق ملك الأمور ، من متعلق دافع واحد فحسب . وهو أن المعتقدات المجلة والتدنية لا يمكن أن تكون غير مترابطة ولا يمكن لي أن أقول شيئا عن الله سوى أنه لصال للتخير ووسمت رحته كل شيء » (٥٨) .

ومن الثابت أن بروكوبوس لم يوافق على الاحراجات الصارمة التي اتخذها جوستينيان كقمع الآراء الدينية المخالفة لمذهب الدولة . وكذلك

فعل الكثيرون من رعايا الامبراطور ولو قدم بروكوبوس إصدار الكتاب الخاص بالموضوعات الدينية الذي كان قد اعتزم اعداده في وقت ما ، لكان من المحتمل ان يجيب عن القصايا المتعلقة بوجهات نظره الدينية . وعلى الرغم من ان بروكوبوس لم يكن دهريا او ملحنا ، فلن هناك دليلا ضميما في كتاباته عن انه كان رجلا مؤثرا ايمانا عميقا . فلم يمرر عن مشاغره الدينية عندها كتب عن المسيح او القديسين او الكنيسة . فعلمنا ان يكتب عن امر يبدو مكنها بالأصرار ، مثل عدم محاولة القوط النوعل داخل مدينة روما من خلال « السور المكسور » Broken Wall حيث قبل ان بطرس الرسول هو الذي دافع عن المدينة . فان بروكوبوس اكتفى بذكر تلك الرواية وأنه كان من بين الذين « أصابهم الدمشة » من حموت هذا الأمر ( ٥٩ ) . وربما قوَّج القاريء ان يقدم بروكوبوس شيئا من الاعتراف بالأعمال التي تمت بالذات الله ، والتي فاقت طريقة البشر . بيد أنه لم يذكر شيئا لأنه كان مؤرخا « علمانيا » .



## بيده البجل

ان ( بيده ) هو ، « المؤرخ الأول لأوروبا في المصور الوسطى » ،  
 ويعملها في تعيين التواريخ الدقيقة ، للأحداث وتربيتها وفقا لمسئلتها  
 الزمني ، ( ١ ) - وربما كان ميلاده سنة ٦٧٣ م بجانب الشاطئ المنزلي  
 لشمال شرق إنجلترا حيث ارتفعت الأسوار المتواضعة لدير ويرموت  
 Weamouth ، على مقربة من ذلك المكان ، بعد سنة من ميلاد  
 ( بيده ) - وهذا القدر الضئيل عن بيده Bede ، وما لا يزيد كثيرا عنه .  
 فيما يتعلق بحياته الشخصية الذي أضافه المؤرخ الى تاريخه الكنسي عن  
 حياة الشعب الإنجليزي ويحكى ( بيده ) ، أن أقاربه وضعوه تحت رعاية  
 الرهبان ، وهو في السابعة من عمره . وبعد ذلك بعامين ، أي سنة  
 ٦٨٢ م ، أرسله يدكت ميسكوب Benidict Biscop رئيس الدير ،  
 مع حوالي عشرين من جماعة رهبان دير هاوث الى دير جارو Jarro  
 على بعد عدة أميال من ديرهم الأول ، ويقع ديرهم الجديد على الضفة اليسرى  
 لنهر تاين Tyne وفي دير جارو قضى ( بيده ) طيلة حياته ، باستثناء  
 زيارة واحدة ، الى لينديسفرن Lindisfrane ، التي تبعد مسافة خمسين  
 ميلا الى الشمال ، وزيارة أخرى الى يورك York ، التي تقع جنوبا ، وعلى  
 مسافة أبعد قليلا عن مسافة زيارته الأولى . ولا يمكن لأحد أن يجزم بأنه  
 قام برحلات أخرى . بخلاف الرحلة التي تصر اللمطورة ، على أنه قام بها  
 الى روما .

وبالنسبة لبيده كانت الفترة ما بين سنة ٦٧٣ م وحتى وفاته سنة  
 ٧٣٥ م فترة شغلها كطالب علم ، وراعي ، ومعلم ، وكاتب - وحصلنا  
 على تلك المعلومة من شهادته ، « وعند ذلك الحق فصاعدا » ، وأعطى

ذلك . منذ الوقت الذي صار فيه حضوراً في الأخوة الديرية في ديرى  
 وبراوت ، وجاؤوا ، « فقد قضيت كل حياتى فى ذلك الدير . وانهضت  
 كلية فى دراسة الكتاب المقدس . ورعاية النظام الديرى » (٢) . وفى  
 الانشاد اليرسمى فى الكنيسة . « وكان من بواعث سرورى على الدوام ،  
 ان اتعلم . او اعلم . او اكتب » (٣) . وفى التاسعة عشرة من عمره ،  
 اى قبل أن يصل الى الخامسة والعشرين ، وهى السن القانونية تحت رسامته  
 شماساً . وكانت رسامته فى الكهوت . وهو فى الثلاثين تماماً - وتعلم  
 على يد العالم المشهور بدكت بسكوب Benedict Biscop ، مؤسس  
 الدير لفة اثني عشر عاماً - وحلت وفاة ( بيده ) ، بعد أن انتهى من  
 ترجمة آخر سفر من ايجل القديس حنا ، الى اللغة الانجليزية . ووفقاً  
 للراهب الذى لازم ( بيده ) فى ساعاته الأخيرة ، كانت آخر دعوات بيده .  
 « اللهم اقض روحى لأتمم بالجلوس فى المكان المقدس ، الذى صليت من  
 اجله ، لاسعد بحضرة الذات الطيبة » . ثم أنشده وهو على أوصية  
 صومته قائلاً : « المجد لله وللأبن وللروح القدس . تم لفظ أتمامه  
 الأتمرة » (٤) .

وعلى الرغم من قبول قدر مما نشر عن ( بيده ) فيما يتعلق بورعه .  
 وفقاً لوصف كاتب سيرته عن الساعات الأجر له . قال الطريقة التى  
 هات بها ( بيده ) ، يدعو وثيقة الصلة بالتعرف على هذا العالم وفهمه .  
 من كل الشواهد المتاحة يبدو أنه عاش ومات قديساً . ويقدر ما يمكن  
 التحقق منه من خلال ما كتب ( بيده ) . ومما كتبه عنه الآخرون ، ينصح  
 انه مدر نفسه لطوال حياته لأعلاء كلمة الله . فعلى الحقيقة لم يكن هناك  
 شيء آخر يمكن أن يحسم عنه أى حرق لقسمه الرهبانى - وعلى الرغم من  
 تعاقب القرون ، بما فيها قرنتنا الحالى ، كان له الفصل بالسبب لصفحاته  
 عن التاريخ الأخير الانجليزى الباكر ، الذى لولاه لكان غير واضح الى حد  
 كبير ، فان اهتمامه بالتاريخ كان مخطوفا بالنسبة الى اهتمامه بتاريخ  
 الكنيسة ، والمسيحية فى انجلترا ، ولا شك أنه من محبته كان يسره تأدية  
 خدمة للمصالح الدينية للأجيال التالية كلما كان ذلك ممكناً . وبالنسبة  
 اليه ، فانه لم ينحرف عما اعتزده بفعل فى طاقى مسؤولياته كراهب  
 وعالم . وبالسبب للكتابة التاريخية ، كان ( بيده ) مؤرخاً كسبياً أولاً ،  
 ثم كاتباً لسير القديسين ، ولحسن حظنا ، كان صادقاً فى كل من المهمتين .

وتفسر حالة ( بيده ) الروحية الكاملة موقفه تجاه الأدب اليونانى  
 الرومانى . فاعتمد على الكتاب الوثنيين ، وعلى بلينى الكبير Pliny the  
 Elder ، فى كتاباته العلمية بصفة خاصة ، وفعل ذلك دون رغبة ،  
 ويلتون التسلیم بصحة ما كتبه . واستعان ( بيده ) بالكتاب المقدس ،

وأياه الكنيسة في الاستشهاد بالجمل النامية التي تعطي مزجاً من القوة والتوكيد لكتاباتهِ . بل أن بحثه عن علم المروءة يقدم لنا أمثلة توصفية عن الشعراء المسيحيين ، ونادراً ما لجأ إلى الشعراء الوثنيين . وكان فيرجيل *Virgil* ، هو الاستثناء الوحيد ، إذ شعر بأنه جدير بالاحترام ، باعتبارهِ مثلاً للمصور الوسطي على نحو نمطي (٥) . ونتيجة لتركيز (بيده) الشديد على الأمور الروحية ، فإن القارئ لتأريخهِ لن يجد معلومات لها أهمية اقتصادية أو اجتماعية . باستثناء شذرات عارضة عندما كان يندكت مسكوب مضطراً إلى طلب البنايين وصانع الزجاج من بلاد الغال ، لإقامة أديرة في ویرماوث ، وجارو . ومع ذلك فمن المدهش أن يبدى (بيده) اهتماماً قليلاً بالمؤامرات والحالات كسوف الشمس ، وخسوف القمر ، والزلازل . وعادة ما اقتصرت تلك الظواهر الطبيعية انتباه مؤرخي الحوليات في المصور الوسطي ، الذين مالوا إلى اعتبارها نذيراً بقدوم الكوارث . وخاصة بداية العالم . وما ينبذ دحضه أكثر أن (بيده) اعتقد أن العالم قد قطع شوطاً من العصر السادس ، وكذلك جزءاً كبيراً في عصره الأخير . ويشير إلى المديونات ، في إحدى المناسبات في نهاية صفحاته في تاريخهِ باعتبارها نذيراً بكارثة العالم آجئ .

ولم يعرف سوى أساء قصيرة وقليلة ، عن جري حياة (بيده) . ففي سنة ٦٨٦ م بعد أن انتقل (بيده) الذي كان في التاسعة من عمرهِ ، إلى دير حارو ، دهم وباء تلك جماعة الرهبان ، ولم ينج منه سوى (بيده) وكيولمرت *Ceolfrith* رئيس الدير . على أية حال ، قام الطلبة مترجمة كتاب تاريخ رؤساء الأديرة لمؤلف مجهول ، ووجدوا إشارة إلى أن صبياً صغيراً وكيولمرت من اللدان بيعاً على قيد الحياة ، ويستطرد الكتاب فيحكى كيف أن كليهما ، حاولا في بداية الأمر ، الاستعلاء عن تلاوة الترنيم التجاوبية ، عند انقضاء الطقس الديني للقدس ، باستثناء عند صلوات المساء والصباح . ثم وجدنا أن ذلك أمر لا يرحى ، لذلك قررنا أن نضاهي في إضافة كل الشعائر الدينية المقدسة ناقص ما لديهم من جهد وطاقة ، إلى أن انضم إليهما أعضاء جدت .

وهناك موضوع شخصي آخر - هو لقب « الجبل » الذي اشتهر به « بيد » على نحو تقليدي ، وهو لقب لا يحمل دلالة خاصة . ومن الواضح أنه لقب كان يستعمل كمرادف لكلمة « مشهور » ، أو « محترم » إلى حد ما - ولو تم اغلانه قديماً بصفة رسمية في مدى بضع سنين على وفاقهِ ، لا عرف بهذا اللقب المألوف على الإطلاق ، ودفع (بيده) في جوارو ، بيد أنه يعتقد أن وفاته ترقد حالياً في المحل بكانتبرائية دورهام *Durham* ويقال أن أحد الرهبان نقل رفاته (بيده) إلى دورهام حوالي سنة ١٠٢٠ م .

ونظرا لوفرة كتابات ( بيده ) فانفس من المنهش قيام جعل طویل حول أسالة كثير من المؤلفات المنصوية اليه . والواقع ان عددا كبيرا من الاتصال منسوبة اليه دون وجه حق . وفي رأى أحد العلماء الحديثين ، « لا يوجد كاتب نسبت اليه أصلا مختلفة غير مبرورة الكتاب مثلما حدث مع ( بيده ) » ( ٦ ) . وكثير من ملك الأعمال كانت مؤلفات لعلماء غير معروفين ووجدوا في المخطوط قبول شامل لأعمالهم ، ولذلك يسبوا الى ( بيده ) . وحدث أحيانا أن تركت بعض الأوراق في مخطوطة منحصصة لكتابة أعمال ( بيده ) ، ثم كتبت على تلك الأوراق مؤلفات لكتاب غير معروفين ، وبمرور الوقت نسبت المخطوطة بكل ما حوت بداخلها الى ( بيده ) . وظهر الكثير من الكتابات التي نسبت الى ( بيده ) بدون وجه حق ، في أوائل القرن السادس عشر ، عندما أخرج المناقشون الكاثوليك أعمال ( بيده ) Opera Bedae ، في حماسهم للحصن ادعيات أصحاب حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر ، فيما يطلق بآراء ووجهات النظر المتكررة لرحل اللاهوت التي لم يتركها القساد .

على أن الشيء الذي يسلط كثيرا على الوصول الى مجموعة دقيقة مما لكتابات ( بيده ) هي القائمة التي ديل بها المؤرخ ( بيده ) نارسه ، ومع ذلك فقد اختص العديد من الموضوعات التي وضعها ( بيده ) في القائمة ، في حين أن للموضوعات الأخرى التي فيها لم يرد لها وجود ، بما في ذلك ترجمة انجيل القديس جونا التي ليس لها وجود على الإطلاق ، ويستمر ( بيده ) مؤلفاته اللاهوتية ، وعظاته الدينية ، وتفسيراته للكتاب المقدس أهم أعماله ، وهي تبين أكثر أعماله في العدد والجسم . ووصل كثير من عظاته الدينية الى حد تلاوتها إبان الطقوس الدينية - وكفدت له كتاباته المنسوبة مكانة كمصدر لاهوتي بل آباء الكنيسة الأولى مباشرة لعدة قرون . ونظرا لذلك ما تضم أعماله اللاهوتية من تجديد وادعاء ، فانها أصبحت شائعة ، ومعبودة ، لوضوحها ، ولقوة عاداتها العلمية ، ومعاييرها الحقيقية ، ولما تضمنت من أوثودكسية واسعة .

وتعلق المصور الوسطى أهمية كبرى على ما يطلق عليه اسم كتابات ( بيده ) العلمية ، وفيما يتعلق بكتابات ( بيده ) العلمية ، فانه اعتمد على ما كتبه الآخرون الى حد كبير . وفي علوم الملك ، والجغرافيا ، والحيولوجيا ، وسجل العلوم بصقة عامة ، ونقل ( بيده ) كثيرا عن بليني الأكبر ، وكذلك عن إيسيدور الاشبيل Isidore of Seville . وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد ارتاب في أهمية ذلك الجهد القائم على النقل عن الآخرين ، فإن المصور الوسطي ، كان من الممكن أن تكون أكثر جدوا من الناحية الفكرية بدون كده واجتهاد ( بيده ) ، في دراسته لتلك

الكتابات الباكزة • واستيعابه لها • على أن إبحاث بيده المنطقة يتعين التواريخ الحقيقية للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمني لها أهمية كبرى (١) • وضع ( بيده ) نهاية لشكله ظلت تقص مضجع العلماء مريبي • على نهر متواصل منذ بداية التاريخ المدون - فيما ( بيده ) باستخدام مولد المسيح كنهاية لكتاباته • وهي طريقة بدأها الراهب ديسيدوريوس الكسجوس *Dionysius Exiguus* في أوائل القرن السادس الميلادي • ويشكل ميلاد المسيح بداية العصر السادس للعالم بالنسبة لبيده • كان تقسيم الزمن الذي ورثه عن مدينة الله للقديس أوغسطين عن طريق إسبندور الاشبيل - وكان تحديد موعد عيد الفصح دافع ( بيده ) الرئيسي لدعوة تبين التواريخ الحقيقية للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها • بنية حل الخلاف القائم بشأن موعد هذا العيد • وقبل أن تنص هذه القضية لصالح النظام الروماني لتحديد التواريخ • استمر المسيحيون الكلتوني في الارتباب في سلطة البابا الروماني -

وهناك كتابات أخرى لبيده ساعدت على توطيد شعبيته في أوانس العصور الوسطى • اشتملت على إبحاث في علم الاملاء • وعلم العروض • وعلى الرغم من أن تلك الأبحاث لم تؤيد أو تدافع عن الأسالة • أو الفصائل التي تتعلق بذلك • فانها أثبتت أصحتها في مدارس عصر ( بيده ) • وفي عهد الكارولنجيين الذين جاءوا من بعده • وأخذ ( بيده ) في اعتباره أن معظم أعماله تعليمية في أهدافها • وكان هدفه تدريسها في المدارس ورغم أن افتقار تلك الأعمال إلى الأسالة عمل على تقليل قيمتها الحقيقية إلى حد كبير • فإن القرن الثامن الميلادي • وما تلا ذلك القرن بصفة قرون لم يتضمن شيئا أصغر مما قدمه ( بيده ) ودعمت تلك الأعمال يمكن ( بيده ) الكمال من موضوعات الفنون الحرة الثلاثة ( النحو • والبلاغة • والمنطق ) • وسهولته غير المادية • في تقديم التفسير الواضح • ومقدرته على أن يحكم بعمق ما فاقته على ما يقرأ • وأن يستخلص النقاط الأساسية المهمة • ومهارته في تقديمها جميعا في طريقة مبسطة ومنهجية • ولم يسا ( بيده ) بالأسالة • وكان ( بيده ) قائما تماما بتقديم عمل متواضع ينظم مجموع المعارف الإنسانية التي قام بتصنيفها علماء سبقوه من أمثال إسبندور الاشبيل •

ووقع ( بيده ) العديد من التراجم • ونظم القصائد • وأهم قصائمه تلك التي نظمها إحياء لذكرى القديس كوثبرت *St Othbert* • وأهم الخطابات التي نسبت إليه ذلك التي أرسله إلى أجبرت *Egbert* • أسقف يورك • الذي كان أحد تلاميذه • وفي ذلك الخطاب صرح ( بيده )

الأسقف بأن يتخذ نفسه لاصلاح الكنيسة التي أعلن انها في حاجة ملحة  
للاصلاح .

ويضاف الى دور المؤرخ الذي لعبه ( بيده ) في كتابة التاريخ ،  
تقديم ( بيده ) تاريخ الشهداء الذي ساعد على شعبية هذا السورج من  
الكتابة التاريخية . وكما حدث فان كتابه عن تاريخ الشهداء كان قدما  
كبيرا يطوى الكتاب المجهول المؤلف الذي رجع اليه ( بيده ) . واضمح  
كتابا عن حياة رؤس ديري ( ويرماوث - حارو ) . وعمر حياة العديد  
من القديسين ايضا . واهمها كتابه عن حياة القديس كوثبرت .

وقام بكتابه حوليس ، كانت كل منهما إضافة الى الكرونولوجيا  
وحظيت أطول حاتين لحوليتين ، بقدر كبير من الشعبية ، والشهرة بين  
كتاب حوليات العصور الوسطى - وبدأ ملك الحولة منذ يوم الخليفة ،  
وسادت بسرعة حتى سنة ٧٢٥ م ، على معظم كرونولوجي دقيق . وتقدم  
هذه الحولية الدليل على اطلاع ( بيده ) على أعمال المؤرخين القدامى . بما  
فيهم المؤرخ ايوتروبيوس Eutropius (A) . بيد أن حولية المؤرخ  
يوسيبوس Eusebius ، التاريخ الكنسي ، كانت المصدر الرئيسي  
لحوليته . وما يثير الاهتمام في حولية ( بيده ) ، المعلومة الأخيرة في تلك  
الحولة ، والتي تحدث فيها ، عن المسيح الفصال . وعن يوم القيامة ،  
والجنة والنار - ويشير ( بيده ) في حويلته ، أنه في سنة ٧٢٥ م ذهب  
عدد كبير من الرجال والنساء الانجليز ، من البلاد ومن عامة الشعب ،  
لزيرة روما ، بدافع من ورعهم وتقواهم .

وباستثناء مطرد قليلة ، كتبت باللغة الانجليزية التي يطلق بها  
سكان نورثمبريا ، واللغة العامية التي استخدمها في ترجمة انجيل  
القديس حنا ، كانت كل كتاباته باللغة اللاتينية . وكتب ( بيده ) ،  
بأسلوب واضح ، وديق ، وبلغة عالم ، وعلم حريص على تحقيق قرائه ،  
وليس مجرد اثارة لطباع قوى في نفوسهم . ونظرا للموضوح الذي كتب  
به ( بيده ) ، وشذول أسلوبه ، وسعة الإدراك ، فانه يصدر الجميع  
باعتباره أهم الذين قاموا بالمحافظة على المعرفة اليونانية واللاتينية ، وكل  
ما يتعلق بأبناء الكنيسة وكتاباتهم ، ايام فترة يطلق عليها العصور  
المظلمة - ويسل بيده أيضا اروع نتاج لامتراج مبادئ فكريين ، تدعى لهما  
انجلترا بالفصل في القرن الثامن ، اذ لهما كاتا سببا لتفوقها في غرب  
اوروبا - وهما انتشار الكندي الذي ترحح أصوله من لفسمفريين  
Lindisfranc ، عبر أيوما Iona ، الى ايرلندا ، وانتشار الفكرى الجوى  
انقل الى كانتربرى وروما - وبسراة - فان (بيده) هدى ليندكت بسكوب

**Benedict Ninnop** مؤسس ديري ويراوث - حاور ، والذي ربما كان  
أكثر المعلمين المخلصين - ثقافة في عصره في إنجلترا .

ولم يستطع بيده الحصول على مجموعة من الكتب لها اهمه كبرى  
في أي مكان في إنجلترا سوى في دير جاور ، حيث قضى فيه الجزء الأكبر  
من حياته . وقدم يندكت مسكوب فائده جلية باحصاره معظم تلك  
الكتب من روما خلال رحلاته الخمس التي قام بها إلى المدينة المحلدة  
**Eternal city** - وتمت اضافة كتب أخرى إبان رئاسة كولفريث  
**Coolfrith** ، للدير . ومن المرجح أن غالبية تلك الكتب كانت له طبعه  
لاهوتية ، واحتوت على تاريخ أمان الكنيסה الشرقية ، واستطاع ( بيده )  
الاطلاع عليها لمعرفته باللغة اليونانية . ولابد أنه اردات آرقف حجره  
المسح بدير حاور بعدد من الآثار الأدبية الوثنية من كتاب التاريخ  
الطبيعي لؤلعه بليي **Pliny** . ومع ذلك فإن كبره من مئات المؤلفين  
الذين استشهد ( بيده ) بكتاباتهم كانت معرفه لهم مجرد معرفة ثانوية  
محسبه .

ومهما كانت درجة ذوق وعوى ( بيده ) ، أو مآثره الفكرية ، فهدون  
كتابه ، التاريخ الكنسي للتعبه الانجليري ، لم يكن ليفقد له أن يكون  
أفضل من هرابيوس مودوس **Harbasus Maurus** ، العالم الكارولجي ،  
الذي يماثله في الانتاج العلمي والمعرفة . وفيما يتعلق بهذا الكتاب الذي  
ألفه ( بيده ) ، فلهذا أصبح من التراث الأدبي لتاريخ المشرى بعمل  
منهجه في الكتابة ، وأسلوبه ، وفوق ذلك ، خصائصه السيرة التي تتضح  
من خلال أسلوبه ، ( ٩ ) - وانتهى ( بيده ) من إنجاز تاريخه سنة ٧٢٩ م  
عندما بدأت وطأة أمراض الشيخوخه تشنه قتلها عليه . ( على أن وجود  
إشارة إلى معركة نور **Norx** ، التي حدثت سنة ٧٣٢ م يوحي بأنه  
قام بإجراء مراجعات طعيفة ) - وكان النظام الذي سار عليه الكتاب وقد  
لنظام التسلسل الزمني ، على الرغم من ميل ( بيده ) للسماح لبعض  
الموضوعات ، بحيلة بعيدا ، مثل كتابته عن سير القديسين . بيد أنه  
عندما كان يشعر أنه قد ابتعد عن الموضوع ، فإنه كان حريصا على أن  
يعود بالقارىء من حيث وصل .

ويفتح بيده كتابه هذا بكلمه اهداء للملك كولوف من نورمبريا -  
وأبلى كيولولف **ceolwulf** اهتماما كبيرا بهذا الجهد العلمي ، بل وأجاز  
دراسته قبل الانتهاء من نسخ المسودة النهائية . وكتب ( بيده ) ،  
« أن جلالتم قد طلبتم مني أن تطلعوا على كتاب تاريخ كنيسته الألة  
الانجليزية الذي قصته بتوذيته مؤخرا - وسرني ، يا هولاي ، أن أقدمه

الى جلاتكم لدراسته وتقدمه في مرة سابقة ، والآن يسرني أن أقدمه مرة ثانية لجلالتكم للمسح والدراسة إذا ما سمح الموقف « (١٠) -

ثم يواصل ( بيده ) القول ذاكرة ما يبرز رأيه في الكتابة التاريخية :  
« إذا ما حكم التاريخ عن الأحيار من الرجال - وعن أحوالهم الطيبة -  
فسيجد القاري ، الذي يفكر بعض السامع لاتخاذهم أسوة حسنة له ،  
إذا ما ذكر التاريخ الأهداف والغايات الشريفة للأشرف ، فإن القاري  
سيميل على جانب كل ما هو ضار وضال ، وسيميل بكل ما في وسعه ،  
وكل ما هو خير ، وكل ما يرضى الله عنه » (١١) -

واستدح ( بيده ) الملك كيولولف لمرعته بامتلاك التاريخ لهذه المنصة ،  
وأطرى الملك - لرعه في نشر المعرفة عن هذا التاريخ - لأرشادك وإرشاد  
من جملتك السلطة الإلهية تحكمهم - « وكلما تصفح المرء كتاب التاريخ ،  
الذي ألفه ( بيده ) غالباً ما يجد أن المؤلف يقدم هذا التبرير الأخلاقي  
لكتابة وقراءة التاريخ -

وبذل ( بيده ) جهداً كبيراً في محاولة اقتناع الملك وقراءته الآخرين ،  
أبع عمل كل ما في وسعه ، « لإزالة كل أسباب الشك ، في ملك الموضوعات  
التي أكتبها ، سواء من فكر أو من فكر أي شخص من الآخرين ، الذين  
قد يسمعون ، أو يقرؤون هذا التاريخ » - ومنذ الفترة التي سبقت  
وصول أوغسطس إلى بريطانيا سنة ٥٩٧ م ، استمد ( بيده ) عاداته  
التاريخية « ، من هنا وهناك ، وصفة خاصة من كتابات المؤرخين الأول  
« ويمكن تحديد هؤلاء في بليسي Piny ، وأروسوس Orosius ،  
وجيلداس Gildas وكذلك حياة القديسين البس Alban ، وجيرمانوس  
Germanus ، أما بالسيرة للسنوات التي تلت منه ٥٩٧ م ، فاستشهد  
( بيده ) بما كتبه البسنوس Albinus الذي كان صدره الرئيس ،  
والذي كان رئيساً لدير القديس بطرس St Peter ، والقديس  
بولس St Paul في كاسبري ، والذي عرف فيما بعد بتابع القديس  
أوغسطس وهو صديق حميم لببب ، والذي شجعه على كتابة التاريخ « ،  
وهو رجل واسع المعرفة ، تعلم على يد رئيس الأساقفة بيودور الطرسوس ،  
وحاذريان ، طبيب الذكر رئيس الدير ، وكان كل منهما مبعلاً ومعتقاً -  
« وقام البسنوس بإجراء بحث شامل وكامل للمجلات المكتوبة ، ونقّب  
كل التراث القديم ، الذي يخص كتب Kent ، والممالك الأنجلو  
سكسونية الأخرى وقام بتسليم تلك المادة العلمية إلى نوريلم Nothelm ،  
أحد قساوسة لندن ، والذي قام بدوره بإعطائها إلى ( بيده ) ، وذهب  
نوريلم أيضاً إلى روما حيث ، « حصل على إذن من البابا جريغوري للبحث

في سجلات المحفوظات بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، عن رسائل ،  
 ووثائق اعتقد أنه من الممكن أن يستفيد منها ( بيده ) وواصل ( بيده )  
 حديثه بالتفصيل عن مصادر معلوماته : « أيفي لي دانيال ، أسقف سكسون  
 الغربية ، الذي ما زال على قيد الحياة . ويحظى بكل احترام وتقدير رعيته  
 في كتابة شيء عن تاريخ الكنيسة في مناطق المنطقة التي يرعاها ، والمناطق  
 المجاورة في كل من سكس *Ssex* ، وجزيرة وايت *Isle of Wight* ،  
 وبإضافة إلى ذلك ، علمته في جوان دير لاسنجهام *Easingham* ،  
 التي شيدها كيد *Obd* ، وشادهاو *Chadhow* ويحصل جهود هذين  
 القسوس من قسامة السبع المخلصين آمنت مملكة مرشيا *Mercia*  
 بالمسيحية . صد أن كانت مصرة على عدم الإيمان بها من قبل - وعلمت  
 أيضا من رهبان لاسنجهام ، عن حياته ومات هذين الأيوس . بالإضافة  
 إلى ذلك ، عرّض تاريخ الكنيسة في شرق انجلترا *East Angles* .  
 من خلال كتابات لو ترات السابقة ، ومن خلال ما كتبه الأب اسي  
*Abbot Esi* المحترم ، والذي يحظى بكل تقدير . وعلمت عن انتشار  
 المسيحية ، وتماقب الإضافة . اما عن طريق رسالة من كينبروت  
*Cynobrot* الأسقف المؤور ، أو ما سمعته بنفسه من الرجال من أهل  
 الثقة . بيد أن ما حدث في الكنيسة في مختلف أنحاء نورمبريا ، عند  
 أن اعتنقوا المسيحية هناك ، حتى الوقت الحاضر ، لاستثناء الموضوعات  
 التي عرقتها بالطلاق الشخصي ، وليس لي مصدر سوى شهادة شهود العيان  
 للمخلصين المتدينين ، الذين إما علموا بالأمر أو تذكروها ( ١٢ ) .

واختم ( بيده ) دراسته للتفصيل عن المصادر التي رجع إليها عند  
 إعداد كتاب التاريخ بفقرة دلت على أنه مؤرخ حقيقي ، « وبذلك أتقدم  
 بكل تواضع للقارئ » ، وأقول إذا ما وجد أي شيء ، غير حقيقي فيما كتبه  
 لا بسببه إلى . ذلك لأنني حاولت ببساطة أن أكون ما جمعت من الروايات  
 الشائعة . من أجل تنقيف الأجيال » ( ١٣ ) .

ويبدو واضحا من دراسة ( بيده ) للمصادر التي استقى منها معرفته  
 أنه كان مهتما بصفة أساسية ، أن لم يكن كلية ، بالأمور التي تتعلق  
 بالمسيحية والكنيسة . ومع ذلك فهناك صعوبة في الإيهام أن ( بيده )  
 أدمج في تاريخه معلومات عن التاريخ الديني الذي قد يدخل السرور  
 على قلوب القراء . ولذلك يقول أنه « ذكر تلك الأحداث التي يعتقد أنها  
 جديرة بالتحفة - ومن المحتمل أن تغفل السرور على المواطنين » ( ١٤ ) .

على أن القصة المتعلقة بصدر احتسام اليابا جريجوري الكبير ،  
 بتحويل بريطانيا إلى المسيحية ، تمثل المثال الرئيسي ، الذي جعل ( بيده )

مدينة المعرف والثقافة أكثر من المصادر المكتوبة في الحصول على معلوماته ، ويحكم ( بيده ) القصة - « يقال انه في يوم من الأيام ، وبمجرد وصول بعض التجار الى روما ، كانت كمية من السلع التجارية مروضة للبيع في السوق - وابتدح حشود من الناس لتشتري - وكان جريجوري من بينهم - وشاهد جريجوري بين السلع بعض الفئان المعروضة للبيع ، يشترهم الفقراء ، وجوههم الوسيمة ، وشعورهم الجميلة - وقال انه سأل عن الاقليم أو البلد الذي أتوا منه بمجرد أن شاهدتهم - وبلغه أنهم أتوا من جزيرة بريطانيا ، وأن كل سكانها على مثالهم في الشكل وسال جريجوري إذا ما كان سكان ملك المبروك قد آمنوا بالمسيحية أم أنهم ما زالوا متورطين في آثام عبادة الأوثان - ثم قتل ذهبيته عيشة - واحترقوا ! أن يسيطر الضلال على هؤلاء الناس أصحاب الوحوش الوحشة ، ويضعهم في جحيمه ، وأن يجعل قلوبهم حالية من صفة الروح الالهية ، في الوقت الذي يسمون به بالخلقة الجميلة - « وسال مرة ثانية عن حسهم وعرف انه يطلق عليهم الانيجل (\*) - فقال « حسنا - ان لهم وجوه الملائكة ، ويجب أن يكون هؤلاء القوم رقفاً للملائكة في ميرات الفردوس » (١٥) -

وبعد تقديم تصدير الكتاب - انتقل ( بيده ) الى الكتاب الأول من تاريخه - ويفي هذا الكتاب الفتره ما بين غزو يوليوس قيصر الجزيرة سنة ٥٥ ق.م ، الى دعاب أوغسطس والرحبان الذين راققوه اليها سنة ٥٩٧ م - وهنا يتحدث ( بيده ) على يليني الأكبر ، وأوروسوس Orosius ، وجينداس Gildas بصمة أساسية في الحصول على ملحة العلمية - وبدأ كتابه بوصف الجغرافية كل من بريطانيا ، وإيرلندا ، وكذلك نرويجها الطبيعية - وعلى حين أننا قد لا نسلم بأن الجغرافيا علم مساعده في دراسة التاريخ ، فإن ( بيده ) كان مقتنعا ، بلا أدنى شك أن المعلومة الجغرافية معين القراء على معرفة دخول المسيحية ، وتموها في تلك البلاد - برغم أن تلك المعلومة الجغرافية ليس لها طبيعة روحية - « بريطانيا التي كانت فيما مضى يطلق عليها البيون Albion هي جزيرة في المحيط وتقع الى الشمال الغربي ، وهي مواجهة للاميا ، وبلاد الغال ، وأسبانيا وهي تكون الجزء الأكبر من أوروبا - برغم بعد المسافة بينها وبين تلك البلاد - وتمتد الجزيرة من الجنوب الى الشمال لمسافة ثمانمائة ميل - وعرضها مائتا ألف وثمانمائة وخمسة ومسيود ميلا - والجزيرة غنية بالمعاصر والاشجار ، وبها مراعي خصبة للماشية ، وفواج العمل - وتوجد بها اشجار الكروم في مناطق معينة ، وبها وقر في الطيور البرية.

والثانية - وما يلفت النظر ما بها من انهيار مزخر بالأسماك ، وبخاصة  
 السلون ، وتمايل البحر وما بها من مياه غريبة الانتاج - وكذا ما يتم  
 فيه عجل البحر والدرفيل بل والحيتان - وبالإضافة الى ذلك توجد  
 أنواع مختلفة من المحار ، ومن بينها يوجد بلح البحر ، الذى يوجد بملاحه  
 الملوأ المتأخر من كل لون ، الأحمر ، الأرجوانى ، والبفسجى ، والأخضر  
 بيد أن اللون الأبيض هو الأكثر - وهناك غرة مرقى اللود ، وهو لون أحمر غاية  
 فى الجمال ، ولا يتأثر عندما يتعرض لحرارة الشمس أو الأمطار إذ انه  
 كلما تعرض للبرودة كلما ازداد حملا - ومن البلاد عيون للمياه المالحة ،  
 وأخرى للمياه العذبة - وتنساب منها الأنهار التى تعدى المسافات  
 البعيدة ، والتى تناسب كل الأعمار ، من المسنين ، من أمالي متصلة  
 وصنقله ، وفقا لحاجة كل فرد - والبلاد غنية أيضا بمروق العلوأ ،  
 مثل المحاسن ، والحديد ، والرصاص ، والفضة ، وتنتج أيضا قدرأ كبيرا  
 من الكهرمان الأسود اللامع والمصقول ، والذى يشتمل إذا ما وضع فى  
 النار ، وعندما يتوهج يساعد على طرد الأفاعى بعينها ، وعندما يصبح  
 دافئا بفعل الاحتكاك المستمر ، فإنه يحذب اليه أى صدف يوضع ملاصقا  
 له ، كما تقبل مادة الكهرمان البلى اللون والصابون الى اللون الأصفر  
 تماما وفى وقت ما كانت البلاد مشهورة ببنائها الشائبة والمشرس ،  
 بالإضافة الى الأماكن المحصنة الكثيرة ، التى كانت تحميها الأسوار والأبراج  
 القوية ، والوابات ، والأقمار (١٦) - وفى الوقت الحاضر يوجد فى بريطانيا  
 خمس لغات ، كما يكتب القاريون النفس فى خمسة كتب ، وكلها مخصصة  
 للمصنوع من الحكة - - والميل على نشرها واعنى بذلك الحقيقة فى أسس  
 معانيها ، والرفعة الصادقة ، واللفظ الحس : هى التجربة ،  
 والبريطانية ، والايرلندية ، والكتبة ، بالإضافة الى اللغة اللاتينية  
 ومن خلال دراسة الكتاب النفس ، صارت اللغة اللاتينية ، هى اللغة  
 الشائعة بين تلك اللغات جميعها - وفى بداية الأمر كان سكان الجزيرة  
 هى البريطون Britons ومنهم عرفت الجزيرة باسمها بريطانيا ، ويقال  
 انهم ابعدوا اليها من بلاد أرموريكا Armorica (١٧) ، واختاروا  
 لانفسهم الجزء الجنوبي من الجزيرة (١٨) .

واستمر (بيده) فى دراسته بوصف وصول المكتيب The Picts  
 الى ايرلندا ، حيث رفض الايرلنديون السماح لهم بالإقامة فى ايرلندا ،  
 تحت ذريعة أن الجزيرة كانت صغيرة للحد الذى لا يجعلها تستوعب لهم  
 جميعا - واقترح أهل ايرلندا على المكتيب أن يذهبوا الى جزيرة أخرى  
 ليست بعيدة عن جيرانهم ، وتقع فى الاتجاه الشرقى ، والتى غالبأ  
 ما يشاعلونها عن بعد فى الأيام الحالية من الضباب - - وبناء على ذلك

أبحر البكتيون إلى الشرق ، واتخذوا موطنهم في الأرض الواقعة شمال  
نورثمبريا Northumbria .

ويكتشف وصف ( ييم ) لإيرلندا عن الجمع بين الحقيقة والأشاعة  
التي لا أساس لها من الصحة ، وهو الأمر الذي ميز كتابات الحوليات في  
العصور الوسطى كثيراً ، إلى إيرلندا أكثر اتساعاً من بريطانيا ، ومنها  
أكثر اعتماداً ، للدرجة أنه من النادر بقاء الجليد بها أكثر من ثلاثة أيام .  
ولا يحصل البرسيم أبداً في فصل الصيف بقية استغلاله في فصل  
الشتاء ، كما لا توجد بها حطائر للغوالب والماشية ، ولا يوجد زواحف في  
إيرلندا ، ولا تستطيع الثعابين السامة أن تعيش هناك ، وعلى الرغم من  
انتقال الثعابين من بريطانيا إلى إيرلندا ، فإنها كانت تسوت على وجه  
السرعة لتأثرها برائحة الهواء ، وفي الحقيقة فإن كل شيء تقريباً مما  
تنتجه أرض إيرلندا ، له تأثير شديد ضد السم . وعلى سبيل المثال فقد  
شاهدنا كيف أنه في حالة إذا ما عانى أحد الأفراد من عضّة ثعبان ، فإن  
أوراق المخطوطات من إيرلندا كان يتم كشط ما عليها من آثار الكتابة ،  
ثم يوضع ما تم كشطه في الماء ، ثم يشربه من تفرص لتلك العضة وعلى  
الفور يصل تلك المواد المشوشة والمداية في الماء ، والتي شربها المصاب ،  
على تسكين الؤلم ، وعلى منح حصة انتشار السم وتزهر إيرلندا باللبز  
والصل ، ويوجد بها لثيمان الكروم ، والسمك والطيور ، وهي مشهورة  
أيضاً بصيد الغزلان من الغابات ( ١٩ ) .

وبعدنا التصل الثاني من الكتاب الأول بسودج رائع ، عن مقدرة  
( ييم ) على التلخيص ومقارنة الروايات المختلفة لأحداث معينة ، كانت  
في متناولهم لحسن حظه . وهذا اعتمد ( ييم ) بصورة أساسية على  
أوروسسيوس Orosius ، وجيلداس Gildas ، ولونروبيوس-  
Entropius ، وبروسر Prosper وماركيلينوس كومن Marcellinus Comen .  
لم يسبق للرومان أن حاجبوا بريطانيا إذ لم تكن معروفة لديهم  
حتى عهد جايوس يوليوس قيصر Gaius Julius Caesar الذي كان  
قنصلاً مع لوكيوس بيبولوس Lucius Bibulus سنة ٦٩٣ م من  
تاريخ روما الموافق سنة ٦٠ ق م ( ٢٠ ) . وعندما كان قيصر يعد لشن الحرب  
ضد الجرمان ، والغال ، الذين كان يصلب بينها نهر الراين وصل  
قيصر إلى موريتي Morini ، ومن تلك المنطقة توجه أقرب واتصر مسافة  
للوصول إلى بريطانيا . وجهز حوالى ثمانين سفينة حربية معدة لنقل الجنود  
والمعدات وكذلك قوارب كبيرة معدة لنقل الأحمال الثقيلة . وأبحر قاصداً  
بريطانيا ، يبدو أنه دخل في معركة شريفة في بداية الأمر ، ثم اغتصمها  
عاصفة هوجاء ، ومن ثم فقد حزماً كبيراً من الأسطول وعدداً كبيراً من

جنوده ، من بينهم كل فرسانه تقريباً . ثم عاد الى بلاد الغال وارسل  
فرقة إلمرية الى ثكنات شتوية ، وأعطى أوامره ببناء ستمائة سفينة من  
كلا الجانبين . ثم أبحر بتلك السفن الى إنجلترا في أوائل الربيع . وأبانه  
رحله نجده أطلقوا تعرضت سبعة الرامية على الشاطئ - البريطاني لعاصفة  
خارجية . حطمت أسطوله اما عن طريق اصطدامها ببعضها البعض ، أو  
بسبب الأضرار على الشاطئ . وظفد قبحر لم يبق تلك العاصفة أربعين  
سفينة ، أما باقي السفن . فقد تم إضلالها بقصوبة بالغة .

وفي المواجهة الأولى هزم البريطانيون **Bruton** فرسان قيصر .  
وقتلوا التريون لايبوس **Latibon** . وهي المركة الثانية . وبرغم  
تعرض رجال قيصر لأخطار جسيمة ، فإنه هزم البريطانيون . وأجبرهم على  
الفرار . ثم اتجه قيصر مسوب نهر الدير . وجميع حشد صخم  
من الأعلى على الضفة الأخرى للنهر ، تحت قيادة كاسوبيلوبوس  
**Cassobellanus** ( كاسيبيلوبوس **Cassibellanus** ) .

ونم وضع سائر اللعاعة ، من الأوتاد الحادة ، غطت صغرى النهر تقريباً ،  
وكذلك الخاصة من أسفلها . ويمكن حتى يومنا هذا مشاهدة آثار  
ونفايا تلك الأوتاد . وعد فحص كل منها . وجد أنه في مكان فخذ  
رجل ، ومغلي بالرماس . ومثبت بطريقة تجعل من الصعب اختلاعه من  
قاع النهر . وشاهد الرومان تلك الأوتاد ، وتصوروا وكذلك جعل البرابرة  
أد كانوا غير قادرين على مقاومة هجمات العرب الرومانية واستنفوا في  
العابات . واعتادوا على الخروج منها لنس هجمات ساحلة . وكثيراً ما ألحقوا  
خسائر ولاة بالرومان ، وفي ذلك الحين ، استسلمت مدينة نرينغوانت  
**Trinovantes** ومعها قائدها اندروجيوس **Androgeus** ، الى قيصر .  
وسلمته أربعين رهينة . وتحتها مدن عديدة وفقاً لما تم . وتوصلت تلك  
المدن الى نظام مع الرومان . وأخيراً استطاع قيصر بفضل مساعدتهم ،  
الاستيلاء على مدينة كاسيبيلوبوس . بعد قتال مرير . وكانت تلك  
المدنية تقع بين مستنقطين ، فصلا عن أنها كانت محاطة بالأراضي التي  
تكسوها العابات ، وبها مستودعات ضخمة بها كل نوع . وبعد ذلك عاد  
قيصر من بريطانيا الى بلاد الغال (٢٢) .

واستمر ( بيده ) في تقديم وصفه التاريخي لبريطانيا . وأشار الى  
الغزو الذي قام كلوديوس **Claudius** . بيد أنه أغفل ذكر الثورة الكبرى  
في عهد الملكة بوديكا **Boudicca** ، إبان حكم تيرون  
**Nero** . ويذكر أنه بالإضافة الى الكوارث التي لا حصر لها ، فقد  
تبرون كل بريطانيا تقريباً . وكرر ( بيده ) الخطأ الذي وقع فيه أوجوستوس  
**Orosius** عندما نسب سور حادريان **Hadrrian** الى سبتيموس

صيفريوس *Severinus* ، الذي مات سنة ٦٦١ م .  
 ثم تحدث عن اضطهاد المسيحيين ، الذي عم أرجاء الإمبراطورية ، ووصل  
 إلى حالة جبرية ، شديدة العنف في عهد ثقلديانوس . وفي إنجلترا كان  
 القديس البر *St. Alban* . أول الشهداء . وعن قصة وفاة القديس  
 البر جمع ( بيده ) بين التاريخ ، وسر القديسين - وهنا يكشف ( بيده )  
 عن رغبته الشديدة في قطع التسلسل الزمني للأحداث ، بتقديمه تفاصيل  
 إضافية عن حادثة يعتقد أنها ستعمل على رفع المستوى الثقافي للقارئ .  
 ويحكى كيف أن البر الذي كان وثنيا ، تأثر بشدة بورع القس المسيحي  
 الذي أحب في منزله إلى أن أس البر نفسه بالمسيحية - وعندما علم  
 الحاكم الشرير بوجود القس ، أمر بإلقاء القبض عليه ، حيث ارتدى البر  
 الملابس الكهوتية الخاصة بالقس ، وقسم البر للمحاكمة أمام القاضي .  
 وعندما تم احضار البر أمام - القاضي ، كان القاضي واقفا أمام مذبح  
 الشيطان ، ويقدم الأضاحي لهم . وما أن رأى القاضي البر حتى بدأ عنه  
 العصب بشكل مفاجئ ، لأن البر تجلس على طواعة وسلم فعنه للشرطة ،  
 وعرض فعنه حفر جسمه لمصلحة الصليب الذي أواه في منزله - وأمر  
 الجلود بأن يسحبوا البر أرضا ، أمام تماثيل الشياطين والتي كان يقف  
 عندها القاضي ، وقال القاضي ، لقد صمت بأخفاء شخص مشرد ، وهنتك  
 لحرمة معشقاتنا الدينية ، بدلا من تسليمه إلى جودنا ، حتى يلقى العقاب  
 المستحق لخروجه على تعاليم ديننا ، بتسقيفه آلهتنا ، ومن ثم فانك مستقل  
 العقاب الذي سنحقه إذا ما حاولت أن تنحل عن عبادتنا وعن دينا !

« وعندما لقي البر الاستسلام قال له القاضي : ما هي أسرتك ؟  
 وما هو أصلك وتسميتك ؟ فأجاب البر : « وماذا يعنيك من معرفة أصلي  
 ونسبي ؟ » ولما ما رغب في معرفة الحقيقة عن ديس ، فاعلم ماى أؤمن  
 بالمسيحية ، وأنى على استعداد بأن أقوم بإجبي المسيحي . وقال القاضي ،  
 « انى مصر على معرفة اسمك . عليك أن تطلق على القور » . ثم قال  
 البر ، « سماني والذى البر وساطل مؤمنا ، وعابدا لله الحي الحق  
 خالق كل شئ » - « جود عليه القاضي بفضب شديد ، « إذا ما رغب في  
 حياة سعيدة ، ورغبة ، عليك بتقديم الأضاحي إلى الآلهة القوية » - « جود  
 عليه البر ، « إن الأضاحيات التي تقدمونها للشياطين ، لا يمكن أن تصل  
 على مساعدة الصائدين لها ، أو تحقق آمانيهم ، وتوسلاتهم ، وتضرعاتهم » -  
 وعلى العكس من ذلك ، فإن من يقدم الأضاحيات إلى تلك التماثيل ، يلقى  
 العقاب الأبدي ، في نار جهنم جزاء له » . وعندما سمع القاضي ذلك الرد ،  
 أمر ضارب البر شربا مبرحا ، عله يضعف أمام العقاب . وبرغم ذلك  
 العقاب القاضي تحمل البر بصبر وثبات ، تمسكا بسادة الله . ولما أدرك

القاضي ان البنز لم ياتر بالعقاب ، ولم يحزحرج عن الايمان المسيحي ،  
امر باعدام البنز شنقا » .

• وكان المكان لحد لاعلم البنز في موصح يحتاج الامر فيه الى  
عبور نهر للوصول اليه . غير ان الراغبين في مشاهدته عملية الاعدام  
يجهرروا فوق الجسر عبر النهر ، مما جعل من المسحيل على البنز والشخص  
المكلف باعدامه عبور الجسر ، ومن ثم ، « اقرب القديس البنز من النهر  
ورفع عينيه الى السماء ، لانه كانت لديه الرغبة الملحة ، هي ان ينال سمّة  
الاستشهاد » فجلت نياه على القور في المكان نفسه ، وشاهد البنز المياه  
وهي تنحسر تاركة خلفها ميرا ليسير عليه » .

ووفقا لرواية ( بيده ) زيت الطيبة مكان الاعدام على نحو حقيقي ،  
يتناسب مع شهيد مسجّد » . ويقع هذا التل على بعد خمسة مائة خطوة من  
المنطقة ، وكان التل مكسوا من كل جانب بالأحجار البرية ، من كل نوع ،  
ويستد على نحو معهد سطح السهل ، على نحو متآلف وجميل . وفي الواقع  
ان الجبال الطبيعية للتل كان مناسبة لأن تحمل عليه البركة بسماء شهيد  
مقدس ، وعندما وصل القديس البنز الى قمة التل ، سأل الله ان يعطيه  
ماء متعجّر ينبوع دائما على العور ، من تحت قدميه ، حتى ان كل من شاهد  
ذلك أدرك ان المياه كانت رهن اشداوته . وهكذا قطعت رقبة الشهيد  
الشجاع في ذلك المكان ، وتسلم ناج الحياة ، الذي وعده به الله كل من  
أشبهه . بيد ان الشخص القوي أطلق يده الدنسة حول رقبة القديس لم يضر  
بالحياة ، لأن رقبة القديس المبارك سقطت على الأرض ، ومنها عيني من  
أعلمه » ( ٢٢ ) .

واختتم ( بيده ) روايته عن تلك الحادثة ، يذكر انه القاضي امر بوقف  
عمليات تعذيب ، واضطهاد المسيحيين ، لأنه ، « كان منهشاً لهذه المعجزات  
الرائية التي لم يشاهد شيئا لها » . وفيما بعد ، وعندما ساد التسامح  
مع المسيحيين ، « أقيمت كنيسة فخمة تتناسب مع استشهاد القديس  
البنز » وحتى يومنا هذا يذهب المرضى اليها للشفاء ، ويزيد من شهرتها ،  
استمرار المعجزات التي تتكرر حيا بعد حين » .

ومع ذلك فلم تكن تتوقف عملية اضطهاد المسيحيين ، وينتصر  
التسامح مع المسيحيين حتى أطلقت الآراء الدينية المسيحية التي تتعارض  
مع الايمان المسيحي المتفق عليه أي الهرطقة بوجهها القبيح . وأشار  
( بيده ) الى « الحبل الأبروسي الذي أضل كل أنحاء العالم ، واعتد أثره  
المسيح الى هذه الحرية المنصلة عن كل أنحاء العالم ، بكل ما احتوت تلك  
الآراء الهدامة على ضلال وفضلال » . وكانت هناك آراء أشد خطورة على

انجلترا) لاجتماعه الكبير . وهي الاثرا العتيقة . التي نشرها بيلاجيوس  
البريطاني Brison Pelagius . حيث نشر آراء جديدة ، وعقيدة ،  
في كل مكان ، واتكز حاجتها الى التمسك القسيسة . ونصفي القديس  
أوغسطين St. Augustine . وباتى الآباء الأرثوذكسي لتلك الصلاة ،  
بالاستمهاد بسم الآله من النصوصي الكاثوليكية . بيد أنهم تفصلوا في  
تصحيح مسار هؤلاء الفالانج ، والألسوا من ذلك ، أن هذه الصلاة ، التي  
يرا الشعب معها بالمودة الى الحق ، ازدادت جدوها بلعل التصنيف  
والتناقص = ( ٢٢ )

وقام ( بيد ) بررد التاريخ للسنوات العشر التالية على الحكم  
الروماني لبريطانيا . وتوالت روايته التاريخية في سر وايچار . بيد أن  
عدم ثقة وصحة ما كتبه بصفة عامة ، يكشف عن حرصه الشديد في ذكره  
ما ورد في المصادر التي رجع إليها ولم تكن تلك المصادر دقيقة ، وكذلك  
ما كتبه تقلا عنها . ومن ثم كتب ( بيد ) عن السور الذي بي على وجه  
السرعة ، في عهد أنطونيوس النقي Antonius Pius ، فيما بين  
سني ١٤٠ و ١٤٢ م ، ضد البكتيين ، والاسكتلنديين ، غير أنه نسب  
ذلك السور الى البريتون الذين كانوا في حالة قلق ، وشبهوه على وجه  
السرعة حوالي ٤١٥ م تحت ضغط فرقة روحانية ، كانت قد جعلت بالمودة  
ثابتة الى بريطانيا . بناء على مناقشات أمالي البلاد الأصليين . والسمة  
الوحيدة الميضية بالمشكلة على تلك الفصول الأولى ، هي قسوة ( بيد )  
عندما أثبت أن البريطون يقتفرون في الشجاعة ، وصانة الخلق . « بيد  
عودة الرومان الى بلادهم ، عرف الايرلنديون ، والبكتيون أن الرومان لن  
يعودوا ثانية ، لذلك استرد الايرلنديون والبكتيون أنفسهم ، وصاروا  
أكثر شجاعة من ذي قبل ، واحتلوا كل المناطق الشمالية ، والأجزاء  
البعيدة من الجزيرة حتى السور الذي كان يفصل ما بين سكان البلاد  
الأصليين . وهناك أمر البريطون قواتهم المنهارة ، بالانتشار في حالة  
استعداد قصوى ، للدفاع ، وظلوا يقضون الليل والنهار بقاومهم للربعة  
والمرتعة . ومن ناحية أخرى ، لم يتوقف الإغناء المسيحيين بالسلاح عن  
قيامهم بشن هجمات جديدة الخراب والدمار واضطر المدافعون الجساء الى  
الانبطاح أرضا ، والاتصاق بالأرض . وباختصار ، هجروا مدنهم وهربوا  
عبر السور ، وتمت شملهم . وواصل الإغناء مطاردتهم للبريطون ،  
وتبع ذلك حدوث مذبة وحشية كبرى - وتقطع البريطون اليؤساء اربا ،  
على يد أعدائهم ، كما تفعل الحيوانات المتوحشة بالحيوان - واضطروا الى  
مناداة ديارهم ، وأراضيهم الزراعية القليلة الانتاج . وحاولوا انتقاذ أنفسهم  
من الجاعة عن طريق سلب ونهب بعضهم البعض - وهكذا أضاعوا نراهم  
الدخل في كوارثهم الخارجية . الى أن صارت كل البلاد بلا طعام وخاوية

على عروشها ، اللهم إلا ما يجهلونه من حديد لسد رءسهم » ( ٢٤ ) .

كان البريطون الشعب الوحيد الذي تعرض لما يدنو من التحامل المتصرى من قبل ( بيده ) - ومن المحتمل أن عدم التزامهم بالمبادئ الدينية سبب ذلك التحامل ، وليست الاختلافات الثقافية التي تولد التحيز في العادة - وهاجهم ( بيده ) فيما بعد لعدم بدوهم أى جد من مبادئ النزاة الجرماني الى المسيحية ، برغم أنهم انتصروا عليهم ، وكذلك لعدم قبولهم التقويم الروماني وعند هذا الحد أدانهم ( بيده ) في تاريخه لاحتلالهم ، وكان انحرافهم سبباً في أن حلت عليهم لمة الله وغضبه -

ويستند المؤرخون على ( بيده ) عند الكتابة عن تاريخ بريطانيا في القرن التالي لتاريخه - وعلى الرغم من أن بعض معلومات بيده التاريخية أخذنا عن جيلداس Gildas وليس من السهل تحديد المصدر الأساسي لبعض من النتب العلمية التي أوردنا مثل اسمى هينجست Hengist وهورسا Horsa رئيس جماعة الإجلوسكسون - وصتد أن البريطون قد طلبوا منها أن يساعدنها ضد البيك ، والاستنديين - وأورد ( بيده ) ذكر اسم فورتيجرن Vortigern ملك البريطون ، الذي طلب مساعدة السكسون - وحدد أيضا القبائل الجرمانية الرئيسية التي غزت شواطئ بريطانيا ، إبان تلك السنوات ، وهي السكسون Saxons ، والأنجلز Angles ، والبوت Jutes ، ومن ( بيده ) معلومات التاريخية عن حياة القديس جيرمايوس St. Germain التي كتبت حوالي سنة ٤٧٥ م ، والتي لم يعد لها وجود - وفي الحقيقة قام ( بيده ) بميل رائع في تاريخه عندما غطي بريطانيا ، إبان تلك القرون ، واستعان بالكتابات الأخرى الأكثر قلما ، والتي لم تعد موجودة -

إن أى أمر من الأمور عن المسيحية كان يجنب امتساعه ( بيده ) ، ويحصله يبنى اعتماداً به - إذ أولى مسألة الهرطقة البيلاجوسية Pelagian Heresy عناية خاصة ، وكذلك تقاعس البريطون عن محاولة القضاء عليها - ولهذا السبب ذهب كل من الأسقف جيرمايوس ، والأسقف لويوس Lopus من بلاد الغال الى انجلترا ، لمساعدتها أن يعلوا نجاه مقاومة تلك الهرطقة - وصغرت السفية التي حملتها عياب بحر الماش في عمان ، بفضل الرياح اللواتية ، ووصلت الى منتصف الطريق ، بين بريطانيا وبلاد الغال الى أن صاحتها جماعة من الشياطين الذين استبد بهم النصب لتساعدنها وجليين ، من أصحاب المنزلة الرفيعة - وقد أتيا لتحقيق الخلاص للشعب - واشتدت العواطف ، وأظلمت الدنيا بالسحب ، وتحول النهار الى ليل - وعجزت اشعة السفن عن تحمل غضب الرياح ، وابت كل جهود البحارة بالتفشل الفريع ، وسارت

السفينة بفضل الصلوات ، لا بفضل بعض جهود البحارة ، وأخشي الإيهام قائد السفينة ، القديس جيرمانوس . فقط في ميناء عميق ، ثم ارتدحت حدة العاصفة ، وغمرت الأمواج السفينة ، فأوشكت على الغرق . ثم أيقظ القديس لوبور ، ومن معه فانهم ، وهم ق مزمع شديد عله يضع خط انصليب المواصل والقوى الجوية . واستيقظ جيرمانوس ، الذي كان أكثر ثباتا عنهم جميعا ، في مواجهة الخطر المحدث . ودعا المسيح باسم الثالوث الأقدس ، واحد بقليل من الله ، وقذف به على الأمواج المتسافرة والمتلاطمة ، وفي الوقت نفسه لام جيرمانوس رفاقه على استسلامهم للهلع والفر ، وعمل على رفع روحهم المعنوية ، ثم سألوا الله السلامة في صوت واحد - ونسخت العناية الإلهية ، ولاذ الأعداء بالفرار ، وحلت السكينة ، وهذات الرياح والأمواج . ثم هبت رياح مواتييه ساعدت على وصولهم بسرعة وأمان ، إلى بر السلامة في إنجلترا . وهناك احتشد جمع عظيم من كل المناطق ، لاستقبال الأسقفين معه أن شاح خبر وصولهما في كل مكان . وأعلنت الأرواح الشريرة أن ما خشوا من وقوعه ، قد حدث بالفعل ، وعندما طردتهم أولم الأصفاف من أجساد الذين سيطروا عليهم ، أقروا بأنهم هم الذين أحدثوا العاصفة الهوجاء ، والأخطار المصيبة ، وأعدروا بهزيمتهم أمام فضائل وسلطان أولئك الرجال . ( ٢٥ ) .

واسطاع هذان الأسقفان اللذان وصلا إلى إنجلترا في تلك الظروف الميؤنة أن يعصيا على هيمنة السيجوسيه Pelagianism على الشعب ، على وجه السرعة وكتب ( بيده ) أن أعدادا ضئيلة حصرا انجذبت إلى عبادة الله .

وقد يقبل القاري ، رواية ( بيده ) عن وصول جيرمانوس ، ولوبور إلى إنجلترا ، ورغم أنه قد يمزو حدوث العاصفة الهوجاء ، وانتهائها إلى أسباب ليست ضمن الأسباب التي أوردتها ( بيده ) . ومع ذلك فقد يعطى لتفسير ( بيده ) أدبا صاغية ومتعاطفة إذ عاش ( بيده ) في عصر أحدث فيه الظواهر الطبيعية تفسيراً خارقاً للطبيعة ، عندما كان يعصب تفسير تلك الظاهرة على نحو يقبله العقل والمنطق . وتلك المادة مستعمل القاري ، في عصرنا يشعر بقدر يسير من الخوف وخيبة الأمل ، إذا ما حدثت كما وصفها ( بيده ) .

ويدعو أن السكسون القزاة عبروا اتهامات جيوشهم ، وفسدوا جيوشهم إلى جهود اليكتين ضد البريطون . وكذلك اضطر الآخرين الذين حكم عليهم ( بيده ) بأنهم شعب تنقصه الشجاعة إلى أن : « كانوا مجبرين على حمل السلاح . ونظرا لخوفهم من عدم مساواتهم في الكفاءة أمام أعدائهم ، لذلك نالهمو الأسقفين القسيسين المساعدة . وعلى الفور لدى الأسقفان مطلبهم ، وأعادوا إلى هذا الشعب الجبان ثقة إلى الحد التي يصل

المرء ، يستعد أن جيشاً ضخماً قد انضم لمساندتهم ، والواقع أنه بفضل هذين القائدَيْن الرسوليَيْن ، حاول المسيح بنفسه في جانبهم - وفي ذلك الحين حل موسم الصوم الكبير ، وزاده قسمة حضور الأسقفين ، إلى حد أن القصب الذي استمع يوماً إلى الطلقات ، اعتصم المسيحية اقواياً وحصل على نعمة المعمودية - ولم تجتهد أعداد كبيرة من الجيش - وتم به كيسة من أغصان الأشجار ، استمداً لميد الصبح ، وقد أقيمت في ميدان القتال للجيش ، كما لو كانت قد بنيت داخل المدينة ولهذا توقع الجيش نصر الله - بعد أن عطيت مياه المعمودية أجساد جنوده ، ووصلت أنبياء استمداداتهم إلى الأعداء ، الذين كانوا على ثقة من النصر - ويرغم أن الأعداء كانوا يهاجمون جيشاً غير مسلح ، غابهم سارعو إلى الأمام يتلهف شديد ، غير أن حصارات الاستطلاع البريطانية قامت برصد تحركاتهم ، وهكذا انتهت احتفالات عيد الصبح للهيبة - وفي الوقت الذي كان فيه والجزء الأكبر من الجيش قد فرغ لتزود من المعمودية ، عرض جيرمانوس أن يقود جيشهم بنفسه - ولعب جيرمانوس دوراً نشطاً ، وبعد أن تصرف على اللحظة المحيطة ، شامداً وادياً تحيط التلال المتوسطة الارتفاع ، ويقع في الأسباه الذي توقع تقدم الأعداء منه وأمر جيرمانوس جيشه غير المدرب ، بالتمركز في ذلك المكان ، وتولى قيادته بنفسه - وانضمت قوات الصور الشرس ، وشوهد بوضوح عند اقترابه من الجيش الذي انتظر في حالة ترقب - ثم أمر جيرمانوس ، الذي حمل مسئولية العمل بنفسه جنوده بأن يصيحوا صيحة رجل واحد : **سبحوا الرب** - ثلاث مرات في اللحظة التي اقترب فيها العدو ، الذي اعتقد بأنه قد باغت جيش جيرمانوس بهجوم مفاجئ - وما إن قالوها حتى تردد صدها بين التلال ، صارت من قوة الصوت - فشر العدو بالفرار والهلع ، واعتقد وكان كل الصغور المحيطة بهم ، وطباق السموات ، قد سقطت فوقهم فخارت قواهم من شدة الهلع حتى أنهم لم يتمكنوا من الجري بسرعة - وولوا الأديار ، وهم على غير هدأ ، بعد أن ألقيوا بأسلحتهم طلباً للنجاة - واندفع الكثيرون منهم إلى الخلف دون تردد وهم في حالة من الذعر ، وغرقوا في البحر ، الذي كانوا قد عبروه منذ وقت قصير وهكذا وحده جيرمانوس جيشه منتصراً دون قتال - وحجج المنتصرون الفنائم التي تركها الأعداء ، وانهم الجند الأنقاء بنصر الله - وهكذا تنبأ الأسقفان على العدو دون إراقة للدماء ، وأحرزوا نصراً بقوة الإيمان لا بقوة السلاح - (٢٦) -

وكب ( يله ) أن البريطون شابهوا اليهود الذين آثاموا مؤقتاً في سيناء ، وهم في طريقهم إلى أرض الميعاد ، في الفترة التي عاشها البريطون ، بعد خروج الجيوش الرومانية من بلادهم سيشره - فتمسكوا

اتبع البريطون تعاليم الله . عاشوا في رغد من العيش وعندما ضلوا سواه السبيل أنزل الله عليهم غضبه ، عقابا لهم على سوء عملهم ، « وأضاف الى الجرائم التي اقترفها البريطانيون » أمور ذكرها مؤرخهم جيلداس Gildas في كلمات محرنة منها أنهم لم يقوموا على الاطلاق بالتبشير بالايان ، بين السكسون والآنجلز الذين عاشوا معهم في بريطانيا . ورغم ذلك فإن الله ، الذي وسعت رحمة كل شيء شمل برحمته شعبا يعلم عنه خاتمة الأئين . وما تخفى الصدور ، وأرسل اليهم المبشرين بالحق لينسل هذا الشعب سفيرة الايمان » ( ٢٧ ) .

ان المبشرين بالحق الذين أنشأ اليهم ( بيده ) في ذلك الحين ، هم القديس أوغسطين St. Augustin ، وجلسة الرهبان ، الذين أرسلهم جريجوري الكبير الى بريطانيا سنة ٥٩٧ م . ومن بين التلميحات التي يلتقيها جريجوري الى أوغسطين - والتي ذكرها ( بيده ) - تحفيزه من القضاء التام على كل الطغوس ، والشعائر الذميمة الوثنية . ايان جيوده لتحويلهم الى المسيحية - فلم ينف أوغسطين بحطيم معابد الأوثان ، « وإنما حطم الأوثان التي بها » وقام أوغسطين وزقاقه ، « يرش لئلا المفسد » في تلك الميادين ، وبناء المذابح ، ووضعوا بها آثار القديسين والشهداء . . . وعندما وجد أفراد هذا الشعب معابده كما هي ، بدأوا يتخلصون من عبادات الجباله من قلوبهم ، آمنوا بعبادة الله الحق » ( ٢٩ ) .

وكان تعاون الملك اثيلبرت Ethelbert ملك كينت Kent ، التي رسا بها . . . أوغسطين ، وجساغته التبشيرية ، له فعالية ، وتأثيرات ، فالتت تعليمات البابا جريجوري ، في تصدير شعب كينت . اذ كان هذا الملك متعلقا مع الدين الجديد ، بفضل نفوذ زوجته بيرتا Bertha ابنة ملك باريس للبروفنجي ، التي كانت تؤمن بالمسيحية . ويقول ( بيده ) ان اثيلبرت لم يأسر ضغوطا على شعبه لقبول المعمودية ، ومع ذلك ، « فانه أبدى مودة أكثر للذين آمنوا بالمسيحية ، باعتبارهم وفاقا له في مملكة السام » بيد أنه تعلم من معلمه ومرشديه ، أن العمل من أجل المسيح اختياري ويجب ألا يكون إجباريا » ( ٢٩ ) .

وبعد ( بيده ) الكتاب الثاني من تاريخه بالكتابة عن البابا جريجوري الكبير ، وتحمها بدميخ الرجل وتأيينه . وساعد النناء القوط ، الذي غمر ( بيده ) به جريجوري على جعله أكثر الباطرات شهرة في انجلترا في المصور الوسطى وربما دفع مديح ( بيده ) لجريجوري ألفريد الكبير Alfred the Great ، الى القيام بترجمة العديد من مؤلفات جريجوري بيد وفاة ( بيده ) بقرن من الزمان . وقبلا على وصف ( بيده ) لكتابات جريجوري - « ولقد طلبوا منه ( جريجوري ) بالحاج أن يقدم

تجرعاً لكتاب أيوب Job ، وتفسيراته الدينية وهو الكتاب الذي اكتشفه غيوس شديده - ولم يستطع جريجورى أن يرضع ما ألزمه به اخوانه المؤمنون ، ولا سيما أنه رأى احتمال أن يكون لصله هذا قائمة كبرى للكثيرين - وهكذا فلم جريجورى يعرض تفسير لكتاب أيوب فى خمسة وثلاثين كتاباً ، فى طريقة رائعة ، للمعى الخفى لكتاب أيوب ، وما تضمنه من اتجاهات يتجسم على كل مؤمن الأتزام بها - - - وألف جريجورى كتاباً آخر مشهوراً ، وهو المهمة الرعاوية Pastoral Care ، وعرض فى هذا الكتاب ، ما يجب أن يتم عند اختيار من يتولى أمر الكنيسة ، وعن كيفية معيشة هؤلاء الحكام ، وعن درجة المصافة ، وحسن النعيم التي يجب أن يتحلوا بها ، عندما يملكون أنواعاً مختلفة من المستعمرين ، وعن ضرورة العمل بكل جد واجتهاد ، لتجنب مواطن الزلل فى نفوسهم ، وألف جريجورى عظة دينية عن الإنجيل Homilies on the Gospel وأربعة كتب نص عنوان محاورات Dialogues ، وفيها جمع كل الفصائل لأكثر القديسين شهرة - عرهم أو صمغ عنهم فى إيطاليا ، بناء على طلب شمساسة بطرس ، باعتبارهم قدوة حسنة لكل الأجيال القادمة - وكتب جريجورى أيضاً كتاباً احتوى على اثنتين وعشرين موعظة عن كيفية التمتع بالنور الروحي من خلال لشدة بجواب شخصية جن قبائل النسي غوضاً ( ٣٠ ) .

وأبلى ( بيده ) اهتماماً كبيراً فى الجزء الثانى من تاريخه عن اعتناق ادوين Edwin ملك نورثمبريا Northumbria للمسيحية ، وهو الإقليم الذى نشأ فيه ( بيده ) - وبناء على ما ذكره ( بيده ) ، فقد نجح ادوين فى حد سلطته وقوته على كل أنحاء بريطانيا ، بالإضافة الى جيوشى انجليزى Man Anglesy وسكان - ثم حكى قصة اعتناق ادوين للمسيحية ، وعن الرغم من أن ادوين كان وثانياً فى بداية الأمر ، فانه تزوج من اتيلاورج Ethelburg ، ابنة ايجلبرت Ethelbert ، ملك كينت Kent ، ووعد بدراسة المسيحية بنفسه ، وبعد التمثل عند ممارسة زوجته للشعائر المسيحية - وذهب الأسقف بوليبوس Paulinus ، الى نورثمبريا ، مع اتيلاورج الذى كان مكلفاً برعاية الملكة ووصيفاتها ، بتقديم العظات الدينية اليومية ، وإقامة القداس حتى لا تتأثر الملكة ومن معها بالمعتقدات الوثنية ، عن طريق التعامل مع الوثنيين .

وحدث أن بوليبوس لم يحرز سوى تقدم طفيف فى تنصير الوثنيين ، بالرغم من حماسه ولم يكن له أى حظ مع الملك نفسه ، الى أن تم إحضار معارلة لانتيناله - ووصفه ( بيده ) المأذنة قائلا : « وفى البسة التالية

ذهب الى نورمبرج ، أحد القتل ، ويضعي أوسر Eomer ، الذي أرسله كويشلم Cwchelm ملك السكسون الغربيين ، على أمل حرمان الملك من مملكته وإتخاذ عليه - وحصل هذا القاتل معه سديا قصيرا له حذان - وملطخا بالنس ، ليضمن مقتل الملك بالنس في حالة عدم مقتله بجرح عميق - وذهب القاتل الى قصر الملك الواقع قرب هود ديرونت Dorwent ، وفي يوم عيد الفصح - ودخل القاتل قصر الملك تحت ذريعة تسليمه رسالة من سيدة - وفي الوقت الذي كان يرضى فيه رسالته ٥٥٠ المزعومة ، وثب بجاء ، واستل السيف من تحت عيائه ، وهجم على الملك - وشاهد ذلك ليلا - هلقا ، أحد أتباع الملك الاقطاعيين يبد أنه لم يكن معه درع في يديه ليحمي الملك من الموت - لذلك بقي ينعسه على وجه السرعة ، على الملك ، حتى يتلقى الضربة بجسده حماية للملك - فقد العروس سلاحه بأقصى قوة أدت الى مقتل التابع الاقطاعي للملك ، وجرح الملك أيضا بعد أن احترق السبع جسد ليلا - واستلقت السيوف من كل جانب ، واشهرت على القاتل على الفور - بيد أنه كان قد تمكن من قتل أحد أتباع الملك يدعى فورتهير Forthwer ، بسلاحه البشع ( ٢٦ ) .

وفي اليوم الذي تعرضت فيه حياة الملك للخطر ، أصبحت له روحته ابنه . وما أن أقنع الأسقف يولينوس الملك ادوين أن زوجته أنجبت له الطفلة سلام بفصل دعوانه حتى وعده الملك بالتحمل عن عبادة الأوثان ، واعتناق المسيحية - بيد أنه انتظر حتى يأمره صر الله بهزيمة السكسون الغربيين ، الذين أرسلوا اليه مجرما لاعتقاله . وبعد أن تحقق له النصر الذي تمناه ، ظل في حالة تردد - فكان عليه أن يأخذ رأى كبار مستشاريه ، ومن ثم دعاهم الى الاجتماع به ، وطلب من كل منهم أن يدلي بدلوه في رآيه عن الدين الجديد . فأجاب كويش Cwchelm ، كبير الكهنة ، على الفور ، « سيدى الملك ، تدبر عناية هذا الدين الذى يرضى علينا . ومن ناحيتي ، فاني أعترف بكل صلف وصراحة - أن الدين الذى يؤمن به ، وتفننك به ، غريبا تماما من أى قتاليه أو فائقة . ولا يوجد أحد من وعيتك قد أخلص لعبادة ألهتنا أكثر منى ، برغم وجود الكذابين الذين نموا بها أعتقدته عليهم ، من خيرات وتشريف أكثر منى ، بلاصاعة الى أى سلطان ، لقدمت الى العون والمساعدة على الفور ، حيث اتى تخافيت في عبادتها على الدوام . وعلى ذلك إذا ما توصل البحث والدراسة ، الى أن هذه التعاليم الجديدة التى تعرض علينا أفضل وأكثر فمالية ، فمن الواجب الايمان بها على الفور ، ودون تأخير » ( ٢٧ ) .

وأيد المستشار الملكي الذي تحدث بعد كوفى موقفه ، وأضاف ملاحظاته القوية : سيدي الملك ، تبدو حياة الإنسان على الأرض على أنها غير مبرورة بالنسبة لما نحن فيه الآن . انك يا مولاي تجلس تناول ما لذ وطاب من الطعام مع كبار حاشيتك ، وأتباعك الاقطاعيين ، في وقت الشتاء ، والنار مشتعلة في المدفأة ، في وسط قصرك وكل شيء دافئ . في الوقت الذي تسقط فيه أمطار عواصف الشتاء والجليد ، ثم يدخل مصفور القصر فجأة وبسرعة ، انه يدخل من باب ، ويخرج بسرعة من باب آخر . لقد بقي المصفور في الداخل عدة لحظات ، ولم تستطع الرياح وعواصف الشتاء الهوجاء ان تنال منه شيئا . وبعد حلول لحظة الهدوء ، ينحني عن يصرخ ، ويتطلق ثاقبة بعيدا عن العواصف - وعلى هذا يبدو حياة الإنسان مجرد دقائق محسوبة . والواقع اننا لا نعلم عما هوأت . وإذا ما قدمت علينا هذه «الديانة الجديدة» معلومات أكيدة ، عمدت يبدو من المصواب الإيمان بها . (٣٣) -

ووافق العديد من المستشارين الآخرين صلتية موافقتهم مع كوفى دون خوف أو تردد ، في الوقت الذي أحد فيه كوفى الكلمة للمرة الثانية . وأعلن قائلا : لقد أدركت أن دينا عديم القيمة ، لأنه كلما حاولت جاهدة البحث عن الحقيقة ، في معتقداتي ، كلما أزدت اقتناعا بعدم وجودها . والآن أعترف بكل صراحة أن الحقيقة تبدو واضحة للعيان . في هذه التعاليم التي يمكن أن نغمزنا بعمق الحياة والخلص ، والسعادة الأبدية . ولذلك أصبح جلالكم ياغلاقي المصالح على الفور ، وبإشمال البران بها ، وينهايهما . التي كسا نفسها ، دون أن نجس أي ثمرة . (٣٤) -

ولا يد أن الكلمة الثانية التي ألقاها كوفى قد أقيمت ، لأنه أصغر قراره لصالح المسيحية على الفور . وعندها سأل الملك عن م لديه الاستعداد بالإعلان عن كفرانه بعبادة الأوثان ، تطوع كوفى وقال : « سأفعل ، إذ أن الله الحق منحني ما لم يمنح غيري » ما يجعل من المناسب أن أقوم بنفسى بتعطيم الأوثان ، التي عيبتها في وقت ما دون معنى ، وأن أقوم بذلك كما أعطى المثل الصالح للجميع . وعلى الفور طرح جانباً معتقداته الضالة ، وطلب من الملك أن يمدد بالأسلحة ويجوزد قوى ، وركب الجراد ، وذهب لتعطيم الأوثان . وفي ذلك الحين لم يكن مسموحا لكاهن كبير عندهم أن يحمل أسلحة ، أو أن يركب سوى حمار - وهكذا تحرك كوفى صوب مكان الأسمان ، منتظيا صهوة جواد الملك ، ومتقلبا سيفه ، وممسكا بحرية في يده . ولعند عامة الشعب الذين شاهدوه أنه قد أصابه حس من الجنون - غير أنه ما أن اقترب من المعبد الديني ، حتى أبدى

استقار له بإطلاعه الحربة صوبه دون تردد ، وهو في غاية الابتهاج لمراته  
عبادة الله الحق ، وأمر رفاته أن يسطعوا المبد ، وأن يشعلوا النيران  
فيه ، وفي كل مستوياته ، وما زال المكان الذي كانت به الأوثان ، ووجدوا  
بالقرب من يورك ، تجاه الشرق ، بعد نهر جيرونث ، ويدعى ذلك المكان  
اليوم باسم جودمانهام Goodmanham ، وهو المكان الذي أعلن كير  
الكهنة احتقاره له ، وحطم الفذائح التي أحاطها من قبل بحالة من القداسة ،  
وكل ذلك بالهام من الله ، ( ٣٥ ) -

ثم كتب ( بيده ) عن تعبد الملك لدوين = وعلة قومه ، وعدد كبير  
من رعيته - ودفع تحس أدوين للدين الجديد ، أن اعتنق ملك (لانجلز  
الشرقيين) وشعبه الديانة المسيحية ، وبورك الله في أدوين وملكنه ، ويقول  
( بيده ) : « وكما يقول المثل تستطيع المرأة التي تنجب طفلا ، أن تمشي  
في كل أنحاء الجزيرة من البحر إلى البحر دون كلل أو ملل » -

وعنه خاتمة الكتاب الثاني ، أطاع ( بيده ) التاري على التطورات  
السياسية التي حدثت خلال السنوات التي شملتها تلك الفترة ، وأشار  
( بيده ) إلى أن أدوين واج ضحية ثورة لشترك فيها بيذا Penda  
ملك ميرسيا Mercia الرئسي سنة ٦٥٣ م بعد أن حكم سبعة عشر  
عاما - بيد أن ( بيده ) كان سعيدا بتمكنه ، في بداية كتابه الثالث من  
ذكر أن عودة نشاط الوثنية من جديد في عهد بيذا ، وكيف لا  
Cardwlla ، بعد مقتل الملك أدوين ، لم يقدر لها البقاء طويلا -  
واستطاع الملك أوسوالد Oswald ، الذي كان قليلا في الطول ولكن  
قويا بإيمانه بالمسيح أن يحطم قائد البريطون الفخيف ، ويجيشه  
الضخم الذي قال عنه أنه لا يقهر ، ( ٣٦ ) -

ونظرا لأن الكتاب الثالث في التاريخ ورد به عجائب ومعجزات أكثر  
من أي مجلد آخر للمؤلف ، فمن المناسب هنا أن نعلق على هذه الميزة  
في كتابة ( بيده ) ، وهي ميزة قد أثارت الشيء الكثير من النقد ، لقد  
آمن ( بيده ) بالمعجزات ، كما فعل كل المعاصرين ، متفقين كانوا ، أم غير  
ذلك ، وكان الأساس في عمله ، إذا ما انتقل أمر إلى تفسير طبيعي  
يحولونه إلى تفسير يتعلق بمالم الخيب ، ويحب أن يضع قارئ كتاب التاريخ  
لؤلؤه ( بيده ) ، في ذهنه ، أن ( بيده ) كان يكتب تاريخا كنسيا  
لا علمانيا ، وشعر ( بيده ) بأنه ملزم إلى حد ما بأن يقدم للقارئ مادة  
علمية اعتقادا أن ذلك القارئ سيجد بها ما يصل على رفع مستواه الثقافي  
الديني - ومع ذلك قام ( بيده ) بذكر المصادر التي استقى منها قصصه  
المتعلقة بالمعجزات ، باعتباره مؤرخا ، وترك ( بيده ) للقارئ حق قبول  
أو رفض مصداقية المعجزة -

وسيجد القارىء لكتاب التاريخ لوقته ( بيده ) أنه غالباً ما يبحث ذكر المعجزة في المكان الذى مات به القديس أو دس به . فالمكان الذى اعتزل به الملك أوسوالد Oswald المتفسر ، يعتقد أن به قوى صيرة • لموجة أن اعتاد الناس على أنط بعض من تربة المكان الذى سقط فيه على الأرض . ووضعوه في الماء ، وباستعمال تلك المياه يتم لهم الشفاء من أمراضهم . وأصبحت تلك المادة شائعة ، وأخذت كميات كبيرة من تربة المكان على مر الأيام . حتى تكونت هناك حفرة بطع عمقها طول رقعة • وليس من المدهش أن المرضى كان يتم شفاؤهم في المكان الذى مات به الملك أوسوالد ، لأنه قبل موته لم يتقاضى عن رعايته المرضى الفقراء ، وتقديم الصلوات ، والمساعدات لهم • وهناك العديد من المعجائب والمعجزات التى حدثت في ذلك المكان ، أو في المكان الذى نقلت اليه تربة ذلك المكان •

وتعرض المعجزتان اللتان وصفها ( بيده ) تفسيراً ( طبيعياً • للقارئة السراع الى الشك في المبادئ الدينية • • ويقال ان رجلاً سافراً على جواد مر بالمكان الذى مات به الملك أوسوالد ، بعد موته بفترة قصيرة وعند ذلك المكان بدأ الجواد يشعر بالاعياء ، ثم توقف عن السير وألقى رأسه الى الأرض ، وخرج الربد من فيه ، ثم سقط على الأرض ، من شدة الألم ، صرجهل الفارس ، وحلج جلس ( قاشق تحت السرج أو فوقه ) الجواد ، وانتظر ليرى انما ما كان الجواد يستنفس صمحه ، أو ليتركه الى أن يموت • وعانى الجواد من الألم لفترة طويلة • وظل يتسرع في التراب من مكان الى آخر ، حتى انقلب رأساً على عقب ، وفي الوقت الذى أصبح فيه الجواد في البقعة التى مات بها لذلك . زال الألم على الفور ، واستنت معاناة الجواد الشديدة ، ثم بدأ يتسرع هنا وهناك ، كما تفعل الخيول بعد أن تنال قسطاً من الراحة ثم وقف الجواد . وقد شفى تماماً عن علته ، وبدأ يلتهم المشيب بشراهة • وعندما رأى الفارس الذكي ذلك ، أدرك أنه لا بد وأن تكون هناك علاقة مقدسة تربط ما بين المكان وشفاء الحصان . فوضع علامة على المكان ، وامتنطى صهوة جواده . وانطلق الى الحانة التى قصصها للإقامة بها • وعند وصوله الى الحانة . وجد فتاة هناك ، وهى إحدى قريبات صاحب الحانة ، وتماهى من الشلل • وعندما مسح أهل بيتها يرون حظ الفتاة لمجزها البدنى المخرن ، أخبرهم عن المكان الذى شفى فيه جواده • ولماذا أطبل الحديث ؟ لقد أخذوها من عربة . الى ذلك المكان ، ووضعوها على الأرض • وفي مدى فترة قصيرة من الوقت استقرت الفتاة في النوم • وعندما استيقظت ، وجهت أنها قد شفيت تماماً من عجزها البدنى • ( ٣٨ ) •

وسيجد القاري الذي يشعر بالانزعاج لكثرة عدد المجزات التي ذكرها ( يهه ) أن ذلك المزعج كان ميلا الى ذكرها ، وعلى سبيل المثال ما قصه عن أوسوين *Oswine* ، الذي شارك في حكم نورمبريا مع أوسويو *Oswiu* ، الذي اتصف بسلاوته ، وتجرفه من المبادئ الأخلاقية . وكان أوسوين ، رجلا ورعا ، وحكم مملكة دير *Deira* لمدة سبع سنوات ، عاشتها في رفاهية ، وأحب الجميع ، وتمنى أوسويو أن يحكم نورمبريا وعندما رفض أوسوين القتال وقام بتسريح جيشه ، أجبره أوسويو على محاصرة البلاد وتعرض للاغتيال . وتكشف القصة التالية عن مواهب ( يهه ) في سرد القصص . وكان الملك أوسوين طويلا ووسيعا ، ومهذبا ، وقظيفا ، وكريما مع عليا القوم ، وعامة الشعب على حد سواء . ولذلك أحبه الجميع للوقار الملكي الذي بدا عليه وظهوره ، وأعماله ، وسارع عليه القوم والكلم في كل أجزاء المملكة لنفسه . ومن بين كل مناقب الظهارة ، والشفة والتواضع ، أنه كان ينعم بالمسادة الروحية . بطريقة خاصة ، وكان التواضع عنده قوة فريدة للفدالة عليه . وكان قد أهدى للأسقف أيدان *Aidan* ( ٣٩ ) جوارا قويا . وبالرغم من أن الأسقف اعتمد على السير على الأقدام ، فإنه استطاع ركوب هذا الحصان عندما كان مضطرا الى أن يسير نهرا . وبعد ذلك بوقت قصير قابل الأسقف أحد الضحاذين . وطلب منه صمقه . فترجل من على الحصان ، على الفور ، وأعطاه للضحاذ ، بكل ما عليه ، من أغطية السرج المزركشة الملكية ، لأنه كان رجلا رجيا الى أبعد حد ، وصديقا للفقراء ، وأبا حقيقيا لليؤساء . وبلغ الملك ما فعله الأسقف ، وحلت أن قابل الملك الأسقف عندما ذهب لتناول الغذاء . فقال الملك للأسقف : « سيدي الأسقف لماذا أعطيت الضحاذ الحصان الملكي ، الذي أعطى لك ؟ ألم يكن عندك خيرول أقل قيمة ، أو أشياء أخرى يمكن أن تقدمها الى الفقير ، دون أن تسمح لضحاذ أن يحصل على حصان اخترته بنفسه لاستعماله الشخصي ؟ فأجاب الأسقف على الفور ، « مولاي الملك ، ماذا تقول ؟ بكل تأكيد أن ابن القرمس ليس أمر عندك من ابن الله ؟ وبعد تبادل تلك الكلمات ذهبا لتناول الطعام . وجلس الأسقف في المكان المضد له ، أما الملك الذي كان قد عاد توا من رحلة الصيد ، فجلس بالقرب من المدخاة ، وبعده أتباعه الاقطاعيون . وفيما تذكر الملك كلمات الأسقف ، فنزع سيفه ، وأعطاه لأحد أتباعه الاقطاعيين ، وإتجه بسرعة الى المكان الذي جلس به الأسقف . وسجد عند قدميه ، وطلب منه الغفران ، ثم قال الملك للأسقف : « لن أتكلم عن أي شيء أعطيتك لك . وتقوم بمنحه لابنك الله من الآن فصاعدا » وبدا على الأسقف التأثير الشديد لمساعدته ذلك ،

ونهض على الفور ، وساعده الملك على الوقوف ، معلنا أنه سيكون راضيا تماما ، إذا ما طرح الملك جانبا احساسه بالأسى ، وجلس لتناول الطعام ، واسترد الملك روحه المعنوية ، نتيجة لتوسلات ودعوات الأسقف ، بيد أن الأسقف من ناحيته بدأ عليه الحزن شيئا فشيئا حتى دعت عيناه ، وفي ذلك الحين سأل أحد القساوسة الأسقف بلفة لا يعرفها الملك أو الاتباع الإقطاعيون عن سبب بكائه ، فأجاب ايدان : « اني اعلم أن الملك لم يعيش طويلا ، واني لم أر على الإطلاق ملكا في مثل توامعه - ولذلك اعتقد أن الموت سيخطئه قريبا جدا ، وإن هذه الأمة ليست جديرة بحكام حثله . وبعد ذلك بوقت قصير تحققت توقعات الأسقف المؤسفة بموت الملك » (٤٠) .

ومات ايدان بعد اغتيال أوسوين بانتي عشر يوما ، وأعطت تلك المائدة ( بيده ) الفرصة ليوضح زيرور صاخب هذا الأسقف ، والمعجرات التي تسببت اليه - واختتم ( بيده ) مديحه للأسقف بالكلمات التالية : « لقد كتبت هذه الأمور عن شخصيه وأعمال ايدان ، باعتباري مؤرخ صادق ، وكتب برصاف الأمور على نحو دقيق كما قام بها ، والأحوال التي تخصصت عن تصرفاته ، لأن صفاته جديرة بالثناء والمثل في ذاكرة من يقرؤن لي من أجل خيرهم » (٤١) .

ونظرا لتعليق ( بيده ) أهمية زائدة على التمسك بالتحديد الروماني لموعد عيد الفصح ، فإنه أعطى أهمية متساوية لبعض الأبحاث مساوت مع أهمية المجمع المحلي في وايتبي Whitby سنة ٦٦٤ م عملا حسنت مسألة تحديد موعد عيد الفصح بشكل نهائي - وترجع الخلفية التاريخية للاختلاف في تحديد الاحتفال بعيد الفصح الذي طرده - رجال الأكليروس في شمال إنجلترا ، وبين الموعد الذي أقرو رجال الأكليروس في جنوب إنجلترا ، إلى عصر الفترات الأنجلو سكسونية - وعمليا عملت تلك الخلافات على تقطيع أواصر الروابط بين إيرلندا ، وباقي العالم المسيحي ، لم يتم تحديد موعد عيد الفصح على نحو عالمي ، وكانت إيرلندا قد أقرت كل التقاليد التي كانت قائمة في شرق البحر المتوسط ، لأن الطبيعة الديرية الإيرلندية كانت قد تشكلت ونما للمؤثرات الشرقية ، أكثر من تأثرها بالمؤثرات الغربية . ولذلك فلمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما ، عند حوالي سنة ٤٠٠ م فصاعدا ، تركت الكنيسة الكلتية وشأنها ، فيما يتعلق بتبنيها تحديد موعد عيد الفصح ، وبالإضافة إلى هذا الاختلاف في تحديد موعد إقامة هذا الطقس الديني ، فهناك أمور دينية جرت مجرى العرف ، مارستها الكنيسة الإيرلندية ، ولم تمارسها الكنيسة اللاتينية ، مثل تناول الخبز المخمر ، ولذلك كان أمرا محتملا أنه ما إن انتشرت

المسيحية شمالاً من كنتبري ، عندما أقام بها ورجال الأكليروس القادمون معه من روما حتى اصطلمت مع المسيحية التي مارس ملتزمها المبشرون الكلتيون من أيونا *zona* ، ولينديسفرن *lindisfarne* .

على أن الفتي عجل بالمعوة الى عقد المجمع المحلي في وايتباي ، لبحث مسألة عيد الفصح كآذ موضوعاً غير خطير ، وهو حدوث علم ارنياح في عصر الملك أوسويو *Oswin* في نورمبريا ، في ربيع كل عام ، نتيجة للخلط الناتج عن الاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح والذي حدث أن الملك أخذ بالتقويم الكلتي ، في الوقت الذي أدخل فيه زوجته مالتقويم الروماني ، فكان الملك قد انتهى من الصيام ، واحتفل بأحد عيد الفصح ، في الوقت الذي كانت فيه الملكة وشعبها في فترة الصوم الكبير ، ويحتفلون بأحد المسبب .

وعلى ذلك عقد مجلس في وايتباي في ضيافة الملك ، وكان كولمان *Colman* ، الأسقف الأيرلندي ، القوي في شخصيته وثقافته اللاهوتية ، من بين كبار رجال اللاهوت الذين حضروا ذلك المجمع ، ودافع عن التقويم الكلتي ، وجاء على طلب الملك نهض كولمان ، وعرض موقفه من تلك القضية : « إن نظام الاحتفال بعيد الفصح الذي أتقيد به وفقاً للتراسم المألوفة ، أخذته عن رؤسائي ، الذين أرسلوني الى هنا كاستق ، وهو النظام الذي سار عليه آبائنا ، وهم الرجال الذين أحبهم الله . ولا يصح الآن القول بأن هذا النظام يبدو غير مقبول ، وغير جدير بالأخذ به ، ولا سيما أن القديس حنا الانجيلي حوارى المسيح المعبود ، قد أخذ به . وعمل على احيائه بالاحتفال به ، وسارت عليه كل الكنائس التي أشرف عليها » (٤٢) .

وعندما جلس كولمان ، نهض القس ويلفريد *Wilfrid* ، ليعرض القضية لصالح التقويم الروماني . وكان ويلفريد ناطقاً بلسان الأسقف اجيلبرت *Agilbert* ، من غرب المكسون الذي اعتذر عن الحضور لافتقاره الى النجسة باللهمة الانكليزية بطلاقة - وأكده ويلفريد على أن كل العالم - إيطاليا ، وإفريقيا ، وآسيا ، وروما - « حيث عاش ، وشر - وتعبد ، وحدث كل من القديسين الحواريين بطرس وبولس » ، قد قبلت كل تلك الجهات التقويم الروماني . على أن البيكتيين والبريطون كانوا المشبهين الوحيديين اللذين رفضوا الامتنال لذلك . « وهذا اللذان يعيشان في الجزائر البعيدة في المحيط ، وفي بعض المناطق حاولوا أن يتصدوا لكل العالم بحمالة » (٤٣) .

وأثار استخدام ويلفريد لكلمة « أحق » مشاعر كولمان السريع النضج ، الذي طلب أن يعرف على الفور كيف يجلس أي شخص على

أن يطلق على يوحنا الرسول لفظ أحسن فاجاب ويلفريد ان يوحنا لم يكن بالتأكيد أحسن ، وإنما دفعه حرصه على تحويل اليهود الى المسيحية أن أخذ بتقريبهم . ونفس السبب قام بولس الرسول . يختار تيموثى Timothy ، واستمر ( يده ) في عرض للنظرة بين الرجلين . بقلمنا ما يفهم أنه وصفه حرفى لتصوص اليراسيم والجبج التى قسما كل منهما . ووصل الخلاف الى نقطة الحسم . عندما اقتار ويلفريد مرة ثانية الى « القليل من الناس الذين عاشوا في أحد أطراف أبرد الجبل » ويصرون على التمسك بما يتعارض مع الكنيسة الحالية . التى عهد المسيح بها الى بطرس أسقف روما . عندما قال : « أنت بطرس . وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة . وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح الملكوت » .

أحدثت إشارة ويلفريد الى مفاتيح القردوس رد قمل فوري من قبل الملك اوسور Oswin - إذ سال هذا الملك الأسقف كولمان اذا ما كان المسيح قد قال بالفعل تلك الكلمات لبطرس . وعندما أقر كولمان بأن ذلك ما حدث قال الملك : « هل توافقان دون أدنى خلاف » على أن تلك الكلمات قالها المسيح الى بطرس دون غيره . وأن الرب أعطي مفاتيح مملكة السماء اليه ؟ فقالا ما ، « صم » « وبناء على ذلك احتقم الملك حديثه قائلا : « حيثذ . أقول لكم ما دام بطرس يملك حق دخول مملكة السماء فمن أحاطه ، وأنا سأطيع أوامره في كل شيء قدر علمي وطاقتي ، ولا عندما أذهب الى أبواب مملكة السماء . قلن يفتح لي أحد لأن من أعلنتم عنه أنه يملك المفاتيح يكون قد أدار ظهره لي » . وعندما أبى الملك حديثه عبر كل الحاضرين من مختلف الطبقات عن موافقتهم سواء من كان حالسا ، أو واقفا عن قرب ، وكفوا عن أمورهم غير الصحيحة وقيلوا ما اعتقدوا أنه صحيح عن طيب خاطر » ( 24 ) .

ومع ذلك ، توفقا لرواية ( يده ) ، أصبح واضحا أن الجميع المحل في راجيباي Whitty لم ينته بواقعة إسماعية - وكل كولمان متصليا في موقفه « واسطحب منه من وافق على موقفه ، وأعنى بهم ، الذين لم يوافقوا على موعد عيد الفصح الكاثوليكي ، وعلمية خلق قدام المترهب بشكل الناج . لأنه كانت هناك خلافات بشأن هذا الموضوع أيضا ، وعادوا الى إيرلندا ليتباحث مع جماعة بشأن ما يجب اتباعه في هذا الصدد » ( 25 ) .

وقبل الانتهاء من ذكر هذا الحدث المرضي يستحق ( يده ) كلمة اطراء للطريقة الموضوعية التى مبلتها في روايته لما حدث في ذلك المؤتمر . وعلى الرغم من أن تعامله مع الجانب الرومانى كان قويا ، فإنه لا يمكن اتهامه بالتعامل مع كولمان وجماعته ابان الوضال . أو أنه قد حاد عن

الحق قيد أسئلة • ومرة ثانية هنا • ومرة ثالثة في تاريخه انتهى ( بيده )  
الحرمة وذكر مناقب رجال الكهنوت الكلتيين ، وكذلك ورع شعبيهم •

وتضمنت المائدة العلمية التي ذكرها ( بيده ) في كتابه الرابع من تاريخه تطورات كانت أكثر شعوب عصره على علم بها • وكان النحيتن البايوى ليتودور الطرسوسى Theodore of Tarsus ، رئيسا لأساقفة كانتريرى ، ومعه الراهب المثقف هادريان Hadrian ، وعد وصولهما الى انجلترا هذا السبيل لاعادة تنظيم الكنيسة في انجلترا ، وإمامة بساه اسقفى مبنى على التشريع الأسقفى ومسلطته • وكان تقدم هذين الرجلين اثر كبير في أحداث تيار جديد للنشاط الفكرى الذى نقله كل من أولسيلم Aethelstan ، وبندكت بسكوب Benedict Biscop الى ( بيده ) • وحظى كل من ثيودور وهادريان ، على أعلى درجات المديح والاطراء من ( بيده ) • وكان ثيودور • من أبناء طرسوس في قليقية Cilicia ، وعلى دراية تامة بالأدب العلماني والكنسى ، سواء باللغة اليونانية أو اللاتينية • • أما هادريان ، فكان من أصل أفريقى ، ومتمكنا من الكتاب المقدس ، وعلى دراية تامة بالحياة الديرية ، والكنيسة ، ومتقنا للغتين اليونانية واللاتينية على حد سواء • وظل هادريان ملتزما لثيودور • فى كل مكان ، ويقدم له المساعدة ، عند قيام الأخير بإلقاء المراتب المتعلقة بالحياء المقدسة ، والتسكك بالثقافة القساوية المثقلة بالأعمال بعيد الصبح • وكان ثيودور أول رئيس لأساقفة قبلت الكنيسة الانجليزية طاعته • ونظرا لأن كليهما كانا على قدر كبير من الثقافة الأدبية الدينية والعلمانية • لذلك قاموا جديبا اليهما مجموعة كبيرة من الدارسين ، واستطاعا سكب اتجاهات المعرفة المفيدة في عقولهم يوميا • وقاما الى مستعمليها المعرفة المتعلقة بالكتب المقدسة ، وبغى بحور الشعر ، وعلم الفلك ، والحساب الكنى • والتعاقد على ذلك • وجود بعض من تلاميذهم الذين مارالوا على قيد الحياة ، وعلى معسرة تامة باللغتين اللاتينية واليونانية كعمرتهم للفنهم الأصلي تساما بشام • • ومنذ عهدهما بدأت الموسيقى المقدسة تدرس في كل الكنائس الانجليزية ، وهي التي لم تكن معروفة قبلها سوى في • كينت Kent • ( ٤٦ ) •

ويقدم الفصل الخامس من الكتاب الرابع مثلا رائعا للطريقة التي كتب بها ( بيده ) تاريخ الكنيسة - فيها بإعلان عن موت أوسويو ، ملك نورثميريا • وفي السنوات الأخيرة من حياة هذا الملك ، زادت درجة الورع عند • الى الحد الذي تمنى فيه أن يموت • • بين الأماكن المقدسة • ، في روما ، بيد أن الموت حال دون ذلك ثم دعا ثيودور الأساقفة الى أول

جميع محل من نوعه في تاريخ الكنيسة الانجليزية . . بالإضافة الى كثير من المارفين بشتون الكنيسة الذين عرفوا واحبوا القوانين الكنسية للآباء الأول . . وذلك سنة ٦٧٢ م في عهد الكهنة Ecgith بن اوسويو . وقدم ( بيده ) تقريراً عن أعمال المجمع المحل وذكر تصوص الرضوعات التي تمت مناقشتها ، ووافق عليها المجمعون . وانتهى ( بيده ) الفصل الخامس من هذا الكتاب الأخير بالإشارة الى وفاة ايجيبيرت Egbert ملك كينت ، واعتلاء شقيقه هولتهير Hoththaro للعرش .

ويستطيع قارئ تاريخ ( بيده ) أن يلحج الانتشار التدريجي للمعرفة في بريطانيا وان كان متواضعاً ، بيد أنه كانت له فاعلية الى حد ملحوظ . وأشار ( بيده ) الى أن بندكت بسكوب Benedict Biscop ، مؤسس دير ويرماوث Wearmouth استطاع اقامة علاقات طيبة لمدة عام مع حنا كبر المرتلين في كنيسة القديس بطرس في روما . . لكي يستطيع تعليم رهبان الدير طريقة الغناء الأنشيد والترانيم طوال العام . على النحو المنبع في كنيسة القديس بطرس في روما . ونظراً الى حنا تعليمه البابا ( كان البابا أجاثر Agatho قد اذن لحنا بالقيام بهذه المهمة ) . وعلم قادة حوالت الترتيل في الكنيسة نظام وطريقة الانشاد والقراءة بصوت مرتفع وتكوين كل الأمور الضرورية للاحتفال بأيام الأعياد على مدار السنة . وقام آخرون بنسخها في أماكن أخرى . ولم يقتصر عمل حنا على تعليم الإخوان في هذا الدير ، وإنما امتد ليشمل كل من لديه القدرة على الانشاد من بين الذين توافقوا عليه من كل الأديرة الأخرى . في أنحاء المملكة للاستماع اليه ، كما تلقى كثيراً من الدعوات للتعليم في أماكن أخرى ، ( ٢٧ ) .

ويظهر في الكتاب الرابع موضوع له أهمية فريدة للمارسين للأدب الانجليزي الباكر عندما قدم ( بيده ) كينسون Caedmon ، الشاعر الانجليزي الأول المشهور . وقبلاً على قصة ( بيده ) ، . في دير حله الأم ( الأم هيلد من واچساي Abben Hild of whiteby كان هناك أخ معين حياه الله بنعمة مميزة ، إذ اعتاد على تأليف الأغاني الربانية والدينية ، من خلال معرفته بما تعلمه من تفسيرات الكتاب المقدس . واستطاع بسرعة تحويل تلك التفسيرات الى قصائده شعر ، باعثة على الهجة ، ومثيرة للشاعر بلفته الانجليزية . وبفضل اغانيه تقصحت كثير من العقول ، واحضرت العالم المادي ، وصارت ترواة الى الحبيسة في تعيم المثلثات . والواقع ان مواعين انجليز آخرون حاولوا تأليف اشعار دينية ، بيد أنهم

لم يستطيعوا الوصول الى مستواه . لأنه لم يحلم عن الشعر من أحد .  
وانما حظي بالهمة الالهية عنه قرصة الشعر . ومن ثم لم يؤلف شعرا  
وكيكا أو ردينا ، وانما كل شعر اختص بتكريس الحيلة من أجل  
رضي الله « (٤٨) »

وعندما روى ( بيده ) قصته ، كان كيمنون قد قضى بالفعل عدة  
سنوات الى أن أصبح راهبا وتعلم قرص الشعر ، الى أن حدث له امر  
ضيق ، فكان من عادته مطاردة غروته عن المناسبات الاجتماعية عندما  
يجب الوقف لكل فرد من الرهبان أن يأخذ دوره في الامتداد . وفي ذلك  
الحين كان يشعر بالخجل لعدم قدرته على نظم الشعر . وفي إحدى  
المناسبات ترك كيمنون مكان الاحتفال الديني ، وذهب الى حظيرة المواشي ،  
حيث كان مكلفا بأمر العناية بها تلك الليلة . وفي الوقت المناسب  
استرخى على الأرض ، واستغرق في النوم . وعلى الفور رأى في المنام  
رجلا يقف بجواره ، وحياء ذلك الرجل وعاداه باسمه قائلا : « يا كيمنون  
أنت أي شيء » . فأجاب كيمنون ، ما أبا يمشد . ولقد آتيت الى هاهنا  
لخدم مقدسني على الانشاد في الاحتفال الديني ولليرة الثانية قال  
المحتج ، « ورغم ذلك لابد أن تشد لي » . فقال كيمنون ، وماذا يجب  
على أن أتقدم - « فقال المحتج ، أنتد عن يداية الأشيلة التي خلقها  
الله - « فعل الفور بدأ كيمنون يتشد شعرا لم يسمعه من قبل في تسبيح  
الله خالق كل شيء . ويصور حول للمسي التالي ، « يجب أن نسيح الله خالق  
الملوكوت ، ونسبح بقوة الخالق وأسراره ، وأعمال الأب المجدد . وأنه الله  
الأبدى ، صانع كل المعجزات ، وخالق الملوكوت ليستظل به أبنائه . والعل  
التقدير ، والحرص لكل الشعر . خالق الأرض » (٤٩) »

وعند هذا الحد أقدم ( بيده ) إحدى الملاحظات الباكزة التي تنطق  
بصعوبة ترجمة الاسلوب المنظوم من لغة الى أخرى - فكتب يقول ، « وهذا  
هو المعنى وليست الكلمات نفسها التي اقتضها كيمنون في مثله -  
لأنه ليس من السهل ترجمة الشعر ، ولا سيما إذا كان منظوما على نحو  
جيد . من لغة الى أخرى دون أن يفقد شيئا من حلاوته وطلاوته » .

وفي صباح هذا اليوم المعنى أبلغ كيمنون ما حدث له الى رئيسه  
المبشر الذي قام بدوره بإبلاغ رئيسة الدير The Abbot . ثم كلف  
كيمنون نفسه للحماة الرهبانية ، وأصم الى الجصاعة الدبرية في ريتاي  
Whitty . وأبان الحصول على معلومات عن التاريخ المقدس خلال  
الشيهور التالية ، « تعلم كيمنون كل ما استطاعه عن طريق الاضفاء الى  
الرهبان ، وحفظ ما سمعه . ثم التفتير بنصن فيما حفظه » . ثم حوله الى

شعر بلحن ، ويبدو أن شعره كان جميلا جدا الى الحد الذي تحول فيه مدروسه الى مسمعين اليه . وأشد عن خلق الكون ، وأصل الجنس البشري والتاريخ الكامل لسفر التكوين ، ورحيل إسرائيل من مصر . ودخوله أرض الميعاد ، وكثير من القصص الأخرى المأخوذة من الكتاب المقدس ، وعن تجسد المسيح ، والآلة بين ليلة المشاء الأخير وموته ، وعن قيام المسيح من بين الموتى ، وعن صعوده الى السماء ، وعن حلول الروح القدس على التلاميذ وتعليمه لهم . وألف أغاني عن أهوال يوم الحساب ، وآلام جهنم التي تشيخ لها الولدان ، ونعيم لللكوت . وبالإضافة الى ذلك ألف كثيرا من الأغاني عن الرحمة الالهية ، والحساب العادل ، وفي كل أغانيه حاول أن يمدح مسيحه عن الانقياس في الرذيلة ، وأن يحجب اليوم الايمان والعمل الطيب وممارسته » ( ٥٠ ) .

وختلف طريقة كتابة ( بيده ) الى حد ما عندما انتقل الى الكتاب الخامس والأخير من تاريخه . فقد احتوى الكتاب على (عدد المئات من المحزات ، على الرغم من عدم وجود مارك ، ذلك لأن الفترة الزمنية التي غطها الكتاب الخامس كانت أقصر من الكتب السابقة . ولم يرد في هذا الكتاب سوى القليل من التعينات الاسمية ويظهر في ذلك الكتاب نمط جديد من المعلومات ذكره ( بيده ) عن نشاط البعثات البشيرية في العارة الأوروبية . وكان الانطباع العام يشير الى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للكنيسة والمسيحية . عندما زار كل من كينوالا Caenwalla ، ملك غربي السكسون وخليفته أين Ioe ، مدينة روما ، في الوقت الذي لم يكن فيه كل من كيرد Ceard ملك المرسيي The Mercians وأوقو Otto ، ملك شرق السكسون بزيارة روما فحسبه دائما بقي كل منهما هناك ، وانضموا الى المجتمعات الدورية .

ويشير الخطاب الذي أرسله ( بيده ) الى احبرن Egbert ، رئيس الأساقفة مع عامين من الانتهاء من كتابة كتابه « التاريخ » الى وجود ايجابية بدرجة أقل عما مضى في الكنيسة . ففي هذا الخطاب يرمي (بيده) لحال العديد من الأساقفة ، الذين أصبحوا دون مستوى الصلاحية . ولوجود أديرة مزدوجة بالرحبان الراقصين ، الذين كان دافعهم الوحيد للانخراط في السلك الرهباني ، هو هروبهم من مسئوليات الحياة العامة ، وكذلك التدهور العام في النظام من قبل رجال الدين المحترفين وغير المحترفين وهناك تضمين ممكن قبوله بشأن هذا التناقض ، وهو أن ( بيده ) أراد في خطابه الى رئيس الأساقفة ، أن يتحدث بصراحة تامة ، كما يشعر به من واجب تحم عليه الظروف أن يؤديه ومن ناحية أخرى ،

هنا كتبنا من الناس سيطامون تاريخه لم يستمعوا اليه ، وعند كتابة تاريخه يتحتم عليه ان يكون حذرا . ويستطيع ان يحقق هدفه بطريقة افضل ، وحث الناس على سبحة الله ، بالاشارة الى القدوة الحسنة للملوك الاقياء . كما وجد ان تسجيله في تاريخه المسلوحي التي وجد انها بدأت تدب في الحياة الدينية لن يجمع عنه سوى اخرى .

وتضمن كتاب ( يده ) الخامس من تاريخه مقتطفات اخطعا عن وصف اداخان Aswanan رئيس دير آيونا Iona ( ت ٧٠٤ م ) عن الأماكن التي زارها الأخير ، ايان زيارته لقلسطي . ومع ذلك فان هذا التصديق يوضح الطبيعة الدينية لتاريخ ( يده ) بصفه أساسية . ويوضح ( يده ) قائلا : « اعتمد ان من المبد للقراء فيامهم باقلس مقتطفات واضاعتها الى هذا التاريخ » . وجاء في الفقرة المتضمنة لوصف مدينة هبرون Hebron ، ومناير البطارقة ما يلي : « كانت مدينة هبرون عاصمة ملكة داود ، اما الآن فليس بها سوى انقاضها البذلة عليها . وعلى يد حوالي مائتين وعشرين ياردة تجاه الشرق من تلك الدينة ، يوجد في كهف مزدوج مقابر البطارقة . ووقوسهم تواجه الشمال ويوجد سور يحيط بذلك الكهف من جميع الجهات . ويشطى حير واحد كل قبر من تلك القبور ، منحوت على شكل كبسة ، ولون أحجار البطارقة أبيض ، على حين ان حجر قبر آدم كان يميل الى السمرة ، واقل جودة في صاعته ، ويرقد آدم على مقربة من البطارقة في أقصى شمال السور . ويوجد هناك أيضا بعض شواهد قبور امتر . وأكثر تواصبا لزوجات البطارقة الثلاثة . ويقع تل مامر Mamre على بعد ميل شمال تلك القبور ومقابل الأعمام والأرهار ، مع وجود حفرة منسقة في أعلى التل . ويوجد شجرة ابرام r Ibraham's Oak ، ولم يبق منها سوى جرعها ، البالغ طوله قمتين ، وتحيط الكنيسة بتلك الشجرة » ( ٥١ ) .

ويعدنا ( يده ) بمعلومة لها قيمة كبرى للدارسين للتاريخ ، لأصالتها التاريخية وهي تتحدث عن الرهبان الانجليز ، الذين ذهبوا الى لانيسا للتشهير بالانجيل . وكان وايتبرت Whitebert ، من اوائل الذين ذهبوا . فقد ذهب الى فريزيا Frisia ، يد آه اضطر للعودة الى ايرلندا ، بعد ان اضغى عامين في التشهير دون ان يحقق أي نجاح . وظل في المنفى في ايرلندا . وفي سنة ٦٩ م حقق ويلبرورد Wilfrord نجاحا ، بعد ان عبر بحر المانش وبعده أسد عشر ميثرا ، وحطى ويلبرورد بنشجيع قبال من قمل بيون من هريستال Pepin of Herstal ، مدينة القص في اوستراشيا Austrasia . وأخيرا أصبح ويلبرورد رئيسا لكل

مسابقة فريريا - وذكر ( بيده ) ميثرا انجليزيا آخر يسمى هيوالد الابيض *Hewald the white* ، الذى حمل هذا الاسم لبيض شعره ، ودميله الآخر هيوالد الاسود *Hewald the Black* . وقال كل منهما قصة الاستشهاد فى قريريا - وبفضل معجزة الهية ظلت جثثهما طافيتين لمسافة خمسين ميلا ضد تيار النهر الى ان تم العثور عليهما ، وامر ببيتن بفتحها فى الكنيسة فى كولون *Cologne* .

ويقدم لنا ( بيده ) فى الكتاب الخامس الجانب المألوف عن الدهيلم *Aldhelm* . وتلقى الدهيلم تعليمه الأول على يد راهب ايرلندى ، ثم ذهب الى كانتربرى ، حيث علمه هادريان كل صنوف المصارفة ، فى الأديب اليوناني والرومانى . وفيما بعد ، وفى سنة ٦٧٥ م ، على وجه التحديد ، كان الدهيلم رئيسا لدير مالمسبرى *Malmesbury* . وذهب اليه الدارمون من كل أنحاء إنجلترا للاستفادة بعلمه وفيما على وصف ( بيده ) لذلك العالم : عندما كان الدهيلم قسا ورئيسا للدير المعروف باسم مالمسبرى امره مجمع محلى من أهالى تلك المدينة بكتابة كتابه المشهور ضد التجديد الخاطيء لعيد الفصح ، الذى وقع فيه الاسطرز فى ذلك الحين ، وضد الأصايب الأخرى العديدة التى تتعارض مع ممارسة الشعائر السليمة ، وتتعارض مع سلام الكنيسة ، وبفضل ذلك الكتاب استطاع الدهيلم ان يعيد كتيبا من البريطون ، الذين كانوا خاضعين للسكسون انجزيين . فى النصوص ، واختاروا الموعد الكانوليكي المحدد للاحتفال بعيد الفصح . كتب ايضا كتابا ممتازا عن العزوبة ، وكان مفادى التفاعيل نظما ونثرا مقصفا يذلك محلا على مثال ما قدمه سديوليوس *Sedulius* . وكتب العديد من الكتب الأخرى ، لأنه كان رجلا واسع المعرفة والإطلاع . وتمتع الدهيلم باملوب رفيع . وكان مشهورا ، كما ذكرنا ، بمعرفة الرسم فى الدراسات الكنيسة والملاءة ( ٥٢ ) .

وفى الفصل الثالث والعشرين ، قدم ( بيده ) لقارئه فكرة سريفة عن الكنيسة وبريطانيا . وأورد ذكر أسماء كل الأساقفة الذين شغلوا الكراسى الأسقفية ، بيد أنه لم يذكر اسم أى ملك يامتنعاه الملك ايثيلولد *Aethelred* . ملك ميرشيا *Mercia* الذى قال عنه ان كل الملوك ، جنوب حدبر *Humber* ، داتوا بالمطاعة له . ولقت ( بيده ) الانتباه الى ظهور مذنين سنة ٧٢٦ م . وقد أحدثنا موجة من الدعر الشديد عند كل القساعدين ، وظهر المذهب الأول عند شروق الشمس ، فى حين ظهر الثانى عند غروبها ، على نحو ينفرد بحفوت كارثة محزنة بالشرق والغرب على حد سواء . وكان المذهب الأول نذيرا للنهار ، والثانى

فلديرا الليل ، وبذلك توقع الجنس القسري حدوث كوارث ليلا ونهارا .  
وكان لهما ذبول تشبه المشعل المتفقد ، والتي اتجهت شمالا على نحو يوشك  
بحدوث حريق . وظهرت ذبول تلك الغنديات في شهر يناير ، واستمر  
لثة اسبوعين تقريبا » ( ٥٣ ) .

ونشير ( بيده ) الى الطريقة التي استاح بها العرب بلاد الخال ،  
« بيد أنه لم يفسد وقت طويل حتى نالوا الجزء الرادع في المملكة  
نفسها » . وعاشت بريطانيا معها في سلام ، ورضي البكتيون  
Picts ، والايجليز بالبقاء داخل حدودهم ، وقبض الايرلنديون «  
» بالحياة داخل حدودهم ، ولم يمارسوا اى مؤامرات أو غدر ضد الانجليز  
واستمر البريطون كمصدر للقلق والمتاعب اذ عزلوا انفسهم عن الانجليز  
بكل عناد ، « بأصرارهم على كراهيتهم للطريقة لهم ، وعلاقاتهم السيئة مع  
الكنيسة الكاثوليكية بتعديدهم لميناد عبد الفصح على نحو غير دقيق »  
وتقابلهم البعيدة عن الدين . بيد أن ارادة الله تصبغت لهم ، وكذلك  
الشمس - ومن ثم لم يتحقق لهم ما ارادوه في اى مجال » .

وعلى الرغم من أن نية ( بيده ) بدت على أنه يرى أن يترك القاريه  
لتاريخه واضحا عن الأحوال عندما أوشك أن ينهى كتابه ، فإنه ذكر  
ملحوظة نس عن علم الارتناح ، عن عهد كيولوف ، الملك الذي خصص له  
المجلد . إذ تعددت الاضطرابات في عهده - فكتب ( بيده ) ، « لدرجة أنه  
كان من المستحيل معرفة كيفية الحديث عنها ، أو التحدث عما يستحق  
عنه من نتائج » - وباختصار ذكر ( بيده ) أن لعلاء كيولوف التقوا القسري  
عليه ، ثم قاموا بجز شعر رأسه تعبيرا عن احتقارهم له . وذكر ( بيده )  
فقرة لافتة للنظر لثمة غرائبها ، وهي أن العديد من أمالي نورثمبريا  
« طرحوا اسلحتهم حائسا » - ودخلوا الاديرة ، « مفضلين الانخراط -  
وعموم أطفالهم - في السلك الديري » عن أن يتدربوا على في القتال » -  
ويبدو أن هذا التطور لايشى كلية مع ميل ( بيده ) عندما علق بوضوح  
واپجاز ، « ان نتيجة ذلك ، سوف يكشفها جيل فيما بعد » - وفي المحلله  
التي أرسله ( بيده ) ضد ذلك بوقت قصير الى اجبرت رئيس الأساقفة .  
كان واضحا استفساره عن الدوافع التي جعلت هؤلاء القسايس ينخرطون  
في السلك الديري . وفي رايه أهم فعلوا ذلك ، ليس بدافع رغبتهم في  
الحياة الدبرية ، التي لم يكتوتوا أملا لها ، وانما كان الدافع ، هو التخلص  
من الالتزامات التي تحملها المواطنون العاديين ، ومنها الالتزام بسلوك  
الاستلاح .

ويتكون الفصل الأخير من كتاب ( بيده ) من إعادة مختصرة للنقاط الأساسية والأحداث التي ذكرها في الصفحات السابقة . « للتذكرة » وفي التلخيص ، بدأ ( بيده ) بفوزو يوليوس لبريطانيا « في الستينات قبل تجسده هنا » وانتهى عند سنة ٧٣١ م . بالانشارة الى رسامة تاتونوي Tatwian وقائمة أساقفة كانسبري . ثم على ذلك ذكره لقصة حياته يايجاز . وقائمة بكنائسه ، ودعاء للمسيح أن يمنحه الخلاص الأبدي . وأخيرا قال : « وحنا ، ويعون الله » . ينتهي الكتاب الخامس من تاريخ الكنيسة الانجليزية « (٥٦) » .



## الطبرى

ولد الطبرى ( محمد بن جرير الطبرى ) . المؤرخ المسلم الذى جعله باعظم قدر من الاحترام والتقدير والقُدوة الذى لا يبارى « (١) » . سنة ٨٣٩ م (٢) هو أمل باقليم طبرستان ، الذى كتب به - ولا بد أنه كان انسانا مبكر النصح على نحو غير عادى - اذ ما أن بلغ السابعة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب - واستهل الطبرى دراساته الأساسية فى أمل ، ثم ذهب الى كبرى البلاد : مثل الرى ، وبغداد ، والصرى ، والكوفة ، ومراكز الدراسة المتفحة فى سوريا ، ثم ذهب الى القسطنطينية فى مصر ، وأخيرا عاد الى بغداد سنة ٨٧٢ م . وباستثناء قيامه بزيارتين لحلفتين الى طبرستان ، قضى الطبرى معظم سنوات عمره النشطة بالنشاط فى بغداد ومات هناك عن عمر يناهز الدراسة والثمانين .

كان والد الطبرى أحد ملاك الاراضى الزراعية ، وهو ما يفسر قدرة ابنه على مواصلة دراسته فى مثل تلك الأماكن المتباعدة . ويمكن التخل الذى حصل عليه الطبرى من الاراضى الزراعية فيما بعد من أن يرقى المناصب المرمية فى الحكومة ، والتى كان من الممكن الحصول عليها ، ولولا أنه كان انسانا له موارده المالية الخاصة ، لما تمكن من تخصيص معظم حياته للجهود العلمية المفضية . والواقع أنه كان من الممكن أن يعد الطبرى نفسه يحصل لهُ مؤرخ القصر ، ولكنه لم يكن حينئذ سجيناً هذه الكلمة السامية التى يشغلها حالياً عند الكتابة عن التاريخ الاسلامى .

وعندما عاد الطبرى الى بغداد ومارس دور المعلم ، احرص علماً

(١) ولد الطبرى آخر اربع وعشرين وخمسين من الهجرة النبوية الشريفة . الترجمة -

مدهمنا من المعرفة الواسعة والشهرة العالمية كحجة في تفسير القرآن الكريم ومعرفته الحديث النبوي الشريف (٣) . واعتقد الذين كتبوا سيرة الطبري أنه كان يمتلك مؤلفات العالم الواسع المعرفة ، ربما في كل الفروع التي يتطلع أي دارس مسلم للتزود بها في ذلك الحين . واشتملت تلك المعرفة على علم المنطق ، والرياضيات ، والدراسات الدينية ، والقانون ، وناليف المعاش ، وعلم الحو والصرف ، وعلم الأخلاق ، وعلم النفس .

وفي عالم لم تكن قد ظهرت فيه الطباعة بعد كانت قدرة العالم على إعطاء تظهر من خلال لقائه للدروس بصفة أسبوعية ، وتلك كانت حالة الطبري . وما عرفناه عنه أنه كان مدرسا محبوبا وله شعبية عريضة . فقد صرح أحد المعاصرين له ، من المتخصصين في الدراسات الدينية قائلا : « إذا ما فكر لسر أن يقطع رحلة طويلة إلى الصين لمجرد الاستماع إلى الطبري وهو يفسر القرآن الكريم ، فاجبا ستكون رحلة تهون أمامها كل المتاعب » (٤) . ووفقا لشهادة أحد تلامذته - كان الطبري يبدأ يومه طهرا عندما يغسل بالكتابة حتى صلاة العصر - وبعد ذلك يلقي الدروس في تفسير القرآن الكريم في المسجد حتى صلاة المغرب . ثم يحاضر في التريسة الإسلامية قبل أن يعود إلى منزله .

وإبان وجود الطبري في الفسطاط ، صار له عدد من التلاميذ المؤيدين لتفسيره للغة . بالرغم من أن رأيه يمكن اعتباره مؤيدا للمذهب الشافعي . وعيما بعد عندها كان في بغداد فهناك قصة تحدثت عن أنه جلب على نفسه حرق المسابرة لتعليقاته المنتسة بالاستخفاف والتي أساء بها إلى أحمد بن حنبل . ويقال أنه تم دفنه في جنح الظلام خفية جياهير العامة التي كانت تعاديه لتمامه مع طائفة الشيعة . وربما كانت هذه القصة غير واقعية ولا يمكن أن يقبلها الذين التاعوا لفقدان هذا العالم الشهور لما كان يتمتع به من احترام . وهناك رواية أخرى تصف الحشود الضخمة التي شهدت جنازته .

ومازال هناك بعض الملك في الأنباء التي تتعلق بحياة الطبري . ومع ذلك فيسود اتفاق عام يتعلق بالكم الهائل من الكتابة الذي استطاع هذا العالم أن ينتجه طوال حياته . ويحتفظ لنا التراث العربي أن الطبري ظل يكتب أربعين ورقة يوميا لمدة أربعين سنة متصلة . ويقول العالم الجغرافي ياقوت ، الذي مات سنة ١٢٢٩ م أن الطبري اعتزم تقديم تفسير للقرآن الكريم ، يبلغ عشرة أضعاف التفسير الذي قدمه وتمنى بذلك أنه كان معبرا له أن يكون ثلاثين ألف صفحة وليس ثلاثة آلاف صفحة . وبناء على الاعتراضات الملحة التي أيدأها تلاميذه فحسب اضطر الطبري

الى وضع التفسير الذي احتوى على العدد الأقل من الصفحات وقال أيضا  
 إن الطبرى كان قد أعد الرقم الأكبر نفسه لكتاب تاريخ الرسل والملوك -  
 ثلاثي ألف صفحة - وأنه اضطر الى تخفيضه الى ثلاثة آلاف صفحة نتيجة  
 لاحتياجات هؤلاء الشباب أنفسهم - ويمكن التماس الصدر لقارىء في  
 عصرنا عندما يلقى بعض التخططات فيما يتعلق بمدى مصداقية مثل هذه  
 المجموعة - وربما تكون تلك الرواية مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة  
 بالرغم من الحقيقة القائلة بأن الطبرى قام بإعداده ككتابة مكتبه  
 « المؤرخون » السابقون ، قبل كل شيء ، ولم يكن محللا للتاريخ وإنما  
 قدم ملاحظاته الضخمة من الكتابة في مظهر مختلف (٤) -

وقال أن الطبرى كان ضغورا بمؤهلاته الخاصة بالتشريعات  
 الإسلامية بصفة خاصة ، والتي كانت في مستوى ضحلة مؤلفاته  
 التاريخية - بالإضافة الى ذلك أعد مرجعا لما اعتقد أنه إحدائيت بدوية  
 شريفة صادقة ، وأعد أيضا بحثا في التشريع الإسلامي يحمل عنوان  
 الياسط - وبلاستثناء بعض المميزات فإن مؤلفات الطبرى التي قدر لها  
 البقاء هي تاريخ الرسل والملوك وتفسيره للقرآن الكريم - وحتى المؤلمان  
 بكل القبول في عصره ، واعتبرها الباحثون من المصادر الموثوق بها ، على  
 بل وفي عصرنا هذا يجد الباحثون أنه لا يمكن الاستغناء عنها عند دراسة  
 تلك الموضوعات - وقبل أن نقوم بتقسيم كتابته التاريخية ، فسي المهم أن  
 ندرس - بإيجاز على الأقل ، بناية كتابة التاريخ الإسلامي - على أن  
 افتقار تلك البدايات التاريخية الى المؤثرات غير العربية يزيد من جعل مثل  
 تلك الدراسة أمرا ضروريا - ويبدو أنه العرب لم يكونوا يستحسنون كلمة  
 تاريخ قبل ظهور الإسلام وكانوا يفتخرون الى الاحساس التاريخي - فقد  
 كان بسببواهم الثقافي منخفضا الى الحد الذي لا يسمح بمواصلة جهودهم  
 الأدبية ، ولا سيما أنهم ظلوا دون تأثير ، بل ودون معرفة بالكتابات  
 التاريخية الأقدم ، مثل كتابات الاغريق - تلك كانت حياة الشعوب  
 البدوية ولم يشذ العرب عنهم - وهناك حقيقة إضافية ربما تفسر عدم  
 وجود كتابة تاريخية للفترة السابقة على ظهور الإسلام ، وهي الحكمة  
 القاطنة بأن الإسلام يجب ما سبقه ، ومعنى هذا أن البعثة النبوية  
 الشريفة قصيرة أي شيء قبلها من الأمور التي لا طائل تحتها وغير ذلك  
 جدوى (٥) : وإبان عصر النبوة حمل الاحترام الشديد للقرآن الكريم ،  
 على صرف النظر عن الكتابة التاريخية خشية أن يعطل هذا على الثقة  
 الارتباب فيما يعتقد الجميع بأنه كلام الله - وهناك بعض التفسيرات  
 لتأخر العرب في اللجوء الى الكتابة وهي القائلة بأن للعرب قدرة حارة

على التذكر . وساعد اختراع الورق في القرن السابع الميلادي على حدوث التطور الكبير في عصر الكتابة بما فيها الكتابة التاريخية .

كانت هناك محاولات للكتابة التاريخية قبل ظهور الاسلام تستحق الذكر عند الحديث عن المراحل الأولى للكتابة التاريخية الاسلامية ، رغم ان مدى تأثيرها على الكتابة التاريخية عما بعد مارالت موضع جدل والعرب ، مثل كل الشعوب السامية الأخرى ، يفخرون بسلالات النساب والأصل وعلى الرغم من ان شجيرات النساب تلك من البادر أنها حظت أكثر من قاذفة ضئيلة جدا عن الأجيال المتعاقبة . بالإضافة الى ملاحظة جانبية وعرضية عن الأعمال البطورية بالذكر التي قد تضمن جلالا وروعة على أحد الأجيال ، فانها تشير الى وجود حسية تاريخية ، واعتماد مداني بالماضي وربما كانت المناقشة الأدبية قبل الاسلام أكثر أهمية من تأثير شجيرات سلالة النساب على كتابة التاريخ الاسلامي معلمي منه المناقشات الأدبية عن المفاخر التي دارت بين القضاة العربية والأعيال البطولية التي حققها المحاربون . وهناك قصص مشابهة لهذا النوع في كتاب العهد القديم ( تلك التي تصف المصاعبات بين الاسرائيليين والعسطينيين ) وتشر الى ان مثل هذا النوع الأدبي كان شائعا عند الشعوب السامية بصفة عامة . ومع ذلك فان « أيام العرب Battle-Days » هي نوع من الكتابة يدخل ضمن الأدب أكثر من التاريخ ، ومن غير المحضل أن يستر تلك القصص البقاء على الإطلاق اذا لم تعرض كلها في هيئة منظومة . وعلى أية حال ، فإن هدفها كان تحقيق المتعة والتسلية ، وليس التردد بالعلم والحكمة ، وهي تقتصر الى الترابط الذي يتطلبه الرد التاريخي .

وتجد الأصول العامة لكتابة التاريخ الإسلامي أساسا وطيدا في الاشارات التاريخية التي وردت في القرآن الكريم وفي الانطباع العام الذي تركه الكتب الدينية عن القدرة الالهية في الحياة الدنيا منذ ان خلق الله آدم الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى قيام الساعة . وكان التاريخ بالنسبة للمسلمين الأول عاملا مساعدا على كشف ما يخفيه الله لبني البشر ، مع ذكر ما فعله الله في الماضي بهم ، وأن وجود الأمة الإسلامية يحقق الخير في المستقبل . ويشير القرآن الكريم أيضا الى الأمم التي حل عليها غضب الله لا ارتكبت من ذنوب . وأثارت تلك الاشارات فضول الأتقياء من المسلمين وجبهم للاستطلاع ، وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثارت تساؤلات لابد من الرد عليها عن طريق الدراسة التاريخية .

وكانت ضرورة جمع الآلاف من الأحاديث النبوية الشريفة ، والتحقق من مدى صحة بعضها علميا لها الأهمية القصوى في التشجيع على قيام الكتابة التاريخية - وتعطى تلك الأحاديث النبوية الشريفة بنفس المكانة التي يتمتع بها القرآن الكريم عند الغالبية العظمى من المسلمين - وبناء على ذلك اكتشف المتفكرون في الإسلام ، بين عشية وضحاها ، ضرورة إيجاد سلسلة من الأسانيد - واهتمت هذه الأسانيد لتتسلل الرواة الذين نقلوا عن بعضهم البعض السنة النبوية الشريفة ، المتمثلة في الأحاديث التي نطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأفعال التي قام بها إلى أن انتهت بذكر أسماء المعاصرين للرسول الذين سمعوا منه الحديث أو شاهدوه يؤدي القفل - وأخيرا فهناك حافر آخر مساعد على وجود الكتابة التاريخية ألا وهو الرقعة في تلويح الانتصارات التي أحرزها رسول الله صلى الله عليه وسلم والقادة المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله .

وفي بداية الأمر شكلت كتابة التاريخ الإسلامي تكملة ضرورية لدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وكانت مهمة المؤرخ في البدايه مهمة دينية - وفي الحقيقة كان هذا المؤرخ يعتبر نفسه أحد المتفهمين في الدين - ولذلك فليس من قبيل الصعوبة أن المؤلفين الكبارين للطبرى ، وهما تفسير القرآن الكريم وكتابه عن تاريخ العالم والملوك يكملان بعضهما البعض في فكر المؤلف - ووجه الباحثون الذين رجحوا إلى سلسلة الأسانيد لاقامة التلليل على صحة الأحاديث النبوية الشريفة أن استخدام الطريقة عينها أمر بسيط عند التحقق من الماضي بتاريخه وأحداثه - ومن ثم فإن اعتماد المؤرخين على تلك الأحاديث النبوية الشريفة إلى حد كبير ، يوضح سبب تجنبهم ، لمدة قرون القيلم يقور المفسرين لأحداث الماضي - وعلى الأصح ، فقد اكتفوا بتلويح روايات تلك الأحداث ، كما فعل الطبرى ، والتي اعتبروها وثيقة الصلة بموضوعاتهم .

ويقدم الطبرى فيما يلي نموذجاً دائماً للطريقة التي اعتادها الكتاب المسلمون ، بدأ فيها المؤرخون ، ومنهم الطبرى نفسه ، عند تقديم سلسلة الرواة ، سواء أكان موضوع الكتابة عقائدياً - أم تاريخياً - وينطحت الموضوع عن فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في الفترة ما بين ٦٤٠ - ٦٤١ م - وقصبا إلى ما كتبه الطبرى : « يقول ابن اسحاق ، كما ذكر ابن حبان ، أن سلامة أبلغه أنه بعد أن فتح عمر بن الخطاب بلاد الشام كتب إلى عمرو بن العاص بالتحرك بجيشه إلى مصر ، واستطاع عمرو الوصول إليها وفتح حصن بابليون سنة عشرين من الهجرة » .

ويقول ابن حنبل أن سلامة قال هذا نقذ في ابن إسحق ، الذي قال أن القاسم بن قزماي أبلغه - قلا عن ريد بن يزيد ، الذي قال أنه كان ضمن جيش عمرو عندما قنع مصر والامسكنرية - وكان فتح الإسكندرية في عهد خلافة عثمان في السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين من الهجرة ١٠

وكتب الطبري أن سيف قال في الرسالة التي أرسلها السري إلى ( الطبري ) أن شبيب أبلغه نقلا عن إسحق والربيع وأبي عثمان وأبي الحارث قالوا : أن عمر بن الخطاب ظل في بيت القلنس بعد أن أعطى أهلها الأمان وأرسل عمرو إلى مصر ، وأرسل معه الزبير لمأوته -

وأبلغه السري نقلا عن شبيب ، نقلا عن سيف الذي قال أن أبا عصام أبلغنا نقلا عن ابن مصلن وعبيدة أن عمرو ذهب إلى مصر بعد أن عاد عمر بن الخطاب إلى المدينة ، وتقدم عمرو حتى وصل إلى حصن بابليون (٦) ١٠

أدى الاعتماد على سلسلة الأسانيد إلى لجوء المؤرخين المسلمين الأول إلى الطريقة الحولية في كتاباتهم - وكان لاستخدام طريقة الحوليات التي تضمنت ذكر الأحداث وفقا لترتيبها الزمني في صفة معينة أو عهد معين ، أن فرضت تلك الطريقة نفسها على المؤرخين المسلمين ، على المدى الطويل ، نظرا لسهولة - وكان تقديم أقوال الرواة المتعديين في سلسلة مسألة سهلة أيضا ، ومن ثم كانت الخطوة الطبيعية لوجود معين للواريخ Chronology الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمني

في العامل المهم في النظام الذي صار عليه تسجيل للملومة التاريخية وظل قليل من هذا النوع من الحوليات التي كتبت قبل عصر الطبري باقيا حتى عهد ، هذا في الوقت الذي يعتبر الطبري المسلم الأول لكتاب الحوليات المسلمين - وعلى الرغم من أن الطبري أثبت أنه كان ضليعا في هذا المجال ، فإن الباحثين مالوا إلى الاعتقاد بوجود جهود سابقة لجهده في تلخيص تيراسا له في كناية حولياته ١٠

إن الحديث عن سهولة الكتابة الحولية والمسبوبة إلى قلة خبرة المشتغلين بالعمل التاريخي هي إشارة عن ميزتها تحسب - وهناك ما يمكن اعتباره ميزة أخرى في أي حولة وهي أنها تحمل طابعا عاما من عدم التحيز في أسلوبها - وفي المادة ، اعتقد كاتب الحولية أن مهمته تقتضي بتدوين الخبر ، وليس ملزما بأن يقصر هذا الخبر أو يحكم على مدى صحته ، ولا مجبرا على أن يمر مصوره ولم تتم الأخبار التي قام كتاب

الحوليات بتدوينها تقلا عن الكتاب الأول على الموضوعية الكاملة . ففي رواياتهم عن الصراع بين المسلمين والامبرطورية البيزنطية ، على سبيل المثال ، اعتادوا على القول بأن المسلمين كانوا على حق .

ومع ذلك فإن مواطن الضعف الخطيرة كانت كافية لتضويه الكتابة الحولية . وتمثلت مواطن الضعف في إعطاء أهمية بالغة تؤكده دقة التسلسل الزمني للحدث التاريخي عندما تكون صحة الحدث موضع شك وبالإضافة الى ذلك فهناك مشكلة المعلومة المتداخلة التي تكون على قدر كاف من الأصالة بيد أنها معلومة حدثت منذ عهد قديم ودون تاريخ محدد لحصولها . وفي مثل تلك الحالات يكون الاعتراض قويا على كاتب الحولية فيضع المعلومة وفقا لما يميله عليه حواره أو وجود مكان لوضعها . ولا يمكن الكتابة الحولية القاري من استخلاص معرفة التطورات الثقافية والاجتماعية عن أي عصر في عصر . ومهما تكن الظروف يمكن أن تحتوي الكتابة الحولية على تمييز أدبي أو جمالي بصرف النظر عن قدرته ككاتب الحولية على تقديم الدليل على صحة ما يكتبه . فقد كان التاريخ يقدم للقاري في ربه العمل ، وحاليا من كل مظاهر الرعب ، ويطلب عليه الطابع الإخباري تماما . على أنه من بين طالع القاري لتاريخ الطري - وهو ما نقله هذا المؤرخ عن الذين سمعوه أنه سجد حوادث عرضيه في سياق السرد التاريخي لهذا المؤرخ ، لها أهمية فائقة .

وبهذا الطري تاريخه ( تاريخ الرسل والملوك ) - وهو أول كتابه عن تاريخ العالم باللغة العربية - نالحت عن يده الخليفة ، ثم انتقل الى الحديث عن آباء الجنس الشرقي ثم الملوك والأنساء . ثم انتقل بصراحة الى ملكة الفرص الساسانيين ، ثم عصر النبوة ، الى عصر الخلفاء الراشدين ، وأخيرا اختتم تاريخه بالأمويين وأوائل العباسيين حتى سنة ٩١٥ م . وعلى الرغم من افتراض أن تاريخه شامل للعالم ، فإنه اقتصر على آسيا الإسلامية في معظمه . فلم يكن لديه وقت للكتابة عن شمال أفريقيا أو أوروبا . وقول الطري أن امتداد النفوذ العباسي غربا لم يصل الى أبعد من مصر تقريبا ، يمكن أن يفسر قلة اهتمامه بتلك الأقاليم . ومع ذلك فإن انتشاله بامتداد والمناطق المجاورة لها قد يكمن بيمسطة التأثير القوي الذي تمتع به العاصمة الإسلامية الواقعة على نهر حطلة ، حل الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية .

وسار الطري وفقا للطريقة الحولية في تقديم المعلومات التاريخية عندما كتب عن العصر الإسلامي ، حيث أمده التاريخ الهجري بالاعداد

الأساسية التي اعتمد عليها - إذ كانت عادته استطلاع الجملة التالية :

• ثم جاءت مئة - - • عند بداية كل حول من حولته • واعتاد على أن يستخم كل حول بذكر بعض المعلومات عن أمير الحج إلى مكة كما مال إلى ذكر الأحداث المهمة في بداية كل حول - ولم يرد في حولية الطبرى شيء عن أخبار الوفايات المسحوبة بتروحة موجزة للفقيه Obusary ، رغم أن هذه العادة تحلت بوضوح تام في الحوليات الغربية ، كما لم يتم يذكر أسماء كبار رجال الدولة مالم يرد ذكرهم في أحداث لها بعض الأهمية • على أن عادته الطبرى في ذكر ترجمة مفصلة عن حياة كل خليفة في نهاية عهد كل منهم • يعتبر تحولاً ضخماً من مجرد الكتابة الحولية المخصصة •

إن مواطن الضعف التي كانت الطريقة الحولية في الكتابة التاريخية كانت أيضاً عبئاً ثقيلاً على كتابة الطبرى • إذ اكتفى بمجرد تدوين المادة النابذة التي استطاع جمعها سواء بتقديمه سلسلة من الاسانيد أو شهود العيان ، وتقديم التفاصيل إما في شكل حوليات أو ككل كما هي - واعتنى بذلك تقديم أى معلومة لأى مؤرخ تتملق بخطيفة ما ، على سبيل المثال ، تليها المعلومة التي كتبها مؤرخ آخر تتعلق بمس الخليفة • وليسوء الحظ ، تغفل الطبرى ذكر أسماء اسانيد المؤلف أو شهاد العيان لبعض مقتضات معينة • ولم يبدل هذا في عادة صياغة خبر واحد من تلك التي كانت بين يديه • وإن كان قد مارس قلداً يسيراً عن تصنيف لمحقق التاريخ حتى ولو كانت متناقضة ، فبالنسبة إليه لم يكن التاريخ نوعاً من الدراسة العقلانية أو يحتاج إلى تقسيم وتحليل • واقتصرت مسئوليته على مجرد نقل المعلومة التي جعلها بكل دقة • وهما كانت (٧) • وعبر عن هذا الموقف في مقدمة كتابه التاريخي بما يفيد أن معرفة أخبار الأمم السابقة والمعلومات التي حدثت ، لم تصل إلى من لم يكن معاصراً لها ، أو شهاد عيان ، إلا عن طريق ما كتبه المؤرخون السابقون وما تناقله الرواة • ولا يبقى لهؤلاء المؤرخين والرواة أن يستعملوا الاستدلال المنطقي أو التوضيح الفكري • والآن إذا ما حدث ووجد في كتابه الذى احتوى على ما نقله عن الماضى ، ما يثير اعتراض أحد القراء أو تناقض مع وجهة نظر أحد المستمعين لعدم الاقتناع بعدم صحة أو دقة أى خبر ، فهو ليس ممثلاً عن ذلك ، وإنما اللوم على من رواه له ، لأنه اكتفى بنقل الخبر على النحو الذى وصل إليه تماماً بتمام (٨) •

ونظراً لأن الطبرى قدم الأخبار المتماثلة عن مصادر مختلفة للحادثة الواحدة دون أى محاولة للتوفيق بينها ، لذلك يصاب عن تاريخه ما تضمنه

من تكرار إلى حله المثل ، وتفاوت في الاستدلال ، ووجود قدر من علم الترابط ، وانتقال إلى الاتزان إلى حد ما ، فكل سبيل المثال ، إذا كانت مصادره بها القليل أو لا شيء ، عن بلاد المغرب ، فمنى هنا أنه قسم القدر إليهم أو لم يقيم شيئاً إلى قارته ، ومن ثم فإنه لم يخصص سوى ستة مسطور لحسب عن فتح الأندلس ، ومن الطبيعي أن يحتفى قدر من التكرار عندما وصل إلى مرحلة الكتابة عن عصره ومعالجة الأحداث القريبة المهد منه ، وإن ظهر علم قدرته على التمييز الدقيق لأهمية تلك الأحداث بوضوح فتجاهل أنباء مهمة مثل هجوم الأسطول الهينزلي سنة ٨٣٩ م (٩) ، ولم يبد اهتماماً كبيراً بالأحوال الثقافية أو الاجتماعية علماً كان يكتب عن فترات تاريخية قريبة العهد منه أكثر مما فعله عند الكتابة عن قرون سابقة حيث اعتمد كلية على مصادره .

وبرغم ما سبق ذكره من عيوب فإن الطبرى هو المؤرخ الأول الذي استطاع أن يقدم للعالم وجهة نظر حديثة بالنسبة وواضحة تبلى عن التاريخ الإسلامى . كما تمثل أبلى نساء على السمة الوطنية لكتابه التاريخى فى أن المؤرخين الذين كتبوا من بعده لم يجدوا ما يضيفهم فى السير على نهج طريقته فيها . ذلك لأنهم اعتمدوا كلية تقريباً على الطبرى عند تقديم كتاباتهم المؤرخة ، أو ملأوا كتاباتهم التاريخية من حيث انتهى الطبرى من كتاباته . ويرى ابن خلدون شيخ كل المؤرخين العرب أن الطبرى كان مؤرخاً وحافظاً لتراث الشعوب ولا يمكن أن يصو فكر على فكره .

ويجد القارى المنقذين اللذين يطعهما الأولية ونسبى بهما النة فى الكتابة والموضوعية من الإحار الرابع الذى فقه الطبرى ، والذى استحق عليه أسس آيات التلة والإطراء بعد أن تصدى مهمة حفظ تراث العصور الماضية . وعارض الطبرى مهية بدقة القبان أو الفن المردى التى يزاول بها عمله . وإذا ما تسائل المرء عن سبب إجماعه عن تفصيل إحدى الروايات التاريخية عن غيرها ، وهى المرة التى ادعاهما لنفسه لتفسيره للبرآن الكريم ، فإن تحليل ذلك هو أن الكتابة التاريخية لم تكن قد بلغت بعد مستوى من النضج يسمح أو يتطلب التحليل والشرح والتفسير ، إذ كانت مسئولية المؤرخ على عهد قاصرة على مجرد جمع المعلومات التاريخية وتموينها . ولا يمكن أن تتم عملية التلخيص من مظاهر التفسير والعلل ، سرد تليفات مسجى ودقيق ، ويحظى بالقبول والاستحسان إلا بعد أن تتم عملية جمع لكل المعلومات التاريخية الوثيقة الصلة بهذا الموضوع المراد كتابته .

وليس يختلف على فطانة كل لبيب ما نجشسه الطبرى من صاحب جنة من أجل الظهور بظهور « المسلم الملتزم » عند تحدته عن القرآن الكريم والأحاديث النبوية التبرية ونظرا لأن التزامه هنا كان له القضية قصوى، فإله لم يستطع أن يكون عمله مجرد تدوين الروايات التاريخية التي وصلت إليه عن الأحاديث النبوية التبرية . أما بالنسبة إلى التاريخ فقد كان الموقف مختلفا تماما ، حيث أن الدقة التاريخية ليست أساسية بالنظر إلى التي تتطلبها المحافظة على سرية النصوص الدينية - وبناء على ذلك أبدى الطبرى اهتماما طفيفا بمدى صحة الكتابة التاريخية بالإضافة إلى قيامه بنقل الروايات التاريخية المتعددة بأمانة ، كما وصلت إليه . ورغم ما تقدم ذكره فقد حدثت نتيجة عكسية لم يكن يتوقعها المرء ، إذ أضحى الباحثون فيما بعد ، تفسيرات الطبرى للقرآن الكريم ، إلى القصص والتدقيق الشديد . وهي التي كان الطبرى قد أولاها قصارى اهتمامه . وقام هؤلاء الباحثون أنفسهم ببول كتابته التاريخية دون أي شك أو حيل تقريباً . وهي التي لم يسطها الطبرى سوى القليل من الاهتمام . ومن ناحية أخرى يحل تاريخ الطبرى مقاما قريبا إذ ليس هناك مناض له .

وفيما إلى روايات عديدة من كتاب الطبرى عن تاريخ الصالحين . ولما كان الطبرى مسلما ملتزما ، فإنه لا يتفقد بأن التاريخ يبدأ ببدء الخليقة ، وعلى ذلك انتج سرده التاريخي بوصفه ما حدث منذ البداية . وكما سبق أن أشرنا ، مغالبا ما أغفل الطبرى ذكر المصير أو المصادر التي استقى منها مادته التاريخية ، وتكررت الحالة هنا ، ويستطيع المرء أن يستخلص من طبيعة سرده التاريخي ، أنه لم يقبل ، أو لم يكن يعلم بقصة بدء الخليقة وفقا لما جاء في سفر التكوين Genesis . وأنه استعان بما ورد في القرآن الكريم .

على تلك الخطوة من بدء الخليقة شيء عن عهد هارون الرشيد ، وهو من أشهر الخلفاء المسلمين فيما كانت كتابته باعتلاء هارون لكرسي الخلافة ، ثم علو نجم أسرة البرامكة والبنكية التي حلت بهم . وعلى الرغم من أن الباحثين ليست لديهم الوسيلة لاكتشاف التحقق من صحة وصدق روايات الطبرى ، فإنهم وافقوا على احتمال حدوثها بحسب عامة ويرفض ابن خلدون رفضا قاطعا الصورة التي قدمها الطبرى عن السياسة . حقيقة هارون الرشيد ، والخاصة بأنها أنتجت ولدا من حفر الوضوح المولد . ومع ذلك فإن الأمر المهم بشأن حجة ابن خلدون هو أنه لم يحتمل إلى أي دليل تاريخي آخر لدحض قصة الطبرى - لا يوجد أي مصدر آخر يمكن أن يستند ابن خلدون إليه - وإنما اعتمد على مجرد

استنتاجه المنطقي أن امرأة في مثل مركز العصابة ذات الحسب والسبب لا يمكن لها أن تسجد في مثل هذا السلوك المشين . ومن الواضح أن الطبري لم يذكر لديه أية تحفظات ، على الرغم من أن المرأة يتنابى الشك في أن الطبري أورد ذكر قصة العصابة وجسر يهدف سلسلة القارى . بنفس قدر ابتلاعه بما حدث .

وتحدث الطبري عن عهد كسرى أنوشروان أعظم ملوك الدولة الساسانية الذي كان حاضرا لحوسبتيان الامراتور البيزنطي ، وما شبه الأول من حروب صد الثاني . ورغم ما بدأ في رواية الطبري من تحير الى جانب المسلمي ، فقد تضافرت روايته التاريخية مع ما ورد في المصادر البيزنطية . ولا يصح لنا أن نتوقع الموضوعية الكاملة من مؤرخ اعتمد على المصادر الإسلامية فقط . وإذا كان في استطاعة المؤرخ الحديث الحصول على معلومات وافدة عن الحروب التي دارت رحاها بين كسرى وجوسبتيان من المصادر البيزنطية فإن ما يمكن أن نجد له أهمية كبرى في تاريخ الطبري هو ما ذكره عن قضاء كسرى على الطائفة الدينية التي أوجدها روانست . وعن وضعه للشمام الغربي الذي وضعه كسرى ، علاوة على الموضوعات القصة التي تعلق بشهر يار الذي حاول لخصاص العرش ، والملكة بوران ، والملكة أرمست ، والتي كانت من أجل قضاء القرض .

وكتب الطبري عن العلاقات بين الامراتورية البيزنطية والعالم الإسلامي فيما بين ٧٧٦ - ٨٢٠ م . وجاء وضعه لتلك العلاقات مثلا رائعا لقدرة المؤرخ على الأسلوب الحق في الكتابة ( \* ) .

حديث محمد بن جعفر الطبري مؤلف هذا الكتاب اعلم أن مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن جعفر ابن يزيد الطبري .

لقد خلق الله الإنسان وهو الفاني فوق عيانه وليلوهم أيام أحسن عيلا . وأمرهم سادته ليصرف المتقين منهم والذين يصرصون عن ذكره والذين يتشبهون ما أمره . ومن يصنعون أصابعهم في آذانهم لقد سمعت حكمتهم أن خلقهم لتكشف أعمالهم أن قدرته مسقت كل شيء . فجاء في القرآن الكريم ( سورة الرزازاب ، ٥٦ - ٥٨ ) ( \* ) . وما حظقت الجن والانس الا لعدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين . . . وحصى هذه الآيات أن الله ( ومبجانه ونعالي الذي خلق المحاققات لطباعه وعيادته .

(\*) فضلت أن أعيد صياغة النصوس التي قوله عن الطبري وابن جعفر بلغة عصرية حتى يسهل على غير المتخصص فهمها المبداء بالعلماء القليلة في أوردوا للنصوص التاريخية إلى والأدلة الهامة التي تقدم لهم للتخصص ( الترجمة ) .

وأنه لا يسألهم جزاء ولا شكورا ، لأنه هو الذى يرزقهم جميعا • وهو  
الذى فوق عبادهم وسيجزيهم أحسن ما صنعوا • وإذا ما عباده العباد  
فلن ينقص من ملكه شيء • وإذا ما أطاعوه فلن يزيد من ملكه شيء •

خلق الله العالم ثم خلق كل المخلوقات • وخلق لهم عيوننا لمشاهدوا  
بها عجائب صنعه ، وكل عظمته فى خلقه • وجعل لهم آذاننا ليسموا  
بها العلم والحكمة • وزودهم بسمه العقل كي ينتهون ، وعظمهم القلوب  
على التمييز بين الحق والباطل ، ولن يفرقوا بين الطيب والخبيث •  
وجعل لهم الأرض مهانا ليقبوا عليها صباكهم • وخلق السماء • وسعى  
السحاب الذى يطر ماء ليخرج من الأرض حيا ونباتا • وجعل من الماء  
كل شيء حيا ، وفى ذلك يؤمن العباد صالحهم الذى لا يعبد سواه •

ويقول الطبرى أن الله خلق الشمس والقمر لأن الدنيا كانت فى  
ظلام ، ولولا وجودهما لما كان هناك ضوء فى الدنيا • وكان ضوء القمر  
يسادل ضوء الشمس فى بداية الأمر • ولذا ما استمر الحال كما كان  
لما استطاع أحد أن يميز بين النهار والليل ، ولما عرف الإنسان الأيام •  
والشهور أو المسنين • ولما استطاع الناس تأدية الصلوات الخمس •  
ثم أرسل الله حبريل ليترك بجسده وحه القمر حتى لا يكون مثل ضوء  
الشمس ، وبذلك يمكن تمييز النهار من الليل ، وحساب الشهور  
والسنين • وفى هذا قصة كبرى وخبر كثير •

### عصر هارون الرشيد (١٠)

يقال أن هارون اصطحب الهادى الى عيسى آباد • وبعد أن صلى  
صلاة الجنائز على جثمانه ، رجع هارون بالخلافة على الفور • وقبل أن  
يحيى بن خالد ، وزير الهادى ، كلن سجيناً فى ذلك الحبس ، وأن الهادى  
عقد اعزم على قلبه • غير أنه ما لبث تقلد هارون خلافة الخلافة على يد  
هرثة بن عيسى ، فى الليلة التى مات فيها الهادى • حتى يادر بأطلاق  
مراسم • يحيى بن خالد ، وعنه وريرا له • وكان هارون فى الثانية  
والعشرين عندما اعتلى عرش الخلافة • وكان مولد هارون فى الرى •  
عندما كان الهادى فى هذه المدينة • وكان الرشيد أخا فى الرضاة  
للفضل بن يحيى • وكان الهادى يرغب فى أن يتولى ابنه جعفر الخلافة  
من بعده ، واتسم قادة الجيش على تنفيذ هذه الرغبة بالفضل ، بيد أن  
الهادى سرف النظر عن هذا الموضوع بعد ذلك • وبعد أن تولى هارون

مقابلته السلطة . أجزى حمير على أن يعلن على الملأ إعفاء هؤلاء الذين كانوا  
 قد أقسموا بيمين الطاعة له . وأنه يوافق على أن السلطة الشرعية هي  
 من نصيب عمه هارون . ثم أرسل هارون في اليوم التالي رسائل إلى كل  
 الأقاليم ، يعلن عن قدومه وطلبه تقديم يمين الولاء له . وبلغ هارون أن  
 الله رزقه ابناً في البلبلة عيناها التي اعتلى فيها كرسي الخلافة . فاعبر  
 هارون ذلك ذلاً حساً . وأطلق على المولود اسم عبد الله وهو اسم المأمون  
 نفسه وعندما وصل هارون إلى بغداد ذهب معه حاشيته إلى النجسر وقال  
 إلى يحيى : « إن المهدي قدم إلى هدية عبارة عن حاتم من الباقوت اسمه  
 حاتم ألب دينار . وفي أحد الأيام شاهدني في منزل الهادي ونظر إلى  
 ذلك الحاتم وابنته رغبة جامحة في أن تكون في أصيبي » وبعد ذلك  
 بعث برسول يطلب مني الحاتم . وكنت أسير على النجسر عندما اقترب  
 مني رسوله وحدثني أن طالبا الحاتم فاستبطلت عينا لهذا الطالب ،  
 وغلبت الحاتم من أصيبي . وألقيت به في مياه نهر دجلة . وقلت عليك  
 أن تأمر الخواص بالبحث عنه . » لقد مضى على الحاتم خمسة أشهر  
 في قاع النهر ولا يعتقد أحد أنه في المكان الثور عليه . ثم غاص  
 الخواصون في الماء ووجدوا الحاتم في المكان الذي حذره هارون وكان  
 هارون سعيداً واعتبر ذلك ذلاً حساً . .

وفي السنة نفسها رزق الله هارون ابنه محمد الأمين الذي فضله  
 على أخيه المأمون انتهى كان أكبر منه . ولأن الأخير كانت أمه جارية ، في  
 حين كانت والدة محمد الأمين زينة أمه حمير بن منصور . واختار  
 هارون يحيى بن خالد وزيراً له . وعهد إليه بإدارة كل شئون الدولة .

### « سرية البرامكة وتكبتها »

كان ليحيى بن فضل أربعة أبناء . الفضل ، وجعفر ، وعيسى ،  
 ومحمد . ومارس الفضل وجعفر مهام الوزارة مما بدلا من والدهما نظراً  
 لكبر سنهما . ثم استلم يحيى هارون كل من الفضل وجعفر لأغاثتهما من  
 وأحداث المنصب . ولم يكن عيسى ومحمد وريثين ، وإنما كانا يحملان  
 لقب أمير . وكان لهما أمراء ، ولحيى أقارب ، وجميعهم يحمل لقب أمير .  
 وبفضل يعود يحيى لمرتبة كل أسرة البرامكة إلى أعلى مراتب السلطة .  
 وكان حمير الوحيد من بين أسماء يحيى الذي حظى بسبب هارون .  
 لما الفضل . الذي كان شقيقاً في الرضاغة لهارون . فكان يشعر دائماً  
 بالانقرض الشديد إذا ما حضر حملات الأمير والسمر التي كان يقيها

هارون . حيث كان الخليفة يتمتع نفسه في صحبة النساء . والجواري ،  
والغنى والمفريات . وأخيرا قرر ان يتكل بسدا عن تلك الاجتماعات وأقسم  
لا يقرب الخمر مرة ثانية .

ونظرا لكبر سن يحيى فانه استأدى من هارون في الذهاب الى مكة  
ليتعرج للمبادة . غير أن هارون رفض طلبه وقال : « ان ولدك الفضل  
وجعفر يتوليان مهام الوزارة . عليك بتصبي اسمها وفقا لرغبتك ،  
على أن يلبسنى بذلك . وسيعرف قرارى التى سيقوم بإبلاغها اليك  
بدور . » وبمعه اخذ مشورتى ، سيقوم بتبنيها . وعلى ذلك احتار يحيى  
اسم الفضل الذى كان اكبر من جعفر وأكثر خبرة . وأكثر حنكة فى  
اتارة الشؤون العامة . وعهد اليه محلل شاتم الخليفة وقتله همام  
الوزارة . ولم يد هارون اعتراضا على الرغم من انه كان يصل حصر  
الذى أحبه لحسن طبعه ، ولوصفه المدة فى فن الكتابة ولبائنه العائقة .  
واستمر الفضل يتولى مسؤولية الوزارة ، بدلا من والده . ثم أمنت  
هارون تلك المهام الى حصر . وبعد ذلك بفترة من الوقت أخذ منه حاتم  
الحلافة وأعاده الى يحيى ، قائلا : « اعط هذا الحاتم الى أى من  
أبنائك وفقا لرغبتك طالما أنك أقصّل القصة فى هذا الأمر . » اى لا أرغب  
فى التسلسل فى اختيارك . واحتفظ يحيى بخاتم الخلافة وبقي فى  
حورته الى اللحظة التى فقد فيها الخطوة لدى الخليفة .

ولا يستطيع المرء ان يذكر اسم وزير لآى ملك من ملوك العرس  
النظامى أو لآى حلقه من حلفاء المسلمين كان حاله أقرب الى أن يكون  
أمير مثلما كان حال يحيى وأولاده ، ولكنهم تعرضوا لثلاث أحداث  
متزامنة أولها اسفرق مرة وحودهم فى السلطة . لأنه لا يمكن لآى  
امان أن يحكم لفترة طويلة من الوقت دون أن يكون له آتقاء برداد  
معددهم كزعام . لأنه من المستحيل على أى فرد أن يرمى كل شخص .  
ولم يكن يحيى يجهل هذه الحالة ، ولذلك فقد حاول مرارا أن يستقيل .

ان الحادثة الثانية التى ساهمت فى سقوط البرامكة هى كما على .  
كان أبو ربيع محمد بن أمي الليث ، فقيه الرقة ، رجلا ورعا ، ومحبوع  
الكلمة بين الناس . وكان مستاء من نفوذ يحيى ، وقدم رسالة الى  
هارون قال فيها : « يا أمير المؤمنين ، ماذا ستقول لله يوم الحساب ،  
وكيف يكون ردك عن أحوال المسلمين وهم تحت نفوذ يحيى بن خالد ،  
وامتائه وعشيرته . بعد أن تولى شئون المؤمنين جماعة من الرنادقة ؟  
ان يحيى وأولاده ، وكل أفراد أسرته من الرنادقة ، ويسلمسون لمقرص  
الزنادقة سرا انهم لادين لهم » .

وعلمنا علم يحيى بهذا الخطاب ألزم الصمت وفي أحد الأيام  
سأل هارون الرشيد يحيى عن رأيه في محمد بن أبي الليث . فرد يحيى  
بأنه صافى وخبيث . ولا دين له ويخدع الناس بطله . ويضام كل  
شخص الخ . ولما كان هارون غاضبا على محمد لذلك أمر بسجنه على  
الرغم من أن الخطاب ترك انطبعا في نفس هارون . وتطعدت مرات  
استفساره عن مدى التزام البرامكة بالعالم الدينية وتحررى عن  
معتقداتهم . وبدأ كل الناس الساجدين من تصرفات البرامكة يتحسنون  
عليهم ويملكون الخليفة عن كل مساوئهم . فكانت مصصلة ذلك أن بدأ  
قلب الخليفة يتغير من ناحيتهم .

ثم وصلت هارون شكوى فائقة ضد البرامكة . إذ كان يحيى بن  
عبد الله الحسيني قد جاء إلى القصر مع الفصل بن يحيى بعد ثورة في  
طبرستان . وسجنه هارون . وعهد إلى جعفر برعايته . وعلمنا أمر هارون  
جعفر يقتل يحيى بن عبد الله الحسيني . قال يحيى لجعفر : « أنت أيها  
الرجل المالى الهمة . تريد قتلى . يا من نعرف من هم أسباني » أنهم قد  
أعطوني ثقتهم . ولكن قادوني إلى هنا فانهم حسنوا في قسمهم » .  
فأجاب جعفر : اذهب فانت حر . ولذهب إلى حيث شئت . وإذا ما سألني  
عك هارون . سأحبره بما يحب قوله . » واسطلق يحيى على الفور  
وأبلغ الحاجب هارون ما حدث . وفي أحد الأيام عندما كان جعفر  
يتناول طعام العشاء مع هارون . سأله الأخير عن أسوال يحيى هذا .  
فأجاب جعفر أن يحيى ما زال بالسجن . فأمره الخليفة قائلا . « أنسم  
برأى وحياتى » . فسكت جعفر ثم قال . « يا أمير المؤمنين لا أحب  
أن أنسم برأسك وحياتك » . لقد كنت واقفا من أن يحيى رجل صالح .  
ولا شيء يخلصه . وأنه لا يستطيع أن يجده أى جبايات مادية .  
ومن ثم قمت بأطلاق سراحه . » . فقال له هارون دون أن يفصح عن  
أى استياء : « لقد أحسنت صسما . وكانت لدى نفس التبة . وأنا  
موفق معك » . وعمل الرغم من أن هارون لم يتحدث أكثر من ذلك . فإن  
هذه الحادثة تركت في نفسه حثقا شديدا .

أما الحادثة الأخيرة والتي صاحبت في مكة البرامكة فهي كذا يلي :  
كان لهارون شقيقة تدعى الساسة . ابنة المهدي . الذي كان أكبر من  
الهادي سام واحد . وعندما أراد الهادي أن يستنظم العنقب ضد هارون  
قامت السامسة بتسعة للعضول عن ذلك قائلة . « لا تفعل هذا . أنه  
شقيقك . ويجب أن يحكم بمدك . ولا أحد يعرف ماذا سيحدث » . ولهذا  
السبب أبدى هارون أسى مظاهر الاحترام والمودة لأخته عندما اعتل

عرشي الخليفة . واتكمتها على بعض أسرارها . واستمتع بالجلوس معها ، وعاش معها في غاية المودة والتراحم . ودعا الخليفة هارون وزيره جعفر لحضور تلك الولائم التي حضرتها شقيقته وجواربها . ولما كان جعفر حريصا على ألا تصدر منه أي بادرة أو إشارة غير لائقة في حضور العياصة لذلك ففضل ألا يحضر تلك المهرلات قريبا منه . ومعهم الخليفة سبب حذر جعفر ، وقال له : « أريدك أن تتزوج العياصة ، شرطه ألا تراها في حضورى ، والا تلمسها ، وإياك أن تماشرها معاثرة الأرواح » .

وحينئذ يستطيع أن يحضر مجالس الطرب معاً دون خوف . - فاجاب جعفر أنه ومن إشارة الخليفة . ثم تم عقد زواج جعفر بالعياصة وظهر الزوجان في وجود هارون وتحدثا على بعد . وكامت العياصة أجمل نساء القصر جميعا ولا تقاها حرة أو جارية في الجمال ، كما كان جعفر رجلا ومسيا . ولذلك سمى كنى منهما إلى لقاء الآخر سرا ، وتمضى هذا اللقاء عن طفل أنجبته العياصة . وأرسلت العياصة هذا الطفل إلى مكة مع اثنين من جواربها لرعايته بعد أن أعطتهما مئلا من المال ومر عام على هذه الحادثة إلى أن تشاحرت العياصة مع إحدى جواربها - وغربت الجارية وهدنتها بالقل - فتغربت الحاربه من هارون وأقشمت إليه بسر الطفل الذي أنجبه العياصة من جعفر . فأمرها هارون ألا تقص عنه الحادثة على أحد ، ثم ضمها إلى جواربه .

وبعد أن حصل يحيى بن عبد الله على حرجه ، نزل هارون جهودا لمعرفة محل إقامته وما أن عرف الخليفة ، أن يحيى هذا يقيم في خراسان حتى أرسل عليا بن عيسى بن ماضى ، إلى هذا الإقليم ، ومعه تعليمات بالحب عن يحيى والقاء القبض عليه . وصعد ذلك الحب يمر سمور هارون من ناحية البرامكة - وأبدي الخليفة فتورا في معاملاته مع يحيى وجعفر وعلق يحيى يوما على المعاملة الفاترة التي عدل الخليفة بها يحيى . بيد أن يحيى لم يعرؤ على طلب إنهاء حكمته . وبعد أن فجع على بن عيسى في لقاء القبض على يحيى من عبد الله أرسله إلى الرقة في صحيفة منقوب موقوف به . وهناك أعظمه هارون .

نما أن اطمأن هارون على نفسه من هذه الناحية حتى عقد الحزم على العمل ضد البرامكة . فأعلن أنه ذاهب لأداء فريضة الحج وأخذ معه يحيى وبعض أفراد أسرة البرامكة - وبعد أن أدى هارون مناسك الحج ، ثم احضار ابن العياصة إليه ، وكان هذا الطفل قد جمع بين والده جعفر والفتة العياصة في نفسه . وكانت لدى هارون نية قتل الطفل بيد أنه غير رأيه بعد أن قال أنه يرى تماما . ثم بدأ هارون رحلة العودة

إلى الرقة • وفي مركز من مراكز البعيدة بالقرب من الأنبار استراح هناك لمدة أيام • وفي اليوم الرابع لوصوله إلى الرقة دعا يحيى وأولاده الفضل ، وجعفر ، وموسى ، وطلع عليهم الخلع مظاهر العطف والمودة وحملهم هذا السلوك يشعرون بالسعادة ، وأتاد ، فأطمان فلوهم كل الأطمئنان • وعند صلاة العصر قال هارون لجعفر • لن أسمع لك بالذهاب إلى دارك ما لم أكن قد تمتعت بنصي بالقرىب مع الجوارى • وإن تسبح نفسك بجمولائك • ثم عاد هارون إلى حريمه وبدأ في الشراب • وبعد فترة من الوقت صعد هارون برسول إلى جعفر كبرى حاهو بفاعلى • وعندما علم هارون أن جعفر في حالة عنوية سيئة أمر هارون الرسول بإبلاغ جعفر بالصلو التالي : « أقسم برأى وبحياتي ، أن تعد حفا وأن تسبح نفسك ، ولن أشترب ما لم تكن أنت شرب أيضا • • وأعد جعفر حفا بيد أن قلبه كان مملوا بالأسى والخوف • وكان لدى جعفر ممتنا ضريرا يسمى « أبو ذوقار » • وبعد أن شرب جعفر لفترة من الوقت قال للممتنى • « إن روحى الممتدة منفضة هذه الليلة • • فأجاب أبو ذوقار • أيها الوريير ، إن أسير المؤمنين • لم يد نوايا طيبة لك ولاسرتك مثلكا يحدث هذا اليوم • ويجب عليك أن تسبح • • فقال جعفر • « أى أشعر بأحاسيس حالية حزمة • مرد عليه أبو ذوقار : • عليك بالتخلص من هذه الهواجس ومنع نفسك • •

وبالقرىب من موعد صلاة القرىب علم أحد خدم هارون إلى جعفر حلوى ، وقواكه مخففة ، وروائح عطرية من الخليفة • وعند صلاة العشاء أرسل هارون • كميات أكثر من الأولى ، ثم كميات أكثر لمرء الثالثة • وبعد منتصف الليل خرج هارون من مكان حريمه ، واستدعى حادفه مسرور الطواشى وقال له : « اذهب على الفور إلى مهجع جعفر واقطع رقبته وأحضر رأسه منك • • وعندما شاهد جعفر مسرورا ، ارتعبد الوريير خوفا • فقال له مسرور : « إن أمير المؤمنين يريدك الآن • • فسأله جعفر : « وأين هو ؟ » فأجاب مسرور : « انه ترك مكان حريمه عند لحظات وهو يقصره حاليا • • فقال جعفر • « دعنى أدخل مكان حريمى لأترك لهن بعض التعلبات • • فأجاب مسرور : « لس هذا مكانا وعليك أن تترك لهن تعلباتك هذا • • ثم قلده مسرور إلى أن وصل إلى حسنة وهنا استل مسرور سيده الضالع • وسأل جعفر مسرورا عن الأمر الذى تلقاه من هارون فقال مسرور : « لقد أمرته هارون بأن أقدم رأسك إليه • • فقال جعفر • « احترس فربما أصدر إليك هذا الأمر وهو مخبور مما يجعله يتقدم على ذلك فيما يند • • ثم توصل جعفر لمسرور

عذكرا ايام مصداقتهما القديمة ، وطلب منه ان يعود الى الخليفة فوافق  
 مسرور . وكان هارون جالسا على مسجده منتظرا حاضره الخصى .  
 وعندما شاهد هارون مسرورا ساقه على الفور : « اين رأس حعفر ؟ »  
 فاجاب مسرور : يا امير المؤمنين ، لقد احضرت جعفر - « فرد عليه هارون  
 قائلا انى لم اطلب حعفر وانما اطلب رأسه » . صاد مسرور الى حعفر  
 ودق عقبه . وعندما قدم رأس حعفر للخليفة قال له الخليفة :  
 « احتفظ بالرأس والحلة الى ان اسالك عنهما » وادهب الآب . وألق  
 العض على يحيى وأولاده الثلاثة - وشقيقه محمد بن خالد ، وصحبه  
 في حبيك وقيدهم بالسلاسل وصادر كل مسلكاتهم » .

وقام مسرور بتنفيذ كل تلك الأوامر . وأرسل هارون رأس  
 حعفر الى بغداد عند الصبح . وفي اليوم التالي ذهب هارون الى الرقة .  
 وتعرض كلا من يحيى وشقيقه للضرب والتعذيب بالمسجن - وأجبرا على  
 التنازل علنا عن كل ممتلكاتهما - وصعد ابن مات يحيى بالمسجن ، أطلق  
 الخليفة سراح محمد بن حنبله لمهم وجود أى شيء ضمه ولأنه كان الفضل  
 شخصية في أسرة البرامكة . أما مات يحيى أقارب أسرة البرامكة فقد  
 ظفروا جميعا على السجون . وسد مصائد كل ممتلكات البرامكة أمر  
 هارون بنى عمق كل من الفضل ومحمد . وموسى ، في حضرنه . كما تم  
 اغنام كل أفراد أسرة يحيى والقريش منهم . ولم يبق على قيد الحياة  
 من أسرة البرامكة سوى بن خالد ، وأطفال الفضل وجعفر . وظلت رأس  
 جعفر حعلقة بمشقة في بغداد حتى أحرقت » .

ان سلوك هارون في هذه الحادثة هو سلوك مشجوب بكل  
 المقاييس . فقد أساء هارون الى نفسه بما فعله . ونتيجة لقسوته  
 وعقوباته الوحشية فقد تحلت الناس كثيرا عن هذا الموضوع . وعندما  
 تحلت الناس عن نكبة البرامكة وسألوا عن السبب عرفوا ان كل ذلك  
 بسبب الصرامة شديدة هارون الرشيد . وسنظل ذكرى هذه الحادثة  
 قائمه حتى قيام الساعة ، وسيعرف الجميع ان ما حل بالبرامكة كان  
 بعيدا كل البعد عن الحكمة . وبعد النظر » .

وشجب الناس سلوك هارون لسبب آخر . فبسبب اختفاء البرامكة  
 تعرض أمن الدولة لأخطار شديدة . ونأسف الناس للقضاء على البرامكة .  
 فقد واحة هارون اضطرابات وتوربات في كل مكان . ولم يكن قادرا على  
 السيطرة على أرجاء الدولة فقد ثار إقليم خراسان الذى كان تحت الإدارة  
 المظلمة لمي بن عيسى . واضطر هارون الى الذهاب الى هناك بنفسه .  
 لا تحرك من بغداد على رأس جيش بلغ تعدادهم خمسون ألف مقاتل .

وهذه إلى ابنه محمد الأمير بالبقاء في بغداد . وإدارة شئون الدولة فيها بين حدود التبريد ومرتفعات حلوان . ونوقض في كرمستان بفترة من الوقت حيث عقد اجتماعا عاما لقواته . وألقى خطابا على قادة الحشود ، وأمرهم بأن يقسموا بين الولاء والطاعة لابنه المأمون الذي بولي حكم كل الأقاليم الواقعة خلف حلوان ، ونص بها . كوهستان ، وهمدان ، والري ، وخرقان ، وطبرستان ، وخراسان ، وشرق بحر قزوين ، وتركستان . وبدا المأمون في التحرك وتحت عيادته ثلاثون ألف مقاتل ، ثم تبعه هارون وبقيّة الجيش وعندما وصل هارون إلى طوس Tous مات .

### عصر كسرى أبو شروان (٩١)

• ثم صار كسرى أبو شروان بن قباد ملكا . الخ . وبعد أن تولى الملك أرسل خطابات إلى حكام الأقاليم الأربعة في بلاد المرس ، وأتباعهم . وورد في الخطاب الذي أرسله إلى حاكم إقليم آذربيجان ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من كسرى بن قباد إلى زادهورى Zadhoe ، حاكم آذربيجان ، وأرميسا ، وإلى أتباعه سلام ! لأنني ، بنبر تلقى الاسمان أكثر من الحالة التي يرى فيها نفسه غير آمن على ما يملكه . ومعرضا لأعمال العنف ، أو صياح ماتحت يديه ، أو في بعضه ، أو حشمه ، أو متابعه أو مايسفد أنه مفقد له . وأنا أعلم جيدا أن شغل الناس الضاعل هو حاجتهم إلى خلق عدل » (٩٢) .

(٩٢) بالرجوع إلى النص اللاتيني من كتاب الطبري وجدت من الضروري ذكر النص العربي بالكامل وإن كان لا يخرج من النص الذي جاء وقتا لترجمته من اللغة الإنجليزيرة التي نقلت عنها

« بسم الله الرحمن الرحيم

من الملك كسرى بن قباد إلى وزيرتي بن الخضر بن فارسيان أدريجان وأرمينية وخرزما ، وديبلوند وطبرستان وخرزما . ومن قبلة سلام . فإن أخرى ما استوحش له الناس فقد من شوقوا في تقديم إياه روال السم ووقوع الفنى ، وحلول الكاوه بالافضل فالافضل منهم ، في نفسه أو حشمه أو ماله أو كرميه ، وأما لا تعلم حجة ولا فقه شيء أجل رزية عند المظنة . ولا أخرى أن نمر به البقية من فقد ملك صالح » ، انظر الطبري . تاريخ الرسل والملوq ٩٨ ، ص ٩٨ . البليصة الرابعة . دار المصاحف بالقاهرة ١٩٧٩ م - المجلد ٥

وما أن سيطر كسرى على عقاليده الحكم حتى امتاصل شاقة طاغية  
 قاضية على ساليمة الدنياة المجوسية وفقا لتعاليم زرادشت المذابي - وكان  
 عدد كبير من الناس قد انضم اليها ، وبناء على ذلك صار لها نفوذ كبير  
 وكان مزدك أحد أتباع زرادشت - ودعا مزدك الناس ، والرم أتباعه ،  
 بأن يكون كل شيء - متشاعا بينهم بما في ذلك كل ما تحت أيديهم من  
 ممتلكات ونساء - وأقنع مزدك أتباعه أن ذلك ضرب من التألف والمودة  
 يرضى الله عنه - ويجري عليه حير الجراء - والواقع أنه برغم أن تلك  
 المبادئ الدينية التي دعا إليها مزدك لم تكن ملزمة ، فإنهم اعتقلوا أن  
 بركة الله سحلت عليهم لتعاونهم مع بعضهم البعض - وبهذا الأسلوب  
 استطاع مزدك أن يعرض العامة ضد الطبقة العالية واختلطت الطبقات  
 الدنيا بالسلالات الأصيلة ، وأصبح من السهل على أولئك الذين يحصلون  
 على من يملكون ، أن تكون تحت أيديهم ممتلكات ، ومارس الإشراف  
 شروخهم ، وأشجع الزمالة شفقهم ، وجالسوا نساء الطبقات العليا ، بعد أن  
 كان ذلك أمرا لا يخطر على بالهم من قبل - ووجد كل الناس أنفسهم في  
 نفس الخطر - إذ لم يسبق لأي فرد أن سمع عن شيء من هذا القبيل -  
 وفيه قام كسرى بجمع عشاق أي انكار استجدها كل من زرادشت ،  
 ومزدك - وقام كسرى بالقضاء على كل ملك الطائفة الدينية المعارضة  
 لدى الدولة ، وأعدم الكثيرين من الناس لها ، والذين رفضوا الانصياع  
 إلى أوامره - وبالإضافة إلى ذلك أعدم كثيرا من أتباع ماني وحفظ  
 للمجوسية دينهم الذي آمنوا به من قبل (٥) -

وأعجب الناس بفصائل كسرى ، وسمى بذلك ، قسطه ، وثقافته ،  
 وحسن إدراكه للأمور ، وشجاعته ، وبمه نظره ، بالإضافة إلى صفاته ،  
 وكرمه ، وهي صفات لمعها الجميع وما أن أصبح الناج على رأس كسرى  
 حتى يئد كبار رجال الدولة والسلا بتقديم التماساتهم إليه - وما أن  
 فرغوا من تقديم مطالبهم ، حتى وقف كسرى ، وألقى عليهم كلمة -  
 فتحدث عن فضل الله على عباده الذين خلقهم - ثم تحدث عن ثقته في  
 الله في صадتهم إلى الخير ، وفي عونه لهم - ولم يردد شيئا مما لا وتحط  
 عنه ، وذكرهم بالأحوال التي تعرضوا لها من جراء ساليمة مزدك ،  
 ووقد ذم لمسلكتهم ونسبهم مردى لمعتداتهم ، والموضع الشامة التي  
 نجس عن الأمور المتعلقة بأفعالهم وممتلكاتهم - ومع ذلك فقد وعدهم  
 بالعلاج الناجع وطالب الشعب بالمعاون معه في هذا المجال - ثم أمر  
 بإعدام أتباع مزدك وتوزيع ممتلكاتهم بين المحتاجين - وتم إعطاء كل

(٥) ما لورده المؤلف من شخص ما ذكره الطبري في الجزء الثاني من ٦٦ - ٦٥  
 من الحجة للسلفاء المذكور - لترجم -

من استولى على ممتلكات الآخرين ، وعادت الحقوق إلى أصحابها . وأمر بأن يظل كل سفل في الأسيرة التي تفتها بها ، وأن يظل يحمل اسم الأب الذي يمتزج بأبوتها . وأمر كل رجل اقتنص امرأة أن يدفع لها صداقها ، وأن يعيش معها كرجل ووجه في حاله موافقتها على البقاء معه . ولها الخيار في الانفصال عنه . أما إذا كان لها زوج من قبل ، فمن الضروري عودتها إلى زوجها السابق . والزم كل من أتكف ممتلكات الغير أن يدفع له تعويضاً على الفور . مع عقابه على ما اقترفت يده . ومسموح للأطباء الذين قتلوا آبائهم من الطبقة العليا أن يسجلوا على أنهم أولاده . أما بنات تلك الطبقة فقد أمر كسرى أن يخرجن من الطبقة العليا نفسها ، وأن تنهج بيوت الزوجية الخاصة بهن من حرمة التولدة - وزوج الشباب من مسا الطبقة العليا ، بيد أنه ألزمهم بالبقاء في القصر الملكي لكي يستلمهم في الوظائف العليا . أما عن زوجات أسر ، شرك لهن الخيار في البقاء مع زوجانه ، على أن يعيش معهن ، ويحصلن على المقررات التي اعتدن الحصول عليها ، أو أن يقبلن أن يكون كسرى زوجاً لهن وفقاً لما أكرهن .

وقام كسرى بحظر الترع ، وإقامة القباطر ، وتقدير السلفيات للفلاحين ، وعدم اليهم المساعدات الأخرى . وقام بإصلاح الجسور الخشبية ، والمبينة من الأحجار . وحشد القرى في أماكن كثيرة . وأهم بالخيانة ، وروى كل فارس بجواد ومعدنه ، وحشد لهم أمراً ناشأ . وعن حفظه على تيران المعابد ، وأصلح الطرق . وشيد القلاع والحصون على امتداد تلك الطرق للحماية من اللصوص وقطاع الطرق . واحتار الموظفين والحكام الأكفاء ، وزودهم بالتعليمات المشددة . ودرس تاريخ حياة أردشير ، ووسائله ، وتعليماته ، واعتبره مثله الأعلى ، وطالب الشخصية الاقتداء به في ذلك .

وبعد أن استتب له الأمر في كل البلاد - حكم مدة سنوات عديدة - تحرك صوب أنطاكية . واستولى على المدينة ، وعسكر بها قادته - ثم أمر بوضع خريطة دقيقة لأنطاكية بها عدد المنازل ، والشوارع ، وكل المنشآت الأخرى . ثم أمر بإشلاء مدينة جديدة على نبط مدينة أنطاكية . وأطلق على تلك المدينة الجديدة « رومية » ، وأحبر سكان أنطاكية على الانتقال إلى تلك المدينة الجديدة ، وذهب كل منهم إلى المدينة الجديدة ، ودخل البيت المدة له . وكأنه لم يهاد أنطاكية مدينته الأصلية . وبعد ذلك هاجم مدينة هرقلية . واستولى عليها ، ثم استولى على أسكندرون وما بعدها . وترك جزءاً من قواته في أراضي الروم كعامة ، بعد أن انتصاع امبراطور الروم لارادته ، وتهد بدفع فدية . وبعد

عودته من بلاد الروم تحرك بجيشه صوب الحزر . وأخضعهم لسيطرته عاقبا لهم على مهاجمتهم لشعبه وبلاده . ثم توجه صوبه على بلد كبير من السمن الكبرى لاختلاق طريق الملاحة إلى وجه الحبشة . وذلك بإقامة سلاسل حديدية . ووضع الصخور الضخمة والأعمدة الحديدية في جزء من البحر بين الحبشيين . وقتل كبار الدولة هناك . ثم عاد إلى بلاده بعد أن صارت أراضي الروم عند هرقلية . وأرمينيا تابعة له . هذا بالإضافة إلى كل الأراضي الواقعة بين اليايس والبحر . وأعني بها بلاد عدن .

ثم عين كسرى أنوشروان . المنبغر من النصفان ملكا على العرب . وأخضع عليه القاب الاحلال والتكريم . وبعد ذلك بقي في حدود أراضي مملكته في بلاد الفرس . وعي بكل الأمور التي تتطلب كل اهتماماته . ثم توجه صوب الهياطلة لستقم منهم مقل حله ضرور . بيد أنه عقد حلفا مع الخاقان . وهو هذا الحلف بالزواج . وذلك قبل بدء الهجوم . ثم أعلمه بيته في مهاجمة الهياطلة . ورجاه التعاون معه صدم . ثم وصل إلى بلاد الهياطلة . وبيع ملكهم . وقتل كل أفراد أسرته . وتقدم بجيشه إلى أن وصل إلى بلخ . وما بعدها . وأمر قواته أن تسيطر في قرغانة . ثم عاد إلى أراضيه في الشرق . بيد أنه لما أن وصل إلى بلاده حتى جاءت وفود يطلب المساعدة ضد أمالي الحبشة . وحينئذ أرسل معهم أحد قادته ومعه قوات من المديلم . والبلاد المجاورة . وقامت ملك القوات بقتل مسروق الحبش وظلب هناك ( باتسن ) .

وظل كسرى يحقق انتصارات بصفة مستمرة وعلى كل الشعوب . ولذلك بنيت الوفود التي دارت قصره من بلاد الأتراك . والصين . والحزر . وشعوب أخرى بعيدة . وأجل كسرى الملوك . واستمرت مدة حكمه حوالي ثمانية وأربعين عاما . وكان ميلاد الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ( ١ ) . إبان الفترة الأخيرة من حكم كسرى أنوشروان . ويقول ابن هشام أن كسرى حكم لمدة سبعة وأربعين عاما فقصيه . ويقول ابن هشام كذلك أن عبد الله بن عبد المطلب . والد الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ( ٢ ) . ولد في السنة الرابعة والعشرين من حكم كسرى . وأنه توفي في السنة الثامنة والأربعين .

ويواصل ابن هشام القول أنه عندما تولى كسرى السلطة أرسل في طلب المنذر بن السنان الأكبر . وألقاه ملكا على الحيرة . والتي كانت

( ١ ) ما بين حطرتين من عهد الهجرى .

من قبل تحت حكم الحارث بن عمرو ، الذي طُلب حاكميا لهذا الإقليم حتى وفاته .

ويحكى ابن هشام أن كسرى توجه حينئذ بمرحله **Burgas** ، ثم عاد وأمر بإقامة بوابات ضخمة ( عند القوقاز ) .

( وأما من تاريخ الحيرة ) ، ووفقا لما كتبه ابن هشام ، أن الملك الذي حكم العرب باسم ملك الفرس بعد الأسود بن المنذر كان شقيقه المنذر بن المنذر من النعمان - وحكم لمدة سبع سنوات - وحكم من بعده النعمان بن الأسود بن المنذر لمدة أربع سنوات . ووالدته هي أم مالك أيسة عمرو بن حجر - شقيقة الحارث بن عمرو الكناني - وشقيقه جعفر بن علقمة بن مالك بن عتي بن ذؤيب بن قور بن عيسى بن عريبي ابن مرة بن لخم ، وحكم لمدة ثلاث سنوات ثم صار المنذر بن امرئ القيس ، وهو ذو القرنين ، ملكا . وأطلق عليه ذلك الاسم لظهور خصلتين من شعره - اسم أمه المنصومة - وهي مازيه ، تمت عوف بن غسان بن خليل بن ربيع بن زيد بن عمرو بن سميد بن خردج - وبلغت مدة حكمه حوالي تسعة وأربعين عاما . ثم صار عمرو بن المنذر ملكا . ووالدته هي هند أيسة الحارث بن عمرو حميد حجر - وحكم لمدة ستة عشر عاما - وبعد أن حكم لمدة ثمان سنوات ، وثمانية شهور ولد رسول الله . وكان ذلك في عهد كسرى أنوشروان ، في السنة التي تحرك فيها الأتراك الكوس ( أيركة الحشى ) ( ٥ ) وبمصر الفيل ، وقد قصدهم الكمية .

ويقال أنه كانت هناك معاهدة بين كسرى والروم في عهد الإمبراطور جوستينيان - وأيام تلك المعاهدة حدثت حروب بين خالد بن جبلة ( ٥٥ ) ملك العرب في الشام ، والذي كان تابعا للإمبراطور جوستينيان . وبين المنذر بن النعمان بن لخم الذي عييه كسرى ملكا على العرب في عمان ، والبحرين ، واليمامة ، إلى الطائف ، وبقي أراضي الحجاز ، وعلى كل عرب تلك الأراضي - وقام خالد بن جبلة بمهاجمة أراضي المنذر ، وقتل كثيرا من عياله ، واستولى على كثير من الغنائم . وشكا المنذر إلى كسرى وطلب منه أن يكتب إلى الإمبراطور الروم لكي يحسن تأمين بلاده ضد خطر خالد . والواقع أن كسرى أرسل استنجاسا إلى جوستينيان ، وذكره أن هناك معاهدة سلام بينه وبين الروم ، وأبلغه بما حدث للمنذر

( ٥ ) ما يوجد مطبوع من عند المترجم -

( ٥٥ ) الواقع أن ملك العرب في الشام أو ملك القبايلة اسمه الصحيح هو فلان بن جبلة وليس خالد . من حله كما ذكر الطبري وذلك باسم الرجوع إلى المصادر الأولية وليؤاذه والرواية التي تحمى خلافا من المجلد الفارسية - المترجم -

حاكم العرب التابع له على يدى خالد ، وطلب منه ان ياتى الاحمر  
بتمريض المنقذ من كل الضائم التي اخضعها من بلاد اللخمو ، ومن يدفع  
جدة له عن القتل ، وان يتابع عملية ارضاء خالد للمنذر - وبعد كسرى  
جوستينيان بأنه فى حالة عدم ارضاء خالد للمنذر ، فليعلم أن ذلك يمس  
انتهاء معاهدة السلام .

وأرسل كسرى أكثر من رسالة الى جوستينيان بهدف معالجته  
ما تعرض له المنذر ، يبه أن جوستينيان لم يبد أى اهتمام بالموضوع .  
ومن ثم استعد كسرى للحرب وهاجم اراضى جوستينيان بجيش بلغ  
حوالى ثمانين ألف مقاتل ، واستولى على دارا ، والرها ومايوج و Madu ،  
وقتسرين ، وحلب ، وأنطاكية التي كانت أهم المدن فى مسوريا .  
إيمبا Apamea ، وحاصر كثيرا من الأماكن المجاورة ، واستولى  
على كثير من الأموال ، والأغنياء الأخرى التي وجدها فى تلك المدن . ونقله  
كسرى سكان أنطاكية الى السواد ، فى المكان الذى ذكرته من قبل .  
وشهد لهم مدينة بالقرب من طيسفون (\*) ، وكأب حضاية لمدينة أنطاكية  
تاما . وأمرهم بالمعيشة بها . وأطلق على تلك المدينة رومية . وأمسأ  
لهم خمس دوائر من الحاكم : العليا ، والوسطى ، ومحاكمه النهروان  
الابتدائية ، ومحاكمة بدرشاه ، وبأكو شاه . أما بالسسية الى الأسرى  
الذين عاشوا فى رومية ، فقد طلب كسرى منهم تأدية خسة عسكرية  
محددة ، وعهد الى يارار ، وهو مسيحي من الأهواز ، بتولى شئونهم ،  
وبماز هذا كان يرأس لجنة أعمال كسرى . ودخل كسرى هذه بلاد  
الشفقة على الأسرى ، ولأنه أراد أن يطمئنه الثقة فى يارار باعتباره يدين  
بديهم . ودفع امبراطور الروم اتلوة الى كسرى مقابل عدم اعتداء الأخير  
على باقى مدن الشام وعصر . وتمهد امبراطور الروم بدفع اتلوة سنوية  
مقابل عدم الاعتداء على حدود بلاده . وأعطى امبراطور الروم كسرى  
وثيقة تمهد فيها بدفع اتلوة السنوية . ووقع عليها كبار دولة الروم .

وقبل عهد كسرى أنوشروان ، اعتنق ملوك الفرس على جميع  
ضريبة ارض من كل اقليم فى السلاط تسادل الثلث ، أو الربع .  
أو الخمس ، أو السمس ، وفقا للمساحة المزروعة فى كل اقليم . وكذلك  
صرمة رأس محددة . وفى أواخر عهد قبلاد من بروجز ، قام هذا الملك  
بمسح الأراضي السهلة والجبلية لكى يحل محلها ضريبة ارض حقيقة .

(\*) طيسفون - اسم عاصمة الفرس الذى ورد فى المصادر الفارسية واليونانية  
واللاتينية ، أما المصادر العربية فقد استخدمت كلمة لاهان مازلت الانما مخرجة حجة  
أن جنوب بغداد يحول ثانية كيلومترات - للفرس .

وتم تنفيذ مسح الأراضي . بالرغم من أنه لم يكن قد اكتمل عند وفاة قناد . فقام ابنه كسرى بأكمل مسح الأراضي عند اعتلائه العرش ، وكذلك النخيل وأشجار الزيتون . حيث قام الكتبة بصهر جميع الأيرادات . ثم أرسل دعوة عامة إلى شعبه عن طريق رجال الصراثية لإبلاغهم بالمبالغ المستحقة ، والواجب سدها للمؤلة ، وفقا لكل محصول ، وعدد أشجار النخيل ، والزيتون ، وعدد الأفراد الذين يجب عليهم دفع ضريبة الرأس . وعندما بلغ الشعب ذلك شرح لهم كسرى الموقف قائلا : « لقد قمنا بتحديد الحصص ، وأجرا ، الترتيبات المتعلقة بالمبالغ المقدرة عليها في المسح الحالي للأراضي الصالحة للزراعة ، وأحصينا عدد أشجار النخيل ، والزيتون ، وعدد الأفراد الواجب عليهم دفع ضريبة الرأس ، على أنه تدفع المبالغ كل عام ، على ثلاثة أقساط . وبهذه الوسيلة ستكون قادرون على جمع الأموال في خزانتنا ، لتكون قادرون على التصدي لأي خطر نتعرض لها قلة على الحدود أو أراضيها . وذلك لأسأ لا يرغب في أن تعرض صراثيتنا عندما نحتاج مثل هذه الأمور . والآن قضا رأيكم في حطتنا وقى قرارنا ؟ » .

وبالسبب لهذا السؤال لم يقدم أحد أي اقتراح بل ولم ينطق أحد بشت شقة . وبعد أن كرر كسرى هذا السؤال ثلاث مرات ، وقف رجل من بين الجمع وقال لكسرى : « أيها الملك - أطال الله عمره ! - افترض صراثيتنا على الأشياء المرحبة للثقل أو العطب : مثل شجرة الكرم التي تمت في يومها ، وحب القمح التي تدبل والترعة التي تجف ، والبئر أو مخرج الماء الذي ينضب ماؤه . » فصرخ كسرى في وجهه عند سماع ذلك قائلا : « أيها الإنسان الوقح واللعين . إلى أي الطبقات تنتمي ؟ » فرد عليه ثم قال كسرى : « قطعوه أربا أربا » . فأنقص الحاضرون عليه إلى أن مات . وكان معظم الذين مطهروه من الكتبة لأنهم أرادوا إبعاد الشبهة عن أنفسهم .

ثم أعلن الحاضرون رأيهم قائلا : « أيها الملك ، اسأ بقمل ما تفرضه من صراثية على الأرض » . ثم أحضار كسرى عددا من الشخصيات المسئولة والموقرة ، وأمرهم بالتحقق من مقادير المصنوع المتنوعة ، وعدد أشجار النخيل ، وأشجار الزيتون ، والأفراد الذين تنطبق عليهم ضريبة الرأس ، وعلى هذا الأساس حدد الضريبة مع السماح للزراعة بأن تعيش دون إرهاق . وقدمت اللجنة المختارة تقريرها إليه (٢٥) .

(٢٥) ما ورد في هذه الصفحة ملخص رواية وبقية ولم يخرج من النص العربي . ج ٢ ، ص ٩٥٠ - ٩٥١ - الترجمة .

ثم عبر كل فرد منهم عن إعجابهم الشديد برجاحة عقل كسرى التي  
 بلغت للحيوان في تقريراته الضربية ، وبعد مشاورات مستعجلة ،  
 توصلوا إلى اتفاق بضرورة حرص صربية الأرض على الفئات الزراعية التي  
 يعيش عليها الإنسان والحيوان ، وأعلى بها ، الفصح ، والشمع ، والأرز ،  
 وأشجار النخيل ، وأشجار الزيتون ، وفروقت صربية مقفلاهما درهم  
 واحد على كل حقل ررع قحط أو شعرا ، وثمانية دراهم على حقل الكروم ،  
 ودرهم فارسي عن كل أرنج أشجار من النخيل الفارسي ، ودرهم عن كل  
 ست أشجار من النخيل العادي ، ودرهم عن كل ست أشجار للزيتون ،  
 واقتصرت الضريبة على النخيل الذي يسو في الأراضي الزراعية ،  
 أو مكبات كبره . أما أشجار النخيل التي تسو من بلفا ذاتها فلم تعد  
 لها صربية . ومما عدا المنتجات الزراعية السالفة الذكر ، فقد كانت  
 باقي المعاصيل الزراعية مضافة من الضرائب ، ونصرف فيها الناس بحرية  
 كاملة . وفرضت صربية الرأس على الجميع باستثناء الجلاء ، وكبار  
 رجال الدولة ، والحدود ، ورجال الدين والكنيسة ، ولطامطين في حجة  
 البلاط الملكي . وكانت صربية الرأس تتفاوت ما بين اثني عشر درهما ،  
 إلى ثمانية أو ستة وفقا للوضع الاجتماعي والمالي للفرد . وتم إعفاء الذين  
 لم يملفوا العشرين أو الذين تجاوزوا الخمسين من دفع صربية الرأس .  
 وقدم القائمون على تقدير النسبة الضريبة تقريرهم إلى كسرى .  
 ووافق كسرى ، وأمرهم بجمع الصربية على أن يجمع على ثلاثة أقساط .  
 وتلك الضريبة عيبتها هي التي سار على نهجها عمر بن الخطاب  
 ( رضي الله عنه ) (١) بعد أن فتح بلاد الفرس .

ثم أمر كسرى بتدوين تلك الصربية في سجل خاص . ونسخ عدة  
 حوز من هذا السجل . احتفظ بأحدها في ديوانه ، وأرسل واحدة إلى  
 حاملي الضرائب . وواحدة لكل قاض من قضاة الأقاليم ليكونوا على  
 معرفة تفاصيل تلك الضريبة . وأصدر كسرى تعليماته إلى حكام الأقاليم  
 بمنع الموظفين من جمع أي مبلغ أكثر من الضريبة المحددة بعد أن رود  
 هؤلاء الحكام بسبعة خلية من تفاصيل تلك الصربية وأمر كسرى كذلك  
 بتخفيض القيمة الضربية على الأراضي الزراعية التي معرض إنتاجها  
 للانخفاض ، مع إعفاء من تجاوزوا الخمسين من صربية الرأس . وأمر  
 بضرورة إبلاغه بدخل تلك الحالات المشتبهة حتى يقوم بدوره بإبلاغها  
 إلى حاملي الضرائب . وأكد على ضرورة علم تحصيل صربية الرأس  
 ممن كانوا دون العشرين .

(١) ما بين حطرتين من هذا التاريخ

وكان يابك بن يروان (٢٢) أحد كتبة كسرى ، قد نال الخشونة عليه لأنه كان ذا حسب وسبب ، وكيشة ، ومفخرة ، ولذلك كله عهد كسرى إليه بادلة شتو خزاة السلاح - وقال يابك هذا للملك في أحد الأيام : « لا يمكنني القيام بأعباء مهسي مالم تكن لي سلطة سلطان الأوامر للفتوح ، تحقيقا لمصالح الملك » - ووافق كسرى على صحة تلك السلطة - ثم أمر يابك بإقامة منصة في المكان الذي يصمك الجيش به ، وفرشها بالسجاد ، والزرابي ، ولزم بأعداد الوسائد ليصطحب عليها - وبعد أن أخذ يابك مكانه بالمنصة أمر المنادي باستدعاء الجيش الذي بالمعسكر للفرور امامه في جماعات الفرسان سلاياهم ، واستلحتهم ، والرحالة يكامل معداتهم - وبسبب على ذلك مرت كل التواب بكامل معداتها امام منصته ، ومع ذلك لم يشاهد كسرى .

وفي اليوم التالي أبلغ المنادي قوات الجيش بالاستدعاء السابق نفسه ، وللمرة الثانية مرت القوات في جماعات أمام منصة يابك - للمرة الثانية سمح لهم بأنك بالاحصاف على أن يمضوا في اليوم التالي طائلا لم يشاهد كسرى بينهم - وفي اليوم الثالث أمر يابك المنادي بالإبلاغ بضرورة عدم بقاء أي أحد بالمعسكر ، حتي لو كان يضع على رأسه تاج الملك ، لأن الأمر جد خطير ، ولا يسمح بالتغيب أو الاعتذار عن الحضور - وعندما سمع كسرى ذلك طلع تابعه ، وتسلح شبل جيوده ، وحضر أمام يابك لكي يعرض نفسه للتفتيش الرسمي - واشتملت موعات المنادى الحرية للفرسان على سلعهم معدنية لوقاية جسم الجنود - وكسرى به دروع ، ودروع لحاية الساقين تحت الركبة ، ورمح من الحديد أو المعدن ، ودروع لحاية الساقين تحت الركبة ، ورمح وترس ، ومراوة خشبية مثبتة بحزام ، وبطلقة - وعسا معدنية مصبرة بها أطراف حادة حول رأسها ، وكنانة ، وقوسين لها أوتار ، وثلاثين سهما ، وأخيرا قطعتين من الحديد مكوّرتين ومتبعتين في مؤخرة خوذة الفارس - وصار كسرى امام يابك بعد أن جهز نفسه بكل تلك المعدات السابجة باستثناء عمو وجود قطعتي الحديد بمؤخرة خوذه .

ولم يشأ يابك أن يمر كسرى دون إشارة إليه - إذ قال : « ايها الملك ، انك تقف امامي في حالة لا تسمح لي على الإطلاق أن أستنيك أو اخضع من جهة الموقف وبناء على ذلك عليك أن تتقدم الي ومعك كل الأسلحة المطلوبة » - فأدرك كسرى أنه يتقصه قطعتي الحديد المكوّرتين ثم قام على الفور بتثبيتها في مكانها - ونتيجة لذلك نادى منادي يابك بصوت عال قائلا : « ابن البطل ! وأول الأبطال ، يستحق ٢٠٠ درهم » .

(\*) في النص القديم اسم يابك بن يروان - للفرج .

ثم أعلن يايك كل الأسمة . وأعطى يايك كسرى درهما واحدا أكثر مما حصل عليه أفضل الجنود . وبعد أن قضى من مكانه ، توجه صوب كسرى وقال : « أيها الملك إن هذا التفقيش العام الذي أشرفت به عليك ، يتقدم تماما الهدف الذي يمكنني من أن أبلغ على بكل كفاة ومقدرة »

وفي عهد كسرى أنوشروان ولد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، في الصام الذي ذهب فيه أبرهة الأشرم ومعه الأحاسن إلى مكة ومعه القليل لهم بيت الله الحرام ، وكان ذلك بعد مرور اثنتين وأربعين عاما على حكم كسرى . وفي تلك السنة نفسها حلت هجوم جبله الذي خلعه العرب من أشجارهم عن أيديهم .

ثم صار أردشير بن شيرى ملكا على الفرس من بعده الخ - وكان أردشير هذا طفلا في السابعة ، ولم يكن هناك في ذلك الحين من هو أكبر منه سنا في الأسرة المالكة . ولهذا السبب اختاره كبار رجال الفرس ملكا . وتعهده القهرمان الأكبر بنشسته ، وعرفه هذا القهرمان بأسمه فيه - آندمار - جوسناب

وأدار هذا القهرمان أمور الدولة بمقدرة حتى أن الشعب لم يلحق مسألة حماقة من أردشير . غير أنه ظهر في ذلك الحين سهرباراز (\*) الذي كان قد عينه كسرى قائما حرييا عند الحدود الرومانية . وأطلق على قواته اسم « السقاء » . وكان كسرى قد كتب إليه عن كل الأمور المهمة ، وطلب مشورته . ونظرا لأن كبار رجال الفرس أغفلوا مشورته عند إجلاسهم أردشير على العرش ، لذلك اعتاد سهرباراز هذا التمييز عن اعتراضاته ، والعمل على سلك السقاء . واستغل تلك المناسبة من أجل الفصل على الاستيلاء على السلطة . ونظرا لاستخفافه بأردشير لصغر سنيه ، تحرك سهرباراز ، بكل ثقة واعتماد ، دون أن يبأ بكبار رجال الدولة ، وقرر دعوة الشعب لمقد مؤتمر نهضته شغل عرش الدولة ، ثم تحرك بقواته صوب العاصمة .

وعمل جوسناب من ناحية على تقوية أسوار وأبواب طيسفون . وأحضر أردشير إلى العاصمة ، ومعه كل أفراد الأسرة المالكة ، وذوواتهم . هذا بالإضافة إلى كل الأموال التي بغزاة أردشير ، وكل ما أمكن جمعه من مؤن ودواب . وبلغ عدد القوات الفارسية التي كانت تحت قيادة سهرباراز حوالي ستة آلاف مقاتل ، وهي التي كانت تعسكر على حدود الروم ، وأخذت موقعه بالقرب من طيسفون ، وحاصر الأهالي هناك وقائهم . وحرب حصاراً حول العاصمة ، بيد أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها . ولما وجد أنه ليس في مقدوره الاستيلاء على المدينة بالقوة ، لجأ

(\*) سهرباراز في التاريخ الفارسي .

الى الخديعة والمكر ، ودير هيجان السميت بالتأمر والخناع ، وذلك بالاستماتة برجل يدعى كبرى الجديد ، وكان هذا الشخص يشغل منصب قائد حرس اردشير ، ومكنه هذا الشخص وآخرون من دخول العاصمة من ابراهيمها . ولما دخل جوسناپ العاصمة اتى القبط على القضاة . وقتلهم ، واسبوا على حنكاتهم ، واعتصب تسامح . وبما على اوامر سهر باراز قتل بعض الناس اردشير في السنة الثانية من حكمه في شهر يمامه ليلا ، وهو في قصر كبرى . وحكم اردشير لمدة سنة واحدة وستة أشهر .

وصار سهر باراز حذا ملكا بالرغم من أنه لم يكن سليلا للأسرة المالكة ، غير أنه أصابته حالة من الاسهال ايان اعتلته للعرش ، لذلك اضطر الى الجلوس على اية قضاه حاجته لأن شدة الاسهال لم تتح له مرحسته الذهاب الى دورة المياه . ورفض وجعل من اضطر يدعى يوسف فروخ بن ماه حورسداد تان واخويه الاعتراف بسهر باراز ملكا ، وغضبوا لقتل اردشير ، واعتصب سهر باراز للعرش ، وفي غمرة احسانهم بالمراة اقصوا اعطى القسم . بكل جديدة ووقار ، على امسيحة دم سهر باراز . وقد تصادف ان ثلاثتهم كانوا من الحرس الملكي . وكان من عاداتهم الاصطفاف في صفين ، ويحمل كل فرد منهم سلاحه ، وخوذته ، وقرس ، ومسيب ، ورمح في يده ، وذلك عند تقديم الملك على صورة جواده . وعندما كان يمر الملك بالقرب من أي فرد من الحرس الملكي كان على هذا الفرد أن يضع قمره على حافة صورة جواد الملك ، ويضع جبهته على حافة الصورة ، كما يفعل عندما يسجد أمام الملك . وفي أحد الأيام سهر باراز مستظبا صورة جواده . ووقف الاخوة الثلاثة ، في صف واحد بجوار بعضهم البعض لتحيته . وما إن صار الملك وجهها لوجه املهم حتى سارع الاخوة الثلاثة بالاجهاز عليه . وسر سهر باراز صريعا من فوق حواده ، ثم ربطوا حبالا في ساقه ، وسجلوه . وساعدتهم في ذلك بعض كبار رجال الدولة . واقلعوا بوران Boran ابنة كبرى على عرش الفرس . بعد أن حكم سهر باراز لمدة اربعين يوما .

اعتلت بوران ابنة كبرى برونز العرش ، النح . وقالت يوم ارتقاها : « انتي سأعطي بطائرة الذيل . وسأفتر العمل بين الناس . » وصنعت العملة باسمها . واصلحت الجسور المصنوعة من الاحجار والاعشاب واعصت النصب من الضرائب المتأخرة ، وبحثت برمسائل صريحة الى اراضي المملكة متمية السيادة للجميع . وترجمت على الموتى من افراد الأسرة المالكة . وذكرت في تلك الرسائل أنها تأمل أن يكون الله عوناً لها في مهنتها ، وإن يصفى خطاياها . وإن يجنب البلاد خطر

الوقوف تحت رحمة الحافدين . وألا تهرس قوات الجيش لتصرماتهم  
المرعده . وبراء الفتنة . وأن تسير البلاد بما يرضى الله وطلعت منهم أن  
يسجدوا بالطاعة . وحثتهم على إبقاء مظاهر الولاء ومن ثم تضمنت  
خطاباتها كل ما هو ضروري . وأعلنت الصليب الحشيش الى امبراطورية  
الروم . واستمر عهدها حوالي سنة واحدة وأربعة أشهر .

وحكم من بعدها رجل يدعى جوساساند *Gusaspand* . الذي  
كان أحد أقارب بروير . غير أنه لم يكمل شهرا على كرسى الحكم .

ثم حكمت من بعده أرامدوشنت *Azarmudochs* . ابنه كسرى  
بروير . الخ . ويقال أنها كانت من أحمل نساء القروس . وقالت عند  
احتلالها للعرش . « أنا مسير على نهج والدنا كسرى المتصر سلما  
بنام . وإذا ما نجس أحد على معارضتنا . صنتقله على الفور » . وكان  
هرمز لهم كبير رجال الدولة في ذلك الحين . فسمى الى طلب يد الملكة . وكان  
ردعا عليه على النحو التالي . « ليس من اللائق أن تزوج الملكة . ولما  
كنت قد فهمت من رسالتك أن هدفك من ذلك هو إشباع رغبتك  
الجنسية معي . لذلك عليك بالحضور الى في ليلة كذا » . وبالفعل ذهب  
هرمز اليها في الليلة المحددة . وكانت الملكة قد أبلغت من قبيل قائد  
حرسها بأن يكسر لهرمز في المكان الذي حددته وأن يقتله قورا . وبالفعل  
تم تنفيذ ذلك . وسجل هرمز في فناء القصر . وعندهما وجد رجال القصر  
جثة هرمز ملقاة في ماء القصر في صباح اليوم التالي . قاموا بنقل  
الجثة . بيد أنهم أدركوا أنه لم يقتل إلا نتيجة لسبب بالغ الخطورة .  
وفي ذلك الحين كان رستم بن هرمز . والذي أرسله يزحرد نسا يد  
لمحاربة العرب . يعمل نائبا عن والده في خراسان . وعندهما بلغه نبأ  
مقتل والده زحف بعيش كبير صوب العاصمة . واستطاع حمل عيني  
الملكة . وقال بعض المؤرخين أنها ماتت صسومة . وكانت مدة حكمها  
سنة أشهر .

### العلاقات بين

### الامبراطورية البيزنطية والاسلام بين الفترة

ما بين ٧٧٩ و ٨٢٠ م (١٧٢)

وواصل هارون (٢١١) مسيره الى أن عسكر عند قرية في أراضي  
الروم بها قلعة يدعى سامالو *Samalo* . وظل محاصرا لها لمدة  
ثمانية وثلاثين يوما . وصرب حصارا حولها الى أن شاء الله له فتحها .  
وعندهما . بعد أن مات سكانها من الجوع والمرض . وبعد أن قتل وجرح  
عدد من المسلمين .

وبين تلك الأحداث ( ٧٨٠ - ٧٨١ م ) ، تلك الفارة التي شنها  
عبد القادر بن عبد الحسد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب . وتقدم  
المطريق ميخائيل للتصدي له وسمه سمعان المقاتل . وكان المطريق  
Tazab من بني رجاله . غير أن عبد القادر حارب من تاراذ ،  
ومنع المسلمين من مقاتلته . وأمرهم بالعودة . وأراد المهدي (٢١) قتله .  
وصد أن يتمكن له آخرون . أودع السجن .

ومن بين أحداث سنة ٧٨١ - ٧٨٢ م ) ، كانت الفارة التي  
حدثت في فصل الصيف بقيادة هارون بن محمد المهدي ، وكان والده  
قد أرسله . في يوم السبت الموافق الخامس عشر من جمادى الآخرة .  
للاغارة على أرضي الروم ، وعين مولاه الربيع لاصطحابه ، ودخل هارون  
بلاد الروم ، وفتح ماحيدا Magida . وقابلته فرسان نيقيتاس  
Niketas مبل التلال . وتصدى له زيد بن مرشد . وانتظر زيد  
بعض الوقت ، ثم انقض مضاع على نيقيتاس ، وسدد إليه ضربات موجعة .  
إلى أن الحق به هزيمة منكرة . وأحرز زيد الروم على القراة ، واستولى  
على مدينتهم - واستطاع زيد دخول ميوميديا ' Nikomedeia  
وواصل هارون تعبثه إلى أن وصل إلى خليج البحر المثل على  
القسطنطينية ، وكانت أوغوسطا Augusta ، زوجه ليو Leo ،  
هي التي تحكم الروم . في ذلك الحين ، لأن ابنها كان طفلا . وكان  
والده ، قد مات ، وكانت هي الوصية عليه - وتم تبادل الرسل والسفراء  
بينها وبين هارون بن المهدي ، بهدف تحقيق السلام وتسوية الخلافات .  
ودفع غدية - ووافق هارون على مطالبها في الوقت الذي فرض فيه  
شروطه عليها فيما يتعلق بالقدية ، ووافقت على ماطلته - وكان ثمن شراء  
السلام من هارون تسعة آلاف أو خمسة آلاف دينار ، وقامت الإمبراطورة  
يسداد الأقساط في سنهري إبريل ويومسه من كل عام - وكانت  
الإمبراطورة ترسل إلى هارون القدية ذهباً . وقضة . وسلما تجارية -  
وتم التوقيع على هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وكذلك تبادل الأسرى ، وكان  
تحب يدي هارون ٦٤٣ ، أسيرا ، صد أن تقتل من الروم ٥٤٠٠٠ ،  
بالإضافة إلى موت ٢٠٩٠ أسيرا بالسجن - وغنم هارون عشرين ألفا من  
دواب الحمل ، وذبح مائة ألف من الماشية والأغنام التي كانت في حوزة  
الروم ، ووقع في يدي هارون مائة ألف من القوات النظامية بصيحتها  
التجارت والقوات المتطوعة - وبيع الحصان بدراسيا واحدة ، والبغل بأقل  
من عشرة درخمت . والصديري الحربي Oulman بأقل من درهما  
واحدة ، وبيع عشرون سيلا بدرهما واحدة .

وابان أحداث سنس ( ٧٨٢ - ٧٨٢ م ) ، قطع الروم علاقات السلام مع هارون وكان غدرهم في شهر رمضان ( ١٧ مارس - ١٥ أبريل ) من تلك السنة - وكانت الفترة مابين عقد اتفاقية السلام - ونقضها اثنتين وثلاثين شهرا -

وفي تلك السنة ( ٨٠٢ - ٨٠٢ م ) ، ارسل هارون ابنه القاسم في احصى المزونات الصيفية ، ثم عينه واليا على المواسم \*

وفي هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شهر شبان ( ٢٥ يوليو - ٢٢ أغسطس ) ، وحاصر كورا (Kara) Karra - وشدد الحصار حولها - وارسل البكر بن جعفر بن محمد بن الأشعث ، الذي حاصر قلعة سنان Sana - الى أن عانى جنده العدو من البلاد الشديدة - وعرض عليه الروم تسليمه ٢٢٠ من الأسرى المسلمين مقابل أن يرجع عنهم ، وقبل القاسم العرض وعاد بسلام \*

وفي هذه السنة نقض امبراطور الروم اتفاق السلام المتقود بين سلع والمسلمين ورفض مواصلة سداد ماتهده الامبراطور السابق يدفعه لهم \*

ويرجع سبب تنصهم لاتفاق السلام مع المسلمين ( والمتقود في عهد الامبراطورة رينا Rina مع المسلمين ) ، هو أن الروم ثابروا ضد هذه الامبراطورة وعزلوها ، واختاروا تقفور Nitephorus ، امبراطورا بدلا منها - وذكر الروم أن تقفور هذا سليل جده الخسامي ، وأنه كان يشغل وظيفة مراقب حصان الدمل الحكومي ، قبل اعتقاله المرش ، ثم ماتت رينا بعد خمسة شهور من عزلها - ويقال أن الروم اغلنوا ولاهم الشام لتقفور ، ومن ثم كتب خطابا الى هارون قائلا له :

« من تقفور ملك الروم ، الى هارون ملك العرب ، لما بعد . . . فإن الملكة التي كانت قبلي ، أقامت مكابم الرخ ، وأقامت نفسها مقام البليد ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا يحمل أمثالاها اليها ، لكن ذلك ضعف المساء وحسنه ، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها ، وأعد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيتنا وبيدك » ( ٢٢٢ ) \*

وعندما قرأ الرشيد رسالة تقفور استشاط غضبا ، الى الحد الذي لم يجرؤ فيه أحد على النظر إليه ، أو أن ينبت بيوت جنته ، وابتعد عنه أهل بيته . خشية أن تزداد حدة غضبه بفعل أى كلمة أو حركة من جانبهم ، وكان وزيره فى حيرة من أمره : هل يقدم له المشورة ؟ أم يتركه وحده لتلكاته الصيفة ؟ ثم طلب هارون محبرة ، وكتب الرسالة التالية على ظهر رسالة تقفور :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من هارون لمير المؤمنين الى تقفور  
 كلب الروم .. قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون  
 أن تسمعه والسلام » (١٤) -

ثم نهض فى اليوم نفسه وتحرك بجيشه الى أن وصل الى أبواب مدينة حرقة ، وجبجج الأسرى والضائيم ، وأخذ همه الأشياء النفيسة . ودبح وحرب ، وحرق ، وحرق ، ومعا من الوجود أشياء كثيرة . فاضطر تقفور الى طلب عقد معاهدة يتعهد فيها بدفع اناوة اناوة سنوية ، ووافق هارون على هذا الطلب . وعندها عاد هارون من غزواته . ووصل الى الرقة ، حرق تقفور المعاهدة ، وقضى الاتفاق . وثا كان البرد قارصا ، لذلك كان تقفور واثقا من عدم عودة هارون للتفاته .

ومن بين أحداث هذه السنة (٨٠٣ - ٨٠٤ م ) ، حدثت غزوة ابراهيم بن جبريل فى الصيف ، واجتياحه بلاد الروم فى اتجاه طريق الصلصفت Al Saffat .

وخرج تقفور للقاء ابراهيم . ولكن وصلت أنباء الى الامبراطور بحالته يشير اتجاهه ولم يلتق ابراهيم . غير أن تقفور سقط فى كمين لجيش من المسلمين ، فاصيب بجراح ثلاثة ، ومضى بهزيمة منكرة . ويقال أن الروم خسروا فى هذا اللقاء ٤٠٧٠٠ مقاتلا ، بالإضافة الى أربعة آلاف من دواب الحمل ضمنها المسلمين ..

وفى هذه السنة ( ٨٠٤ - ٨٠٥ م ) ، تم التهاء الأسرى بين المسلمين والروم ولم يبق مسلم واحد فى بلاد الروم دون دفع فديته . وقال مروان بن أبى حفصة فى ذلك : « وحصل الأسرى على حريتهم ، بعد أن كانوا فى سجون عالية الأسوار . وبعد أن كانت سجون المشركين قبورا للأسرى المسلمين ! » .

وفي السنة نفسها تحرك الروم لخوض غبار الحرب في أنطاكيوس  
**Anazarbon** وكنيسة السوداء **Kanisa Al Sauda** ، واجتاحوا  
 البلاد ، وغلبوا الأسرى واستردوا إلى الحصنة **Mopouventia** كل ما كان  
 في حوزتهم . وفيها استولى الرشيد على هرقله ، وانتشرت قواته  
 وفرسانه ، في بلاد الروم ، وبلغ عدد غلات **هارون** المنظمة حوالي  
 ١٣٥٠٠ مقاتل ، بالإضافة إلى الاتباع ، والمتطوعين ، وغيرهم ممن  
 لم يتم تسجيل عددهم ...

ثم ذهب **هارون** إلى طيانا **Tyana** وحاصر بها - ثم انتقل من  
 هناك ، وترك عتبة بن جعفر قائداً بعد أن أبرم باتفاقية موقع حربي في  
 ذلك المكان . وأرسل **تقفور** إلى الرشيد الاتاوة المنتظمة عن نفسه ،  
 وهي حليقته المني - وهي كبار رجال دولته ، وعن باقي أفراد الشعب  
 في دولته ، وبلغت هذه الاتاوة حوالي خمسين ألف دينار ، دفع منها  
**تقفور** أربعة دنانير عن نفسه ، ودينارين عن ابنه **ستوراكيوس**  
**Stauracius** ، وأرسله مع اثنين من كبار رجال دولته ، بخصوص  
 إحدى سبايا هرقله ، وكان نسه « إلى عبد الله ، **هارون** أمير المؤمنين ،  
 من **تقفور** ، ملك الروم ، سلام لك - أيها الملك لي وجاء عندك ، هذا  
 الطلب لي يؤذك في دينك أو في دنياك ، إذ هو موهوبوع بسيط  
 وميسر ، أرجو أن تسمح لابني بالحصول على إحدى السبايا ، وهي  
 مواطنة من أهالي هرقله ، كنت قد حطبتها كروجة لابني ، وأرى من  
 الحكمة أن تساعدني في ذلك - والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وطلب **تقفور** من **هارون** أن يرسل إليه بعض المطور واحد  
 حياهم - وأمر الرشيد بالبحث عن هذه الفتاة ، وتم احضارها إليه .  
 وبناء على أولمعه ، تربيت ، وارتدت الثياب الفاخرة ، وجلس على عرش  
 في خيمته التي كان يعيش بها ، ثم استلمها .. مبعوثا **تقفور**  
 وأعطاه **هارون** تلك الخيمة وكل ما بها من أواني وأدوات اعداد الطعام .  
 وما كان بها من أثاث ..

وأرسل **هارون** إلى **تقفور** المطر الذي طلبه ، كما أرسل إليه  
 بضاً من التمور والتين والزبيب والمسل الأسود وقام مبعوثو الرشيد  
 بتقديم كل هذه الأشياء إلى **تقفور** وتمعه **تقفور** بالاً عنهم قلعة مسان  
 أو غيرها - وتمعه الرشيد بعبوره الأرسى على امهرداد هرقله وتمعه  
**تقفور** بدفع ثمانمائة ألف دينار إلى الرشيد ..

## أوتو الفريزنجى

ولد أوتو الفريزنجى *Otto of Freising* ، حول سنة ١١٠٠ م فى أسرة بينبرج *Babenberg* الإلانية العريقة ، وهو المؤرخ المذقق الرابع فى القرن الثانى عشر ، (١) . أما والده فهو ليوبولد الثالث ، حاكم النمسا ، ووالدته أجنس *Agnes* ، أمه هنرى الرابع إمبراطور ألمانيا . وقال أوتو مكانة عالية يارتيباطاته المائلية من جهة والدته التى كان زوجها الأول فريديك من هوهنشتاين *Frederick of Hohenstaufen* دوق سوابيا . وعنه العلة الاجتماعية جعلت أوتو إنما غير شقيق لكونراد الثالث *Conrad III* الذى مولى الملك ( ١١٣٨ - ١١٥٢ م ) . وعمه لفريديك برىا روما ( ١١٥٢ - ١١٩٠ م ) ، الذى خلفه كونراد وتزوج هنرى ، شقيق أوتو ، والذى كان دوقا للنمسا ، إحدى الإمارات البيزنطيات . ويمكن أن تفسر صلة النسب تلك اهتمام أوتو الشديد بالتاريخ البيزنطى .

وفى سنة ١١٢٧ م أو ١٢٢٨ م شد أوتو الرحال الى باريس للحصول على قدر من التعليم يؤهله لمنصب أسقف ، وهى وظيفة صحتيا له علاقته السياسية - ( كان أوتو الابن الأصغر ، ومن المحتمل أنه تم اعتماد لهمة الكنيسة منذ صوغة لطفائه ) . ولم يذكر أوتو أسماء الذين تعلم على أيديهم فى باريس ، على أن الاهتمام الذى أبداه تجاه أبلرد *Abelard* وجيلبرت دى لا بوريه *Gilbert de la Porrée* فى كتابته يوحى بأنه قد دوس على يد الأول أو الثانى ، وربما استمع أوتو أيضا الى محاضرة هوج السايفيكورى *Hugh of St Victor* ، لأنه تأثر بشكره بشكل واضح . وفى سنة ١١٣٣ م ، وبعد أن غلب أوتو خمس سنوات فى

بأريس ، نكس الرجال مسووب فوطه ، بيد انه قطع رحلته في دير  
 السترشيمان . في موريسوند Morisond ، في شرق شامبين  
 Champagne . ولقد تأثر أوتو بالطابع الديني للجامعة لدرجة انه  
 فصل البقاء بين الرهبان الى أن اختاروه رئيسا للدير بعد عدة سنوات .  
 وفي سنة ١١٢٧ م قست ومسامته اسقفا على فريزنج ، في غرب بافاريا .

ويبدو ان أوتو قد زار إيطاليا في نهاية سنة ١١٤٥ م ، وتعرف  
 على البابا أوجينيوس الثالث Eugenius III . واصطحب أوتو أحام  
 غير الشقيين كوراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية التي حانها الموقع  
 ( ١١٤٧ - ١١٤٩ م ) ، وعلى الرغم من أنه لم يكتب ماريغا عن تلك  
 الحملة الحربية - وفسر سبب ذلك في حقه ، إلا يكتب عن مأساة ،  
 وإنما يكتب عن تاريخ بيت على الهجة « (٢) » . لذا وصف أحداثنا  
 عرسية عديدة ، بما فيها القيصان الفاجي ، الذي لغرق جزءا من الجيش  
 الصليبي ، الذي كان على مقربة من القسطنطينية . وكان أوتو من بين  
 القلة المخلوطة التي نجحت في الوصول الى بيت المقدس ، وغلبت المدينة  
 في يوم أحد السعف . في الرابع من ابريل ، ١١٤٩ . ولا يوجد سوى  
 الرد اليسير عن تاريخ حياته - وتفرغ بالمرض سنة ١١٥٤ م ولم يصطب  
 هيرمريك الاول برباروسا الى ايطاليا . وبعد ذلك بأربع سنوات ،  
 اتماه بعض الاحساس بدنو ليله ، فقام بزيارة دير موريونيه . ومات  
 هناك في الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١١٥٨ م ، ودفن بالقرب من  
 المذبح العالي في كاتدرائية فريزنج .

وتحت أيديا الوصف الودي عن شخصية أوتو ، انقى كنيه رهبين  
 Rahewin ، سكرتير الأسقف ، والذي قام بإكمال ( الأعمال the Deeds )  
 . لم تكن ثقافته عادية في مجال الأدب ، باعتباره الأول أو في بين  
 لوائل أساقفة ألمانيا . ففي الحقيقة اذا ما استثنينا المله التامبالأسفار  
 الفلسفة ، والتي كان له فيها باع طويل من ناحية معرفة معانيها الموجزة  
 والخفية ، فقد استطاع من الناحية اللغوية ، أن ينقل الى بلادنا أروع  
 إنجازات الفلاسفة ، وكتب لوسطو : عن الموضوعات Topics والتحليل  
 المنطقي Analytics والمناظرات Elenchus ، ويسبب  
 ذلك ، وبالإضافة الى إجازاته الأخرى ، ووثوقه من معرفته لللسانيون  
 والديوية ، ومن فصاحته ، فانه كثيرا ما كان يتحدث ، بكل اعتزاز ، عن  
 المسائل الكنسية أمام الملوك والأمراء . ولقد أكسبته سمعته الطيبة  
 الناجمة عن كل ما تقدم ذكره ، المديح والامراء ، على أن هذا الشيء - كما  
 يحدث في المادة - آثار القراء من القصد والحسد ليس بالقليل . وصح  
 ذلك فقد استطاع تجنب مكائد خصومه . والنجاة من تسللقاتهم ، لو

أن يصاب ياندى ودون أن يهتر قيد أنملة ، إذ كان رجلا غاضلا بكل  
معاني الكلمة . (٦) -

ويرتكز تفوق أوتو ككتاب للتاريخ على مؤلفين ، وأشهرهما كتاب  
تاريخ المدينتين History of the Two Cities (٧) ، وهو عبارة عن حوالة  
تتحدث عن تاريخ العالم ومبدأ منه بدء الخلق حتى سنة ١٦٤٦ م .

وقام أوتو بكتابة هذه الحولية فيما بين سنة ١٦٤٣ و ١٦٤٧ م  
أما الكتاب الثاني فهو أعمال فريدريك بريازوسا The Deeds of  
Frederick Barbarossa الذى بدءه سنة ١٠٧٦ م وتوقعه عند سنة  
١١٥٨ وهي السنة التى مات فيها أوتو . وقام مسكرتيريه راهوين Rahewin  
بإضافته تكملة له حتى وصل به إلى سنة ١١٦٠ م . على أن على صحة  
ومصداقية العديد من الأسناد الفلسفة المسوبة لأوتو ، وكذلك ما ورد  
عن تاريخ النساء ، كان أمرا شرا للشك إلى أبعد مدى ، مما دفع  
الباحثون إلى تجاهلها على نحو متعارف عليه . وكان أوتو متبنا من  
اللغة اللاتينية ، على الرغم من أنه لم يكن ملهما بالأنماط التقليدية ، إذ  
كان أسلوبه واضحاً وسليماً . وباستثناء الاقتباسات العرضية من  
أحد المؤلفين التقليديين ، كان أسلوب أوتو حالاً تماماً من كل لحرف  
للمسود البلاغية أو النحوية بمسحة الإطلاع . ومع ذلك ففي مقدمة كتابة  
عن الانتصارات the Deeds ، والتي وجهها إلى ابن أخيه ، تمسك أوتو  
بمسيرة الارتقاء فوق المستوى العادى للسرد التاريخي ، وكتب يستوى  
أجل ليكون ملأنا للتفكير التأمل :

« ولا يمكن اعتبار ذلك تلفظاً مع عمل تاريخي من هذا النوع إذا  
ما كان الأسلوب رقيقاً ، عندما تفرس فرصة الاستطراء نفسها ، من  
السرد البسيط للتأويل إلى الأروع - وأعنى بذلك إلى المستويات  
الفلسفة الرفيعة . ولم تتعارض هذه العادة عندها مع التفوق المميز  
للمعيار المطورية الرومانية في ترصيع المؤلفات السليطة ما هو أكثر  
رسمه في المستوى . إذ كتبوا ما قام لو كان Lucan وفيرجيل Vergil  
والكتاب الآخرين الذين كتبوا عن المدينة the City بالارتقاء بأسلوبهم  
في التصير بنية اظهار بعض من الأسرار الأساسية للفلسفة . وعند  
الكتابة عن الأحداث التاريخية ، والقصص الخرافية . وسواء أكان الأمر  
يتعلق بالزراعة والثرارعين أم بالأمراء وكبار الإقطاعيين . ولعلنا فإن أولئك  
الذين تمكن متعهم من الاستماع إلى سجل الانتصارات ، وكذلك كل من  
يذهبهم صفاء التفكير المسيحي بالبهمة والسرد ، يجدون أنفسهم وقد  
جذبهم هذا الكتاب إلى قراءته ودراسته » (٨) -

وقد يسأل المرء عن كيفية استطاعة استقف عمل بكل جسد وكذا في الشؤون الأبرشية والملكية تغيير وقت لكتابة التاريخ ، وقد نكس الإجابة عن ذلك في إيمان أوتو المسيق ، وفي فلسفته عن الحياة القائمة على الإيمان بالقيم . واعتاد أوتو على أن يذكر القاري بذلك بصورة مستمرة . ولا ريب أن أوتو وحده في الرسالة الروحية لعناية الرهبان السسترشيان حاذية كبيرة ، وهو الشيء نفسه الذي حصلت للكثيرين من رجال تلك الفترة عندما وصل ذلك النظام المديري إلى أوج شعبيته . واضطر أوتو في سلك الرهبان السسترشيان في مونسون ، وبولي مسئولية الدير ، وبعد أن ترك الدير عاد إليه حيث لفظ اعطاه الأحرار هناك . ولابد أن أوتو اعتبر نفسه على الفهم أحد الرهبان السسترشيان وتطور إيمان الرهبان الفير من حياة السسترشيان في أن يفعل المرء في الحياة الدنيا كل ما يؤوله للنعم في الآخرة . ولابد أن هذا الإيمان الراسخ قد دفع أوتو إلى كتابة التاريخ - وفقدت الفكرة القائلة بأن هذا العالم مآله إلى زوال بكل ما يحويه من الآلام ، والقائلة بحياة الموت والحساب ، كل الأفكار التي وردت في كتابه عن تاريخ المدينتين الذي يعتبر أهم مؤلفاته . وعلى ذلك فبعد أن كتب عن الدمار والغراب الذي لحق بمدينة قرطاج Carthage وكورنث Corinth الفوجين والمردهرتين كتب متأملاً : « إن المحن والأيام التي أوردنا ذكرها كافية للبرهنة على أن دوام أحوال الإنسان من المحال - وطالما أن الكثير قد قبل عن اهتمامات المواطنين بالشئون المالية - فإني أعتقد أنه من الواجب علينا أن نهرع إلى الانضمام إلى رمة المواطنين الذين يهيمون بالمسيح وبالعالم المسيحي . وعلى ذلك أود أن أذكر القاري ، أنه كان لزاماً علينا أن نكتب عن مصاعل هذا العالم ، لكي تظهر بشاعة الأحمات المتعاقبة ، وإن نظرنا المنفعة إلى تلك الأحداث تدفعنا إلى الاتجاه صوب سلام مملكة المسيح والسعادة الروحية التي ليس لها حياة » (٦) .

ومرة ثانية ، وبعد أن ذكر أوتو أن المدراء بوبليلا Popilia علواً فيستا (\*) عوقبت بالرسم حتى الموت لنبوت علم عفتها ولحققت في الوقت نفسه تحريماً أكرس كنيس Heron هريسة نكراً على إيمان اليونانيين ، فعلق أوتو على ذلك بقوله : « انه لمن المثل أن يتجلى المرء هنا عن شبكة مفتلة من الكوارث أو البلياء ، بيد أنه أود أن أكتب باحتصار لأشير إلى شقاء البشر » (٧) .

(\*) علواً تستحل Vestal Virgins في إحدى الفتيات اللاتي اتسمن على عدم الزواج ، والفرغ الفصل على استمرار النار للخدمة موقدة في معبد فيستا Vesta ومنه الوقت وأصل البيت منه الرومان بالترسيم .

واعتقد أوتو أن تلك الآلام الموجهة بإرادة الله فهي مقبولة على المدينتين Two Cities ، ويعد أن قسمة قائمة للمصادر الأساسية التي رجع إليها ؟ قال : « سيجد القاري القطر في تلك الكتابات ، هناك تاريخية أقل بكثير من ذكر المآسي المؤسفة الساجدة عن الكوارث المهلكة » . ويعتقد أن كل ذلك حدث بالتدبير الإلهي الحكيم . وفي الوقت الذي يتكالب فيه الناس على الحجة الدسائيس الفاسدة ، نهدمهم وقد شعروا بالرجوع فيها - فقبل تقلب أحوال حياة المرء بين الجحيم والنور - والابتعاد عن متاع الغرور والتهور ، والاقبال على معرفة الخالق ، (٨) -

ومن ناحية ثانية كان أوتو حريصا على إشباع الفضول التقليدي عند الكثيرين فيما يتعلق بالماضي فكذب يقول : « أحدث على عاتقهم أن أذكر في كتاب المدينتين أنه في استطاعة الباحث الملتق والمجتهد أن يجد سجلا لأحداث الماضي حاليًا تماما من أي غرض » (٩) .

وأعلن أوتو أيضا أن مطوخته تفي لأصحاب الطموحات الرضفة عن شئ الحروب كانت دائما له للكتابة عن الأحداث الماضية - ولذلك كتب عن : « الحروب والممالك » المتناحرة ، ليس بهدف تأليب البعض على غيرهم بل ذكر الأمثلة عن أولئك الذين تصرفوا بشجاعة ، وأما لكشف الستار عن أحوال الحروب ، والأحوال الناجمة عن الأحوال السياسية المصطنعة - « (١٠) - وبالإضافة إلى ذلك ، فقد حظي الدفاع الذي حمل الناس يكتبون التاريخ ، على موافقته عليه والعمل من أجله : « وهنا على ما اعتقد ظل هدف كل القديس كتبوا التاريخ من قبلنا : وهو التناهد على الإساءات المريعة التي قام بها الشخص من أجل تحريك قلوب البشر تجاه القضية ، وإسماع السخر على التصرفات الفاسدة ، أو ذكرها بهدف تحذير الناس من الاقتداء بها . إذا لم يكن هناك خطر من ذكرها » - (١١)

وعندما أهدى أوتو كتاب المدينتين الذي ألفه ، إلى الإمبراطور فريدريك ، الذي كان قد طلب نسخة من ذلك الكتاب ، أول أوتو اهتماما بالغا بمسألة الدافع على الكتابة التاريخية ، إذ قال : « لقد أطمعت أوامرك عن طيب خاطر ويكل مرور ، لأنني أتفق معك في أهمية رغبتك وحرصك على معرفة ما فعله الإمبراطور والملوك في الأزمنة الماضية ، وأن معرفة ذلك ليس بهدف أحكام السيطرة على الدولة بقوة السلاح ، وإنما بتطويع القوانين وتطوير التشريعات أيضا » -

ولفت أوتو نظر فريدريك باعتباره أحد الملوك بأن الكلمات التالية التي وجدت في الكتاب الخفيس هي في الواقع موجهة إليه مباشرة للعمل

على الأخذ بها : « أيها الملوك ، أيها القضاة ، اسمعوا ، وأنصتوا ، يا من تتحكمون في مصائر البشر ، وتفاخرون بأنفسكم أمام كثير من الأمم ، إن الله العمل القدير سيحاسبكم على أفعالكم ، لأنه هو الذي منحكم السلطة والقوة » - (١٢)

وكأن أوتو صريحا عند ذكره المدافع الذي قلده إلى كتابة مؤامره عن المدينتين - والذي يعتبر أهم أعماله -

وكان حققة من ذلك الكتاب جبل فريدريك والحكام الآخرين على قدر من المعرفة عند أداء واجباتهم اليومية ، وضرورة أن يتذكروا على الدوام أنهم إلى زوال - ولابد أن الإمبراطور فريدريك وجد في كتاب المدينتين التي الخلد - « إن معرفة التاريخ .. ستكون مفيدة وضرورية لجلالتكم ، لأنه إذا ما أضفت بين الاعتبار اجازات الشجاعة وإرادته الله وجبروته ، الذي يمر من يشاء ، ويدل من يشاء ، والذي يبدء الأمير ، فانك ستنتقي الله ملائمت حيا ، وسيسم بالحير ، وستظل حاكما إلى ما شاء الله من الستين الكثيرة » - (١٣)

وبرغم هذه الحياة التي يطاول فيها الملك اتقاء غضب الله في كل تصرفاته ، فإنه لا يمكن أن ينجم عنها سوى القليل من السعادة ، والكثير من الشقاء - ولهذا السبب يجب ألا ينسى الملك نهايته الحتمية .. وعلى ذلك التمس لحظة حلاوتكم علما أنني كتبت هذا التاريخ ، وقد امتلأت نفسي بالاحساس بالمرارة نتيجة للتمرد والفتن التي سبقت عهد حلاوتكم ومن ثم فاقى لم أكتب تذكر الأحداث وفقا لتسلسلها الزمني فحسب ، وإنما عملت على صياغتها على سطح مأساة ، وذكرى مظاهرها المحزنة . وبذلك انتهت بصورة غير مهيبة ، في كل قسم من الكتب حتى الكتابين السابع والثامن . أما الكتب الأخيرة فقد كان الطابع القالب عليها هو الحديث عن راحة النفس وحياة النعيم يوم الحساب » - (١٤)

وإذا ما انتقلنا إلى البحث في مؤامرات أوتو ككاتب للتاريخ ، فإن علينا أولا دراسة المصادر التاريخية التي استقى منها ما قلعه من معلومات إذ كشفت الصفات المميزة لتلك الكتب - وكذلك الأهداف التي صمدت من أجلها ، عن مدى سعة أفق أوتو في التفكير ومدى موضوعيته في البحث ، ومدى حرصه على أن يكون دقيقا في كتاباته التاريخية . وفي بداية مقالة الكتاب الأول عن المدينتين ، أحاط أوتو القارئ علما بأعمال الكتاب السابقين الذين رجع إليهم ، ومنهم : « يوفيموس تروجوس Pompeius Trogus » ، « جوستين Justine » ،

وكورنيليوس Cornelius ( نيكيتوس Jacum ) ، وغارو Varro ، وأوسيبوس Eusebius ، وجيروم Jerome ، وأوروسينيوس Orosius وجوردان Jordanes ، بالإعانة إلى عدد آخر قد استغرق وقتا طويلا لمرد أصنافهم ، ( ١٥ ) -

أما بالمسبة للكتابة عن القرن الأقرب للفترة التي عاشها أوبو فقد اعتمد على حولية دوتولف من ميشيلسبرج Frutolf of Michelberg ( ١١٠٣ ) ، وهي الحولية التي قام أكهارد من أوربا Kkehard of Anta بإكمالها حتى سنة ١١٠٦ م ، وربما كان أوتو يعرف أكهارد ، وذكر باستمرار أنه اعتمد على مؤرخي غير مسيحيين ، من أمثال سيوتونيوس Suetonius ، ويوسفيوس Josephus ، واعترف أنه اعتمد على مؤرخي أواخر العصور الوسطى ، أوسيبوس Oroséphus ، والقديس أوغسطين St. Augustine ، سرت على نهج أوغسطين ، وأوروسينيوس في كتابة هذا العمل الأدبي ، واعترفت من سبلها المباشر كل ما هو وثيق الصلة بفكرتي وحدهي . فقد عالج الأول نشأة وتقدم مدينة الله المحيطة والمناطق المحيطة بها المباركة من الله بأسلوب قوي وبليغ ، ووضعا كيف دأب صحتها بين شعوب العالم ، وذاكرا كيف ظل أهلها أب حكامها في موضع متفوق غير محصور حكام وشعوب العالم ، أما الثاني ، فقد رد على أولئك الذين يتحدثون بشرقة لا قيمة لها ، عنيفة فضلوا العصور القديمة على العصور المسيحية فكتب تاريخا قويا عن التغيرات التي تعرضت لها الحضارة الانسانية وعن ( الحروب وأهوالها ، وعن تبدل العروش منذ نشأة العالم حتى عصره ) . ( ١٦ )

وعلى الرغم من أن المصادر التي توغرت لأوتو كانت كافية لأعداد تاريخ عام للجغنى البشرى ، على الهدف الذى حددته لنفسه جملة لا يهتم بالكثير مما كان مكتوبا ، وكان هدفه الرئيس أن يعلم قراءه ، أما عليه الأخبار فتأتي في المرتبة الأدنى ، وكانت لغيتها اقتناعهم بأن هذه الدنيا متاع القروء ، وليس بها سوى اليأس والشقاء ، ورغم ما تتمطفت به من لحظات من السعادة العابرة على المتعلقين بها ، وعلى ذلك فصنعا واصل الكتابة مبتدأ بهما الغليظة ، قام بالاستطراد في ذكر الأحداث التى اعتقد أنها تخضع فكرته الرئيسية ، في الوقت الذى مر فيه مرور القرام على الأحداث التى لا تحمل أى معنى ، وكثيرا ما اختتم أوتو موضوعا فجأة متسللا بأن من سبقه من الكتاب قد أوفوه حقه في البحث ، وأنه لا حاجة له بالاستطراد فيه . بل إن أحداث الامبراطورية الرومانية عالجها ، باختصار شديد . . . . . بعد أن سرد كتب كثير من أحداثها بأسلوب بليغ وجنصيل تام . ( ١٧ )

ورغم ذلك ، على بعض الأوقات ، ذكر أوتو معلومات تاريخية ،  
 يصعب على القارئ أن يجد مبررا لوجودها سواء من ناحية الأهمية  
 التاريخية أم من ناحية علاقتها بالفكرة السامية عن المدينتين *Two Cities*  
 ومثال ذلك تلك العبارة المتعلقة بالطاغية الصقلي ماراليز *Maralini* .  
 ولا شك أن أوتو وحده في هذه القصة ناعنا على التسليية ، وأنه كان  
 يأمل في مشاركة القارئ له في هذا الرأي ، وإن لها مغزى . فكتب  
 قول : « قام فارالير بتعذيب الأبرياء باتباع أساليب تعذيب متعددة ،  
 وأراد بـ *Perilous* وهو أحد العمال المشتغلين في المصوغات  
 البيرونية . أن يقرب إلى الطاغية فارالير وذلك بأن قسم إليه تمسلا  
 سجوناً على شكل ثور صناعي من البرونز - ورود التمثال بباب يسمح  
 بدخول من أراد الملك تعذيبه . وعند اشتعال التبران سجت الثور  
 البرونز ، يصدر الشخص المحبب طعنه صوتاً يشبه خوار الثور .  
 وتعمل الطغاة هذه التمثال بكل ارتياح ، غير أنه أمر بأدخال مخرجه في  
 التمثال المذكور وجريه فيه عقاباً له على ما اقترفت يده » (١٨) ؛

وما إن بدأ أوتو الكتابة عن عصره حتى شعر بأنه أكثر تمكناً في  
 القيام بدوره كـ *كوتورج* . ويبدو أنه اتفق مع هؤلاء الكتاب القدامى الذين  
 اعتقدوا أنه من المناسب ترك تدوين الأحداث التاريخية للمعاصرين لها .

• يقال أنه كان من عادة المقسماء أن قصصوا حتى تدوين الأحداث على  
 من أدركها بحواسه أثناء وقوعها . لذلك أصبح من المألوف إطلاق كلمة  
 « تاريخ » لشئقة من كلمة *hysteron* والتي تعني «الوفاة» « يترك »  
 لأن كل واحد منهم سيكون لديه القدرة على وصف الأحوال التي شاهدها  
 وسمع عنها بتمعن أكبر . كما أن استملاء عن الآخرين يجسه ، التخليط  
 هنا وهناك في سببه وراء الحقيقة حيث يتصادم شعوره باللهمة مع التشكك  
 والواقع أن من الصعب أن يركز المؤرخ لראى شخص آخر كما لو كان  
 عاجزاً عن التحري بنفسه » (١٩) .

وعلمنا وصل أوتو في كتابة تاريخه إلى الحديث عن أحداث سنة  
 ١١ م . أعلن بقدر من الارتياح أنه بدأ يكتب مستملاً على نفسه .  
 « وفي قبل هذا التاريخ قمت بالرجوع إلى لوروسوس ، وروسوبوس ،  
 وإلى من كتب بعدهما حتى وقتنا هذا . وبعد هذا التاريخ قمت بالكتابة  
 اعتماداً على ما شاهدناه بأنفسنا أو سمعناه من أهل الثقة . حيث كانت  
 الحوادث حديثة العهد في ذاكرتهم » (٢٠) .

وعند استنظام أوتو للمعسكر التاريخي أبدى قلما ملحوظا من الموضوعية وبعد النظر بالنسبة لتسمية من كتب التاريخ في العصور الوسطى . وأنا ما يبا أنه ينسب على قوة الأعلان إلا أن ذلك يتسلسل رقيق للغاية لدرجة أنه لم يضابق أحاسيس القارئ - إلا أنه لم يكن غافلا على الإطلاق عن عيوبهم ومناقضهم . والملاحظة التي أهدى بها بحثه عن الطريقة التي عزل بها أوتو الأول Otto I الألماني البابا حنا الثاني عشر John XII توضح ونجته في أن يظل على الحياد . إذ كتب يقول : « وسواء آكانت كل تلك الأمور قد تمت بطريقة قانونية أم لا فليس الهدف من هذا الكتاب هو إصدار الأحكام على ما قد حدث ، وإنما قد أخذنا على عاتقنا أن نكتب عما قد حدث فقط » . (٢٩)

وأبدى أوتو موضوعية صائفة تنم عن بعد نظر عند ذكره لمن كان يسرفهم من الشخصيات الماسرة له - ففي كتابه عن الدعوى القضائية التي أقامها برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux وعدد من الكهنة ضد جليبرت دي لا بوريه Gilbert de la Porrois رفض أوتو الانحياز إلى أحد الطرفين . وعندما نجح جليبرت في نهاية الأمر في تبرئة نفسه من تهمة الخروج على التماثيل الكنسية المتفق عليها ، علق أوتو على ذلك بقوله : « وسواء أكان الأب Abbot كليرفو السالف الذكر قد تم خطاؤه في هذا الأمر ، نتيجة لسهولة اتقيك الإنسان باعتباره بشر ضعيف ، أم أن الأسقف المثقف والذليق تمكن من الالتفات من الادانة الكنسية عن طريق إخفاء وجهة نظره بدهاء شديد ، فإن مهنتنا ليست إبداء الرأي أو الفصل في الدعوى القضائية » (٣٠)

وباعتبار كون أوتو مستقنا وتابعا حاكما فكثيرا ما وجد نفسه في غاية الاهتمام بالخلاف الذي أثاره المؤيدون لملكو مكانة حقوق الكنيسة أمام حقوق الدولة والمعارضون لذلك الرأي . ومن أهم الأسس التي استند اليها كبار رجال الكنيسة في ادعائهم ما عرفت باسم حبة Donation of Constantine ومنذ القرن الخامس عشر اعتبر المؤرخون تلك الوثيقة مزورة . وفي عصر أوتو اعتبر كثير من الناس الوثيقة صحيحة ولا ريب فيها ، ووافق بعضهم على صحتها وإن كانوا قد أنكروا سرعان مقبولها ولم يرتب في صحتها سوى القليل منهم . وكتب أوتو عن هذا الموضوع بطور شديد . وأشار أوتو إلى أنه ما أن صبح قسطنطين المسيحيين حرية العبادة ، حتى قام ذلك الامبراطور برفع مكانة الكنيسة الرومانية إلى حد كبير ، إذ سلم القديس منسيفيستر Silvester بابا روما ، شارة السلطة ، ثم ذهب الامبراطور

الى بيزنطة وجعلها عاصمة لدولته . ولها السبب ادعت كنيسة روما ان الممالك الغربية تخضع لسيادتها ، على أساس ان قسطنطين نقل السيطرة عليها الى كنيسة روما ، والدليل على ذلك لم يتردد في تحصيل الأتونة المنتظمة المأالة على التيمية - إلا من الممالك الفرنجية - بيد أن المؤيدين لسيطرة الامبراطورية على كل أملاك الدولة أكدوا على ان قسطنطين لم يسلم الممالك الغربية الى ياقوت روما وفقا لفهم خضوع تلك الممالك لسيطرة كنيسة روما ، وإنما تم ذلك ابتغاء مرضاة الله الذي شامت لعدوته أن تعيهم كهنة - باعتبارهم كهنة الله جلّت قدرته - وعلى أمل أن تحل عليه البركة - وأن تحرمه الضاية الإلهية بفضل صلواتهم - وقدم أصحاب هذا الرأي القليل على أن قسطنطين نفسه قسم مملكته ، وأعطى أحد أبنائه القسم الغربي . وبذلك كانت روما ودول العرب كلها من نصيب تيودوسيوس Theodosius ومن جاءه من بعدهم على التوالي . سواء أكانوا أمراء خاضعين لتعاليم الكنيسة أم غير خاضعين لتلك التعاليم heretics ويقال أنه لم يحصل أن قام حاكم وروع بتسليم ابنائه ما سبق أن قلناه للكنيسة ، أو حاول حاكم كاثوليكي الاستيلاء على أملاك تابعة للكنيسة على أنه ليس الهدف من هذا الكتاب العمل على حسم كل تلك الأمور حسا قلما ، ( ٢٢ ) .

ومن المتوقع أن يكون القارئ متلهفا على معرفة كيفية تقديم أوتو تسرده التاريخي عن أشهر حادثة شظفت اهتمام ألمانيا والبابوية في الصور الوسطى ، وأعني بها ، الحركة التي حدثت بين البابا جريجوري السابع Gregory VII وهنري الرابع ، ولا سيما أن أوتو كان أسقفا من ناحية ، وخفيلا ملك ألمانيا من ناحية ثانية - لكن الواقع يقول أن أوتو كان مؤرخا - إذ ألزم نفسه بتقديم وصف واقعي لكل ما اعتقد أنه قد حدث بالفعل . ( ٢٣ ) وإذا كانت المبلى التي تحكى في قلبه كمؤرخ جعلته لا يبدى أى تقييم للحادثة ، فإنه لم تكن لديه الرغبة من اغضاب السلطات الكنسية أو ألقابه ، ومن بينهم الامبراطور فريديك بريناروميل ، الذي كان ولا بد أن يطلب منه التزام الصمت - وفي عهد الامبراطور هنري تدهورت أحوال الملكة تدهورا شديدا ، وذلك لتمرد العالمة العظمى من النسلا على ملكهم ، وعسرت حسابات الدم ، كل أراضي المملكة تقريبا - للخراب والفساد ، فقرر البابا جريجوري السابع اشهار سيف الحرمان الكنسي في وجه هنري بعد أن سبق كل التابعين له عصا الطاعة . فأتاها قرار البابا المزيد من السخط والاستياء في كافة أنحاء الامبراطورية . إذ لم يحدث من قبل أن صدر مثل هذا القرار ضد أى امبراطور روماني . لذلك دعا الامبراطور في وقت واحد ،

عندما كبرنا من الأساقفة من إيطاليا ، وبلاد الفال ، والمانيا ، إلى النصارى  
 إلى مدينة بريمنس Brême في بافاريا Bavaria الواقعة في وسط  
 البرانس Pyrenées (٢٥) ، بالقرب من وادي ترنت Trent  
 حيث عقد مجمعا كنسيا شهيرا - وعندما وصل الجميع شكا الإمبراطور  
 بمرارة من المظالم التي صبها الكنيسة الرومانية قوى رأسه ، واعى  
 بذلك ، أنه ، ولعلوا استشارته ( وهو الذي كان ملكا وشريفا رومانيا  
 Patrician ويتحتم أن تكون له الكلمة الأولى عند اختيار أسقف  
 مدينته ) ، قام سكان روما بأنفسهم باختيار كبير الكهنة  
 على الرغم من أن والده الإمبراطور قام بتعيين كثير منهم ، ودون انتخاب  
 على ما يبدو وسافرت مشاعر الجميع أكثر استعدادا للتعاقد مع شكوى  
 الملك والاضطراب على الكنيسة الرومانية ، حيث أن الأمر لم يقتصر على عامة  
 الشعب الذين تاروا لاعتبارات الشرف المدني ، وإنما امتد ليشمل  
 الأساقفة الذين عرضهم رجال الدين التابعين لهم ، وبخاصة بعد أن أمر  
 البابا نفسه بسبع زوج رجال الدين في ذلك الحين ، وهكذا أعلن الجميع  
 تأييدهم لطلاب الملك ، وعلى ذلك أعلن الجميع رأيهم وذلك بالفاء النصين  
 السابقين وتم اختيار جيوريت Gisbert رئيس أساقفة رافنا  
 Ravenna وأطلق عليه اسم كليمنت Clement (أو ديسنت !  
 Demont) (٢٦) وتم اختياره أسقفا لمدينة روما بموافقة الملك ، أما  
 جريجوري السابع ، فقد تم خلعهم بعد أن وصفوه بأنه راعب مضاد  
 ومصل ودجال - وبعد ذلك حشد الملك جيشا كبيرا وغزا إيطاليا -  
 وبا أن وصل هنري في قلعه إلى مدينة روما حتى قام بزل جريجوري  
 وسط استعجان الشعب الروماني لذلك المصل ، وأجلس مكانه جيوريت  
 على الكرسي البابوي وتسلم منه لقبى إمبراطور والمسيح - ولما كان  
 جريجوري ، وهو الكامن المبجل ، يعاني من الإحساس بالاضطهاد ، لذلك  
 انتقل إلى أقاليم توسكاني Tuscany العنبلية الأكثر أمنا ، ومنها إلى  
 أراضي الكونتس ماتيلدا Countess Matilda إحدى قريبات الإمبراطور -  
 وبقي جريجوري هناك لفترة من الوقت ، وظل يكرر قرار العزم الذي  
 أصدره ضد الإمبراطور هنري في خطابات أرسلها إلى أماكن كثيرة -  
 وجرى أمراء المملكة ضد الإمبراطور - ثم ذهب إلى كامباني Campania  
 وأبولاي Apulia ثم توجه إلى إحدى مدن النورمان التي صيرت تحت  
 أيديهم في عهد قائدهم روبرت جوسكارو Robert Guiscard وظل  
 جريجوري هناك إلى أن وافته المنية ( ٢٧ )

وعلى الرغم من أن أوتو قد اتخذ موقف الحياد من باب المحكمة  
 في الأمور الباطنة الحساسة كالتي ذكرناها به ، فإنه كان ملوكا

تصاها لمسئولياته كسؤرخ يتحتم عليه أن يقول الحقيقة . واورد ذكر تصحيحات كثيرة في حطبه ارسله الى رينولد من داسيل *Reinold of Dassel* مستشار فريديك الأول برباروسا . وطلب أوتو من رينولد أن يكون حاضرا معه عند تفسيره لبعض الأمور التي ورد ذكرها في كتاب المدينتين *Two Cities* التي قد تسبب أي امتياد عند الملك . فقد كتب يقول : « يكتب المؤرخون وفقا لنهج محدد إذ يتركون الفث ويتجنبون ذكر الأكاديميه ، ويتفنون الملوحة المصادقة ويعرضونها بكل دقة » . لذلك أرجو ألا تتضايق سموكم لو ذكر كما سبق أنه قلت قبل ذلك ( لو ألا تفسر الأمر على نحو غير مستحب أمام الامبراطور إذا ما ظهر فيها كبتة من مادة تاريخية وجود موضوعات محددة تحدثت عن نقد لأسلافه أو أجداده على أن وضع الحقيقة موضع الاحترام بالقدر الذي يحصل من الأفضل عرضها بين الناس حبر من الغله عمل المؤرخ عن طريق إخفاء رأى غير مستحب بهدف طمس الحقيقة » (٢٨) .

والواقع أن هذا أسلوب رائج جدير بمؤرخ شجاع . ومن المحتمل أن أوتو لم يكن على هذا النحو من الالتزام بصفة نائبة . فعلى سبيل المثال . لم يذكر في كتابه عن الأعمال *The Deeds* الأحداث التي حثرت فيما بين ١١٢٧ - ١٢٢٥ م والتي لم تصف سوى القليل من المجده والمعار لبيت هوهشتاوفن *Hohentoufen* (٢٩) وبرغم ذلك فإنه فعل هذا الأمر في الكتاب الذي كتبه حصيصا لقرينه فريديك برباروسا . ويستطيع الناقد المقق أن يؤكد على عدم ذكره مملومات كان من الممكن أن تكون مثيرة للغضب والاستياء . وعلى وجه العموم يستطيع المرء أن يجد قدرا من الصحة لا يستهان به عند أوتو : « إذ لا يستطيع أحد أن يتهمنى بالكذب في الأمور التي - إذا ما قورنت بالعصر السائد في الوقت الحال - قد يصعب تصديقها ، إذ أنها ما زالت حديثة العهد في ذاكرتنا حتى وقتنا هذا وهي التي تمت بالكتابة عنها إضافة إلى ما وجدته من كتابات لأهل الثقة ، والتي لم أتغير منها سوى القليل من بين الكثير » (٣٠) .

وحتى لا يعتمد أوتو عن تلك المساعدة نجد أنه قد أبدى بعض المخاوف ، بين القبة والقبعة ، التي تتعلق بمدى صحة بعض المعلومات عن طريق إضافة تعبير « يقولون أن » أو « يقال أن » . ويظهر مثال واضح لكل هذا التردد في سرود التاريخي المتعلق بالقس حنا *Proter John* تلك الشخصية البارزة الأسطورية . وهو أسلف سرياني ذهب الى انطاكية لبحث أصول متصلة مع البطريرك ، وقال إبان وجوده هناك :

• أنه منذ عدة سنوات كان هناك شخص يسمى حنا ، وكان ملكا وقسا ،  
 ويسكن قيسا وراء بلاد الفرس وأرمينيا أقصى الشرق ، والذي كان  
 يدين هو وشعبه بالمسيحية على المذهب النسطوري ، وشن حربا ضده  
 ساميردي Samiridi صديق الفرس الساميردي ، ملكي الفرس والميديين  
 السعيقين، وتمكن حنا هذا من اقتحام اكيانا Ekbana (عابستهم) ،  
 وهي التي سبق أن تحدثنا عنها من قبل . وعندما التقى الجيوشان حدثت  
 معركة استمرت لمدة ثلاثة أيام نظرا لأن الفريقين كانا على استعداد للموت  
 عن أن يلوثا بالفرار ، وفتح الفرس حنا Proster John في أجار الفرس على  
 الفرار ، بعد مذبحه مروعة ، انتهت بانتصاره . وقال أنه بعد هذا النصر  
 تحرك يعيشه لساعة الكنيسة في بيت المقدس ، بيد أنه عندما وصل  
 إلى نهر دجلة لم يتمكن من قتل جيقه عبر النهر بأى وسيلة ، فأتجه صوب  
 الشمال ، اد علم أن محري النهر كان متحدا - - ويقال أنه من السلالة  
 المباشرة للمجوس الذين ورد ذكرهم في الانجيل الأربعة القانونية ، وأنه  
 سيطر على التجموع نصيبا التي كانوا يحكمونها ، وأنه نصح بتسوية  
 عظيمة وثروة لا حصر لها ، ورغم ذلك فلم يستخدم ضولجاء باستثناء  
 الرمرد . ويقول الناس أنه اتخذ من آباله القفوة الحسنة ، بخصاس  
 شديد ، عندما ذهبوا لتمجيد المسيح في مدوده اد عقد العزم  
 على الذهاب إلى بيت المقدس ، ييه أنه لم يتمكن من ذلك للسبب المذكور  
 بمالية • (٤١) •

وأخى أوتو مقدمة على الحكم على الأمور بمن ثابته عند وصوله لموت  
 تيوسو Tiozo أسقف سالزبرج Salzburg وعلى الرغم من  
 قبوله للرواية التي ذكرت عن استشهاد هذا الأسقف على أنها من مصادر  
 موثوقة بها فانه عرق النظر عن بعض المعلومات المتعلقة بموته باعتبارها  
 كاذبة . وكان الإمبراطور أليكسيوس Alexius قد اعتقل هفنا  
 الأسقف المذكور إبان عبوره أراضي آسيا الصغرى ، متوجها إلى بيت  
 المقدس ، وسله إلى ملك ميغليس Mithras وفيما على وصف  
 أوتو لتلك الحادثة . يقولون أن الأسقف المجل تبو Tiozo صدر  
 إليه أمر بعبادة الأوثان . وبمسه أن طلب فترة لرجاء لعبادة الأوثان  
 ( وحصل عليها ) ، دخل الخيد ، ونظرا لأنه كان يتمتع بمقل سليم وجسد  
 قوى ، قام بتعطيم الأوثان التي كان عليه أن يعبدها ، وأثبت بذلك  
 أنها ليست آلهة وإنما من صنع الإنسان . لذلك اقتادوه ، وهذا أن عانى  
 من آلام التعذيب الوحشي بكل أنواعه ، توجوه بتاج الاستشهاد المجيد .  
 وإذا كان من الموثوق به أنه ذاق الموت لايمانه بالمسيح ، إلا أنه من الصعب

التصديق أنه حلم «الأول» . ذلك لأن المعروف في كل أسماء المسالم أن المسلمين يسمون ألقاباً واحداً فرداً صمماً » (٢٢) -

ومن الواضح أن أوتو أدرك إدراكاً كاملاً أن مصادرهم - حتى أولئك الذين كانوا على استعداد أن يكتبوا بصفتهم وأسمائهم - كثيراً ما قنعوا بروايات مختلفة للمحادثة الواحدة ، وذلك وفقاً لمصالحهم ومخبراتهم - واستشهد بموقف الكتاب اللاتين الذين كتبوا روايات مختلفة عما حدث عشية موت كونراد الأول Conrad I سنة ٩١٨ م . وعلى أوتو حدوث ذلك التضارب في الروايات بين الكتاب لأن كل واحد منهم حاول الإطراء على دولته قدر استطاعته . أما أوتو فقد وعد بأن يلتزم ، بالمعرف المتعايد في هذه الأمور . وأن يعرض بالوآخر على حيط الحقيقة . . . وأن يستعين بالله حتى لا يتحيز فيما أو يسأله » (٢٣) -

وإذا كان أوتو لم يبد سوى الموضوعية الكاملة في كتابه « الأعمال » *Deeds* والتي كتبه خصيصاً إلى قريبه فريديك الأول بربروسا . فإن ذلك هو كل ما يتوقفه المرء من أشد المؤرخين تطبيقاً . ومع ذلك ، فلا ريب أن هدفه من هذا الكتاب تزويد قريبه بالعلم والمعرفة في مجال مسئولياته وبالقدر نفسه إعلامه عن أحوال الماضي . ولذلك للمرء أن يفترض أن بعضاً من التواء والمصنع الذي طرحه على فريديك كان المقصود به تشجيعه على مواصلة ما فعله وحده معالمة طريقة التصرف التي يجب عليه الالتزام بها حتى يسطر برزله الله عليه . وفي أواخر سنة ١١٥٤م قاد فريديك جيشه إلى إيطاليا عبر جبال الألب . وصرخى جنوده لشقة سفاد المؤن القديمة لأن المنطقة بالقرب من فيرونا Verona كانت جبلية إلى حد كبير ، كما قام هؤلاء الجنود بالاعتداء على حرمة بعض المسابد والمزارع في المنطقة وصلبوا ما بها من مقتنيات نفيسة وقيمة . وقدم أوتو وصفاً لتلك الحملة فيساً إلى « وباحتصار » لا كان الجيش غير قادر على اجتياز طريقه بين المناطق الجبلية الشديدة الوعورة . وتقدر علمه الحصول على ما يسد رمقه ، لشدة حالة الجنب الشديد التي تعاني منها تلك المنطقة . لذلك كله دفعتهم الحاجة الملحة لانتهاك حرمة الأماكن المقدسة . ومن أجل التكفير عما حدث - رغم أن ما حدث تم تحت الضرورة الملحة - أمر الملك بجمع قيعات من كل المقاتلين بجيشه . وأصدر قائد الجيش أوامره بتسليم تلك المبالغ التي بلغت قيمتها حتماً لا يصلحان به إلى أسقفى ميليتي ترينت Trent وبريسكن *Beizun* كنوزيهما على المناطق التي بها مزارع للقدسيين وتضررت من عدوان الجند عليها . وهكذا نهض ذلك القائد داعياً مهمة إقرار الملك والخير

«السام مؤدياً بذلك دور قائم شهم . وقبل أن يبدأ ذلك القائد في تحقيق انتصاراته الرائعة ، عقد العزم على العمل وفقاً لما يرضى مملك الملوك ، وخالف كل شيء ، والذي بدون مشيئة لا يمكن الإقدام على عمل أي شيء . أو انتحازه بجراح ، وأدرك أنه لابد من تجنب الأعمال التي ينتج عنها حلول غضب الله على عباده » (٢٤) .

وأذا كان أوتو قد سمح لنفسه بالتصير عن قدر من الحماية عندما كتب عن قريه فريه فريريك ، فإنه انسلق مع حالة المدد التي أفصحت عنها أسرته تجاه عشيرة وتلسباثس Wälsbach والعداء التكنيدي تجاه عائلة بيبيرج Babenberg . ولذلك فإنه وصف الأمير الذي كان يسعى أوتو أيضاً : « على أنه كان على مثال والده المخالف والظالم ، والذي كان قد فاق كل أسلامه في الخيـت والحق الأذى ، أنه حتى يوسا هذا لم يتوقف عن اضطهاد كنيسة الله » (٢٥) . ومن النادر أن لجأ أوتو إلى مثل ذلك القبح . وربما كان أريوس Arim هو الشخص الأخص والموحيد الذي تعرض لمثل ذلك التشهير . « الذي لا يمانيه أحد في الدعاة والحقارة على الإطلاق » (٢٦) وعلى الرغم من أن أداة أوتو للإمبراطور نيرون Nero (٢٧) كانت شهيدة أيضاً فإنها نسوت مع ادانت كل المؤرخين المسيحيين والوثنيين لذلك الحاكم الروماني .

وبصفة عامة أبدى أوتو اهتماماً في التصير عن آرائه عندما كتب عن الشخصيات التي كان يكرها أو الذين تعارضت سياساتهم مع استقلال أبناء وطنه من الألمان وأفراد أسرته ولم يحدث أن ذكر أوتو نفسه إلا عرضاً . وذكر أوتو النص الكامل لخطاب البابا ايوجنيوس Pope Eugenius الذي أرسله إلى ألمانيا ، والذي هاجم فيه البابا الأساقفة الألمان . وأنهى أوتو الخطاب بالتصير عن موافقته على الإجراء الذي أخذه الملك كونراد Conrad ، عندما عين أحد وجاله على الكرسي الأسقفى في ميديبرج Magdeburg (٢٨) وعبر أوتو على نفسه بكل صراحة ودون حيز للأسلوب الاستبدادي الذي انتهجه شقيقه ليوبولد Leopold حاكم النمسا الألماني : « قام ليوبولد باحتلال بافاريا عنوة بعد أن تحرك بجيش أحسن تسليح إلى أن وصل إلى لنش Lech . ودمر التحصينات التابعة لبعض أعماله هناك ، وغرب كل المناطق الريبية المحيطة ، وعمد عبر نواحيها ملجأ الكثير من الأذى بكثيـسة » (٢٩) .

وكان أوتو حريصاً على تجنب إبراز أهمية خاصة عن أجداده أو أفراد أسرته فسيجد القارئ صعوبة في تحديد اسم والده بين الذين وافته المنية وذكر اسمهم في الفترة ما بين ١١٢٦ - ١١٣٧ م (٤٠) . ويرغم

ذلك ، فقد يتأخر المرء بضئ الشك عندما يجد أوتو يكتب عن النصر الذي  
أحرزه هرمان Hermann (أرمينيوس Arminius) ضد « أجنادته »  
على الرومان في غابة تيتوبيرج Teutoburg في العام التاسع للميلاد -

« وفي الوقت الذي كان فاروس Varus يحرك جيشه بكل  
شراسة ونهم - كما هي عادة الرومان - صوب المشويعين على امرهم ، يمكن  
الجرمان من النضال عليه وإيالة الفرق الثلاث التي كانت معه - ويقال  
لأن أغسطس Augustus تأتي بشدة تنجيعة لتلك الكارثة التي حلت  
بالتجيش الروماني حتى أنه كتب ما تعمد شرب رأسه في الحائط من  
شدة شعوره بالعزلة والأسى ، وهو يقول : يا كوتيليوس فاروس !!  
Quantilus Varus أعد لي فرقتي الثلاث » وكتب مسوتوبيوس  
Suetonius أن هزم الحروب بين الرومان والألمان - والتي كانت  
صراعاً ضراماً ومميراً ، منذ الحروب الأفريقية الأشد صراوة - استمرت  
حامية الوثيليس لمدة ثلاث سنوات شاركت فيها خمسة عشر فرقة . ومن  
ثم يمكن لنا أن نستنتج مدى قوة تلك القبيلة الألمانية ، إذ أنها استطاعت  
أن تعطل هذا القدر من الخراب والتدمير في الجيش الروماني في الوقت  
الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية في أوج قوتها » (٤٦) .

وتحدثت فكرة أوتو عن الكون ومكانة الإنسان فيه في تفسيره  
للتاريخ أو في فلسفته التاريخية وكانت فكرة أوتو تلك هي من الناحية  
الواقعة فكرة « قديس أوغسطين ذاتها التي أعلنها في كتابه مدينة  
الله the City of God وكرر هذا الرأي بدورة الفكرة المقومة ضناً  
في الأناجيل الأربعة القانونية ، ويمس بها أن الله هو الخالق - وأنه  
يسلم حاقلة الأعين وما تنهي المصور ، وأن يبيلد الأمر في الحيلة الدنيا  
ويوم الحساب وليس الإنسان هو الوحيد الذي يتصرف باعتباره مصيراً ،  
وإنما يعتمد ذلك ليشمل الكون كله والحركة التاريخية - وكان أوتو  
قد عر عن موافقته على تقسيم المصور الستة التي ذكرها أوغسطين ،  
ونعنى بها ، العصر الأول من آدم حتى طوفان نوح ، والثاني من الطوفان  
إلى ظهور إبراهيم ، والثالث من ظهور إبراهيم إلى ظهور داود ، والرابع  
من داود إلى الخروج من مصر في عهد موسى ، والخامس من الخروج إلى  
تجسيد المسيح ، والسادس هو عصر النصبة الإلهية ويتفق أوتو مع  
أوغسطين على تحديد العصر السادس بوليد المسيح ، وفي اعتقاده أن العصر  
الأخير أوشك على الانتهاء ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها - فكتب أوتو  
قائلاً : « لأننا نعيش في الأيام الأخيرة لهذه المملكة ، ونعرض لكل ما كنا  
نتوقعه - بشأنها - ونوقح أن ما كنا نعتقد ، صار كساب قومين  
أو أدنى » (٤٧) .

ولم يأخذ أوتو بالتقسيم الدقيق للصور الستة ، فربما يتعلق بالامبراطوريات العالمية وفقا لما اعله أوغسطس ، وانما فضل التعديل الذى عرضه جيروم Jerome ، اذ كتب يقول : « سأقدم شرحا موجزا » لنهج الذى يسير عليه التاريخ ، واذا ما عنت مرثته . يمكن انه يكون طبيعة هذا الجهد التاريخي واضحة وضوحا جليا - وهو انه منذ بدء الخليقة حكم العالم أربع ممالك رئيسية ، وحقق لها البقاء حتى قيام الساعة . وحقق احداها الاخرى وفقا للقانون الطبيعي ، ويمكن انه تتحد معا بأساليب متعددة ، من وجهة نظر دانيال بصفه جامعة . ولذلك تمت بكتابة أسس حكم تلك الممالك ، ورتبتها وفقا لتسلسلها الزمني ، فذكرت الاثوريين أولا ثم ( مثلا ذكر الكلدانيين الذين لم يذكرهم كتاب التاريخ ضمن الآخرين ) ، ذكرت الميديين Medes ، والفارس ، واخيرا الاغريق والرومان ، وذكرت أسماء أبائهم حتى الامبراطور الحالي ، مستحذنا عن الممالك الأخرى ، على نحو عرضي فحسب . كى أوضح التفويحات التى طرأت على الأسس ( ٢٤٣ ) .

والواقع ان أوتو أبى اهتماما أقل مما قد نتوقه القارىء من الجملة السابقة واستخدم أيضا تماثيل ومعايير فنية كى يؤكد بالليل والحجة على صحة اعتراضه من أن العالم سيستمر بان فترة الحكم الرومانى . ووفقا لما ذكره أبو قلم الرومان بسلام المسيادة الى الغربين قس . القسطنطينية الذين قاموا بنورهم بتسليمه الى الفريجة ( والألمان ) من الغرب .

واستمر أوتو يلمن برتباه لتقسيم أوغسطس للبشر الى مجموعتين أو مسكرين مدينة الله The City of God ومدينة الشيطان City of Evil of the Earth وذلك طوال ميثاق كتابه الضخم الذى حل عنوانا جديرا بالاهتمام ، وهو الحولية أو تاريخ المدينتين The Chronicle or History of the two Cities

واتضح أوتو عن ذلك فى مقدمة الكتاب الأول مثلا أنه العامل الملمم الذى سيوجه فى كتابته عن تاريخ العالم .

« وبعد التفكير مليا . واختره طويلا ومتكررة ، فى الأمور الدنيوية . وما حوت من تغيرات وتقلبات ، وموضوعات متنوعة ومعقدة ، وهى أمور تجعل الحكيم حتملا بأحوال الدنيا الا انى وجدت من مطلق قوة الرشاد فصعب أن على المرء تجنبها ودراسة نفسه منها . اذ أنه من واجب الحكيم ألا يلهو حول العجلة الماثرة ، وانما يتخذ موقفا بمنز كالثى - الوطن بفضل ثبات قواه ، وبما على ذلك ، فطالما أن الأشياء عرضة للتغير وليس

حققوا لها ان تظل ساكنة . فما هو الاساس العاقل الذى سينكر أنه  
يجب على الحكيم أن يجر الهوم ويذهب الى تلك المدينة التى مستظل  
أمنة من خوف وباقية الى أيد الأعداء ؟ انها مدينة الله . بيت القدس .  
الذى يتطلع اليها أبناء الله . وهم فى هذه الحياة الدنيا . يمانون من متاعب  
هذه الحياة . وكأنهم يمانون من الأمر البابل . ونظرا لوجود مدينتين -  
مدينة الحياة الدنيا . والأخرى مدينة المخلود . الأولى على الأرض . والثانية  
فى السماء . الأولى مدينة الشيطان . والثانية مدينة المسيح - لذلك  
أعلن الكتاب الكنسيون أن الأولى هى بابل Babylon والثانية  
بيت المقدس « (٤٤) »

اهتم أوتو فى الكتب السبع الأولى من حويلته عن المدينتين بتاريخ  
الجنس البشرى منذ بدء الخليقة حتى عصره . وطوال تلك الفترة الطويلة  
من الزمن وجدت مدينة الله . ومدينة الشيطان . وقد رهاهما البقاء . غير  
أنهما تداخلتا لأن كلا منهما وجه بها أخبار وإشعار . وبذلك مدينة  
الله وجودها على الأرض منذ عهد آدم . بيد أنه ظهر فى الحال أفراد فى  
تلك المدينة من بين الشعب الموعود Promised People الذين لم يتشكروا  
الله . وشاء الله أن يعيش مواطنون من هذه المدينة خارج إسرائيل . وفى  
أزمة العهد القديم Old Testament كان هناك ملوك يهود ولم يقدر  
لهم أن يكونوا من بين أهالي مدينة الله . كما كان هناك أيضا بابوات أشدرا  
منذ تجسد المسيح . وقد بناوا بضرب من الله . ووفقا للمفهوم المحدود  
لم يكن هناك سوى مدينة واحدة حتى سنة ٣١٣م . عندما منح قسطنطين  
للمسيحيين . بمساعدة شملتهم الدينية . بكل حرية . وتنعى بها مدينة  
الله . وعند تلك السنة . استحوذت هذه المدينة وحدها على اهتمام أوتو .  
فمن وجهه نظر الأفراد المأدبين مستظل المدينتين على وجه الأرض حتى نهاية  
العالم وحتى قيام الساعة . ثم يتم فرز الذين أحبوا الله عن أولئك الذين حقت  
عليهم كلمة العناب - وهكذا يسم الأولون فى مدينة الله . أما الآخرون  
فهم مدينة الشيطان . وشرح أوتو ذلك قائلا : « والى هذا الحد . اعتقد  
أنى ذكرت ما يكفى فيما يتعلق بالمدينتين - وعن كيفية تقدم أحداثها  
أولا عن طريق بطاقتها متطية فى الثانية حتى قدوم المسيح . وبعد ذلك  
مازدهارها التدريجي الى أن جاء عهد قسطنطين . ولكن بعد عهد قسطنطين  
وبعدما توقفت التناوب من خارج حدود الامبراطورية بصفة نهائية .  
بدأت تحدث فى الداخل يتحريض من الشيطان . واستمرت الصراعات  
الداخلية حتى عصر ثيودوسيوس الأكبر وكان أريوس Arius المسئول  
الأول عن ذلك . وقام الحكام وكبار القادة بمعاونته . غير أنه . من وقت  
لاخر . ونظرا لأن جعل الشعب والاباطرة ( باستثناء بعضهم ) كانوا من

المتسكي بالمعتقد المالى التويم Orthodox Catholics لذلك بما في أنى  
 اكسب ماريسا عن مدينة واحدة من الناحية الواقعية ، وهى التى سميتها  
 الكنيسة ، ويرغم أن الأحبار والأشهاد شكلوا مجسما واحدا ، فاني لا أستطيع  
 أن اطلق عليهم مدينتين كما ذكرت من قبل ، ولذلك لا يصح إلا أن اسمها  
 سوى مدينة واحدة على وجه الدقة - ومع ذلك كانت تلك المدينة كمثل حبة  
 القمح المخلفة بالصفاء - وهى أجل ذلك غلبا مواصلة تتابع الأحداث  
 التاريخية التى بدأها . واعتنى الإباطرة الرومان والملوك ( ملوك الممالك  
 الشهيرة المسيحية ، لأن صوت كلمة الله وصل الى كل قضة على الأرض ،  
 وفى أقصى مكان بالمحورة - واستراحت مدينة الأرض The City of Earth  
 وقدر لها أن يكون مصيرها الى روال ، وهى ثم فان تاريخنا هو تاريخ  
 مدينة المسيح The City of Christ غير أن تلك المدينة دار فناء وهى : على  
 مثال الشبكة التى أقيمت فى البحر بما احتوت عليه من الأخبار  
 والأشهاد ، ويرغم وجود اليهود الملاحين ، وعبدة الأوثان ، فأن شمسنا  
 كسبت الى صفاء الممالك المريضة . ولم يكن هؤلاء اليهود ، وعبدة الأوثان  
 متوذين أمام الله فحسب ، بل وهى كل بقاع الأرض ، لذلك فمن النادر  
 ذكر أى شيء عنهم ، إذ لا يوجد عنهم ما يستحق تدوينه للأجيال  
 القادمة ، { ٤٥ } -

ويرغم الاسم العظيم لكتاب أوبو الرئيس ، والشهرة الفارقة التى  
 حققها لوضوح فلسفته التاريخية ، فانه أبدى اعتساما قليلا سببا عنه  
 سرده لفكرة المدينتين ، وفى أغلب الأحوال حصر أوتو تأملاته فى نطاق  
 ذلك الخط فى مقسمات كنه المختلفة ، وفى التعليقات الموجزة التى أبهى  
 بها تلك الأجزاء ، والفقرة السابقة تشكل نموذجا لقصائمه ، أما الفقرة  
 المتصلة التالية ، والتى اختتم بها الكتاب الثانى ، نوضح الطريقة  
 التى أبهى بها كل قسم - • وبعد هذا الحد كما مكرهين على شجب رداة  
 تقلبات أحوال الحياة بكل شدة • وبالمجيب : لقد وجدنا أنه للإمبراطورية  
 الرومانية تدفع ثمننا غاليا من دماء أبنائها ، وبمنفس القسود من نسله  
 مواطنيها • فيفعل التغيرات التماثلية ، والتى كانت على مثال أمواج البحر  
 - التى كانت تزيد حدتها حيا ، وتنصف أحيانا لكثرة الكوارث الناجمة  
 عن الظواهر الطبيعية - فقد بدت الجمهورية الرومانية حيا وقد وصلت  
 الى عنان السماء قوة ، بعد أن انضمت الأمم والممالك بقرة السلاح •  
 وبإحكام سيطرتها عليهم • وأحيانا أخرى المهدوت الى الهاوية ، عندما  
 اغارت عليها تلك الأمم والممالك ، أو عندما احتاحتها الأوبئة والأمراض •  
 على أن ما هو أكثر أهمية من تلك الأمور - هو أنه بعد أن استنفرت  
 الأمور للرومان ، اجتاحت بلادهم الحرب الأهلية وانقضى بطشهم على

البعض الآخر يقرر بطله على نحو يتبرر الشفقة والثناء . ولابد أن تكونه كل تلك الكوارث التي تغيرت عن الأحوال المضطربة ، لها القدرة على الأحاد بيد الناس نحو الحياة الحقيقية والأبدية في جنة المجد . غير أنه وكما ذكرنا من قبل ، ففي الوقت الذي عرضت فيه مدينة العالم لكل تلك المعنى وما شابهها ، بدت أضواء الحقيقة في الظهور كما يفعل ضوء النجم عند بديده قظلمه الليلة الحالكة . وهكذا فبعد أن كنا نسمي المظلمات التي تنزل فيها الكوارث المنيابة على الميديين والفرس ، بل وعلى الأغريق والرومان ، أصبحنا الآن نتحدث عن قرب حضور المسيح ، المصلح الحقيقي ، والمحقق للسلام في كل شيء ، « سواء أكان هذا الشيء على ظهر الأرض أم في السماء ، وهو السلام الذي تحقق في كل أرجاء العالم في عهد أغسطس عند مولد المسيح » (٤٦) .

وفي الكتاب الثامن اختتم أوتو حديثه عن المديتين *Two Cities* وعن الخلاف بينهما أيضاً . وكانت هاتين المديتين قد مرتا بمرحلتيهما الباكرتين السابقتين على وجود النعمة الإلهية ، ثم مرتا بمرحلة النعمة الإلوهية . والآن وقد وصلت المرحلة الثالثة وانضمت المديتان واستمرتنا على هذا النحو إلى الأبد ، أحدهما خيرة تماماً ، والأخرى شريرة تماماً . وقبل نهاية العالم سيظهر المسيح الدجال *Anti-Christ* الذي سيمسح حضوره اضطهاد عتيف بهدف تطهير المؤمنين . إن المسيح الدجال هو الشيطان بعينه . وباعتباره مناقفاً شديد البراعة ، فسيضل كثيراً من الناس ، ولا سيما أعداد كبيرة من اليهود ، غير أن مصيره القتل في الوقت المحدد . ثم تلي ذلك « فترة من الوقت للثوبة » وهي فترة لا يعلم مداها إلا الله . « وعندما توشك كل الأمور التي تم التكهّن بها على الانتهاء والاكتمال ، وتظهر علامات غير مألوفة ، ومثيرة للدهشة على الشمس ، والقمر ، والبحر ، والجو ، وعندما تنزع قوى البشر من شدّة الخوف ، ومن شدّة ما ينوقونه من الأحوال - تم يحدث فتنة لمدينة الشيطان ، وهو لمدينة المسيح ، يأتي يوم المسيح ، وقتاً لكثرة الحق التي يقول الله فيها معزياً شعبه المزاء الجليل : « وعندما ترون حدوث هذه الأمور - فاعلموا أن ملكة الله قريبة » (٤٧) .

ثم يعرف أحد من المؤرخين أن يواصل كتابته التاريخية متصوراً ما سيحدث في آخر الزمان ، وإن كان قليل من علماء اللاهوت قد فعلوا ذلك ومع ذلك فقد تجاوز أوتو حد الجرأة بنهاية إلى ما بعد الزمان ، ورغم أنه اعترف بسلم ثقته في نفسه ، إذ اعترف باقتطعه في المقدرة للحديث عن الحياة الأبدية ، بيد أنه يشعر بأن هذا الأمر مطروح عليه ، وأنه

بحسب الله . سيحاول أن يكتب عن الآخرة - وعلى ذلك فقد كتب عن بحث الموتى وعن حسابهم ، الذي سيكون سريرا . - وعلى عن القول أن الحساب سيكون سريرا يوم القيامة . لأن الحساب علام بما في القلوب ولما حدث في كل الصور ، وغفور للخطايا وما شابهها . وليست المحاكمة يوم الحساب على السط الذي يعاني منه في محاكم هذا العالم . ففي عالمنا هذا ووفقا للأجرامات القضائية ، وفي حالة الشخص المتهم يقيم المدعي العام الدعوى ، وينزل المحامي المدافع ، ويحاول الشاهد الإدلاء بشهادته المقنعة ، أما القاضي ، وهو الذي لا يعلم سرائر الناس ، إذا ما هو إلا مجرد بشر ، فقال ما يصدق ، وكثيرا ما يحكم ببراءة شخص كان لا يدعي ادانته . ونظرا لأن مثل ذلك لم يحدث يوم القيامة إذ سيكون الإنسان حسيبا على نفسه منصفه . فلذلك وأن يعتقد أن الحساب سيكون سريرا سريرة تفوق إدراك البشر » (٤٨٥) .

وما ظلي يقال حتى الآن غيره أوتو بقوله : « هو يحاول مصرفة مصير اللذين ، بعد البحث والحساب » ، إن الإشرار سيلقون في نار جهنم ، أما الأخيار فيسعدون بجنة الخلد مع الملائكة . وبرغم تأملاته الطموحة التي تتعلق بنوعية الحياة الأبدية التي أعدها الله الذي لا تفكره الأبعاد فقد أنهى أوتو كتابته بإشارة متواضعة . واعتزف أوتو بأن كتابه ليس واضحا كل الوضوح ، ووجه كلامه إلى قارئه ( قريوسيك ) قائلا : « سيكون من واجبك كمال ما يحتاج إلى الإكمال ، وتصحيح ما يحتاج إلى التصحيح ، وحذف كل ما هو حشو في الأسلوب ، ولما كنت متقلا بالخطايا ، وأحاول جاهدا في هذا البحر الخضم من العالم ، فأني أطلب منك مساعدتي بمره دعواتك » . (٤٩)

وإذا كان هناك أي ريب بشأن المشيئة التي تدبر أمور العالم ، فإن هذا الشك يبعد في الكتاب الثامن حيث ذكر أن كلمة الله هي التي تنهى كل شيء . وظل أوتو يذكر قارئه بهذه الحقيقة الأساسية في كل جزء من كتابه عن اللذين *The Two Cities* وأدرك أوتو يمسك نظيره الثاقب دور المنايا الإلهية كمثل موجود في كل الصور . سواء العصر الماصر له كم القديم ، للمسيحي أم الوثني . ويمكن للمرء أن يلاحظ أن أوتو اعتبر أن مسئولته كؤرخ تحتم عليه التأكيد على استمرارية تأثير المشيئة الإلهية . وهكذا يمكن القول أن قريوسيك وكتابة التاريخ لا يورثها سوى خصلة الحسنة الدينية . ومن أجل ذلك ، ولكي يؤكد أوتو على فكرة اللذين *The Two Cities* فقد بدأ وأنهى كل كتاب من كتبه الثمانية بانطباعات عن المعنى الخفي للأحداث ومدى تأثيرها على

الحياة الأبدية . ان كل البشر وكل الامور . سير وفقا لمشيئة الله ، من اجل الخلاص من الخطيئة . بل ان الاحداث التي قد لا تمت بصلة للارادة الالهية ، ويحدث تصغيرا لها عند اوتو . ان كتب يقول : « اعتد انه لا يصح ان ننسب الى مجرد الصدفة ، واسا لارادة الله الذي يوصل الدليل عن النهار . تلك الاحداث التي وقعت ايان خروج بني اسرائيل من مصر - او وفقا لما قاله الآخرون ، ايان اقامتهم المؤقتة في ارض الميعاد - عندما انتشرت في كل ارجاء العالم جرائم جديدة ولم تسمح عنها من قبل ( كالتي ذكرتها من قبل ) . بل اننا نعلم ، وكان الامر عاديا تماما ، عن هيرود - Herod ملك هذا العالم ، الذي اصابه الانزعاج لولده المسيح ، ملك السماء ، وعندما ذهب الرب الى مصر . لم يبدأ بال ذلك الملك للمسيح . وحرص الناس على الاعمال الشريرة . وللمسيح نفسه ، كثيرا ما نرى ، وحتى يومنا هذا ، ان العالم قد اعتراه قلق والاضطراب كلما دعا الرب عباده من مصر العالم الى مملكته . وتسبب مماثل حدثت تلك الاحداث عند خروج شعب الله الى ارض الميعاد وطرد القيساطل التي تسكن هناك . » ( ٥٥ )

وعزرو اوتو النصر الحاسم الذي اسره الرومان على قرطاجية الى قدرة العناية الالهية . ان كتب يقول : « ان ما ينسبه الرومان الى الالههم المظلمين عن المدينة The City هو ما نسبه بالمصيبة الى قدرة الله المنتقم الجبار ، والذي لا يمكن لورقة واحدة من اى شجرة ان تسقط على الارض دون مشيئته . » ( ٥٦ ) . بل وتبلي عون الله من ظهور قسطنطين وتجاهه في التخلص من التنافس الاخرين الذين سعوا للحصول على العرش الامبراطوري . « وعندما شابت ارادة الرب اعلاء شأن كنيسته ، التي عانت الكثير من المحن والبلايا ، والاضطرابات ، اختار . جلست قدرته شخصية بارزة من بين الجميع ، وعهد اليه بالعمل على اعلاء شأنه الكنيسة ورفعتها ، عن طيب خاطر واثق سرعة . وهكذا فوض الله . امبراطور الرومان الذي دان اليه كل العالم بالولاء والطاعة من اجل العمل على اعلاء شأن الكنيسة . . وانت تعلم ان كل هذا لم يحدث بمصادفة او بطريقة عشوائية ، وانما بفضل القدرة الالهية المعادلة ، فانظر كيف اصبح الانبياء التي كان يحصل في تكتم شديد ، وبسر من امام غيره قادرا على ان يسطر على الملوك . والقضاة ، وقد نال احترام وتبجيل كل سلاطه الارض . بعد ان اتوا اليه واحسنوا في تواضع امامه تحية له . . وابتدوا احترامهم الشديد لخاصته قاعته وهو جالس على عرشه . » ( ٥٧ )

وفي كتابه عن الاعمال The Deeds اخفى اوتو على العناية الالهية أندور الايبلاي نفسه في فتون الشر بالقدر الذي ذكره في كتابه عن

المدرجتين فيعبد أن وصف كيف بدأ كورنارد الثالث Conrad III وجيشه المسير من نورمبرج *Nuremberg* سنة ١١٤٧ في الحملة الصليبية الثانية ، ثم مروا على ريجزبورج *Regensburg* ثم تجاه نهر انه انوب ، ثم تحدث أوتو عن العاصفة الهوجاء التي داهمت الجيوش الصليبي بالقرن من مدينة كيرفاش *Chervach* (كانالكا *Catalca*) وبعد أن انتهى الجيش من نصب خيمه ، حيث عاصفة شديدة ، أحدثت خسائر كبيرة في الأفراد والخيول . وتلأ في معظم المدن الحربية . وتجاه حيث عاصفة شديدة من الرياح والأطوار جعلت الخيام تنزع وتمزق . ثم قذعت جثث الخيام أرضا بشدة . واستيقظنا من نراشنا الذي كنا قد أوينا اليه بعد نادية صلاة الفجر . فساحت حاله من الهرج والمرج غطت عتبان السماء تقريبا . وبعد أن انذر وجود جدول عسير من المياه ينقلب الله في علاه - وهو الجول الذي نشأ سواء نتيجة لزيادة متسوي البحر للجبل أو لانحدار المطر لم لوأهل المطر التفرير المفاجيء - وقد أدى تزايد تلك المياه الى غمر المسكر بها تماما . وملأنا كان علينا أن نفعل ؟ إذا نظرنا لاعتقاداتنا بأن ما حدث إنما هو عقاب من الله أكثر من مجرد طوفان طبيعي ، لذلك فقد سيطرت علينا جميعا حالة من الفزع والذعر . ومع ذلك فقد هربنا الى خيولنا القوية ، وحاول كل منا عبور النهر قدر استطاعته . وكان في مقدمة المرء مشاهدة البعض يسبح ، والبعض الآخر يتشبث بالخيسول ، والبعض قد لمسك بالحبال وتعلق بها عليهم يهربوا من الخطر . والبعض التي بنفسه في مياه النهر على غير هدى ، وغرقوا ، لأنهم أربكوا بعضهم البعض ، بتصرفهم العشوائي واعتقد عدد كبير أنه في استطاعتهم عبور النهر سيرا على الأقدام ، غير أن قوة اندفاع المياه جرفتهم ، وجرحتهم الصخور ، فابتلعهم التيارات المائية الماثورية . وهكذا انتهت حياتهم . أما البعض الذين لم يعرفوا المصباح ، فقد حاولوا انقاذ أنفسهم بالتعلق بالسباحين ، ومحاولة الالتصاق بهم ، طلبا للنجاة ، غير أنهم أجدوهم ، وشلوا حركتهم الى الحد الذي لم يتمكنوا فيه من تحريك أذرعهم ، ثم غاصوا جميعا في الماء ، وغرقوا . وفي صباح الماسة ، وعندما انحسرت المياه ، وظهر سطح الأرض ، كنا قد تبعد شملنا جميعا في كل مكان . وكان في استطاعتك مشاهدة الصورة الحزينة لمسكرنا ، والتي كانت على عكس الصورة البهارة التي كان عليها في اليوم السابق - وهكذا مدت فترة الله المي القدير بلا أدنى ريب ، وظهر أن السعادة البشرية لا دوام لها . (٥٢) .

ومع ذلك لم يظهر أوتو دور الناية الالهية على أنها قوة هتيدة ومستترة ، أي أنها تكشف عن وجودها مجرد اقتناع الناس بقصر الحياة

الدنيا وأهمية الحياة الأبدية - أن الله يسقط البشر على خطاياهم ، ويمحو عنهم عندما يتوب الإنسان ، ثم غنمنا يسأل المؤمنون الله المحو ، ولا سيما شعاعات وتضحيات الأتقياء ، ومن ثم كتب أوتو عن عمليات السلب والهيب التي تعرضت لها فرنسا إبان الحروب بين لويس السابع وتيوبولد Theobald ، كوتت بلوا Kott , = أنه لو لم يعم السلام وبيع البلاد مؤجرا بفصل حسنت ، ودعوات ، ومشورة الأنبياء ، الذين قطنوا تلك البلاد لكان من المعتمد أن فتحو تلك الأراضي إلى خرافه بكل ما في الكلمة من معنى ، ( ٥٤ ) .

وليس من المدهش أن نرى رجلا مثل أوتو قد آمن بالمعجزات بعد أن أبدى تبيحلا شديدا لقدرة الله وعلماته ووجود التي حلت في كل الوجود . غير أن الله لا يظهر تلك الأدلة الواضحة على سلطانه وجبروته إلا في الأسوار البادرة ، وذلك وفقا لمفهوم أوتو - أن الله العمل الظاهر يفصل أن سمحت الأحداث وفقا للقوانين الطبيعية التي وضعها لهذا العالم . ولهذا السبب وجد أوتو مكانا للقليل من المعجزات - ونسب أوتو بعضا من تلك المعجزات إلى القديس كوربيان Corbiana ، على اعتبار أنها حدثت على يديه ، وكان كوربيان هذا أسقما لا يقيم في زنج Freising . وكتب أوتو عن كوربيان فقال : « يقال أنه في إحدى المناسبات ذهب القديس كوربيان إلى روما ليطلب احتياجات كنيسة ، وفي الطريق ، هاجم فيه حواد أمتة الأسقف وقتله ، فأمسك رجل الله العقب ، ووضع مرج التصيل عليه ، وأمره بعمله ، وكانت كلمة الرب ، « أمضى من أي صيد » ، لذا أجبرت هذا الحيوان المتوحش على طاعة أوامر رجل الله - وإبان تلك الرحلة نفسها ، وأتته عذات الذود الكرافق له من الجوع في شكله صحراوي ، ظهر لهم فجأة عقاب ، وألقى إليهم بسكة واحدة - وأكل كل الحاضرين من السكة ، وكانوا في غاية الانتعاش والحيوية على نحو شديدا للمعجزة » ( ٥٥ ) .

وماذا - يا ترى - عن موقف أوتو من الأساطير الوثنية ؟ ويبدو أنه كان ميالا للتسليم بوجود شيء من الحقيقة في تلك المعتقدات ، بالرغم من أنه رفض كل العناصر في تلك المعتقدات التي لا يقدر ما يمكن اعتبارها ضرب من أعمال الشياطين . فالطريقة التي عالج بها قصة رومولوس Romulus وريموس Remus ، وهي القصة عند الرومان الأوثال ، توضح موقفه العام تجاه تلك الأساطير . فهو يروي كيف أنه بعد أن خلف أموليوس Amulius روكس Rocas كملك لإيطاليا ، اكتشف شقيقه نومبور Numitor أن ابنته ريا سيلفيا Rhea Silvia ، قد صارت لها فتواتين من الذكور ، بالرغم من أنها

كانت رابعة مكرمة لحمة فيستا Vesta Virgin (\*) . تقام بالثناء التوامي في نهر التيبر . . ويقول أوتو . لقد شيد الأخوين التوامي زيوس وديومولوس المدينة التي قدر لها أن تكون عاصمة العالم . ونظرا لافتراس الكتاب الرومان أن روما قدر لها أن تحكم العالم بالقوة العسكرية . لذلك ادعوا أن الطفلين التوامي هما إينا مارس Mars (\*\*) . ولكن يبرهنوا على صحة دعواهم أحرموا على أن أنثى ذنب قامت - على عكس المألوف - برضاعة ورعاية الطفل . وسواء كان الطفلان قد تمت رضاعتهما بمعرفة ذئبة . كما ذكر أولئك الكتاب . أم ( كما قال البعض الآخر ) بمعرفة إحدى النسوة المحرمات barot . أو إحدى السيدات التي أطلق عليها لفظ ذئبة Wolf . بسبب حياتها الوضيعة - إذ أننا نطلق على بيوت تلك النسوة « بيوت الشعارة » Lapasaria . وهذه الكلمة مشتقة من كلمة ذئبة lupa فإن هذا الأمر لا يسيى في شيء على الإطلاق . فلقد أوردت ذكر هذه القصة لجورد إيضاح أن الآلهة مارس ليس أباً للطفلين . وأن والدهما هو أحد أفراد البشر . وهنا لأحد المصادر التي يمكن الاعتماد على صحتها . وهنا المصدر هو إحدى الكاهنات للمصد الوثني » (٥٦) -

وانسار أوتو إلى أن القصص التي ذكرت عن أوديسيوس Odysseus ، الذي مر بعشر سنوات من المفارقات المتيرة ، قبل أن يعود بصفة نهائية . إلى دياره المظلمة بيلوبون Penelope ، في أتیکا Attica . يمكن أن تكون مجرد أساطير ، أو أن تكون خصائصها والتي لا يمكن تصديقها ، محل من صنع الشياطين . وكتب أوتو يقول : « وسواء ابتكر الإغريق والرومان كل تلك القصص بدافع الحب لآلهتهم أم كانت من أعمال الشياطين التي قصصت تحليل النفس ، بالتعاون مع بعض القوى الطبيعية الخفية ، فليس لهذه القصص علاقة بكتابنا هنا » (٥٧) .

وظل أوتو يشير إلى العلاقة بين الكنيسة والمولة في كتابيه : المدينتي - The Two Cities ، والأعمال The Deeds . وفي هذا المجال كان أوتو صديد الرأي . ويعتباره أسقفا وقابلا قطعيا للملك . فقد وجد نفسه في أشد المواقع حساسية بالنسبة للخلاف الدائم الذي نشأ تقريبا منذ اللحظة التي وادق فيها قسطنطين على منح المسيحيين التسامح الديني . وواد من دقة موقف أوتو أن قريته فريديريك الأول

(\*) نسة إلى فيستا Vesta وية مار لوفد عند الرومان - مترجم .

(\*\*) مارس Mars هو ذلك الغريب عند الرومان - المترجم .

برباروسا . كان الإمبراطور الروماني المقدس . واتضح . أن كليهما  
 انطاعى قدير وطموح . وعلى الرغم من أن ملحقات فريديك حققت له  
 مكاسب مهمة في ألمانيا بشأن تدعيم مركزه في مواجهة الكنيسة . ومع  
 أن يقصد المؤرخين للسياسة الكنسية كثيرا ، فإن زيارته إلى إيطاليا ،  
 وتصرفاته هناك هي التي أدت إلى التسول في صدام مباشر مع البابا .  
 رئيس الكنيسة . وكان الاجتماع الأول بين البابا والإمبراطور قد انتهى  
 نهاية موفقة تماما . وعبر أوتو عن سمادته عنفا قسما للمقاريه وصفا  
 مفصلا للطريقة البوية التي تامل بها حاكمي الكنيسة والدولة ، مع  
 بعضهما البعض . وكان المشهد الأول لذلك التماثل الذي عنما أرسل  
 فريديك حملته الأولى إلى إيطاليا من أجل القضاء التام على كل المخاوف  
 التي انتابت البابا أدريان الرابع . وذلك بالقضاء القيص على  
 أرنولد من بريشيا Arnold of Brescia ، وأصلها أوامره  
 بإعدامه . « وعسكر الملك بالعرب من فيترو Vitro ، وهو في  
 طريقه إلى المدينة The City (١) . وكان أدريان ، البابا الروماني ، في  
 استقباله في ذلك المكان ، ومع كرادلته ، واستقبلوا الملك استقبالا لائقا  
 بمقامه . واستمع الملك باهتمام بالغ للشكاوى المريرة التي ألغها البابا  
 على سمعه . فمقد محاولة هؤلاء الأعمال إرجاع أوصاع رجال مجلس  
 الشيوخ على ما كانت عليه من قبل ، عن طريق حالات الضيق المتكررة التي  
 قاموا بها . فأنهم لم يكفوا عن توجيه الإهانات لبابائهم . وما عمل  
 على زيادة تفاقم الأمر . واشتداد خطورة سلوكهم المحرم على الفتنة ،  
 إلى شخصيا يدعى أرنولد من بريشيا Arnold of Brescia .  
 والذي ورد ذكر اسمه آنفا ، وحل المدينة The City ، وتمت عبادة  
 الدين . أخذ يردد كلمات من الأناجيل الأربعة القانونية . وتصرف كذئب  
 في ثوب حمل . وبذلك استطاع أن يوجه نيران الضيق والمنصب في عقول  
 البسطاء من الناس ، الذين أنصفهم بتعاليمه الدينية الفظة إلى أبعد  
 مدى ، واستطاع اقتناع - بل إضلال - جموع عقيرة يصعب حصرها ،  
 بتعاليمه الدينية » (٥٨) .

ثم قدم أوتو وصفا لتاريخ حياة أرنولد بالإضافة إلى ملخص عن  
 أفكاره « الثورية » التي دفعته إلى إعلان الثورة ، التي أدت في النهاية إلى  
 هروب أدريان من المدينة . بيد أن خصوم أرنولد ، والماسر المحافظة على  
 القديم من بين رجال الكهوت والطبقة الأرستقراطية في أغلب الأحوال ،  
 نجحوا جيسا في نهاية الأمر في القضاء القيص على أرنولد بمساعدة  
 فريديك ، وبعد ذلك قاموه للمحاكمة وأعدموه . واستمر أوتو في مسعاه

فقال : « بيد أن قلبي يميل الى العودة ثانية الى الموضوع من باب الاستطراد ، فبعد أن اسعد الرجلان اللذان يحكان العالم وضعا اتباعهما تقديما مما قام السير لسعة أيام ، وقد تبادلوا الأحاديث الودية ، كما يحدث بين الأب الروحي ، واحد أبنائه . وتم بحث الأمور الكنسية والعلمانية ، وكان دولة واحدة قد قامت من بين يدي بلاط قصرين ملكيين » ( ٥٦ ) .

والثابت أن روح الصلوات هذه بين البابا والإمبراطور لم يفتقر لها البقاء طويلا ، ومن حسن حظ أوتو أنه أبهى سرته الباربي لكتاب الأعمال The Decree قبل أن تتعاقم المشاكل الحقيقية . وفي عقدة الكتاب الرابع بالكنيسة يشي من التفصيل أشار أوتو الى نظرية الفريق الذي أسر من حوليته عن القدينتين Tao Chao بحث أوتو مسألة علاقتهم بالدولة مع امتلاك الكنيسة للسيوف . « اقرأ عن قصة آلام الرب » . ( لوقا ٢٣ : ٢٨ ) . وبعد أن فسروا هذه الفقرة من الكتاب المقدس ، أعطت الدليل القوي للجساعة الدينية على حق استخدام السلاحين الدنيوي والديني في ممارسه واجباها ، حتى ولو كان ذلك على حساب السلطات المدنية . أما الفريق المعارض فقد حاول أن يثبت عكس ذلك معتقدا بالكتاب المقدس أيضا ، وهو أن بطرس لم يستخدم سوى سيفاً واحداً ( يوحنا ١٨ : ١٠ ) . وعلى أساس أن هذه الإشارة التي وردت في الكتاب المقدس تؤكد على أنه ليس من حق الكنيسة إصدار أوامر الى السلطات المدنية في أمور الحياة العامة . « وهكذا . وكما أنه لا يجوز للمرء الذي يحمل السيف الديني ، أن يصر في الأمور الدينية ، فانه ليس من الملائم أن يقتصر رجال الدين السلطات التي ليست من اختصاصهم من الناحية الواقعية . وقدم كثير من الناس خصوصاً من الكتاب المقدس تؤكد على صحة ما قلناه . والواقع أنهم ذكروا ما قاله المسيح وما قاله القديسون . وعلى سبيل المثال فقد ذكروا المعنى الذي جاء في الكتاب المقدس والقاتل بما يلي : « دح ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ( ٦٠ ) .

ومع ذلك فلم يترك أوتو المسألة هنا كما يشتهي المؤيدون للسيادة العليا للدولة . وأكد أوتو على أن الله أحاط كنيسته بسلطات ملكية تتناسب مع تلك المؤسسة الجليلية . وأشار الى أن كثيرا من الأقبية ، ومن بينهم الباباوات سيلفستر Syvester ، وجريجوري الكبير Gregory the Great ، والثدري بونفاس St. Boniface والرائد الديني الألماني . « قد مارسوا ، جميعا ، سلطات بعيدة كل البعد عن سلطاتهم الدينية » . ثم أعلن أوتو عن موقفه . « اني اعترف بأنني لا أعلم تماما إذا ما كانت حالة الرقعة وعلو الملكية التي وصلت اليها كنيسة الله اليوم ترضيه في علاه . أكثر من حالتها السابقة والتي قامت على

التواضع والمصوع - والواقع أن الحالة الأولى يبدو أنها كانت أفضل عند الله ، وإن كانت الحالة الأخيرة أكثر خطا - ومع ذلك ، فاني اتفق في الرأي مع الكنيسة الرومانية للقسيسة ، التي ولا شك أنها قامت على دعائم سليمة ، واعتقته بأن ما تؤمن به تلك الكنيسة يجب أن يؤمن به الجميع ، وأن ما لها من سلطة من الممكن أن تظل قائمة باعتبارها حقا مشروعا » (٦١) -

ومرغم ذلك اعترف أوتو بعدم مقدرته على التحدث بثقة كاملة عن قصبه شديدة التعقيد ، وترك قارئه ، وعلى وجه التخصيص فريديك ، مع التذكرة بأن القضية هنا زالت دون حسم - وإن كان قد مال إلى المزيد من للسيادة الكنسية على الدولة ، بحزم شديد - إذ كتب يقول : « يمكن ما قيل عن استنقطة وتعزى رجال الكهنة وعن منصب الملك ومقامه - غير أنه إذا ما رعي أي شخص في محاولة استيفاح الأمر بأمرنا ونسحق أكثر ، فإنه لن يقبل بأنني قد نجيت في هذا الأمر » (٦٢) -

ليس من السهل تقييم أوتو الفريديجي كمؤرخ - فلكل كتاب من كتابيه صفة مختلفة كثيرا عن الكتاب الآخر - هي كتابه عن المدينة Two Cities مارس دور المنسك بمبادي ، - القضية والأخلاق - وهدفه من هذا الكتاب اقتناع القارئ - على ضوء الحوادث التاريخية - بأن الحياة قصيرة الأمد وملوثة بالشكوك والشقاء - ومع ذلك فقد أراد الله الرؤوف الرحيم لهذه « الشرور » أن تكون حتى لا يتكالب الناس على الملذات العابرة في هذه الحياة الدنيا ، وأن يعملوا من أجل التعميم الدائم في الحياة الأبدية - وكان هدف أوتو : « تأليف تاريخ يستطيع من خلاله ، يعرف الله ويفضله - أن تصور حقا أحوال بابل Babylon - وأن أبرز أيضا مجد مملكة المسيح ، التي يتجرى شوقا إليها - أحوال بيت المقدس ، بكل أمل ورجاء » (٦٣) - وفي كتابه عن الأعمال The Deeds ارتضى أوتو أن يكتب حرة - برغم أنه لم يترك كلية موضوع كتابه عن المدينة The Two Cities - خلف ظهره - ومن ثم فعمد انتهائه بوصفه للمصافة الهوجاء التي قضت على مسكر الصليبيين بالقرب من القسطنطينية علق بقوله : « إن السعادة الانسانية ليست دائمة ، وتنتهي بسرعة حائلة » -

لم يظهر أوتو اهتماما بالتاريخ الديني ، كما أنه لم يكتب يوفى ونسبية والتمتع ، برغم أنه أدرك أدولا كاملا أهمية تقديم معلومات تاريخية شيقة على أمل جذب اهتمام قارئه - فالمحادثة الخطيرة المتعلقة ببولوس Perillus والنور البرونزي يمكن أن تقع ضمن ريجولوس Regulus - أحد الأبطال الرومان إبان الحروب البونية Poenic Wars ولا بد أن يكون أوتو قد اعتقد أن قراءه سيستمتعون بالقراءة عن

ريجولوس ، برغم أنه لا ما حرج لذكره القصص في كتاباته ، فمن الأرجح أن يبرز موقفه من منطلق ما لهذه القصص من معنى أخلاقي . يمكن في أنه من الواجب على المرء أن يكون صادقاً مع نفسه إذ كتب يقول : « ألا ترى أن هذه الكلمات تدعنا إلى أن نأخذ المثل في القدره على التحمل والجلد ، وسحب التضييلة ، واحتقار الموت والألم ؟ ولا غشاً هو الداعي إلى التأكيد على أنه من خصائص الشجاعة والاقسام إلا يخاف المرء شيئاً . حيث يتضائل كل شيء أمام المرء ، إذ الحقيقة أن حب ريجولوس *Regulus* لبلده أو لأحراره ، أو حتى خوفه من العذاب ، أو التعرض للجسد للتعذيب بالملحة (\*) *Rack* ، كل ذلك لم يثبته عن الوقار بغيره - وهو الأمر الذي جعله يضحى بالعالم الحاضر ، وبالأولدين ، وبما ملكت يده ، وأخيراً بنفسه » (١٤) .

إن عدد السطور التي خصصها أوتو للكتابة عن ريجولوس تؤكد على أهمية الفكرة الأساسية التي خلقت نوعية المادة التاريخية التي استلهمها لخراج كتابه عن المدينتين *The Two Cities* . ففي الوقت الذي كان عليه أن يزود القارئ بمعلومات مهمة عن الماضي ، نجد أنه انتقى مادة تاريخية نادراً ما كانت دون معنى . ولهذا السبب فقد انتقل بسرعة نسبياً من الحديث عن بدء الخليفة إلى التاريخ القديم إلى تجسيد المسيح *Incarnation* ، ومن تجسيد المسيح اسمه ظهور للمسيحية بكثير من التفاصيل والفرص للتصوير عن حواطره في الأخلاق والمسائل الأخلاقية ومن أول نظرة تبدو الصفحات الأربع تقريباً التي أفردها أوتو للحديث عن الإسكندر الأكبر تفوق الحد وإن ما يفسر هذه الظرة هو أودوسيوس *Orosius* الذي اعتمد عليه أوتو في الكتابة عن الإسكندر الأكبر كتب عن ذلك الفاتح ضعف الأسطر التي كتبها أوتو تقريباً .

وبالإضافة إلى ذلك ، فمن المهم أن نلاحظ أن أودوسيوس وأوتو أظهر اهتماماً كبيراً بالموت الباكر لهذا الفاتح العالمي عن طريق الكتابة بضمك كبير عن مقتله . الذي من المحتمل أنه كان على يد خادم خائن وس له السم ، وهذا ما الكتابة بأسهباب عن العصور لكثير للشجقة والرتاء الذي ينتظم المشر .

أما في كتاب الأعمال *Tim Decals* ، حيث وجد أوتو أنه ليس ملزماً بعرض حواطره في الأخلاق والمسائل الأخلاقية ، فقد شعر أنه في حل من الفاد الضوء على أية حادثة اعتبرها مثيرة للاهتمام . وهذا هو الاتجاه الذي سلكه معظم كتاب حوليات التاريخ الوسيط . وكتب أوتو عن أرميا روجر الثاني ملك صقلية أسطولاً ، « من سفن ثلاثية المحاديف

(\*) اللغة *rack* هي أداة تعذيب قديمة يمد عليها الجسد - للترجم .

*Dracena* وثنائية المجاذيف *biremes* ( وهي التي توصف حاليا باسم *galley* أو *Sagittone* ) ، وسفن أخرى لنقل المعدات الحربية لمحاربة الاغريق . وبعد سيطرة هذا الأسطول على عدد من المدن ، وجدوا أن مدينة كورفو *Corfu* منيعة جدا لدرجة أنهم لجأوا « إلى الحيلة والمخادع » .

• وهكذا بعد إرسال بعض الرجال في الطليعة تحت ذريعة وجود جثة معهم يرغبون في دفنها - لوجود جماعة من الكهنة أو الرهبان في القلعة المذكورة ، كما كان ذلك من عادة الاغريق - استنطاعت تلك الطليعة اقتحام المدينة ، والاستيلاء على الحصن ، وطرده الاغريق وتركزت قواتهم العسكرية هناك . ثم تقدموا في عتق بلاد اليونان واسلوا بيجوم عاصمت كورنث *Corinth* ، وطيبة *Thebes* ، وأثينا *Athena* التي لها شهرتها في مجدهم التليد . وانضموا معهم بالقوة قداما حائلا من الضائيم ، واقتادوا الأسرى يسا فيهم المال المهربة للمستغلين بصناعة المنسوجات الحريرية وفي ذلك قصصوا الإصاين في امانة واستقر امبراطور الاغريق . وفي الوقت نفسه الصمى الى ارضاء ملكهم . ثم طلب روجر من الأسرى المستغلين بصناعة المنسوجات الحريرية تعليم العمال فيه بالبربر *Palermo* ، عاصمة صقلية ، فن تسج الحرير . ومنذ ذلك الحين صاعدا انتقلت صناعة الحرير الى روما بعد أن كانت قاصرة على الاغريق من دون الأمم المسيحية « (٦٥) -

أينى أوتو مقبرة على أيده الرأي في الأخبار الماضية بمعنى فاحصة بنفس القدر الذي قام أي من الكتاب المعاصرين له . وآمن أوتو بوجود الملائكة والشياطين ، والقوى الخارقة للطبيعة بصفة عامة وهو الأمر الذي يتحتم على القاري الحديث قبوله من أي مؤرخ في التاريخ الوسيط . بيد أن طريقة معالجته للأساطير والحرفات القديمة تمدنا بنموذج ممتاز لأسلوبه في معالجة الأمور الخارقة للطبيعة . فبالنسبة لحالة البطل الاغريقي أوديسيوس ، قام أوتو بتجريد تلك الأقاصيص مما بها من معاني خارقة للطبيعة وحاول تفسير أصولها على ضوء العلاقات الإنسانية . ولا بد أن أوتو كان من بين القلة الذين رفضوا صحة القصة القائلة بانصافه قسطنطين بمرض الجذام . ويؤكد أن هذا المرض دفع قسطنطين البار إلى التنازل عن حكم الغرب إلى البابا سيلفستر *Sylvester* عندما شفاه الله من مرضه بالجذبة . وكتب أوتو : « من الواضح أن ما نقرأه عن حياة القديس سيلفستر ومرضه بالجذام واعتناقه المسيحية من الأمور المشكوك فيها » (٦٦) .

كان أوتو ملتزما بقول الصديق كزورخ كيمي باستثناء ميله إلى

مديح فريديريك في كتابه عن الأعمال *The Deeds* . لا تصيد علم تدوين ما قد يرام قريبه فريديريك ، غير مستحب الذكر - ويحسب أوتو مرقفه بشأن الخلاف على تقليد المنصب بين الكنيسة والدولة ، لأنه تحدث بصراحة في كل ما قاله عن الجانبين . وعلى الرغم من أن أوتو قد بدأ منحازا الى جانب قريبه فريديريك بشأن التمييز في الكرسي الأسعفي في مجدبورج *Magdeburg* (٦٧) ، فإنه ترك انطبعا في النهاية عن أن هيمنة الكنيسة في عهد كانت وفقا لمشيئة الله .

وعلى غير ما كان شائعا بين كتاب الحوليات في العصور الوسطى كان أوتو شديد الإعجاب بحال الطبيعة - فقالبا ما توقف عن اكمال سرده التاريخي ليتعمق لحدى التعليقات على جمال السات المسطحة لوقم أو اقليم (الطوبوغرافيا *topography*) وعندها شرع كمراد الثالث من تنعيد حلتها الصليبية ، « تبعدت قشعريرة برد الشتاء ، وبخرجت الزهار والنباتات من باطن الأرض بعد أن جاد دابل من مطر الربيع ببعض ما عنده . واشتاعت المروج الخضراء البسة من كل مكان . وملأت وجه الأرض بالبهيبة والخبور » (٦٨) ، وقدم أوتو وصفا لمناظر أخرى ، كما حدث ، على مسيل المثال ايان عقد اتفاقية سلام بين فريديريك وتورتونا *Tortona* . وكان إحمال المدينة قد خرجوا في النهاية من المدينة تحت وطأة الحصار والمماناة . « وخرج أبناء المدينة التمساء ... من محل إقامتهم بالعملة ، وهو المكان الذي ظلوا به وهم في حالة شيرة للسفقة والرقاء » ليتنموا بطرية واستنشاق نسيم الريح المليل ، وقد تحببت رجوعهم وكأهم بحث خارجية من قبورها » (٦٩) .

قدم قليل من المؤرخين في العصور الوسطى وصفا للشخصيات . وكان أوتو صميم هؤلاء المؤرخين إلا أنه نادوا ما فعل ذلك . بيد أنه في مقدور القاري أن يكون صورة ذهنية عن نوعية أبلارد *Abelard* . على الأقل من وجهه نظر أوتو ، على صوء ما قاله أوتو نفسه : « وكان بطرس أبلارد هذا قد كرس نفسه منذ فترة طويلة للدراسات الأدبية والأثور الأخرى القليلة الأصبية . بيد أنه كان معجبا بنفسه وشديد الثقة في قدرته الفكرية ، لدرجة أنه لم يحاول أن يحط من قدر نفسه وينزل عن عليائه ويصنح الى معلمه ... ثم صار معلما وذهب الى باريس ، وأدى مقدرة فائقة في البحث في مواضيع لها أهميتها بالنسبة للفلسفة ، وفي غيرها من مجالات التسلية واللاه في الحياة الاجتماعية » (٧٠) . تلك كانت المناسبة الوحيدة التي كتب فيها أوتو بأسلوب للتحكم .

أما عن القيمة التاريخية لكتابي أوتو فلا ريب فيها - فكتاب الأعمال *The Deeds* . مفيد جدا للمؤرخ الحديث ، أما كتاب المدينتين

**The Two Cities** فهو أكثر أهمية . وقد وصف كتاب الأعمال بأنه أفضل دراسة بيوجرافية عن القرن الثاني عشر . ولا سيما أن الصور الوسطى لم تبدأ سوى بالقليل من هذا النوع . ومع ذلك فقد تضمن كتاب الأعمال معلومات قيمة عن فريدريك براباروسا وعصره ، بالإضافة الى ملاحظات جانبية مهمة عن شخصيات بارزة مثل أروولد من بروسيا Arnold of Brescia ، وبيترس ابيلارد Peter Abelard ، وجيرت دي لا بورج Gilbert de la Porrée . وربما لا يجد المؤرخ الحديث في أى كتاب آخر دليلا أكثر اتساعا وساعدا على تقدير مدى التأثير القوي للفلسفة المسيحية القائمة على انخضاع الفلسفة للأصول وإقامة صلات عقلانية بين العقل والدين Scholasticism ، والتي كانت آخذة في الانتشار . فعل مسييل المثال ، وبحث في كتاب الأعمال ، إبان كتابة أوتو عن التحقيق مع جلبرت دي لا بورج ، دراسة مفصلة أربع صفحات بهذا الموضوع متباعدة عالميا الخالص المتسوية الى التالوث الألفى .

ولو كان ادماج أوتو قصيرا على كتاب الأعمال The Deeds فمضب ، لما زال سوى مجرد ذكر اسمه كأحد كتاب القرن الثاني عشر . أما كتابه الثامن عن المدينة The Two Cities فقد حقق له شهرة وجعله مؤهلا لى يكون أحد أفراد جماعة فلاسفة التاريخ المتقاة . ولا شك أن كتاب للمدينة يمثل أعظم قصة سرية عن الجسد البشرى حيث اشتغل على سجل تاريخى عما فعله الأمم والأفراد إبان مسيرهم الشاقة نحو الحياة الأبدية ، مع وجود الله ، المطلق عليهم ، والذي يهمل ولا يعمل . وسيمد الباحث القليل من المعلومات التاريخية البحتة ، باستثناء ما ورد في الكتابين السابقين والسابع عن فرنسا وألمانيا في الفترة السابقة على عصر أوتو . ويؤكد كتاب للمدينة على استمرار فكرة مدينة الله City of God للقديس أوغسطين . وعلى حقيقة حرب أوروبا على خرب اصاقتة في القرن الثامن عشر ، نفروا أنفسهم للمسلم والمسيحيات الروحية . على أننا إذا ما حاولنا وصف أوتو على أنه فيلسوف في التاريخ ، فإن ذلك ربما يكون ضربا من المبالغة أو المبالاة . ومع ذلك فلا بد للمرء التسليم بتفوق أوتو باعتباره أعظم كاتب للتاريخ حقا في التفكير طوال كل الصور الوسطى العالمية .

## متى باريس

ليس معروفًا سوى القليل عن الحالة الشخصية الأصلية لمتى باريس *Matthew Paris* أشهر كتاب المخطوطات الإنجليزية - وطورا لأنه دخل دير القديس المينر *St. Albans* سنة ١٢١٧ م وربما كان في السابعة عشرة ، لذلك يمكن للمرء أن يفترض أنه ولد حوالي سنة ١٢٠٠ م . وليس في استطاعة أحد القاهرة بالتخمين بشأن محل ميلاده ، أو طبخته الاجتماعية . بل ان وجود كلمة باريس في اسمه تدل على أنه ولد في فرنسا ، وربما تكون اسمًا لوالده أو أسرته . على أية حال ، فإن التحاقه بالجامعة في باريس ، لم يرد عنه أي إشارة في كتاباته . كما أنه ليس في استطاعة أي شخص الإشارة إلى أن وجود كلمة باريس ضمن اسمه يسم عن حبه لفرنسيين . فبالسبب لجوابه عبر بحر المانش . لم يضمن لهم كراهته بقدر ما كان يشعر بها تجاه الإنجليز .

ويبدو أنه عاش حياة عزلة في سانت المير ، إلى أنه زار دير وستمنستر سنة ١٢٤٧ م . وربما تعرف على عدة مدن وأديرة ، إبان تلك السنوات المبكرة ، برغم وجود تلميحات فحصب عن ذلك في كتاباته . وقبل سنة ١٢٣٦ م بضع سنوات أصبح مساعدًا لروجر من وينوفر *Roger of Wendover* . كاتب حولة الدير ، إذ كانت روبر في تلك السنة وأخته متى باريس على علاقة تولى مسئولياته - وربما أكرمه واجباته الجديدة بالبقاء على مقربة من مدينة سانت المير . باقى أيام حياته ، يستنشد ربات طارئة إلى لندن ، وإلى المساعات الديرية الأخرى المجاورة . وعلى الرغم من أن ( متى ) كشف عن اهتمامه الكبير بأخبار القارة الأوروبية ، فمن المحتمل أنه لم يزرها سوى مرة واحدة .

وكانت هذه الزيارة • وبم ألفه • (١) على حد قوله • ففي سنة ١٢٤٦ م احتاج اليه هاكون الرابع Hækon IV • ملك النرويج • لتسوية المشكلات المالية لدى القديس بينيت St. Benedict في جزيرة فيدار حول Nidarholmen بالنرويج • مع الزابين الإنجليز • وليس معروفًا سبب لحو • هاكون إلى طلب عون ( متى ) • بيد أن ( متى ) استطاع أن يعالج الموقف بتجاح • وبعد ذلك بعامين أي سنة ١٢٤٨ م • تعرض القديس لمشكلات مالية للمرة الثانية • وإن كانت المشكلة تلك المرة مع رئيس الأساقفة • وتطلب الأمر دعاء متى لإبداء المشورة • وتمضى هذا الطلب عن قيام متى برحلته الوحيدة إلى بلد أجنبي • وواكبت تلك الزيارة حادثة ستمضى التطبيق عليها - وهي أن لويس التاسع ملك فرنسا سئم ( متى ) رسالة إلى ملك النرويج في محاولة منه لإقناعه بمشاركته في حملته الصليبية • كما أن تكلف ( متى ) بحمل تلك الرسالة يلقى مريضا من الضوء على طبيعة • ونوعية ارتباطاته • وآرائه التي كان لها أهمية كبرى • وهو مؤرخ حوله للصور الوسطى •

وفيما عدا تلك الحقائق القليلة • فليس معروفًا سوى القليل عن حياة ( متى ) • بل إن سنة وفاته طلب غير مؤكدة • على الرغم من أن الدارسين حددوها بسنة ١٢٥٩ م • لأن حوليته توقفت فجأة في مايو من تلك السنة • ويتتبع آخر ما دونه ( متى ) في مخطوطته يظهر ما كتبه خليفة (متى) - وامتدح هذا الراهب المتواضع عن ذكر اسمه أمام • ذلك الرجل العظيم • - إن مؤرخ الحولية العظيم قد أكمل مؤلفه : وتمت هذا الإعلان السابق مباشرة • أضاف أحد زملائه من الرهبان ملاحظة موجزة ومشابهة عن ( متى ) وهو على فراش الموت • وهي : « عند هذا الحد توفي متى باريس » (٢) •

إن الفترة ما بين سنة ١٢٤٦ م • عندما أخذ متى على عاتقه مهمة كتابة الحوليات • حتى ١٢٥٩ م سنة وفاته • كانت كلها سنوات نشاط • ونتاج علمي وافر • وتشتمل كتاباته الجزء الأكبر من اثني عشر مجلداً في سلسلة الوثائق الرسمية the Rolls Series (٣) ومظم المخطوطات الأصلية كتبت بخط يده • وعلى الأرجح فإن الرسوم التخطيطية والتوضيحات التي وجدت في تلك المخطوطات هي من صنع ( متى باريس ) نفسه • واشتملت تلك التوضيحات المصورة على تروس • وسيف • وأقواس وشباب • وتيجان أساقفة • وصولجانا أساقفة • بالإضافة إلى موضوعات أكثر طموحاً • مثل حصار دميبل • وصورة لقليل ومه رجل يحمل درعاً مصفحاً • ووضع تلك الرسوم الخطية في الهوامش ليوضح سرده التاريخي ( فعمل سبيل المثال كان يرسم تاجاً • وصولجاناً مقلوبين

« إشارة إلى موت استيف » . وليس من قبيل المصادفة القول بأن مسود ( متى ) الإيضاحية أعلته إلى اعتلاء مكانة رفيعة في تاريخ الصور الزيتية في العصور الوسطى . كما أن خزانة جيلت له مكانة في تاريخ فن رسم الخرائط ، أما ما رسمه من تروس ، وشعارات النبالة ، فقد خلعت ذكراه في علم شعارات النبالة .

والمسند إنتاج ( متى ) العلمي ، والذي تميز بمزارة مآكثيه ، على الحولية الكبرى ، والتي كانت لزج انتاجه العلمي ، وتاريخ إنجلترا ( وهو نسخة مختصرة من الحولية الكبرى بعد أن حذف معظم الموضوعات التي لا تتعلق بشكل مباشر بتاريخ إنجلترا ) ، والحولية المصورة ( وهي اختصار لتاريخ إنجلترا ، وكتاب الإضافات ، وهو مجموعة من الوثائق التي أشار إليها في الحولية الكبرى ) ، وأعمال رؤساء الأديرة ( وهو وصف موجز لتاريخ مدينة سانت البتر ، من خلال حياة رؤساء الأديرة بها ) ، وحياة الأوفيين *Vita Offarum* ( حياة الأوفيين *Two Offas* اللذين ارتبط اسمهما باسماء الدير ) ، وتاريخ ملوك إنجلترا . ( وهو أحسن المؤلفات التي نسبت إلى ( متى ) من وستمنستر في وقت ما ) ، وهي حولية عن ملوك إنجلترا ، تبدأ بالملك ألفريد *Alfred* .

واتضح أن كتاب تاريخ ملوك إنجلترا كتيه متى الباريسي يخط يده في الفترة ما بين ١٢٤١ م إلى ١٢٤٩ م ، أما بعد سنة ١٢٤٩ م ، فقد قام ناسخون آخرون بكتابته . وعلى الرغم من أن ذلك الكتاب استمد مادته العلمية من كتاب الحولية الكبرى ، فإن أسلوبه الواضح يوحى بأن المؤلف قصد به أن يكون نسخة شعبية للعمل الكبير . وكتب ( متى ) أيضا الشيء القليل عن سير القديسين ذكرا حياة القديس ستيفن لايتجون *Stephen Langton* . وقد أتى بعض الجدل حول أصالة العديد من كتابات ( متى باريس ) .

وتبدأ الحولية الكبرى ، وهي الأثر الأدبي الرئيسي لمتى باريس ، بتاريخ الملوك لروجر من دموفر . بعد أن قام متى بإجراء تعديل لطيف عليه ، وتلاه حويلته كمل تتم اعتبارا من سنة ١٢٢٦ م . ( وبدأ تاريخ الملوك منذ يده الخليفة ) . وليس من المعروف سبب قيام ( متى ) بإجراء تعديلات متعددة على ما كتيه روجر قبل أن يبدأ في ذكر ما كتيه من مادة تاريخية . ونظرا لأن تعديلاته تجاوزت حد تصحيح أخطاء ، فلا شك أنه اعتقد أن تعديلاته سوف ينتج عنها وصف تاريخي أكثر تناسقا ، وقيمة من الناحية العلمية . ( ومع ذلك فقد ارتكب ( متى ) أخطاءا من مطوئته تصحيح ما كتيه روجر وقام متى بإحداث تغييرات في لسلوب روجر بهدف إضافة لمسة من الأهمية على وصف روجر التاريخي .

وقام ( متى ) بإضافة كلمات ، بل فقرات كاملة بهدف العمل على زيادة قوة تأثير ما كتبه روجر . وحى الإضافات تمكن القارى من الإحاطة بأحداث الماضي بشكل أفضل ، من وجهة نظر ( متى ) على الأقل . وتلست تلك الإضافات الدليل على أن الإضافات كانت من صلب الأفراد الذين كان بعضهم من الأتقياء ، وغالبيتهم من الأثرياء .

وستوضح الفقرات التالية طريقة متى فى تنقيحه لحويلة روجر . وكان روجر قد كتب بطريقة موسوعية تماما عن كيفية عودة هنرى الثالث الى إنجلترا عند نهاية سنة ١٢٢٠ م . بعد الإعداد للدفاع عن إقليم برانوم Polton . وبالمناسبة لتلك الحملة الحالية من عنصر الأثارة ، قلم ( متى ) معلومة إضافية عن هنرى قائلا أنه عمل ذلك . بعد أن أبقى مبالغ طائلة من المال ، وبعد أن عانى من نقص شديد من الرجال ، أما نتيجة للموت ، أو ما تعرضوا اليه من مرض وصدمة . أو بعد أن تحولوا الى حالة من الفقر المفتح « (٤) والمثال التامى والمتعلق بإعادة صياغة ما كتبه روجر ، أورد ( متى ) فيما كتبه مشاركة البابا لهنرى الثالث فى السلوك المريب على نحو صريح ، والناجم عن الخوف الشديد من حين الى آخر . وذكر روجر ، دون تعليق ، فى حويلته عن سنة ١٢٢٠ م أن حنا من برين John of Brinno قد حرب الى فرنسا . فإضاف ( متى ) الى هذه المعلومة التعليق القائل بأن حنا فعل ذلك « ومع المرتزقة التامس له . والذين غرهم البابا بالتهديدات الكنسية ، وقدم اليهم القناتم التى جسها من الفقراء الذين تعرضوا للأسر على يديه « (٥) .

وبما أن وصل ( متى ) الى سنة ١٢٢٦ م فى حويلة روجر حتى توقف عن تعديله لها . وبدأ فى الكتابة عن الأحداث التاريخية وفقا لجهته الشخصى . ويبدو أن ( متى ) حطط على أن تنتهى حويلته عند أحداث سنة ١٢٥٠ م ، ثم غير رأيه ، واستمر فى مرد عاداته التاريخية حتى شهر مايو ١٢٥٩ م . وفى الوقت الذى وصل فيه كتابة حويلته ، احتلس بضع ساعات لمراجعة ما كتبه ، لتصحيح الأخطاء ، وتوضيح الفقرات الغامضة . ولما أن قيل رغبته فى تحسين انتاعه الطلى على هذا النحو ، وبخاصة أن حويلته ظلت فى حوزته ، وكانت فى حاجة الى ذلك التحسين .

ومع ذلك لم تتوقف محاولات ( متى ) عند حد التنقيح عن طريق تصحيح الأخطاء ، والأسلوب على نحو جاييه التوثيق ، وإنما امتدت لتشمل عملية التخفيف من حدة الأسلوب العنيف فى النص الذى كتبه عن عمرات الحملات . وفى أغلب الأحوال أنصبب تعديله للنص الأصل على توجبه اللوم الشديد لهنرى الثالث لحارسته الابتزاز الاستبدادى . وعلى البابوية التى اعتراما القصاد ، مستخدما فى ذلك أساليب قاسية .

على أن أحد توضيحاته الثلاثة للنظر بشأن الطريقة التي انتهجها ( متى ) عند تمييزه لأسلوبه الماكر ، يهدف صفيح النص الأصلي ، تعلق بالاحوان الرحبان الفقراء - friars - ولم يحف ( متى ) حبه لنظم الاخوة المسيحية التي تعيش على الصدقات ، واحدى الفقرات التي عبر فيها ( متى ) عن وجهات نظره عن الاخوان الرحبان الفقراء ما على ، ، وفي هذا الوقت ندر الاحوان الدوميسكان Dominicans ، والاضخوان الفرنسيسكان Franciscans أنفسهم ، بكل جد وكده ، لائقا للمواظع الدينية التي أمت اكلها حاليا - وعملوا بكل متابعه من أجل بطاح الحركة الصليبية - وقاموا بالدعوة للمشاركة فى الحركة الصليبية ، والقاء (خطيب الرثاء ، والصحوة بمباريات الدم - ثم استمروا من رسم اشارة الصليب على الناس من شتى ( مختلف ) الأعمار ، من الذكور والاناث ، ومن كل الطبقات الاجتماعية ، بصرف النظر عن الحالة الصحية ، بيد أنه فى اليوم التالى ، بل وربما بعد ذلك على الفور - كانوا يستردون اشارة الصليب من يدهم لهم بلعما من المال مقابل اعفائهم من تسهمهم بالمشاركة فى الحرب الصليبية - وكانوا يودعون الأموال فى خزانة إحدى الشخصيات المهمة - وبدا هذا الأمر كله على أنه خاطي ، وشئ لسخرية البسطاء والعامة ، وادى الى قنور الحساس الدينى لدى كثير من الناس ، ، طالما انهم قد تحولوا الى ما يشبه الخراف التي يباع من أجل صرفها ، ( ٦ ) .

وبعد ذلك بفترة سنوات اسفل ( متى ) سبناوا على وصفه الأول . وأحل محله فقرة تخص أنشطة الاحوان الرحبان المتجولين للتبشير friars داتها - وتبدو الصورة الجديدة مختلفة تماما : ، وفى هذا الوقت بذل الكوميبيكيون والفرنسيون كل ما فى وسعهم من جهد ، وتعاون غيرهم معهم - وكانوا جميعا على بينة ، بفن القاء المواظع الدينية وتقدموا عليها ، وجنوا ثمارا متفحة لكل جهودهم ، وتثروا بدور الحب فى حقل المسيح - وحتى لا يحول أى عائق دون أن يقال أى مسيحي متخلص الشفران الكنسى بناء على وعد الاخوان الرحبان للذين تمكنوا للمشاركة فى تلك الحملة الصليبية ، فانهم وافقوا عن طيب خاطر على قبول فدية للحصول على الشفران redemption من أى فرد وفقا لحالته المالية وبفضل جمع تلك التبرعات الفخمة لاعلاء كلمة الله ، يمكن القول ان الاستجابة العاجلة لذلك الترويج ، كانت مساوية للمشاركة فى هذه الحملة الصليبية تماما تمام . هذا بعد أن وصل الجميع الى أنه حتى لو أضرب النساء والأطفال والرعى ، بل والفقراء والمسنون ، الى الرجال ، فليس فى مقدورهم مع-معين أن يحققوا سوى التفر البسيط أمام الحشود الفخمة لاعلاء المسيحية ( ٧ ) -

ويبدو أن قيام ( متى ) بعملية تهذيب ما كتبه ظل قائما حتى  
 حياته ، وأرجو ألا يكون استعظامي لتفسير • تهذيب • قاسيا • وللأسف أن  
 يتساءل إذا ما كان متى قد قام بتعديل أسلوبه الخاص بما يرويه من  
 تاريخ في مرحلة كتابته الباكورة يلم على ضغط من رؤسائه ، لأن غير  
 رأيي ، واعتقد أن تغييراته الأصلية غير صحيحة ، أو لأنه اعتبرها منفرة  
 وغير دقيقة تماما • وهناك تفسير محتمل ، وهو أنه قد أدرك أنه مبر عما  
 يجول بخاطرهم على نحو غير مستساغ ، من حين إلى آخر ، وإن كان ذلك  
 أمرا مألوفاً عند الكتاب الذين كتبوا بحساس شديد • وأنه اكتشف ذلك  
 بعدما كبر في السن ، وقام بإعادة قراءة ما كتبه • وهناك احتمال لتفسير  
 محاولته تغيير ما كتبه قيساً به • وهو أن ازدياد معرفته الشخصية  
 بالأخوان الرعيان الفقراء • عن ذي قبل ، دفعه إلى تغيير آرائه السابقة التي  
 بنما لما رواه المتعاملون عليهم •

وفي المجال الخاص على مجرد ذكر الأخبار • والتي يتعارض مع  
 دور ( متى ياريس ) الضليع في تحليل الأحداث التاريخية • فإنه تجنب  
 ذلك الدور فضلاً عن علم وجود كاتب فلاح من ناحية المصادر التي أتيت  
 له واستقى منها أخباره • ولهذا السبب فإن النظرة الأولى الوثيقة الصلة  
 بتقييم ( متى ) باعتباره كاتب حواريات هي أنها تغطي انطباعات ياهوية تلك  
 المصادر • ولا ريب أنه يجول بخاطر قراء حواريات ( متى ) سؤال من  
 كيفية محاولة رهب متفوق في دير الكتابة بما زاد عن مجرد تدوين  
 عادي للحوادث التي أثرت على دير بشكل مباشر أو حدثت في المناطق  
 المجاورة له ، لذلك فإن ما حققه ( متى ) من سمعة يحسد عليها كأحد  
 كتاب الحواريات للتاريخ الأوربي تبطل مسألة حصوله على المعلومات  
 التاريخية التي قدمها أمرا متبراً لاعتناء القاري ولغضوله إلى حد كبير •

ولا ريب أن قفرا كبيرا من المعلومات التي أوردتها متى في حواريته •  
 وصلت إليه من طريق الزوار الذين غزلوا في الدير • فمن وجهة نظري  
 ( متى ) لا يمكن أن يمتار موقع مدينة سانت الينز St. Albans •  
 والتي لا تبعد سوى مسيرة يوم واحد على الطريق المؤدى إلى شمال وشمال  
 غرب إنجلترا ، عن بعد القارة الأوربية إليه - وفي عصر كانت فيه الحمايات (\*)  
 قليلة • استفاد كثير من الناس من كرم ضيافة الدير • وذكر ( متى )  
 أن الدير الذي عاش به أحد حظيرة لخيول الزلاء تسع ثلاثمائة جواد •  
 أما الفقراء والزوار إرضاء للذمى فقد وصلوا سيرا على الأقدام •

وكان للملك هنري الثالث أشهر الشخصيات البارزة التي زارت  
 مدينة سانت الينز St. Albans ووفقا لحولية ( متى ) • فقد نزل هذا  
 الملك بالدير ما لا يقل عن تسع مرات • وفي إحدى تلك الزيارات للدير

(\*) كانت الحمايات موزعة بطرف للبيت والحانة مما كتبه الملك هنري •

خلل به ستة أيام . ومن حسن حظ متى أنه استطاع اللقاء بالملك هنرى الثالث . ومن ثم كان على علم بكل الأعباء والأسرار التي سيطرت عليها الملك منه مباشرة . ودون أنه يعلمها بطريق غير مباشر سواء من رئيس الدير أو الآخرين . وكتب ( متى ) عن زيارة الملك إلى الدير في مارس ١٢٥٧ م . فقال : « لقد أطال الملك زيارته ... لمدة أسبوع ، ونظرا لأن كاتب هذه الحولية كان مرافقا مستديبا للملك في القصر ، وعلى مائدة الطعام ، وفي حجرة الاستقبال ، فإن الملك أمل عليه بكل احتتام ودعابة » ( ٨ ) .

وفي نهاية سنة ١٢٤٧ م قام ( متى ) بإحدى زيارته العادية إلى Westminster . بناء على دعوة من الملك هنرى الثالث الذى دعاه ليقام بالقرب من الرمش الملكى ، حيث تحدث مع الملك ، ثم دعاه الملك بعد ذلك لتناول الطعام معه . وفي مناسبة أخرى ذكر ( متى ) أن البابا عرض على هنرى الثالث أن يعتلى ابنه عرش المانيا بدلا من فريديريك الثاني Frederick II . بيد أن هنرى رفض ذلك العرض . وهذا ما قاله لي الملك المذكور ، أنا ( متى ) كاتب تلك الصفحات » ( ٩ ) .

ومن بين الشخصيات البارزة الأخرى التي وارت الدير : الملكة إليانور Eleanor وريتشارد ، إيرل كورنوال Corwall ، شقيق هنرى ، دهاكون الرابع Hakon IV ملك النرويج ، وأعضاء المجلس الملكى ، والبارونات ، والأساقفة ، ومن بين الأساقفة روبرت جروسمست Robert Grosseteste ، أسقف لىكول Lincoln ، الذى كان باحثا شهيرا وعالما كبيرا . وكان لارتباط ( متى ) بكبار الموظفين فى حزمة القولة أهمية قصوى بالنسبة إليه . إذ يوجه ما لا يقل عن أربع عشرة وثيقة مسجلة فى كتابه « كتاب الأساقفة » Liber Additamentorum . وهو نسخ من الأصول الموجودة فى الكتاب الأحمر بورادة المالية .

وزارت الدير أعداد غفيرة لكل مقاما - يرميا تقريبا - وكان من بينهم جماعات الدومينيكان Dominicans ، والفرسيسكان Franciscans . ونظرا لقدرة الاخوة الرهبان القراء على النقل والترحال ، ولاستعانة البابوات بهم إلى أبعد مدى ، واتخاذهم كمبعوثين تأييد للبابوية ، فإن معلوماتهم عن الحوادث التى جرت بالقادة الأوروبية وما حلها كانت تتوق بحجم كبير . ويكشف الخبر الذى نقله ( متى ) من الأراضي القطبية سنة ١٢٥٢ م عن أن معلوماته كانت تصل إليه بطريق غير مباشر من « الرهبان المسترشسين Cimbrean » الذين عادوا من هناك ٥٠٠ سنة آن حصلوا على معلوماتهم من الكاردينال حنا . الانجليزى الأصل ، والمعروف باسم الكاردينال الأبيض لأنه كان أحد أعضاء جماعة الرهبان المسترشسين . والذى أرسل رسائل إلى باقى أفراد جماعته على يد أحدهم » ( ١٢ ) .

ومع ذلك فيظهر بوضوح على ما تثيره تلك المعلومات غير المباشرة من شك تخلي في بوعيه الخبر الذي نقله « رسل مجبل » وهو رئيس جماعة اخوان كنيسة القديس يوحنا الديرية في مدينة عكا . الى ( متى ) سنة ١٢٥٧ م بمدينة سانت اليز ، ادأبلنه ، « أن يوحنا من السواحق الجسمية هبط من السموات العلا ، وإنشغل البران فجأة في معبد مصد ( صلى الله عليه وسلم ) ( ٣ ) ، ثم حثت انفجار كان مشابه للأول ، وحول المعبد المذكور الى أشلاء صخرة . وعلى ما يعتقد حثت انفجار ثالث حثف بظلم المعبد والتنازل في أعماق الأرض . وقال ان هذه البران قضت على الأخضر واليابس لشعة اشتعالها ، برغم أنها ليست مضيئة . وامتدت لثبوت ياطن الأرض . وما بها من صخور وكأنها نار جهنم . وبما على ذلك احترقت مكة بأسرها . وكذلك اشتعلت تلك السيران في كل المنطقة المجاورة لها » ( ١٣ ) .

وهناك معلومات ذكرها ( متى ) في حويلته كشاهد عيان لها . كما أنه من المأذ ذكره مشاهدته لحادثة وصفها في حويلته . ومع ذلك في استطلاعة القارىء التأكد من أنه شاهد ما رواه . ومثال ذلك تلك المناسبة المنعومة بالجلال والرحمة ، عندما اعتقد الكثيرون بأن دم المسيح تم اخضاره الى دير وستمستر في يوم عيد القديس إدوارد سنة ١٢٤٧ م . فيقول ( متى ) ان الملك ، الذي صاحبه كل رجال الأكليروس بلندن ، قام بهصل الاناء الفخس من كنيسة القديس بولس الى وستمستر حيث أقيم فلبس ، ثم ألقى أسقف نورويش *Normich* عظة في الكنيسة . وإبان المأقتات بعد الانتهاء من إقامة الشعائر الديرية طرح سؤال عن كيفية قيام المسيح من بين الموتى . يكمل حصده . ومع ذلك ترك حصه على الأرض ووعفا لروايه ( متى ) . استطلاع روبرت جروستيتس *Robert Grosseteste* ، أسقف لينكولن *Lincoln* ، تبديده كل الشكوك . « على نحو محكم وصائب جدا » . وقام ( متى ) بإضافة أدلة وبراهين الأسقف ، وذكرها في كتابه الخاص بالاضالعات ، وأن كاتب هذه الحويلة سمع تلك البراهين بنفسه ، ودونها حرفيا وبكل دقة « ( ١٤ ) .

---

( ١٤ ) ما بين حاسوتين من عند المترجم . وبلاحظ القارىء الكريم أن جوليف فلغوس مؤلف هذا الكتاب ، وهو مؤرخ لا ديني بالإسلام رفض تماما هذه الطلوة لأنها مارية تماما من الصحة لعدم وجود سند تخريفي لها في أى مصدر آخر . وأنها ليست من الواقع في شيء . - وللمترجم الذى في القول أنها مثال لمعلومات وأكلايد ، وإساليب نشرت بها معظم المصادر التاريخية الأوروبية في المصادر الوسطى . كما نشر في نظرة الرجال في أوروبا تجاه الإسلام في المصادر الوسطى . - ( المترجم )

كما أن القوة التي وصف بها حتى كثيرا من الحوادث التاريخية تدفع  
 القارئ على أن يفترض وجود ( متى ) كشاهد عيان لها . إذ يستطيع  
 المرء أن يصفه بين الشخصيات البارزة وبقيّة الضيوف الذين اجتفروا  
 لحضور حفل زفاف مارجريت ابنة هنري إلى الاسكندر ملك اسكتلندا في  
 مدينة يورك إيان عيد ميلاد سنة ١٢٥٢ م . ولقد استبد هناك جمع غفير  
 من الأكليروس والفرسان حتى أن روعة هذا الاحتفال الرفيقي القسطن  
 تالفت في كل مكان ، ذلك لوجود ملك وملكة إنجلترا . وببلاطهم . الذين  
 لا يمكن سرد أسمائهم لأن ذلك سوف يستغرق وقتا طويلا . وحضر ملك  
 اسكتلندا أيضا والملكة والدته التي وجهت إليها الدعوة إيان وجودها في  
 القارة الأوروبية . وحضرت معها حفنة كبيرة من اسكتلندا وفرنسا .  
 أدعى من مواليد فرنسا - ووفقا للعامة المتبعة مع الملكات الأراذل ، كانت  
 الملكة الثواند تحصل على ثلث المواليد المالية لملكة اسكتلندا ، وأكثرت بلغت  
 ما يزيد على خمسة آلاف من المراكب (١٤) هذا بالإضافة إلى ما صحت  
 يديها من المستلزمات الأخرى التي منحها لها والدتها انجيلرام Bogelram .  
 ومن ثم ظهرت في القارة الأوروبية ومعها حاشية ضخمة من المرافقين لها .  
 والذين اتسوا بالأبهة والمهابة . وعندما وصلوا جميعا إلى مدينة يورك ،  
 أقام المرافقون الملك اسكتلندا في شارع واحد . دون أن يصلطوا مع  
 الآخرين ، من باب الحقد والاحتراس . وفي الوقت الذي قام فيه بعض  
 القادة الباطني لحسادهم الاضطهاديين بتدبير أماكن إقامته لحسادتهم . قام  
 البعض الآخر بالمشاركة في مباريات بدلت بالأبيض ، ثم بالهراوات ، وانتهت  
 بالسيف . وجرح بعضهم بجروح بالغة خطيرة . وصر أحدهم صريحا ،  
 أما الذين جرحوا فلم يبرحوا من جراحهم . ومع ذلك استطاع الملكان ،  
 اللذان كانا في مكان المباراة . أن يقبعا حدا لها بمساعدة الحرس الشخصي  
 التابع لكل منهما . وهو الحرس الذي اتسم بالحكمة والاعتدال (١٥) .

ومن غير المحتمل أن ( متى ) شهد تلك الأحداث في يورك بنفسه .  
 رغم أن الطريقة الشخصية التي استعملها باستيراد في وصف تلك  
 الحوادث موسى للقارئ بأنه كان شاهد عيان لها . ووجد ( متى ) حتما  
 في وصف حفل من عنده في صيغة المتكلم ، بل وحطاب أيضا ، على لسان  
 الشخصيات الكبرى . وهو إجراء يريد من القارئ بأنه كان موجودا إيان  
 الاحتفال .

وكانت لهم مصادر معلومات ( متى ) التاريخية ، وبخاصة تلك التي  
 وردت إليه عن البلاد الأجنبية . ترد إليه عن طريق الرسائل التي وردت

(١٤) لذلك Mark وجدته أنه إنجليزية لغوية تعادل ١٢ شكلا و 2 يسمات .

(١٥) للرجوع .

إليه بصفة شخصية أو التي نقلها إليه من أرسلت إليهم تلك الرسائل ، وهو الأمر الذي كان أكثر حموقاً . ويمكن التماس العنوتى عنهما يكون المرسل والمرسل إليه من الشخصيات المهمة مثل فريدريك الثاني ، امبراطور ألمانيا ، وهرى الثالث ملك انجلترا - ثم سيده ( متى ) ولده سلم معوى الرسالة ، واعتبرها جديده بالثقة الى ابيه حد . وبخاصة عنهما تكون تلك الرسالة عبر سياسية - ومن الممكن من اول وهلة وضع الخطاب الذى لوسله فريدريك الى هنرى ، وأودجة ( متى ) فى الحولية عن سنة ١٢٤١ م تحت هذا الصنف - وكان فريدريك قد كتب الى صهره هنرى ، على أمل صلمان تعاونه معه ضد الخطر المعلق . « الذى يندرج بالقضاء التام على الوجود المسيحى » ، ضد التتار على وجه الخصوص ، الذين انقضوا فى شرق أوروبا بأعداد ضخمة . واعرف فريدريك انه ليس لديه علم عن المكان الذى جاء منه هؤلاء الكوم . سوى أنهم « حازوا من الأتاليين الجنوبية ، منذ عهد قريب » . وأهم تكانروا كالجرات ، وعقلوا الحرم على القضاء على كل الشعوب . وفرض نموذج الفرع على كافة أنحاء العالم . ولكن يؤكد فريدريك على وحشية هؤلاء التتار ، وعلى حساسة الخطر الذى يتعرض له العالم العربى على أيديهم . عام الامبراطور بوصف التتار وذكر عاداتهم .

« وكان الفرد من التتار قصر القامة ، بيده أنه كان مكنز الجسد ، وقوى البنية ، وصحى العضلات ، وشديد المأس . وشجاعاً ، وعلى استعداد تام لمواجهة أقى الصعاب بمجرد إشارة واحدة من قائده . كما كان كبير الوجه ، ومقطب الجبين . ويطلق صيحات مرعبة تناسب مع غلظه قلبه . ويرتدى جلود الثيران ، والخيول ، غير المدبوغة - ويعمى نفسه بقطع من حديد ملتصقة بجسمه ، وما زال الفرد منهم يستنسخها حتى وقما حدا . اننا لا نستطيع القول دون الاحساس بالأسى والمرارة أن هؤلاء التتار قد زودوا أنفسهم بأسلحة المسيحيين الذين غلبوا على أهرم . ونظرا لغضب الله علينا . فاننا نخرج كزوس الحية بسلطان الذى سقط فى أيديهم - أن التتار محاربون لا نظير لهم . ويحطون جلوداً صناعية ، ويمسرون بها البحيرات ، والأنهار دون خطر . وعنهما يظن ما عندهم من علف المئسبة تعيش خيولهم على لحاء الأشجار وأوراقها ، وحذور الشباب ، التى يقدمها الرجال الى تلك الخيول . ومع ذلك ظنت خيولهم سريعة ، وقوية فى وقت الحاجة » (١٦) .

ومن بين الاتباء التى تضمنها خطاب الامبراطور فريدريك الى هنرى ملك انجلترا إشارة خطيرة عن البابوية ، وهى انه فى الوقت الذى دعت فيه خطورة الموقف كل المسيحيين الى الاتحاد للتصديق للخطر المهدق ،

طل البابا يرفى عروس فريديك من أجل السلام بكل عباد - ولا بد أن ( متى ) قد شارك الآخرين في التخططات التي أبديها نشأتان التسليم الكامل بصحة كلمات فريديك - فيقول ( متى ) أن أعداء الإمبراطور قد ابهموه بتخريض التتار على مهاجمة تلك الشعوب ، ثم القيام بإرساله هذا الخطاب لجرد اخذها اشتراكه في الجريمة التي اقترعها - وقام ( متى ) من ناحيته بالإشارة إلى بعض الأخطاء في رسالة الإمبراطور ، فلي تبيل المثال شكك ( متى ) في أن الرحالة قد غاب عن انتباههم أمة التتار الكثيرة العدد ، ونعا لما ذكر فريديك في رسالته - وتساءل ( متى ) قائلا : أين كانت هذه الأمة الكبيرة نضحي نفسها حتى الآن ؟ ومبدا كان اعتقاد ( متى ) في مدى صداقية رسالة فريديك عن التتار ، فإنه كان متحيضا بقبضه رسالة الإمبراطور إلى الوثائق التي تخص التتار ، وأصبحت في حوزة الدير - ويدعو ( متى ) الفارسي الذي يرغب في معرفة المزيد عن التتار بزيارة مدينة سانت الينر ، والإطلاع على ذلك الملف « ( ١٧ ) » .

وبرغم أن تلك المعلومات المتعلقة بالتتار قد نفى الشك ، فإنها تشكل إحدى المعلومات الكبرى لولية متى بإويس - وقام ( متى ) بتسجيل الأحداث على ما يرام ، ويذل كل ما في وسعه ، دون أن يكون للماطعة تأثير عليه - إذ أن ما كتبه عن إنجلترا ، وويلز ، واسكتلندا يبدو بوصوح أنه كاتب حوكة دقيق وشفوق ، يستنتهه قيامه بتوجيه اليوم الشديد إلى الملك أو إلى أحد مثل البابا - بل إن معظم المعلومات التي قلصها عن التطورات بالفارة الأوروبية يمكن الاعتماد عليها ، في معظمها ، عن أي مصدر آخر لتلك الفترة .

ويمكن الاعتماد على (متى) علما قدم وصفا واقميا ودقيقا عن حادثة نقل تاج الشوك الذي كان على رأس المسيح ، وهو في طريقه إلى الحمبة ، وفقا لما اعتقد الكثيرون من المسيحيين - ووقعت هذه الحادثة سنة ١٢٤٠ م وهرت مشاعر المسيحيين الغربيين ، وعلق ( متى ) على ذلك الأمر الخامس بنقل التاج من القسطنطينية إلى فرنسا ، بأن الإمبراطور اللاتيني في القسطنطينية كان في حاجة ماسة إلى المال ، وهو أمر شائع عند أولئك الذين يدخلون الحروب ، - ومن ثم فأنج لومس ملك فرنسا الورع ، وعرض عليه بيع هذا الأمر المقدس ، - نظرا للروابط القديمة بينهما والغائمة على الصداقة وسلات اقترين - »

« قام الملك الفرنسي ، بإرسال مبلغ ضخم من المال ، من وافر كرمه ، إلى إمبراطور بلدين Baldwin ، بناء على وصيحة مستشاريه من أهل الخبرة ، ووالدته التي تشاركه الرأي ، وبعد أن فقد ما عند ملودين

من اموال نتيجة للحروب المتواصلة . ومن ثم حورت خزانة بلووين بالمال مره ثانية ، وارتفعت الروح المعنوية عند أتباعه وجيشه ، وراقصت الامال الكبار امام عيني بلووين بسحقى صر مؤرد على الاغريق - وفي مقابل هذه الاعانه المالية استخدمه الى حصل عليها من الملك ، ارسل الملك حاج المسيح تنقيفا لوعده واتفاقاته . والواقع ان هذا الناج ائس من الذهب والتوبار . وعندما وصل الناج الى المملكة الفرنسية صار مفتحة ونشوقا لها . وظل مسطرا بكل خشوع ومهاية . كما أنه كان باعنا لصحر كل اللاتين . ووضع الناج في كيسه الملك بيلويس . بعد الاحتفال به في عوكت مهيب ، وسط رنين نوافيس الكنائس ، ( ١٨ ) .

وإذا كانت تعقيدات الدبلوماسية العولية لم تكن إحدى الظواهر في القرن التاسع عشر . أو اذا ما رغبه المرء في العودة الى الزمان ، ففي لم تظهر الا على عهد قادة ايطاليا في اواخر المصور الوسطى ، فانها كانت واضحة للعيان في وصف ( حتى ) عنفا خاص كوت فلامدر *Flanders* سنة ١٢٤٠ م . وذهب هذا الكونت الى اسطرا بناء على ان لويس ملك فرنسا ، وسيد الاقطاعي الاصل . ولم يقتصر استغاله على وجود الملك ( صرى ) ، وحاشيته فصب . وانما شاركت حووع غيرة من سكان المدن الذين امتطوا سهوات حيولهم المركبة . وسط دف الطبول واصوات الابواق ، وكل مظاهر الحفاوة ، والتكريم ، والساعة . والانتهاج . وغمره بالهدايا . ولزم الملك اليه حصانة ( أو ثلاثا كما يقول البعض ) ، من المراكب الجديدة من السلة الاسترلينية وحصى له صبة مسوية تسادل ذلك المبلغ صه لمدة لثمسين سنة القادمة . من خزانة العولة . نظرا لتقديم هذا الكونت قروض الولاء الاقطاعي للملك ، وبعد الانتهاء من تسوية هذه المسألة عاد الكونت الى فلاندرز على الفور . ثم بدأ في اثارة القلاقل على اقاليمه ، واستدعى جنوده واتباعه النظاميين والمرتبة ، وبذلك حشد جيشا ضخما . وهاجم أسقف ليچ *Liège* المنتخب ، الذي كان مواليا للامبراطور ( فريدريك ) ، وأحد آقاريه ، وبغضا من الموالي للامبراطورية . الذين ظلوا مرافقين للأسقف المنتخب ، بناء على اولى الامبراطور .

« وقام جلالة الامبراطور بارسمال رسالة احتوت بهدييات شديدة اللهجة ، الى الكونت المذكورة بمجرد سماعه إطلاق الأحداث على يرتدع من تصرفاته الرعناء والمنهورة ، والتي لم يتوقع الامبراطور حدوثها ، لا سيما وان الامبراطور كان يتعرض لمشاكل من قبل البابا بسبب أمور شديدة التعقيد . وكذلك من قبل جلفاته ، بل وس أسقف ليچ المنتخب . صديقه وقريبه . . . . لذلك كله حذر الامبراطور الكونت بالكف عن اثارة

التعاقب وأمر الإمبراطور دوقى ليوفان **Louvain** ، وبرابانت **Brabant** ، وغيرها من الحكام المجاورين للإمبراطورية ، من أجل التصديق لهجمات كونت فلاندرز ، والصل على فت عضته . ثم كتب الى كونت بروفانس **Provence** ، الذى كان أحد الخوارج للإمبراطور ، وأمره الإمبراطور باعتباره حليفا محطيا ، أن يحبط مخططات ومحاولات كونت فلاندرز ، الذى كان قد أبدى تعاليا على كونت بروفانس ، بيه أن الكونتني رفضا إطاعة أوامر الإمبراطور . ثم أرسل الإمبراطور الى كونت تولوز **Toulouse** ، يأمره - تحت التهديد بأمرال المقاب الرادع - أن يقى حربا ضد كونت بروفانس ، الذى رفض أن يعاقب كونت فلاندرز . وأرسل الإمبراطور مساعدات فعالة الى كونت تولوز **Toulouse** لتسكينه من شى غارات متكررة ضد كونت بروفانس . ولما كان كونت تولوز يمانى من أسرار قديمة المصها الفرنسيون به لذلك حب نفسه . بمجرد وصول طلب الإمبراطور ، ورحب للقاء كونت بروفانس بكل تلهف . ولما تعرض كونت بروفانس لسرباب قاصمة على يد كونت تولوز خرج الى ملك فرنسا طالبا الحماية ، ومتوسلا اليه بكل بذل أن يقدم اليه البجعة الساجدة . ولما علم ملك انجلترا أن كونت بروفانس - قد تعرض لخسائر فادحة في الأفراد ابلان كفاحه المير كتيب الى الإمبراطور رسالة ودية ، طالبا منه باسم حملات القرمي أن يصنع عن كونت بروفانس وأله زوجته أما ملك فرنسا صاحب الطوذ السياسى الكبير . . . فقد سارع بإرسال سبعةائة فارس ومهم ما يريد من عدهم بكثير من الخيانتين للتصديق لهجمات أعداء الشعب البروفانسي **Provençals** (١٩) -

ويشير متى باريس دهشة القارئ باستمرار نظرا لوفرة التفاصيل التى يصعب بها الحوادث ، ولطريقته المشوقة في العرض لها ، حتى لو كانت تلك الحوادث قد حدثت على بعد أميال عديدة من مكان ديره . فالحدث الذى وصفه في الفقرة التالية حدث عبر بحر الشمال في ألمانيا - كما تلقى الجبل واقصرمت القتيبة من الألعاب الإفریقی والرومانى ، وكذلك الانسلاوات الفصحية مريدا عن الضمير على وقع متى باريس بالألعاب الكلاسيكى ، كما اعتقد متى أن استخدامه للصور البلاغية يسبل على زيادة المنزلة الأدبية لطريقته الفنية في سرد الأحداث . جبالا ودوعة .

• وفي العام نفسه ( ١٢٥٦ م ) . كان وليم الهولندي ملكا بناء على صبيى البابا الذى رصه الى مكانة سامية عنما جعله ملكا على ألمانيا . وبزادته وليم فكرة السيطرة على الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن غير البابا بالأموال على صغر مستمر ، ولذلك ما أن سمعت بارقة لعل حتى شرب حربيا

ضد ميكان مريزلند *Frieslands* ، وهم شعب اصعب بالفظافة ،  
والهشبة ، والبعد عن كل مظاهر الحضرة . ويقطن شعب فريزلند في  
الاقليم الشمالي ، وهم شعب ماهر في الحروب البحرية ، ويقاثلون يمسالة  
وشجاعة على الجليد . ويعيش سكان فريزلند في تلك الاقاليم الباردة كما  
قال جوفريال *Javeral* . « على المرء ان يلود بالفرار اذا ما وصل الى  
حدود السارماتيي والمحيط المتجمد الخ » . وعلى ذلك اُعيد سكان  
مريزلند كمائن على اعتماد شاطئ البحر ، وبيع الصهور . وكذلك على  
اعتماد الاراضي الرواعية المليئة بالمستنقعات . ( كان القشتاء قد بدأ عد  
اقترب موعد عيد الظهارة للقديسة العفراء ) . وتمشوا اثر وليم السالف  
الذكر . وقد تسلخوا بالرماح الى اجنادوا استملاها ، بالاسلحة الى  
البطقات والرماح الدامر كيه . وادفوا الثياب الكتانية ، وستروا اجسادهم  
بالنوع الخفيف . وعند وصولهم الى منطقة فيه تقابلوا مع وليم ، الذي  
كان واسعا حوده على راسه ، ودروعا حوله جسده ، ومصطفا صهوة جواد  
حربي مغطى بالنوع . بيد انه عندما تقفم في مسيره ، تكسر الجليد ، برغم  
ان سمكه زاد على نصف قدم وغاص الحصان في الوحل حتى جاريته .  
وتسمر الجواد في المستنقع . فاستشاط وليم غضبا وعرس مهمازه الحاد  
في جاسي الحصان حتى وصل الى امعائه . عند ذلك عمل الحصان الفاسد  
على التخلص من سيطرة وليم عليه ، ولكن دون جدوى ، ثم حاول ان يشق  
طريقه فاردادت جراحه . وعاصي جسده في الوحل عن ذي قبل . واخيرا  
تمكن الجواد من طرح وليم أرضا بين قطع الجليد الرلق والحش . ثم انقص  
سكان فريزلند على وليم ، الذي لم يجد احدا يقدم له يد المساعدة في  
محتته . اذ لا د رفاقه في السلاح بالفرار لتجنب وقوعهم فيها حدث له ،  
وامطره سكان فريزلند بوابل من رماحهم من جميع الجهات . وبالرغم من  
بوسلاته اليهم ، فانهم لم يتحركوا جزءا من جسده الا وقد اُصيب بطمعة  
دائمة . واوشك جسده ان يتجمد من شدة الرطوبة والبرد .

وبالرغم من ان وليم عرس عليهم ميلا كبيرا كقدية . اذا ما بر كوه ،  
ومستحو له بالانسحاب . فان هؤلاء الرجال ، الذين منحرو قلوبهم .  
زادوا من عيهم وقطعوا جسده ارضا ارضا . وعكفا ياد وليم ، الذي ذاق  
حلاوة حكم الامبراطورية . والذي كانه في شيل كونا لهولندا ، وصبيحة  
السابا وتليبيد . سقط على يد اعمدائه بعد ان كان في اوج مملكته العليا الى  
اعلى العوضى والصياح . ويقول احد الفلاسفة : « ان الموت وفقا شيشه  
الاعضاء موت مصاعب » . وعندما بلغ البابا نيا مقتل وليم . حزن حزنا  
شديدا ، لا انعه من اموال جمعت من كل مكان ، وبكل الوسائل . ( ٢٠ ) -

انه الاشارات الانتقادية التي ذكرها منى عن البابا سرر مظهرها لآثره الأدبي يجعل من منى كاتبا لحوليه لا يستل سوى بالقليل من الاجلال .  
 اد لم يكن قادرا على أن يروى المعلومة الخاصة بالبابوية بمحيار التحرر أو يقدر من الادراك العقل لذلك الموضوع ، كما كان يتوقع المرء ذلك من كاتب مسئول مسئولية تامة - فاملويه اللادع عندما كتب عن البابوية ومثل البابا شابة أسلوب سجادل بروتستانتى عيب عاش فى القرن السادس عشر ، وليس أسلوب راسخ يدكى عاش فى القرن الثالث عشر ، على أن ما يجعل موقف منى ، بالسبب لهذه الناحية ، متحدر التبرير أو الدفاع عنه كلية ، هو روح الأنانية المتناصلة فى نفسه والتي حركته ، واعى بذلك - اعتراضه على الاتزان البابوى . والهيئة البابوية على الكنيسة - ومع ذلك قياماته هذا الموقف يكون قد مارس دور المسحقة باسم دينه . وباسم الكنيسة الانجيلية يصنع عامه - وما لا ريب فيه أنه عبر عن مشاعر معظم حيثات الكهنة خارج ايطاليا .

ولا يد للمرء أن يعترف بأنه الكنيسة الانجيلية استطاع أن يبرز اعتراضها على الاتزان البابوى من مطلق ان الأموال التي قلعت البابوية ياتزورها كات مساب يتدفق الى حلقاء البابا من حربه ضد فريديريك الثاني ، وهي الحرب التي ليس لها ما يبرر وجودها من وجهة النظر الانجيلية - ( ومن بين التبريرات الأخرى لتعاطف الانجليز مع فريديريك الثاني هو أن ذلك الامبراطور كان صهرا للملك هنرى الثالث ) - ورفضت الكنيسة الانجيلية الأدلة والبراهين التي عرضها البابا من أنه قرصت عليه معركة حياة أو موت مع الامبراطور الذي أصر على عدم الموقف الا اذا اكمل سيطرته التامة على شبه الجزيرة الإيطالية بما فيها مدينة روما وارتاب كثير من أهل الفكر والملكية من تعطيل البابا للموقف ، ومن بينهم لويس التاسع ملك فرنسا . وبالرغم من أن كل بابا كانت له أولوياته السياسية قبل انتخابه ، فإن كلا منهم انتهج سياسة التصلب والسناد نفسها تجاه فريديريك .

وفى سنة ١٢٦٦ م . واصل منى كتابة بحولته ، وكتب عن « المجمع الفخيز الذي مارسه البلاط الرومانى » (٢١) . وفى تلك السنة ذاتها ، اتخذ منى جانب الامبراطور فريديريك الثاني فى أول اشارة له عين الخلاف بين فريديريك عقدا والبابا .

• وفى ذلك الحين أعاق البابا خطة الامبراطور القائمة على عزه ايطاليا بعمل الأوامر البابوية التي يمت بها وكان الامبراطور قد حشد كل القوات الامبراطورية التي استطاع حشدتها ، لمواجهة الإيطاليين

لتنظيمهم ، ولا سيما إلهي مدينة ميلان ، لأن تلك المدينة كانت مرتما لكل المذهب القديمة التي لا تؤمن بمذهب الكنيسة العالمية ، بالإضافة إلى المراهبي - ويبدو أن الإمبراطور وجد أنه ليس من الحكمة في شراء المذاب لتقديم المساعدة للأراضي القديمة قبل القضاء على هؤلاء المسيحيين المرفيعين الذين كانوا أشد خطرا على المسيحية من المسلمين - وتسبب فريديريك الثاني لهذا التجنب لمحاياة البابا لسكان مدينة ميلان ، ومنحهم الحماية ، في الوقت الذي يحتم عليه واجبه أن يكون أبيا للاتقيين ومطرفي لضربه الأشرار » (٢٢) .

وعلى صدد - نعلق حتى مع فريديريك إبان خلاف هذا الإمبراطور مع البابوية ، والممى الشمالية بإيطاليا - يستطيع المرء أن يترك إدراكا كاملا شجبه الشديد لإبزار البابوية الذي كان من الممكن أن يكون عدوانيا حتى لو كانت تلك الأموال تنفق على قضية عادلة - وفيما على مناه توضحي من عشرات الأمثلة ومن الملاحظات الانتقادية التي أدرجها حتى في أماكن كثيرة ، وفي كتاباته وهذا المثال التوضحي - ذكره في أحداث سنة ١٢٤١ م - وفي ذلك الحين ، امتد جشع البلاط الروماني الضيف إلى حد الخلط بين الصواب والخطأ ، ضاروا عرس الماخط بكل الجياه ، كما تصل المرأة المعاصرة ، التي تسع نفسها ، لكل من يدفع لها - ذلك كله يد أن اعتبر هذا البلاط الروماني ، أن الربا ليس سوى اثما طفيفا ، وأن بيع وشراء المناصب الكهنوتية ليست ضمن الجرائم على الإطلاق - وزاد الأمر سوءا أن انتقلت تلك العموى إلى الدول المجاورة ، بل أن انطسرا نفسها لم تسلم من تدنيس طهاوجا ، بسبب تلك الأمراض الخطيرة ، وربما كان ذلك كله باذنه من البابا جريجورى ( التاسع ) أو بمساعدته - وغل الرغم من كثرة الأمثلة المشابهة والتي ناهب رافحها ، قامى وحلت من الشاسب أن أدوى بإيجاز مثلا واحدا ، لكي أوضح كيف حل غضب الله ، الذي يسهل ولا يسهل ، على ذلك البلاط المذكور (٢٣) .

وحا أثار اعتراض حتى ، والكنيسة الأنجليزية ، والشعب الانجلى أكثر من المطالب المالية ، قيام البابوية بتعيين إيطاليين في الرتب الكنسية ذات العمل في إنجلترا - على أن النسب الأساسى لقيام البابا بتعيين هؤلاء الأجانب في الكنائس هو ضمانه قيامهم بمعاونته في مواجهة نفقات الادارة البابوية في روما ، فهي التي تتولى امور كل العالم المسيحى - وعندما كانت معظم الموارد المالية ناتجة من الأرض الزراعية - ودخل الرتب الكنسية في العصر الوسيط ، لم يكن أمام البابوية من رأى مطلقى من وجهة نظر البابوية لتحويل سوى هذا الأسلوب الذى اتبعته - وتوضيح الوثيقة التالية أن الحاجة إلى جمع أكبر قدر ممكن من الموارد المالية لواملة

الحرب ضد مريدونيك الثاني ربما كانت سبباً مساهمة لا تقل الأهمية  
 عن تمويل الأتاتورك البابوية . وفي هذه المرحلة أصدر البابا أوامره بتعيين  
 مندوب خاص من الإيطاليين في المنصب الديني في ذلك البلد في إنجلترا .  
 ويتم توزيع المنصب الديني في ذلك البلد بين الإنجليز والفرنسيين من  
 الرومان . بناء على رغبتهم ، شريطة أن يتوروا جميعاً ثورة رجل واحد ضد  
 الامبراطور ، وأن ينفذوا كل مصالحهم من أجل الإطاعة به عن العرش  
 الامبراطوري . . . . . ولذلك أرسل البابا تفويضاته الخاصة إلى ادومند  
 Edmund . رئيس أساقفته كانزيري . والأساقفة في لينكولن  
 Lincoln . وسالزبري . يأمرهم بتعيين ثلاثمائة من الرومان في  
 المنصب الديني في ذلك البلد التي تكون شطيرة ، ومصدراً إياهم بضم  
 شغل أي منصب قبل أن يتم توزيع ذلك العدد المذكور . . . . . على أن  
 ادومند ، الذي استسلم طوعاً أو كرهاً ، لأساليب الإيثار القبيحة السابقة  
 الذكر ، ودفع ثمنها من المراكات إلى البابا ، والذي شاهده أن الكهنة  
 الإنجليزية يترغ أقفا في التراب يومياً ، وعلى بحر صرايد ، وسبب  
 مستلكتها ، ويحرم من حرياتهم ، سار متبرماً في الحياة لرؤيته مثل ذلك  
 الإثم تحدث على الأرض . ولذلك بعد أن طلب ادومند الحصول على موافقة  
 الملك ، وبعد تلقيه إجابات غامضة ترك البلاد ، وهو يتجرع كؤوس  
 المرارة ، وأبحر إلى فرنسا ، حيث صحبتته حاشية قليلة العدد ، واتخذ  
 مقامه في بونتيجي Pontigny وحقق المكان الذي أقام به سلفه القديس  
 توماس St. Thomas . أبى حانه في المعنى ، وشغل ادومند نفسه في  
 الصلاة والصوم . ( ٢٤ )

كان علم من المفرد أقل ضرورة عندما كتب عن هيري الثالث  
 والمحكمة الملكية لذا ما قورده بما كتبه عن البابوية والإدارة البابوية  
 الرومانية . وعرض كل من الأفراد والمؤسسات الاجتماعية إلى ما يبدو  
 من خط بالقدر والنقد الجارح بالقدر الذي طرحه متى على كل من البابوية  
 والتاج . ومن المتأخر أن اكتشف متى أي شيء يمكن أن يستحق البابا  
 أو الملك التنازل عليه ، بل أنه من البلاد أن قام متى باتخاذ موقف الرقيق  
 الأسابي للمشاركين معه في المائدة ضد خصومهم . ويرجع حجوم متى على  
 السلطة الكنسية والملكية . وعظمه عليها لممارستها سلطات قضائية  
 في مدينة سانت الينز .

وهو الأمر الذي يكشف عن السبب الرئيسي في حقده عليها .  
 وإذا كان رئيس دير سانت الينز قد تمتع بموقف مستقل سواء بالنسبة  
 للملوكات مع تلك أو مع البابوية وذلك طوال القرنين الحادي عشر والثاني  
 عشر للميلاد ، إلا أن هذا الاستقلال تعرض للهجوم من قبل كل من

الملك والبابا في القرن الثالث عشر الميلادي . ولم يجلب للدير فقداته لاستقلاله سوى تزايد عدد المطالب المالية من قبل البابوية والملك . وهي التي فرغت على الدير . وكذلك تدخل كل من البابوية والملك في اختيار الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وصارتها الوسيلة لتعيين الموالي لها في المناصب الكنسية ذات الدخل .

وبالطبع كان تدخل السلطة الملكية في اختيار الأساقفة مسألة فديية ، بيد أن كتابات متى في حويلته عن سنة ١٢٤٦ م ليست غير مقبولة ناعما . إذ أنه عرض هذا الأمر وكأنه إجراء جديد ابتدعه هنري الثاني . وكسب متى قائلا : كانت قوانين سالبريري Salisbury لا تسمح لأحد بالحصول على عوادة الملك ، ما لم يكن ينتمي إلى البلاط الملكي لكي يحض الكنيسة من الأخطار ، ويحظى ببوله الملك . ومن ثم تم اختيار ولهم من يورك ، وهو من أشهر رجال الدين القريب للملك ، وعصبة بيغوي Beverley ، وكان ضليعا في القوانين . وعين أسقفا ، وراعيا للأرواح . كما كان هناك اعتقاد بأن هذا الاختيار يرضى الله ، ومقبول من الملك . ومن ثم صبح التثبيت الديني دون تأخير ، ( ٢٥ ) .

وكان اختيار أحد مجلسي الملك هنري مجرد جزء من تسوية بين الملك والبابا ، وهو الأمر الذي لم يكن مقبولا لدى المؤرخ متى إلى حد كبير ووضح ذلك بحلا في حالة ايلمار Ailmar ، شقيق الملك هنري من والدته : « وهو الذي قام البابا بمنحه التثبيت الديني على الكرسي الأسقفي في ونشيسر Winchester ، بالرغم من صغر سنه . وعدم معرفته للتعاليم الدينية . وعدم قدرته على شمل هذا المنصب أو الرعاية الروحية لكثير من الأرواح . وحظى ايلمار بكل عطف وتأييد من قبل البابا ، لفرحة أنه احتفظ بالموارد المالية التي كانت تحت يديه قبل توليه الكرسي الأسقفي ، وحلت ذلك كله بفضل رعاية الملك له . على أن البابا أمر على الفور بمنح ابن كوت بورجودي Burgundy حصة قدرها ثلثه من الماركات لذلك الطفل ، حتى يقدم البابا الدليل على أنه لم يزرع حبا في أرض قاحلة دون أمل جسي . المحصول » ( ٣٦ ) .

وقامت طلبات هنري المتواصلة من أجل الحصول على إعانات مالية ، السبب الرئيسي في إثارة اعتراضه على سياسة الملك وتأييده بدور المنسحق باسم الكنيسة الإنجليزية والطبقة الأرستقراطية في إنجلترا . على أن المؤرخين ليسوا على اتفاق كامل فيما يتعلق « صمد مشروعية » تلك الطلبات . وحتى السنوات الأخيرة ، مأل هؤلاء المؤرخون إلى قبول

اعتراضات متى العتيقة ، باعتبارها رأى مشرول صدر عن ناقده محايد ،  
 وجري ، استطاع التصدي بشجاعة متناهية. السلطة الملكية بسبب  
 انحرافاتها في إدارة الدولة ومعيها لمرض الهيست - وطرأ لأن الأبحاث  
 العلمية المتلاحقة قد وضعت أدرك متى الحسي ، وكذلك موضوعيته في  
 الكتابة ، موضع الشك ، فإن موقفه لذلك وميأسه كان لهما نصيب  
 أكثر تماطلا عند التقييم .

ومع ذلك إذا ما اعتبرنا الحكم القاسي الذي أصدره سي على هنري ،  
 كإن حكمنا حاطنا ، فإنه لم يكن في حجم الحكم الذي أصدره من قرأ حوله  
 متى في الوقت الحاضر - إذ اكتفى كتاب الخويليات في العصور الوسطى  
 تنتظية الأحداث التي جرت على عهدهم بقدر ما أثرت في نفوسهم ، على  
 نبط المراسلين الصحفيين ، إلى حد ما ، على الرغم من أنهم لم يكونوا في  
 موقع المسئولية - ويمكن القول بصفة عامة أن الأحداث أو التطورات  
 التي لحقت كاتب الخولية أو مجتمعه بالضرر ، فلم بالتعبير عن حالة  
 الرثاء لا حدث ، أما الأحداث التي عادت عليهم بالخير ، فقد قاموا بملحها  
 والثناء عليها - وليس من الواقع في شيء أن نصف متى باوريس بأنه مراقب  
 موضوعي للأحداث ، وقادر على الاقترب منها يمثل الرؤية الواضحة لأين  
 خلدون التي عاش بعهد بمائة وخمسين عاما ، والذي كانت قدراته  
 التحليلية جريئة حتى على عهد - ولم يترك شي تلك الظروف إدراكا  
 كاملا ، مثل تزايد نفقات الحكومة ، والتي ربما كانت سرورا لطلبات هنري  
 المتكررة من أجل الحصول على المساعدات المالية - وقام متى بإيراد ندير  
 الملك ، واقفاقه على اقارب زوجته الأجانب ، وعلى الممارسات الخارجية ،  
 ومنها وضع ابنه ملكا على عرش صقلية - ولابد أن المرحوم في عصره  
 هذا ، قد توقعوا أن تلك الطريقة هي من ينكث الفكر متى - ولا شك  
 أن قيام هنري بإغراق اقارب روحته ، وأصدقائه بالذهب ، والمناصب  
 جعله عرضة للبهوم والانتقاد ، وأمد نقاده بالذرائع المحتملة دون مشقة ،  
 والتي أقتنعهم بأن الاضطرابات المالية للإدارة الملكية كانت نتيجة لسوء  
 تدبيرها ، وبالإضافة إلى عدم البارونات لهري ، والذي عبر عنه متى ،  
 يمكن أيضا الخوف من تمرض السلطة الملكية لامتيازات البارونات للخطر .  
 تلك الامتيازات التي قبلوا بانتزاعها من تحت ، والد هنري في رتيديد  
 - Beaumarchais

ويبدو أن متى كان يشعر بالانتهاج ، وهو يذكر قرأ حوليته  
 بالعمليات المتكررة التي مارسها هنري عندما انفق الأموال على اقارب  
 زوجته الفرنسيين ، إلى حد الاثراء - ففشتنا محاور جوي دي لوزيان  
 Oup de Linségné ، تنقضي الملك هنري من والدته جديدة لتسعد عن

نهاية ١٢٤٧ م . كتب حتى ما على . ملا الملك لمتعته بكميات كبيرة من المال حتى أنه كان مضطرا إلى زيادة عدد الخيول . ومع هنري قلعة هيرتفورد Hertford إلى شقيقه وليام من هالينس William de Valence . ومعها مقلع الحياض والتكريم المناسبة . وأعطاه مبلغا كبيرا من المال . . . وبالنسبة إلى أخيه الثالث ايثمار Ethelmar . فقد أمدد بالكثير من أموال المرأة الصامة . التي جمعها عن طريق التوصلات الملتصقة . واختصها من كل اسقف . ورئيس دير . . . حتى أن هنري هذا صار يعرف الرومان وقاحة . أما في ايتبار المذكور . فقد فاق الأساقفة في الثروة . ( ٢٧ ) .

وكان حتى ميلا إلى القاء بعض المسئولية على المستشارين العاملين مع الملك . بشأن سوء الإدارة في الدولة . لأنهم أسدوا إليه . صانع خبازة . . . وبنسبة على تشجيعهم ودون الاعصام برعيته . فان هنري : « أقسم عندما في مؤتمر ( سنة ١٢٣٧ م ) الذي دعا إليه النبلاء من كل مكان بعيد . أنه حالي الوقاض . وأنه يمانى من فقر مدقع . وأنه في أثناء حالات القلقة - ولذلك استنحتهم بالملاح . أن يعطوه نفث الممتلكات بكل أنحاء المملكة . طوعا ومساندة لمركته كذلك . وفي أجل توطيد أركان الدولة على أسس أكثر ثباتا . وضايق النبلاء يشك عند سماعهم لذلك الحديث . واجابوا بأنهم كثيرا ما عرضوا لظالم من هذا القبيل . وأنهم تصاعدوا الأحاسيس . وقد أصابهم التحف من جراء تكديس الثروة لديهم . في الوقت الذي انتهك الفقر كيان المملكة . وباتت الدولة . وقد احتج بها الأساطير من كل صوب - ومع ذلك . فبعد مناقشات مطولة . ونظروا لأن الملك يلجأ كبريائه . وعد بأنه سيفدوم بمشورهم من ذلك الحق تصاعدا . ويلجأ تردد . استطاع الحصول على ثلث الممتلكات المنفولة دون صعوبة تذكر . وبعد ذلك أصدر أمره بالجمع وتقدير قيمة ما حصله . وفقا للقيم الشائعة . ركيس وفقا للقيمة الملكية . ولم يسمح بوضع ما جمعه في الأديرة والقلاع . وفقا لما اخذ عليه من قبل وتم الاعتماد له . ولم يمتنع يساء على مشوره النبلاء . إذ أنه لم يستشر أحدا من رعاياه بالمملكة . وأما سلحت تلك الأموال إلى الرياء لتبذل إلى خارج البلاد . وتحول هنري إلى اساقفة مصححه السحر الذي خطب له . إذ لم تسد لديه القدرة على التهم المسلم . ومن ثم انتشر الحذر بين الشعب . وازدادت حدة السخط والغضب عند النبلاء . ( ٢٨ ) .

وعلى الرغم من شدة عنف مهاجمة في المطالب . والانتجاهاات السياسية . لكل من البابا . والملك هنري . فان ولأه هذا الزواج لكل منهما لم يكن موضع شك . إذ كتب سنة ١٢٤٨ م يقول : « فبما رئيس أساقفة

أطالكية ، وتهور تهوراً شديداً عندما حرم كنسيا البابا ، مستغفماً في  
في ذلك سلطة جوقا ، وحرم أيضاً الكنيسة الرومانية ورجالها ، ونفوه  
في عظامه الدينية بأقوال تنم عن عدم احترامه للمقدسات . وأدعى  
لنفسه مكانة تفوق مكانة قداسة البابا ، والكنيسة الرومانية ، لأن القديس  
يخترس الرسول ظل يدير شئون الكنيسة في أطالكية لمدة سبع  
سنوات . . . . . وأخيراً نحن البابا المزيف المذكور بماليه ، ما أحدثه من أذى ،  
وما فعله من حجج باطلة ، إلى أنه رد كيده إلى سحره ، واستغفر خطاياه ،  
في الوقت الذي ظل منه ، البابا الحقيقي دعامة للكنيسة ، وحليته بطرس  
القريناني ( على الرغم من أنه لم يمر على هجر بطرس ) ، شامخاً ، ورايض  
الجأش وموجلاً الضباب إلى يوم الحساب » ( ٢٩ ) .

وبمناسبة زيارة هنري إلى دير سانت اليز في مارس سنة ١٢٥٥ م ،  
كتب حتى الكلمات الودية التالية عنه . « ذهب الملك إلى دير القديس  
اليز ، في التاسع من شهر مارس من هذا العام ، في الوقت الذي كان  
أبنة إدوارد موجوداً في حاكمي ، وظل الملك هناك لمدة ستة أيام .  
عضاضاً في الصلوات ، ليلاً ونهاراً ، في جشوع تام ، على صوة التسبوع .  
وعندما صعدوا للقديس اليز باعتباره أكبر شهود المملكة . وكانت  
صلواته نيابة عن نفسه ، وعن أبنة إدوارد . وعن أصدقائه الآخرين .  
وقسم الملك قريباً إلى الله وإلى التشبيه المقدس عبارة عن عباسي فيمستين ،  
وردل حارحياً بلا كبير ، ويطرح على الكنعين ، وهو خاص بانقاء الترانيم .  
وكان هذا الردل فصلاً وعزياً بالذهب . ويجب الإشارة إلى أنه لم يسلط  
من قبل أن قام أي ملك لاسجلترا بالبرع بمنزل هذه العدد الكبير من  
الجوخ المحلل الأسود أو الأرواحي الذي دعى جدرين تلك الكنيسة . كما  
قبل هنري الثالث ملك اسجلترا ، كما هو مسجل في الكتاب الصغير  
بالكنيسة المذكورة وفيه وصف كامل لقطع الجوخ المحلل الأسود أو  
الأرواحي . ومجموعة الوثائق . والمعادن النفيسة - وبذلك يكون هنري  
قد قام الملك أوما Offa ، مؤسس دير سانت اليز . بل وكل من  
سبقه » ( ٣٠ ) .

وبالنسبة للفترة الرسمية ، خصص حتى معظم اهتماماته إلى البابوية ،  
وإلى هنري الثالث ، وإلى فريديك الثاني . وهوود تصير اهتمامه  
يفريديك إلى زواج ذلك الإمبراطور من شقيقة هنري ، وقد أدى هذا  
الارتباط العائلي إلى جعل الماهكين حليفين قويين في أي نزاع مع فرنسا  
والبابوية . ويظهر أيضاً اهتمام هنري الشديد بأعداد حصة صليبيه .  
ما أولاه من عناية للإمبراطور فريديك ، لأنه اعتقد أن هذا الأسرطور  
قد جاهر بضرورة تخليص الأرض المقدسة بكل سدق ، وبلا أدنى ريب .

وكذلك باعتباره فريديريك ملكاً ورومانياً مقدساً ، فقد كان ينظر إليه  
كنصير للعالم المسيحي ضد التهديد الخطير الذي فرضه انتشار ، ولحق  
تفيسر ، احتدام هي بفرديريك يجب ألا يتجاهل المرء الحقيقة المحزنة الناجمة  
عن الرضا بطريركية الرومية التي قامت بين الامبراطور وعمرى ، وهي أن كثيراً  
من المعلومات والاتصالات الفكرية وغير الفكرية وصلت طريقاً لها الى انجلترا  
حتى وصلت الى متون في نهاية الأمر .

وكان الخطاب الذي أرسله فريديريك الى ريتشارد اول كورنول  
Cornwall ، في سنة ١٢٥٧ م . أعد تلك المعلومات ، حيث وصف  
فريديريك انتصاره المبرح على جيش ميلاني عند كورتوف Cortenova .  
ولم يفسح متي عن كيفية وصول الخطاب أو مسورته الى حوزته ، بيد أنه  
قدم النص الكامل لتلك الرسالة الخطية التي وردت على لسان فريديريك  
، وعصل مرسة جوابية . . . فقد بحث أن أهالي ميلان وحلفائهم استمعوا  
لاقاعة حامية في بريشيا Brescia ، ومن ثم فصل أحد الأنهار بيننا  
وبينهم . وقد أحاطهم ذلك النهر بسور واق . ثم أقام معسكراً على  
الحامب الآخر من نهر اولسو Oglio . غير أن العرساء المخلصين  
وسكان المدن عافوا الى أهاليهم ، لمعلم تكتلم من تحمل حالة الضجر  
الناجمة عن التأجيل غير المتوقع ، وشلة التواصف في ذلك الوصف . ومع  
ذلك ، فقد كلفنا جماعة من جيشنا ، وتقاتل بعناء ضفاف النهر السريع  
الجريان ، صوب الجسور ، التي كان على من احتار الرحيل الى سارلهم  
عبورها . ونظراً لعدم مقدرة أهالي ميلان ، ومن تحالف معهم ، على البقاء  
طويلاً في الأماكن التي تحصنوا بها نتيجة لنفرة المستلزمات الضرورية  
من المسؤن ، فانهم عسروا نهر اولسو Oglio ، مستخدمين مخاضات  
النهر ، والجسور المتحالة عليه ، الى أن وصلوا الى ارض مفبسةطة ، طابق  
أهم قد يفلتون من أيدينا بالقرار صرا ، وربما لم يتصوروا أننا كما على  
مقربة منهم . وما أن اكتشفوا أننا على مقربة منهم حتى نصب بهم الخوف  
والذعر كقصف الرعد وعك مشاهدتهم لقواتنا الألمانية من جيشنا  
الامبراطوري ، بل وقبل أن يستطيعوا رؤية أعلامنا المظفرة . وشعاراتنا  
الامبراطورية المتشلة في صور السر حتى لاندوا بالقرار من أمامنا . وهم  
في حالة من الفوضى والارتباك الى أن وصلوا الى سارلهم التي كانوا قد  
يعتبرونها حصناً الى نوبيا كرومبش Nuova Crux . على جيولهم وبأقصى  
سرعة ممكنة الى الحيز الذي لم تمكن منه قواتنا البطاردة أهم من رؤيه وجود  
هؤلاء الأقبى . ولما كنا نعتقد أنه من الواجب علينا الاسراع في تقديم  
المساعدة لقواتنا الإضافية التي تقهقبت في حناعة ضخمة ، فأننا اتجهنا  
منهم بأقصى سرعة بكامل جيشنا . وفي الوقت الذي توقعنا أنهم قد ودعهم

المدو على أكتافهم ، فأتى لم تتمكن من متابعة المسير بسبب كثرة عدد الخيول التي حامت على وجهها في كل حلب وصوب ( نظرا لأن راكبيها قد تخلوا عنها ) ، وكذلك الأعداد الكبيرة من الفرسان الراقدين على الأرض من الجرحى والقتلى . لما من بقي من المدو على قيد الحياة ، فظل واقفا أو راقتا على الأرض ، وقد أحاط بهم مساعدو الفرسان ، الذين يسهرون على خدمة ساداتهم ، واكتسفت موقع سلاطنتهم ، بانقرب من أسوار نيوقا كروتشه ، ومحاولة بالحدائق ويحيطها عدد كبير من الفرسان ، وكل جنودهم من المشاة ، الذين قاتلوا ببسالة دفاعا عنها . ثم وحها اصمامعا الى مهاجمة هذه الراية والعمل على الاستيلاء عليها - وشاهدنا بعض قواتنا ، بعد نجاحهم في شق طريقهم عبر الحدائق ، وبعد ما أبدوه من شجاعة ماثقة ، استطاعوا شق طريقهم الى سارية المدو . ولكن عندما حل ظلام الليل الذي أدى إلى أن رجالا يتحركون شوقا لحلولة ، إذ توقفا عن الهجوم حتى الصباح الباكر من اليوم التالي ، ووقدنا للراحة ، وظللنا مستلبي سيوتيا ، ولم نطع ملايسنا الحربية مصممي على احراز نصر لا ريب به ، والحصول على السارية الزمرية للمدو . وعندما برغ النهار ، اكتشفنا ان سارية المدو قد نقلت من مكانها وتركت بين مجموعة كبيرة من العربات المثقلة القديمة والمهملة وبلا حراسة ، وتم مزرع الصليب الذي كان معلقا على الطرف الأيمن من السارية . ويبدو أن الفلوس من الأعداء وجدوا أن الصليب كان فضلا ولذلك تركوه في منتصف الطريق . أما حامية قلعة نيوقا كروتشه ، ومن بها من القسيس ، والذين كنا نعتقد من الفلانهم من أيديا ، فقد خرجوا منها ، وتجمعوا تحت قيادة الحاكم الايطالي ( بودستا Podesta ) . وهو ابن دوق البندقية ، ورفعوا عليهم ، ولسوء ظنهم لم يفلتوا من أيدينا . ولكن أقدم رسفا محضرا لما حدث ، اكتمى بالقول بأن حوالي عشرة آلاف رجل (٤١) كانوا ما بين أسير وقتيل ، ومن بينهم عدد كبير من السلا وكبار الشخصيات من جماعات أهالي ميلان . اننا نملك بكل هذه الأمور لأنها تفصل السرور على فليك - صدر في كريمونا Cremona في الرابع من ديسمبر في الخمسمشرية (٣٣) الحادية عشرة .

وعلى الرغم من تعاطف حتى مع فريدريك ، فإنه عسر عن وقفه لما فرضه الامبراطور المنتصر على ميلان . من مطالب زائدة عن الحد . إذ قال ان أهالي ميلان عرضوا عند استلامهم : « تقديم كل ما يملكونه من الذهب والفضة الى الامبراطور . وأن يجمعوا كل أعلامهم ويحرقونها عند قلعي

(٣٤) الخمسمشرية . Indostion في وحدة زمنية مؤلفة من ١٤ سنة كانت صليبي في الاسطورية الرومانية وغيرها . التاريخ الأحداث المحلية . ( التبريم )

الامبراطور ، • كرامة الخشوع والطاعة • ووافقوا أيضا على تقديم عشرة آلاف رجل لمحاربته في حملة سكيثية ضد السلافيين في فلسطين ، وغمز أن الامبراطور رمى بكل كبرياء كل تلك العروض • ولم يبد أي أسئلة عن مطالبته بأنه يكون كل المواطنين خاضعين جميعا تماما لمشيئته • بما في ذلك كل منفيهم • وكل مستلكاتهم • وأثم هذا الطغيان • أجاب المواطنين بالاجماع أنهم لن ينفوا ذلك على الإطلاق • وقالوا : • لقد علمتنا التجربة • ولا نحس قسوتك ويطشك • ولذلك قاتنا بفضل الموت بالسيف • أو بالرمح • أو بالحربة • ونحن ندافع عن أنفسنا • عن الموت تحت حدة الفلر • والمعدة • وشدة القيد • • وبدأ الامبراطور يعتقد تأييد الكثيرين عند ذلك الحين • لأنه تحول إلى طاعة • في الوقت الذي بدأ فيه أمالي ميلان في استرداد قوتهم لتواضعهم • وبدأ على ما جاء في أحد الأناجيل المصححة • • ومن يرفع نفسه يتضع • ومن يهض نفسه يرفع • ( ٢٢ ) •

إن ما يضر تماثل متى مع فريديك الذي عبر عنه بصفة عامة • مره إلى رباط المصاهرة مع هنري الثالث • الذي كان ملكا على إنجلترا رغم كل نقائصه • كما أن متى لم ينس على الإطلاق أنه رجل انجليزي ويظهر اسم متى من بين المشككين الأول للنوع القومي الانجليزي • وهي الظاهرة التي أرجعها العلماء إلى القرن الثالث عشر • ولا يداني متى سوى القليل من المؤرخين المعاصرين في كراهته الشديدة للبرسيين • في الوقت الذي لا يضاهيه أحد في القسوة التي هاجم بها السياسات البابوية التي حلت المناسب الدينية ذات التدخل في إنجلترا بالإيطاليين • واستنزفت الأموال الانجليزية في تمويل الطموحات البابوية • السياسية • ضد فريديك • وكان وصول كونت فلاندرز *Flanders* هي بحر زلزال في إنجلترا في صيف ١٢٤٤ م بهدف مساعدة هنري في حربه مع أمالي اسكتلندا فأفصا لنسب لاصداره الرأي التالي : • لقد أثار قلوبهم سخطا شديدا وسخرية في قلوب النبلاء الانجليز • لأنهم قالوا أن إنجلترا قادرة على استئصال شاة اسكتلندا بدونه إذ أجبر الكونت المذكور مع ستين فارسا ومائة من الأنواع والخدم المزودين بالسلاح • وكل فرد منهم كان متلقيا على المعتام أموال الملك • ( ٢٤ ) •

ولا ريب أن متى شارك النبله الانجليزي الاستياء لقوم كونت فلاندرز إلى إنجلترا • ومن بين أسباب هذا الاستياء قيام حنا بالتنازل عن السيادة الاقطاعية العليا للبابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٣ م • إذ كان حنا هذا شخصا مريضا للغاية دون أدنى تحفظ • لذلك فسنما شب حريق في المقر البابوي في ليون *Lyons* سنة ١٢٤٥ م • ونتج عنه

أضرارا جسيمة ، ذكر متى : « أنه ذلك الميثاق البغيض المتعلق ببيع الاتقاف  
الانجليزينة للبلدية ، والذي تم تقطيع عليه في عهد الملك خنا ، طاحنه  
الذكرى الباعثة على الأسى ، كلفه من بينه الأسماء التي أنت عليها  
النيران » (٢٥) .

وبالنسبة للعالم ويلز عبر متى عن مشاعر مختلفة . فعندما حاربوا  
الملوك هنري كان متى ميالا الى التصطف معهم ، وبالنسبة للمسيحيات أخرى  
فإن ما كتبه فيما يلي يوضح موقفه على نحو أفضل . « إن ولا أعالي ويلز  
هو ولا الضرورة والحاجة ، إذ أنهم لا يبدون ذرة من الرحمة حينما تكون  
السلطة في أيديهم . وعندما يحاكمهم المحل يصطوبون منه . يقع تحت أيديهم .  
ولكن إذا ما تعرضوا للهزيمة يودعون بالفرار أو يفلتون الى المذلة  
والهوان . ومثل أولئك القوم لا يمكن الثقة فيهم على الإطلاق . وكما يقول  
الشاعر : « اني أختي الاغريق حتى لو قسموا لي الهدايا » . وكما يقول  
الفيلسوف سيكا : « لا نستطيع على الإطلاق إقامة معاهدة  
علم اعتماد مع العدو » (٢٦) .

وفاق حسب متى لديره حبه لانجلترا : « وشعر بالامتنان لوجوده بين  
علم الجامعة الديرية التي تبوأ مركزا قياديا بين الاديرة الانجليزية .  
وعبر متى بارتياح شديد لرفض رئيس دير « الانتداب الوحيد الذي  
لديه شجاعة » الموافقة على اختيار بونيفس Boniface ، رئيسا لساكنة  
كاتدربري ، بصفة أنه غير متزني شئون هذا الكشليم (٢٧) . وأشار  
حتى الى أن رفض رئيس الدير الموافقة على « انتخاب » (٢٨) بونيفس  
أدى لوضع رئيس دير وستمنستر حائسة في المكان الذي يشتم  
فيه وضع خاتم رئيس دير « إذ أنه التمس إليه هو أول شهيد في  
انجلترا ، ومن ثم فإن رئيس دير هو الأول على رؤساء اديرة انجلترا في  
الدرجة الكهنوتية ، والمكانة السامية ، ولذلك لا بد وأن يوضع حائسة قبل  
غيره » (٢٩) . وعندما رفض رئيس دير حتى طلبنا لانغا لرئيس اساقفة  
كاتدربري مان يصدر اوامر مقدسة في الكنيسة الديرية والا تعرض لشيء  
يرفض مركز رئيس الدير الى الاعطال من منصبه ، أبدى متى ارتياحه عندما  
سجل في حوزة الموقف المثلث الذي انتخب رئيس دير (٣٠) .

وفاخر متى بديره . والنظم الميري البديكى بنفس القدر الذي  
عارس فيه كل جديد ، وتجلى ذلك في المعاء الذي أبداه تجاه الاخوان  
الروحانيات الفقراء الجواله Priors ، في سنوات الأولى التي كتب فيها  
حواليته في دير سانت اليفز . وبالمستثناء جسارة المسترشان  
Cisterciens ، لم يجد متى سوى القليل من الجهرى ، في وجود  
الأنظمة المنيبة الأخرى . والد كان لم يتصد نقالة صينا منها على وجه

التشخيص ، « التي كانت تتكون يوميا » وتماوس نشاطها دون توقف » .  
ولقد أتت حليقة ظلي وجود الكهنة على كاهن الذين استغلوا بالنظام  
الديني للقدس ، يندكت ، وبالقديس أوغسطين (السبب المنزلة وهو  
ما يتعارض مع قانون المجمع العام الذي عقد على عهد البابا انوسنت  
الثالث صاحب الذكرى الميمية « (٤٦) كما أن تلك المضاعف التي أبدعها  
هؤلاء المتفوقين انضمت بجوارها بسرعة إلى التنظيمات الدينية الجديدة التي  
ظهرت مؤخرا (٤٧) :

« على أن ما عمل على زيادة الشعور بالكرامة عند التنظيمات الدينية  
القديمة ، ورجال الكهنة من غير الرهبان ، على وجه الخصوص ، عند  
الاخوان الرهبان القفره الجواله « Freres » فيهم بالطواف في كل  
مكان لاقاء الواعظ الدينية ، دون قيد أو حد ، وقبولهم القربان المقدس ،  
وسماهم لشراء الاعتراف ، ويمرؤ متى « حساس » هؤلاء الاخوان الى تعامل  
حب المال واتعمال حقوق الآخرين ، أذ يقول : « وفي الوقت الذي كان  
فيه النبلاء والأثرياء على حالة الموت ... قاهت تلك الجماعات الدينية  
بدافع من حب زيادة الكاسب المالية » بحيث هؤلاء النبلاء والأثرياء على الحاق  
الأذى والحسرة بالقسماسة الذين أفهم الجميع . وعارضت تلك الجماعات  
الدينية مهمة الاعتراف التي يمارسها الكهنة . وابتزوا الوصايا المستترة .  
وأثروا على أنفسهم . وكل جماعاتهم الدينية فحسب . واعتبروا المسهم  
مرفق من صوامع . وهكذا لم يجد أي رجل مؤمن ، في هذه الأيام يعتقد  
في حصوله على النجاة من الخطيئة ، إلا إذا سار وفقا لتوجيهات الوعاظ  
والرهبان الرئيسيين Minorites (٤٨) - ولرغبتهم الشديدة في  
الحصول على الامتيازات في قصور الملوك والحكام ، فإنهم مارسوا دور أعضاء  
المجالس الاستشارية ، وبالجبابهم وأبناء الخزانة العامة ، والرافيق لهم  
الزواج ، والوسطاء لإتمام الزواج . وقاموا بنور المعدين للابترارات  
البابوية . وتقديم الخطبات الدينية . وكانوا إما مدعيين أو ساحرين ياقص  
شدة . كما باعوا بأسرار الاعتراف التي تلقاها الكاهن ، وكانوا يوزعون  
التهامات جزافا ... وعثرون إلى دهماء الجسر ترشيدين على أنهم قسماسة  
مذبح ، فتمسكون إلى المسئلة « ولا يبدل لهم » « ولا يصح لهم مذهبين »  
ونظروا الى رهبان النظام الديري الأسود ( البندكتيين ) على أنهم أشخاص  
انغمسوا في المظلمات الحسنة ويضربون كبرياء (٤٩) :

وربما يتوقع القاري لحرية متى التي كتب فيها يمثل هذا الانفعال  
الشديد عن البابا والملك ، والاخوان الرهبان القفره الجواله ، انه يبدي  
تحاملا أشد حدة عندما تكلم عن اليهود أو المسلمين مثلا . ولحسن الحظ  
لم تكن هي الحقيقة الواقعة ، وحقيقة أنه متى يبدو أنه شاكوك الكنديين

من الشخصيات وأصحاب الثقافة في التعامل القسري تجاه الإنجليس .  
ويوضح هذه الحمة بقوله ببساطة لأسطورة طقوس القتل اليهودي . وهي  
أسطورة أنكر صحتها القليلون من المعاصرين له .

وعلى سبيل المثال كتب حتى في حويلته عن سنة ١٢٥٥ م واقعة كأنها  
حدثت حقا وصداقا ، وهي أن اليهود خطروا غلاما في الغائصة ، ثم بعثوا  
مرا في طلب رفاقهم من اليهود في كل أسماء اتجالتوا للظهور والمشاركة  
في تعذيب المسيحي وقتله . وكان مقررا أن يتم تنفيذ حكم الإعدام للغلام  
وفقا لما ورد عن صليب المسيح في الإنجيل القانوية الأربعة . تماما  
يتنام ، وأعطى بذلك ، أنهم غذبوا الغلام . ثم توجوه بالمشرك ، ثم صلبوه  
في نهاية الأمر . وبعد مرور عدة أيام على تنفيذ الجريمة المزعومة ، تم القاء  
القبض على صاحب المنزل الذي كان القتي يلعب أمامه قبل احتفاله .  
والقى القبض عليه . واستدرج لتقديم اعتراف كامل ، مقابل وعده  
باستخدام الرأفة منه . ووفقا لذلك قدم صاحب المنزل اعترافا بأن « كل  
ما يقوله المسيحيون صحيح . لأن اليهود يصلبون كل علم تقريبا غلاما  
كأهائهم لاسم عيسى Jesus » . وتمت محاكمة قاتلة الجريمة على يد  
هيئة من المحلفين الذين أصدروا قرارا بأعدامهم مع إعدام الراش بهم .  
« الذي تم ربطه في ديل أحد الخيول وصحبه إل أن وصل إلى المنقطة »  
حيث انضمت روحه إلى الأرواح الشريرة في الأخير » (٤٥) .

وعصر حتى ياريس على التأكيد للقارئ أن علماء ياريتاب هذا العمل  
دعت محاكمتهم محاكمة دقيقة تماما ، وثبتت لثافتهم . ولام حتى جماعة  
الفرنسيسكان بكل شدة لمحاولتهم تبرير موقف هؤلاء اليهود الذين  
ماشدوهم أسماء الموت . واعتقد حتى أن هؤلاء الاخوان الرهبان القراء  
لايبد وأنهم قد أدركوا انه لا يمكن أن يكون هناك أمل في الحياة الدنيا  
أو الآخرة لئلا أولئك المجرمين الأشقياء ، كما أن الطبقات الدنيا انقلبت  
على جماعة الفرنسيسكان كغضب عادل لاختلافهم بجانب اليهود . وتوقفوا  
عن تقديم المصنفات الذهب » (٤٦) .

ومع ذلك فبرغم تعامل حتى على اليهود ، فإنه يجب أن نشارة  
عليهم ، من حين إلى آخر ، إذ قال : « أنهم أشد الناس تطامعا وشقاء » .  
حتى حويلته عن سنة ١٢٤٢ م أشار حتى اليهم باعتبارهم ضحايا جثع  
واستيناد الحكومات الملكية بصفة مستمرة . وفي سنة ١٢٥٤ م أشار  
حتى إلى ازدياد شدة قتل وطأة الاضطرابات الملكية إلى الحد الذي « ظهر  
فيه اليهود في حالة من القتر المدقع تماما » (٤٧) . ويحث حتى أيضا  
في أخبار المسلمين بتسامح سمي يرغب أن كراهيته الشديدة لحد

« مسلم » ( ٢ ) نفسه واللعنة الإسلامية كانت أمرا آخر تماما « ( ٤٨ ) .

ويكشف حتى باريس كتابته عما يعتبره كثير من الباحثين الاهتمام  
الغريب بالظواهر الطبيعية في المصور الوسطى . ولا سيما عندما تكون  
تلك الظواهر غير عادية ، لم يظف عليها الطابع التسميى . ولا شك أن  
متنبا ذلك الفصول غير المادى يرجع إلى التحدير الوارد في كل الأناجيل  
لشريعة الأريمة من أن المعجزات ندير بنهاية العالم ، وبالإضافة إلى ذلك  
اعتماد الكثير من المسيحيين بأن الله يستل العباد بالمعاصى والأوبئة .  
على الموم « لمقاهم على خطاياهم » - وصف متى عددا من الحوائق المضخمة  
التي حدثت سنة ١٢٤٨ م قائلا : « ولا نذكر على الإطلاق أننا شاهدها كلها  
من قبل » . « وشيت حوائق في عدد من البلاد » . بل أن البري أنبت تماما  
على ثلاث مجتمعات تقريبا ، وكانت برجين Bergen أحطها . ومن  
الواضح أن الله قد جعلت مصيئته يسلو تلك الحوائق كعلامة للفضيب  
الإلهى . « وكان ذلك مسجحا تماما بالنسبة للحريق في برجين حث ،  
« عبط من السداد لهية نتيجة لفضيب الله على خطايا البشر ، وكان مثل  
الذهب النقى يغتنه بنتج يجر ذيله من خلفه » . ومقط هذا الذهب على قصر  
الملك . الذى كان يعد مسابقة قلعها خمس مرات لدى إطلاق سهم ،  
لذلك كان بطش ربك الشديد حقا وصفتا أمام أعين سكان المدينة » ( ٤٩ ) .

وذكر حتى أيضا أن زلزالا ذك مدينتى شيلترين  
Children وسانت الينز سنة ١٢٥٠ م . وأثار الفزع الشديد بين الحام ، والغريان ،  
والمصافير والطيور الأخرى حتى أنها : « نشرت أجنتها فجأة ، ولأت  
بالفرار ، وكأنها قد أصابها مسي من الجنون » . وظلت تطير جيئة وذهابا  
على غير عدى . متيرة الخوف والرحمة في قلوب الذين شاهدوا الحادثه ، .  
غير أن ما أثار مخاوف الناس بصفة خاصة ، هو الاعتقاد بأن هذه الظاهرة  
سلن بأن : « الساعة اقتربت » ( ٥٠ ) .

كان حتى دقيقا جدا في وصفه ظيور المذنبات لدرجة أنه في استطاعة  
العالم الفلكي في العصر الحديث الاعتماد كثيرا على سجلاته عند اعتماد سجل  
عن تكرر حدوثها في ذلك المين . على أن خسوف القمر الذى تحدث عنه  
متو في السادس من أكتوبر ، سنة ١٢٤١ م . كان الثاني من نوعه في  
مدى عامين ، وأكد متى على أن هذا الحدث « هو الأمر الذى لم يحدث له  
سجل على الإطلاق حتى يومنا هذا » ( ٥١ ) .

وكتب متى عن نجم ساطع ظهر ليلة الاحتفال بعيد القديس جيمس  
St. James ، تم تحرك صوب الشمال . « ولم يكن سريرا ، وإنما

( ٥٢ ) « ما بين طائفتين من عند الفرنج » .

محرك على مثال طريق القمر \* وأخيرا غاب هذا الجسم عن الأبحار خلف  
 سحابة من الدخان والتمرد \* وحده حتى نوع تلك الظاهرة الطبيعية على  
 أنها كانت مذنبا أو تينيا \* وكانت أكبر بكثير من نجمة الصبح  
 Lucifer وتنبه سمكة البوري \* وعندها شهيدة البريق واللحمان \*  
 وينطلق دخان كثيف وشرور غزير من مؤخرتها \* \* ولم يستطع أحد أن  
 يقدم معلوما مقبولا عن تلك الظاهرة \* ورغم وجود أمر لا ريب فيه \* وهو أن  
 الحاميل التي كانت قد انحلت الأطار للتواصله نحوها قريبا \* بلغت  
 بعدد جدا من الوفرة يشكل ملحوظ عند تغير الطقس في الوقت  
 نفسه \* (٥٢) \*

وقدم حتى تقريبا للظاهرة الطبيعية التي حدثت مساء السادس  
 والعشرين من يوليو سنة ١٢٤٢ م \* إلى الباحثين والعلماء \* \* وفيما  
 على وصفه لتلك المعجزة الخارقة : \* وفي السنة نفسها ١٠٠ كانت السماء  
 صافية تماما بالليل \* وكان الجو صحو إلى الحد الذي ظهرت فيه المجرة  
 Milky Way (٥٣) بالدرجة التي تحدث في ليالي السنة التالية من السحابة  
 وكان القمر في اليوم الثامن من ميلاده ( حلالا ) \* ثم شاهدنا النجوم  
 تتساقط من السماء متدفقة بسرعة كالسهم ذاهبا وإيابا ومن جانب إلى  
 آخر \* ولكن على عكس ما يحدث في العادة \* انطلق شرر ليس بالقليل  
 من نوع النجوم ( التي عرفها أرسطو في كتابه عن النيازك من الظواهر  
 الطبيعية ) \* وكانت مثل البرق الناجم عن الرعدة ثم انلحمت  
 ثلاثون أو أربعون نجمة \* في لحظة واحدة \* بعضها في اتجاهات مختلفة  
 والبعض الآخر إلى أسفل \* في الوقت الذي بدأ فيه إطلاق النجم أو  
 ثلاث منها في صف واحد \* وعلى ذلك إذا ما كانت تلك الظواهر مجزأة  
 حقيقية ( وهو الأمر الذي لا يمكن أن يقبله عاقل ) \* فمضى ذلك أن  
 السماء لم يعد بها نجمة واحدة \* على أية حال علينا أن نطلب من المنجسين  
 الانصاح عما تنفخ به هذه الظاهرة التي يست مدعفة ومعجزة بالنسبة لكل  
 المتأخرين \* (٥٤) \*

وقد أدت الحشرات القاحلة في الأرواح الناحية عن الوباء الأسود  
 ١٣٤٨ - ١٣٥٠ م إلى التمسك على الأثرية وأراض الطاعون التي داهمت  
 أوروبا بحدود أقل ضروفة \* من حين إلى آخر \* إبان الألف سنة السابقة على  
 حدوث الوباء الأسود \* ويذكر متى أنه في نهاية سنة ١٢٤٧ م كانت  
 الكوارث مفرقة جدا \* إذ دفنت تسع جثث في يوم واحد في مقبرة كنيسة  
 القديس بطرس بمدينة سانت البترز \* (٥٥) \*

ويمكن للقارئ أن يغفل الدقة النسبية لإحصائيات متى \* لأن هذه  
 الكوارث حدثت على مقربة منه \* ومن ناحية أخرى \* يتردد المرء إذا ما حاول  
 (٥٦) دهره الحياة \*

المسلمين جدا رواه عن أن حوالي خمسة عشر ألف من الفقراء ماتوا جوعا في  
 لندن سنة ١٢٥٨ م . وخلاصة القول فقد أشار متى إلى أن الكثيرين لقوا  
 حتفهم ، حتى اضطر اللعابدون إلى دفن البديع في الجثث في مقبرة واحدة  
 بعد أن غلبهم الآلام على أرواحهم ، ( ٥٥ ) -

ولم تثر الحيوانات القوية حدة الفضول مثلما حدث في العصور  
 الوسطى ، جنسنا كانت حقائق الحيوانات غير معروفة تقريبا - ولا بد أن  
 متى لم يبتئ حيوانا شبرا للحمشة أكثر من الفيل الذي أرسله لويس  
 التاسع إلى هنري الثالث كرر للمشاعر الودية المتبادلة بينهما - وعلق  
 متى على ذلك الحدث : « لقد اعتقدنا أن هذا هو الفيل الوحيد الذي شاهدناه  
 في إنجلترا » ، أو ربما في البلاد لليلة على هذا الجانب من جبال الألب ،  
 ولذلك أسلف الناس زمرا لمشاهدة المشهد العجيب » ( ٥٦ ) : وفي الوقت  
 نفسه ، تقريبا ، كتب متى عن حيوان ضخم غريب الشكل ، قدبت به مياه  
 البحر بعد أن أعينته شدة تلاطم الأمواج ، واعتقد أنه مات من الطعنات  
 والجراح التي أصابته - « وكان هذا الحيوان الغريب الشكل أكبر من  
 العورت ، بيد أننا لا يمكن أن نعتبره من أنواع الحيتان » ( ٥٧ ) -

على أنه من الممكن اعتبار الجملة الأخيرة من الفقرة السابقة - والتي  
 اختتم بها متى أحداث عام ١٢٥٨ م - أنها كانت مجرد تسييح خياله ،  
 إذ أنه من النادر أن يقوم كاتبه المحلي في العصور الوسطى بتقديم موجر إلى  
 القارئ - وإنما تنهى مسئولياته عند مجرد سرد الأحداث - كما أن  
 ما قدمه متى من عبارات جميلة بشكل منتظم اعتبارا من سنة ١٢٤١ م  
 لا يمكن أن يقبلها القارئ في العصر الحديث على أنها خلاصات لأحداث  
 ستة بعينها - إذ أن غالبيتها ليست سوى إشارات رمزية لا يجب أن تكون  
 عليه الخلاصة ، وفيما إلى ما كتبه عن سنة ١٢٤٤ م - « وهكذا انتهت  
 هذه السنة التي كانت ووفرة الانتاج في الفواكه والحبوب ، لدرجة أن تم  
 مكيال الحبوب انخفض إلى شلحين ، وكانت أحداث تلك السنة ليست على  
 ما نشتم في النفس بالنسبة لا يعود في الأرائض القلقة - وتبرز تلك  
 السنة بالاضطرابات في إنجلترا ، وكانت للملكة الفرنسية مطوقة  
 بالاضطراب ، وتزايدت الشكوك في الكنيسة ، وتشتت حالات الشعب  
 والاضطرابات بين الإيطاليين » ( ٥٨ ) -

وأبعد متى سرنا موجزا للأحداث بلل فيه جهدا مضنيا غطى به فترة  
 خمسين عاما انتهت في سنة ١٢٥٠ م ، على أن نجد متى اختتام حويلته  
 قد يساعد على تفسير الطابع القائم لوصفه للأحداث التاريخية - وإبان  
 النصف قرن السابقة على ١٢٥٠ م - فمن وجهة نظر متى ، « حدثت أحداث  
 كثيرة مذهلة وغير عادية ، لم نعلم من قبل ... وهناك أحداث كتب

عبد كتاب كتيون وباحوثه في التاريخ ، ذكروا أنه لم تحدث عبر القرون  
مثل تلك المسجرات والأمور المفحشة ، والتي تنير القزح ، لما لها من  
عواقب وخيمة ، ( ٥٩ ) •

ومن بين الأحداث التي سردها متى ، الفزوات الشرسة التي شتها  
القتار المتوحشون ، ومستبلاء المسلمين على بيت المقدس ، ومعاناة إنجلترا  
من قرار الحرمان الكنسي لمدة سبع سنوات إلى أن صارت الطقاعة تابعة  
كبابوية ، وهزيمة أوتو الرابع إمبراطور ألمانيا في موقعة يوفين  
Boivides ( ١٢١٤ م ) • وتكرر حدوث حالات • الكسوف  
والخسوف ، والزلازل ، والظواهر الطبيعية الأخرى ( كالبرق والرعد •••  
الخ ) ، ( ولم تكن تلك الظواهر سوى تدبير يات دمار العالم أصبح قارب  
قوسين أو أدنى ) • والثاء ، فريدريك القبض على كثير من الأساقفة لمسههم  
من حضور اجتماع مجمع مسكوني ، وحصلت أصرى الثالث على فرنسا  
حيث • عاد بفساد إلى إنجلترا يجر أذيال الخزي والعار ، والباباوات  
الثلاثة الذين اعتلوا العرش البابوي في مدى عامين ، وقيام البابوية بتعيين  
الكنيسة الإيطالية • في الاطعام الكنسية بإنجلترا • ومم الذين لم  
يتمتعوا برعاية المؤمنين على الإطلاق • ، وظهور جماعات دينية جديدة من  
بينها جماعة البيجيين Beguines • بل أنه كتب في الإمبراطات  
الشديدة التي تفتت بين السدكتيين إلى حد ليس له مثيل في القرون  
السابقة • وعن حجم الحركة الإبيجنسية والقضاء التام عليها ( وربما كان  
ذلك هو العمل الوحيد الذي جعل متى يصبح صهرجة عن أنه كان يتوفيق  
من الله واحد نصه على الإشر ١ ) • وعن شغل الكرمي الأمتلى في  
كانتريري • • بشخصية ليست على مستوى الكفاية ( فرضها ملكه إنجلترا  
عرضا • • وعن انهيار الجيش الإسباني الذي كان تحت قيادة لويس  
التاسع في مصر • وعن الحرب الفروس التي لعبت بين البابوية وفريدريك  
الثاني وموت الأخير • • الذي وضع العالم في حيرة • ( ٦٠ ) •

وقد يعتبر النقاد صائرة متى القمام الأحكام الأخلاقية أبرز مواطن  
الضعف عنده باعتباره أحد كتاب التاريخ • والواقع أنه مال كثيرا إلى هذا  
الاتجاه • إذ لم تسلم الشخصيات البارزة التي اعتلت كرسي رئيس أساقفة  
كانتريري من قلمه الساخر •• فمنها وجبل رئيس أساقفة كانتريري  
إلى إنجلترا • كتب متى قائلا : • ولم يشعر أحد بالإحتياج لقدسة •••••  
لأن الجميع بلا استثناء تكروا كيف تصرف في لندن بكل قسوة وشذوذ •  
إذ أنه انتزع من رجال الدين حق زيارتهم • وبالإضافة إلى ذلك • فإنه  
انتهج أساليباً متبعة أدت إلى حرمان المسكنة والكنيسة من الخيرات • ( ٦١ ) •  
بل أن موت بعضهم لم يهضم من اللوم والتفريع • فذكر متى وفاة

الكاردينال حنا من كولون . John of Colonia في حويلته عن سنة ١٢٤٤ م بالجلية التالية : « وفي الوقت نفسه عن هذه السنة ١٠٠٠ ملت حنا من كولون ، وهو كاردينال روماني ، والذي كان معه يتنصع بكل أنواع الكبرياء والوقاية ، والذي فاق كل الكرادلة في حيازة الممتلكات الدينية وكان هذا الكاردينال هو المدين الفعّال . والمستول السام عن تقايم الخلافات بين الامير لودور والبابا » (١٢) ولم تكن الشخصيات العلمانية اشد حظا من رجال الكهنوت . ففي ذكره لأحداث سنة ١٢٥٨ م كتب عن وفاة وليم مورر William Morr ، لشرف الاسكندر لودومبرلاند Sheriff of Northumberland ، والذي كان : « لشد الناس سجلا ، وقسوة بالفقر ، واضطهادا للجماعات الدينية . وعلى ما يستند ، كان جسده الدينوي ، وتطيشه للثروة ، أوديا بحياته ، ليلقى مصير تيتالوس Tantalus » (١٣) .

ولذا كان متى قد انهدك في إصدار الأحكام الأخلاقية على نمو فاي به كتاب الحويلات الآخرين ، إلا أنه شاركهم في استغلال المورس الأخلاقية عن الحياة بصفة عامة . وعند متابعة الوصف وفي الاستجالات الفاضرة بمناسبة زواج الإيرل ريتشارد من كينيا Earl Richard in-Connah ، نجد أنه يجعل القاري يفكر مليا في ذلك الوصف . « كانت هناك كل مظاهر البهجة والذخ المتعاقبة بحقل الزفاف ، ولقد فاق هذا الحفل كل الحفلات التي قاطعها الدنيا من قبل في التفتحة والروعة . » وقد يحتاج الأمر إلى كتابة بحث طويل وصف هذا الحفل . ومع ذلك فيمكنني القول بإيجاز أنه كان هناك ثلاثون ألفا من الإقليم والمصالح في جناح تعداد المائة وجدت كل مظاهر الأبهة والمزج والمناولة والتماهي في وجود جماعات مختلفة من الحفنين ، وفي تنوع ألوان ملابسهم ، وفي أعداد أطباق الطعام ، ودعوة المدعوين لحضور الاستقبال ، بيد أن كل تلك المظاهر لم تكن سوى عرض زائل وزائف ، وجليل على أن هذا العالم متخادع ومغفل ، لأنه ما أن لاح ضوء النجم حتى تبدلت تماما » (١٤) .

ويتخذ متى موقف المصير في سواقر في المسائل الأخلاقية عندما وصف للشجار الأساقفي بين كاهنين في إحدى الكنائس بلندن ، والذي انتهى بمقتل أحدهما . وعلى الرغم من أن المذنب حاول إطفاء جريمته ، وذلك بأحداث جروح عميقة في جسده ، فإن جريمته انتفض أمرها ،

(١٢) سناليس ملك نرجم للأسطورة الإمبريئة أنه يوقى بش أمر إلى ذلك في لاء وقد تدل الأفعال المشقة بالمالكة قرب شخصه ولكن كلا من لاء والمالكة كان يرتد بعيدا عنه كما حاول يلوته - انترجم ،

وقضى ما استحقه من عقاب - واجتنب متى وصفه لهذه الحادثة بالحادثة النظرية : - ان ما يجعلنا نشعر بالفقر والافس ، ان كل المجتمع الديني قد جلب على نفسه القضية ، والمزى ، والمآز ، بعد ان سيطر عليهم الشيطان ، الذي حجب اليهم القسوق والتحصين - وماذا يقول حينئذ الكاثوليك اللذين خرجوا على القانون الكنسي ، امام القضاة الاعلى الذي يحاسب كل الباس ؟ ويل لهما لما اقترفت ايديهما من اساءة الى الذين يصفة عامة - فكان من الواجب على رجل الدين اللذين اغواصا الشيطان ، ان يكونا حذرين ، وان يتكهما غصبيهما عنكما ظهرت بؤادر الشارعات والذوم ، لان : - الضيق يؤدي الى النزاع ، والنزاع يؤدي الى الشجار ، والشجار يؤدي الى الموت - كما ان الموت على هذا النحو يؤدي الى موت ابدى ، (٦٥) -

ويقدم هذا التفسير الموجز لرأي متى الفرصة المناسبة لتوجيهه .  
ولما كان هناك في مجال التشكك او الاعتراض ، فان الاشارة الى الموت والخطوة كافية لتمييزه ، باعتباره أحد كتاب الحوليات في المصور الوسطى .  
ويود متى ان يذكر القارئ بوجود الله ، والعناية الالهية ، والحكم الالهي - تلك كانت الأفكار الاساسية التي شارك فيها متى ديانته ، بسرد الوقائع التاريخية كما حدثت ، ولم يخرج قريبا عن ترتيب والوعاء الزمني - وكان منهجه هو مجرد سرد للأحداث ، اذ انه تجنب عادة ممارسة دور المفسر للأحداث التاريخية - اذ انتهت مهمته عند كتابة ما جرى ، واذا ما كانت هناك قوانين غير القوانين الالهية لتفسير المثلث فانه لم يذكرها ، شأنه في ذلك شأن مساهميه من كتاب الحوليات المسيحيين المعاصرين له .

ويقف حتى ايضا بيجوار وقائله من كتاب حوليات المصور الوسطى في الاهتمام الذي ابداه تجاه الظواهر الطبيعية ، وفي التركيز على الأحوال السياسية والكنسية ، وفي عدم الاهتمام بالزراعيين والتجار ، وكل ما يحدث باعتباره تاريخ احصائي واقتصادي ( ومع ذلك قام متى بتذكير القارئ بعدم استقرار صغر الحيز من سنن الى آخر ) وشارك متى النسلح الدينيين في عدم معرفته النظرية السياسية ، وايمانه بالمعجزات وكل ما ينذر بالشر ويشير بالغير ، وفي نزاهة انتقالية - ونظرا لان كل الناس يحضون الله ، فلن يكون المستقبل صوبى ما لا ترضاه النفس وتتهوار ! ) وفي الوقت الذي اتصع فيه متى عما يتحول في نفسه ومزاجه الخاص بأسلوبه الذاتي في الكتابة ، ويشعر بعوق كتاب الحوليات في المصور الوسطى للتقليديين ، الا انه ظل موضوعيا ضلهم عند تقديم معلوماته التاريخية - وقد أبدى تواضعا شديدا ، في الأحوال المتأخرة التي اشار بها الى نفسه - ففي نهاية أحداث سنة ١٢٥٠ م ، كتب متى قائلا : - وهنا

تنتهي حويلات الأح متى ياريس الراسب في دير مبانة المنز ، والذي  
أخذ على عاتقه مشقة الكتابة من أجل قافلة الإيجال القاطنة كلها ، وإيقته  
مرضاته الله واحلالا للقديس اليتز ، لأول الفسحة - الأسبيلز ، وحتى  
لا تفرض ذكر الأحداث الجديدة للتلافي أو للتعيينان بمرور الوقت ، (٦٦) \*  
ولم يكتب أكثر من ذلك .

عل أن نقطة المصنف الرئيسية التي أخذت على متى ، باعتباره أحد  
كتاب الحويلات ، هي افتقاره للموضوعية عند الكتابة فمن النادر وجود  
سند واحدة في حويلته لم يفت بها تحمله وتعبه . إذ كان يحاطل  
على القديم ومقارنهما للتخبر بالمتى التقليدي ، وأعني بذلك أنه كان شديد  
التسك ببقاء الأحوال كما هي ، أو كما يعتقد ، ولقد عارض الإبرازات  
التي مارسها البابوية والإدارة الملكية ، الأمر الذي عرض استغلال ديره  
للخطر . وللسبب نفسه تعاطف متى مع البارونات في صراخهم من أجل  
المحافظة على المكانة المهمة في المجتمع وفي الشئون العامة ، ورأى متى  
في ظهور جماعات الرهبان الذين ينتقلون ويعيشون على الصلوات  
Medicant Orders ، أمرا متريا للفرز والاستثراز ، برغم أن  
الكيسة كانت في أمس الحاجة إلى نوع مختلف من الرهبان . واعترض  
حتى على زيارة القسيس المالدن ، Grosseteste للأديرة في أورشنة  
في لينكون Lincolns ، برغم أنه لا بد فيه والحق سرا على دواع  
الاستف . ومع ذلك فلم يترك الباحثون قوة التأثير الكامل لتجزه  
وتعبه سوى في السنوات القليلة للأضي . إذ سيطرت قوة تأثيره على  
كتاباتهم خلال النصف الأول من هذا القرن ، بشأن مهاجمة الملك هنري  
والبابوية ، وموالاة لفرديريك الثاني بما لا يدع مجالاً للشك .

وفي مجال التفوق على زعماله من كتابي الحويلات فقد لماتهم متى  
جميعا لاستخدامهم أسلوبا قويا ، وفي طريقته الذاتية في معالجة سرده  
للأحداث التاريخية . وكانت لغزاته الوصفية والمردية للحكايات والنوادر  
فريلة في عصره ، وكانت جهوده في تنعيم الجانب الأدبي لسرده للأحداث  
رأسة عندما أورد ذكر مقطعات للكتاب القبطي . على أنه أورد  
ذكر عبارات مستعمدا فيها صيغة التكلم مرات عديدة ، وكذلك خطبا  
ومعادنات لها مناسباتها ، وأضاف إلى ذلك أنه يكتم عن حرصه على  
أن تكون حويلته مجلبة للسرور والمتعة ، لكل من يطلع عليها ، وهل هذا؟  
الأساس يستطيع الز - تبرير وجود الكثير من الحوادث المرضية التي قد  
تفرص السجلات الرسمية ذكرها لعدم أهميتها . وبهذا وجد القاري  
ما يسره عند الاطلاع على تلك الصور البلاغية فأنها ثقلى وتنقص من  
المصدقية التامة لرواية متى . وبملاحظة عندما أصبح هذا الخ عن تعامله

وإيجازة • فعليل من القراء يمكن أن يقولوا ، كما ذكر ليولين *Edwelyn* تلك الممارات التي أوردتها من على لسان أمير ويلز وهو يخاطب جنوده سنة ١٢٥٧ م قبيل مواجهة جيش هنري الثالث • وكتب متى باريس أن الأمير أشار إلى هنري كملك : « عمل على جعل شعبه يعانق من الفقر • وحرره من حق الارث • وجعل من قعره » (٦٩) •

لقد سبق متى باريس عصره • في إدراكه أهمية الوثائق • والأوامر الرسمية • الخطابات والمعاملات • كمستندات تاريخية • ولهذا السبب • وخشية أن يشوه الطابع الأدبي لحوليته استنسخها • قام بجمعها في مجلد منفصل أطلق عليه الإصافة *Additiones* • كما أدرك أيضا المشكلة الكبرى التي واجهت المؤرخين الذين يحافون الله عصر القرون • إذ كتب يقول : « إن مهمة من يكتبون التاريخ صعبة • فإذا ما حاولوا قول الحقيقة • أثاروا غضب الناس • وإذا ما حاولوا كتابة ما يخالف الواقع • فليس يرضى الله عنهم (٦٨) • على أنه ما يحسب متى باريس أنه كان أقل خوفا من غضب الناس عن خشية الله •



## حناء فرواسار

على الرغم من تأكيد حناء فرواسار على أنه مؤرخ أكثر من كاتبه  
حولية ، فإنه ما زال أكثر كتلمي حويات العصور الوسطى ثقافة وإثارة  
للتمتة . وعملت ظروف عديدة على جعله مثقرا للتمتة - فقد عاش فرواسار  
في عصر الاثارة ، وجعل الثامن الذين يمدون الاثارة اهتمامه الأول -  
ووصف هؤلاء الناس - والحالات - بأسلوب ذاتي ، وضم بالحوية .  
ولم يكن جيوفري تشوسر Geoffrey Chaucer المسافر لفرواسار  
شخصا مثقرا ، وفقا لتبريق هذا المؤرخ للحويات لذلك التعبير ، فمن  
ثم لم يذكره في حوياته (١) . ولم يذكر كلاهما في كتاباته أنه قابل  
الأخر . وكان تشوسر مهتما بالأنباط أكثر من اهتمامه بالمشخصيات  
البارزة ، وظل موضوعيا بتزمت في كتاباته . في حين أن فرواسار ظل  
يقدم شخصياته إلى قرائه . حاسرا اختاره في أفراد الطبقة الأرستقراطية  
أو الشخصيات التي تلي تلك الطبقة الذين اكتسبهم شجاعتهم أو أعمالهم  
السياسة اهتماما حاصا . ولم يرد ذكر أي شيء عن تشوسر في حويات  
فرواسار .

ومع ذلك ملاحظ أن فرواسار كان يعرف تشوسر ، تماما كمعرفته  
لكل من بيتراوك Petrarch ، وپوكاتيو بوكاتشيو إذ حضر الأريمة  
Lionel, Duke of Clarence محل رواج لوينل دوق كلارنس  
في فايرلست ابنة جالزوفيسكوتس Violante the daughter of  
Galeato Visconti في ميلان . بيد أن فرواسار لم يجد ما يدعو إلى  
ذكر ذلك . وكان كل من فرواسار وبيتراوك فيميسييه . وعلى الرغم من  
في انهما ارتدوا إلى الكهنوت ، على نحو غير مطلق ، فإن قليلا من الناس

كانوا على علم بذلك الحقيقة - وعلى مثال بوكاتشيو ، بدأ فرواسار بقرض الشعر ، بيد أن ما قصده من تثر أوصلهما إلى مرتبة التخوف ومن بين الكتاب الأربعة ، تشومر ، وبيترارك ، وبوكاتشيو ، وفرواسار ، وحده الرجل الفرنسي قلعه في مجتمع رفيع المستوى (٢) ، ومن بين الأربعة أيضاً كان فرواسار أكثرهم شغفا بالمهيت إلى الناس والاستماع إليهم ، لأنه اعتمد عليهم في الحصول على كثير من المعلومات التي صاغها في حويلاته - وتتردد تشومر بشأن التكلف وفرص الحساسية في الحديث والمليس ليحصل شعبه يمتش ولم يظهر فرواسار اهتماماً بتصوير الشخصية بالالفاظ ، إذ كان اهتمامه بالناس - أو الدين قاموا بأعمال مهمة أو بطوليه والمهين عليه لديه - وركز اهتمامه على الحدث لا على الشخصية ، ورغم أن دراسته كانت سياسية على نحو محدود ، وفي نطاق مفهوم القروسية ، فإن الصورة التي رسمها من عصره في تلك الرواحي أثبتت قراءة بفكرة أكثر دقة عن المجتمع المعاصر أكثر مما فعل زميله الانجليزى المعاصر على قطعة القماش المعقدة للرهبان القزنتى والأشمل مدى

وكان فرواسار ابناً لأحد أبناء الكهنه الأثرياء ، وولد سنة ١٣٢٧ م . أو حوالي ذلك التاريخ ، في فالتيستينير Valcicines ، إحدى مدن هاييوت Hamout ، وهي كونتية في إقليم شلت Scheldt العليا ، وهي اليوم ، إقليم نهر بلجيكا . واختار فرواسار الدراسات الكهوتية ، وواصل بشارة تلك الجهة رغم أنه وجد منعة أكثر في الأدب الرومانتيكى ، وفي الفناء ، وفي صعبة النساء ، أكثر مما وجد في المسائل الروحية على حد قوله - وفي العشرين من عمره توقف عن دراساته اللاهوتية ، وتفرغ لكتابة الموائد التاريخية التي حدثت من فرنسا في ذلك الحين ، بناء على طلب سيده الإقطاعى روبرت من قاموس Robert of Namur . ثم ذهب إلى البلاط الانجليزى سنة ١٣٦١م حيث قدم أول عمل تاريخى له ، وهي قصيدة عن معركة بواتية Poitiers . وتسلمت الملكة فيليببا Philippa ، إحدى بنات بلده ، القصيدة ، التي حققت في قاعة كبرى (٣) . وأبان السنوات الخمس التي قضها في انجلترا ظل يتم بكرم شياقة فيليببا له ، ومنحت له الفرصة بالقيام برحلة شمالاً ، وجاب كل أنحاء اميكلند (٤) في صحبة الملك دافود الذي قام بجولة ملكية في أنحاء البلاد .

ثم وحنفاً لفرواسار في بورو Bordenam سنة ١٣٦٧ م ، حيث واصل تلك الخدمة أبان احتفال الأمير بالأسود the Black Prince بجنك ابنه ، ويتشاور الثائر لهيئة بهد - وفي السنوات الخمس التالية ظل ينتقل بين فرنسا وإيطاليا ، وكان مطلبه المشهود بلاط الأمراء ، بما

في ذلك البابا غريغوريوس Avignon . وعلى سبيل المثال ، ذهب فرواسار الى ميلان في صحبة لوتيل دوق كلارنس بمناسبة زواج الأخير من ابنة أمير ميلان سنة ١٣٦٨ م . وفي سنة ١٣٧٣ م عاد الى هانوت حيث مارس واجبات مساعد قسيس في أبرشية ليستين Lestines . يهدف الحصول على عمل أفضل - الى أن تم إقلاعه من هذا العمل الذي لا يتمتع مع حيوله . حيث عمل على إدارة شئون منزل وسفاس دوق براينت Wenccelas, the duke of Brabant . وعندما مات وسفاس سنة ١٣٨٣ م - انتقل فرواسار الى كنيسة جوي دي شانيلون Guy de Châtillon . مع كونت بلواء Blois ، الذي جعله قسيسه الخامس ، وأشار عليه بأن ينقل كتابه حولياته . وفي نهاية سنة ١٣٨٨ م - ذهب الى برين Blain على المجترات إلىسالية لجبال البرانس من أجل الحصول على معلومات إضافية لكتاياته . وقضى هناك سنة أشهر ممتعة ومشرفة في أورليز Orlietz . وهي قلعة نائية لجاستون بيويوس Gaston Phoebus . كونت فوا Fois .

وفي سنة ١٣٩٧ م وجد فرواسار نصيبا آخر في وليم من أوستريفات William of Ostrevant حاكم هانوت ، وذلك لأن و كونت وكونتية بلواء انضمما في ملذات اللذة كثيرا جدا ، والتهما أطباقا عديدة من الطوى حتى صاروا في حالة من البدانة الشديدة (٥) . والأسوأ من ذلك أنهما تعرضا لأزمة مالية شديدة . واستطاع فرواسار الذهاب مرة ثانية الى انجلترا بفضل مساعدة وليم . وكانت هذه المرة سنة ١٣٩٥ م عندما ألقى ريتشارد الثاني كتابا في الشعر الفنتائي ، مكتوبا بخط جيد ، ويزخرها بالونن الذهب والفضة ، وسجلها بالونن القرمزي - المنمقل ، وبه زهرة من نفس المادة في منتصفه ، وله قفلان كهران مكفنان بالفضة ومرصان ترصينا يديما بزهرتين في منتصفهما (٦) . ورغم سرور الملك بالهدية إلا أن فرواسار شعر بغية الأمل إذ لم أحد للذهاب من انطرفي في الرحلات السابقة ، وكانت كل العادات مضمولة بأناس جيد ، وبات أطفال ممارسي المسابح رجلا وساء (٧) . ثم اختفى عن الأنظار بعد عودته الى هانوت ، ونسبب المؤرخون وفاته الى عام ١٤٠٤ أو بعد ذلك التاريخ قليل .

كان فرواسار مؤرخاً للفروسية ، لذلك أدى دوره هذا بأمانة ، إلا  
 شغف من بين منوى الأديب بقرض الشعر في مستهل جهاته . بيد أنه  
 منظوماته لم تجلب له شهرة أو تقديراً ، وإن كانت كثيرة بتقليد نمبه  
 في سجل الأديب الفرنسي حتى ولو لم يكن قد كتب البوليفون . ولقد نظم  
 نحو أربعة عشر ألف بيتاً في الشعر الغنائي وقصة منظومة بعنوان فارس  
 الشمس الذهبية . ومن الغريب أنه لم يحار بمكتله مصرعاً لأحداث قصته  
 الرومانسية لأن ذلك البلد لم يكن مثل غيره من البلدان التي عرفها  
 فرواسار لا في فروسيته ولا في رومانيتها . ولقد تعاون مع راجيه  
 وسيلاس الذي كان شاعراً هو الآخر في نظم أبيات قصته ، والذي نشر  
 في مواضع شتى من القصة غنائيات من نظمه هو .

بيد أن نظم الشعر وكتابة القصة لم يثلا سوى نشاط ثانوي  
 لفرواسار الذي كان جل اهتمامه منصبا على تكوين التاريخ الذي شغف  
 به كما يظهر من كتاباته : « وفيه أن يستكمل هذا التاريخ الجديد والمندفع  
 آليت أياحون فرواسار على نفسه أن اهدل قصارى جهده لاكتتب عن الوقائع  
 الجديدة للحروب التي دارت وحاصها بين فرنسا وانجلترا وحلفائها ... »  
 وساعمل ما حييت على استكمال تلك المهمة التي يرداد شغفي بها كلها  
 مضيت في العمل » ( ٨ ) .

كان الهدف الأول لفرواسار من كتاباته هو التلويح الأساسي بالتمتع  
 لمن يقرأ ما كتبه بالإضافة إلى التسلية - وشارك فرواسار المؤرخون الذين  
 سبقوه ، والذين حلوا من بعده في الحافز الذي أثارهم . تاركين للأجيال  
 القادمة سجلها من الأعمال التي كانت بلغت على الإلهام لذا ما كانت رقيقة  
 المستوى ، وبعثت على الإثراء والاحتفال إذا ما كانت رديئة . أما عن الدور  
 الثاني فلم يكن لدى فرواسار سوى القليل ليذكره . بل يبدو أنه تجنب  
 انغماس القصص أو المعلومات التي قد تشوه اسم أي شخص . إذ أغفل  
 ذكر أليس بيريه Alice Perres الطوحة ، عشيقته أدورث الثالث  
 في تراجمهم . كما أغفل أيضاً ذكر أنهم حنا من جونت John of Gause  
 عم ريتشارد الثاني الذي سعى إلى اعتلاء العرش بلا حقه ، وإذا ما ورد  
 أحيانا في سوليياته ذكر أعمال هون للمنتوى الرفيع ، فلا شك أن ذلك  
 أمر يدعو للأسف ، وإن كان الموضوع جعل ذكر هذه الأعمال أمراً ضرورياً .  
 على أن اهتمامه الأول كان في حفظ للمعلومات عن الأعمال الخالدة فكتب  
 يقول : « إن تلك الخطط الجديرة بالاحترام ، والممارسات الشريفة ، والأعمال  
 القتالية التي حدثت إبان الحروب بين انجلترا وفرنسا ، تستحق أن تحكي  
 كما ينبغي لها ، وأن تغال ذكرها إلى الأبد - ويستحق الرجال الشجعان  
 النساء الأبطال على ما قدموه من قوة في حسن الأداء ، أني أجنس لاكتتب  
 تاريخاً جديراً بالثناء والمديح والوفاء » ( ١٠ ) .

ويريد فرواسار من قارئه أن يعلم أنه وضع نفسه في منزلة القורך ، وليس مجرد كاتب حولية . وقدر ذلك بقوله : « إذا ما اقتضت على مجرد القول بأن مواضع كذا وكذا حدثت في وقت كذا ، دون أن أدخل بمق في الموضوع ، الذي كان مرعيا ومصحوبا بالكورث إلى حد كبير ، فإن ما أكتبه يكون حولية وليس بتاريخ » (١٦) على أن الفرق الذي ذكره فرواسار بين الحولية والتاريخ سبى على قدر المعلومات المتوفرة . وإذا عرضت المادة التاريخية في قالب قصص عادي . على طريقة المؤرخ الذي يسجل الأحداث عاما بعد عام فإنها تكون حولية . أما التاريخ فيحتاج إلى الصق . والوصف التمهيلي . وهي من الأمور التي لم يتوان فرواسار عن التروذ بها ، برغم احتمال قيام القراء المتبحرون بالتعبير عن مشاعر الرضاء .

ومسواء أكان فرواسار يكتب باعتباره مؤرخا للأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمني لم يكتب باعتباره دارسا للتاريخ فإن الأهم من هذا وذاك حقيقة أنه كان يقول الصلح « وبالسبة إلى فرواسار كقول الصلح هو المطلب الأول لأي كاتب للتاريخ قراء بذلك في ماسات عديدة - وكان اعدام السير سيمون بيورلي Sir Simon Burley مثالا لذلك وهي مأساة جعلتني أشعر بالاستياء والغضب إلى أبعد حد » . وكنت في أعالي صبي أشعر بأسر والاسي ، لاني عرفته قارئا جيد الخلق منذ تبليي ، وعمل قدر كبير من تقدير عواقب الأمور وفقها لقهم » (١٧) وكان بورلي قد وجد نفسه منوطا في صراع السلطة المرير بين ريتشارد الثام والطبقه الأرستقراطية التي عاوضته . وكان بورلي قد وجه إليه اتهام باحتلال مائتين وخمسين ألف قرطك - وهو اتهام اعتبره فرواسار لا أساس له من الصحة تم تم نقله إلى القلعة ، وصعد ذلك يوم قليل ، « حملوه على القور - - - وقطعت رقبته . باعتباره خائنا ، في الساحة التي تقع أمام القلعة » . وبرغم معاناة فرواسار من الألم النفسي الجرح ، فإنه شعر بأنه ملزم بتسجيل هذا الحدث . وبالرغم من أني رويت هذه المنه الحرة ، التي كنت ملزما بذكرها وفقا للصميم على الا أكتب سوى ما هو حق وصادق في هذا التاريخ » (١٨) .

على أنه لم تكن ثمة حادثة جرحت مشاعره في الصميم أكثر من اعدام السير سيمون لأنها أسأت إلى سمعة زملائه من أبناء بلده ، حدث سنة ١٣٨٨ م - وكانت قوة صغيرة تحت قيادة دوق جيولدر Guelidres قد استطاعت هزيمة جيش من أهال برابنت Brabant - وهي الهجوم الأول الفاجي . سقط ما يزيد على مائة وعشرين من أهالي برابنت من على صهوة جيولهم . « وسيطرت عليهم حالة من الفزع الشديد والعزم

والارتباك... اذ احنوا على حين غرة... ورغم كثرتهم العددية ، ووجود العديد من كبار المبادئ الاقطاعيين ، فقد تشكلت شملهم جميعا \* - وذكر فروسار الحادثة برغم ما عاناه من خزي ومهانة \* حيث كتب : لا أستطيع تحمل هذا الحزن الدائم الذي تسببت عنه الهزيمة النكراء التي منى بها أهالي براجت ، بيد اني لا بد وان أقدم النتائج المحزنة لهذه المعركة وفاء لوعدي الذي ذكرته في بداية هذا التاريخ بالا اذكر سوى ما هو حقيقي ويمتثل اليه بدقة \* (١٤) \*

وانما لم يحرق فروسار الحقيقة أو لم يحتفظ لنفسه بالمعلومات التي جعلها محرقة أو غير مقبولة اجتماعيا فان كثيرا من العلماء يصرون على أنه اضطر الى صياغة تاريخه بالقدر الذي يتناسب مع رغبات وميول الذين شملوه برعايتهم له وعاش في كفهم \* ولا بد أن الاغراء كان واقعا \* فقد مكه سخط الذين عاش في كفهم من أن يحيا الحياة التي تصاحبا لمسه بوجوده المستمر بين أفراد الطبقة الارستقراطية ، واعاداده حولية عن أعمال القروسية في عصره \* ومع ذلك فقد يلتبس القاري له العذر في صياغة درجته على النحو الذي يرضى من عايش في كفهم لسببي اولها أنه بدون الرعاية التي ينعم بها لدى من عايش تحت رعايتهم لا ظهرت الحوليات ، وأن تاريخنا متأثرا بالموقف الشخصي حيز من لا شيء \* وثانيها ان فروسار لم يدع انه كتب تاريخا متواريا وصحيفا تماما عن عصره \* فكان هدفه تسجيل المواقف والاحداث المترابطة المتعلقة بالطبقة الارستقراطية ، وطبقة الفرسان والحروب بين فرنسا وانجلترا وحلفائهما \*

ويعتقد عل وجه العميم ان النص الأول للكتاب الأول يتكشف عن بعض الاحجار الى انجلترا \* وكان فروسار قد كتب هذا الكتاب بناء على طلب روبرت من نامور Robert of Namur ، أحد اقارب الملكة فيليبيا Philippa ، التي مكث في قصرها بضع سنين ويسبب جزء من هذا التعاطف مع الانجليز الى جيني لوبل Jean Le Bel كاهن ليج Liège ، الذي اعتمد عليه فروسار في كتابه مؤلفه الأول عدا الى حد كبير \* ثم ظهرت نسخة منقحة للكتاب الأول عندما كان يعيش فروسار في كتب حوى دي بلوا Guy de Blois تكشف عن استقلال أكثر في حين أن النسخة الثالثة التي ظهرت سنة ١٤٠٠ م أو ما يقرب من ذلك التاريخ كانت خالية تماما من أي انحياز للانجليز \* ويبدو فروسار متعاطفا مع الفرنسيين في الكتابين الثاني والثالث \* ولابد ان ذلك قد أرسى جوي دي بلوا الذي عاش فروسار في كفهم في ذلك الحين بينما الكتاب الرابع نسخة فروسار عندما كان يعيش في كفهم وليم من لومستر فنت William of Ostrevent ، وفي هذا الكتاب ظهر قدر من الانحياز

للبرجنديين Burgundian \*

وعلى الرغم من أنه قد يحدد عنقنا يناقش على موضوعية فرواسار ،  
 ما هو موجود عن اختياره لكنه لا يكفي للتقليل من قيمة حولياته . فإن  
 من المتع أن نرى فرواسار نفسه ، وقد أثار القضية وعمل ذلك إبان وضعه  
 الحادثة تعرض لها دون بريثاني Brittany . حيث كتب يقول :  
 « لا يصح أن يقال ، أنني حرمت كتابه التاريخ من قبل مطبعة حوى دي  
 بلواه ( الذي أقمى بالكاتب ، ودفع إلى نقاب كتابة هذا التاريخ ١٠٠٠ ،  
 اوصاه لي ) ، لأنه كان أحد أقارب دون بريثاني الشرعي ١٠٠٠ أن الأمر  
 ليس كذلك » وكون أن أبلى مشاعر خاصة إلى هذا الجانب أكثر من ذلك  
 الجانب ، كما أن هذا الأمر الضخم ، الذي يعصل تتعلق فترات كتابة هذه  
 التاريخ لم يفرض على إيانا أن أكتب بأية طريقة أخرى » (١٥) -

ويجب على المرء أن يضع في اعتباره أنه عندما أثار فرواسار قضية  
 المطبعة المحملة من جانب أنه كان يفكر من مطلق قومي . إذ أن مفهوم  
 القومية وفقا للعصر الحالي كان غريبا على عصر فرواسار . فمفهوم القومية  
 هو نتاج للنور الفرنسية إلى حد كبير . وقبل نهاية القرن الثامن عشر  
 يمكن للمرء أن يتحدث عن وعي قومي لا عن القومية ، وكلما رجع الأسفل  
 إلى ما قبل سنة ١٨٠٠ م ، كلما كان نمو الوعي القومي أصعب . وفي عهد  
 فرواسار لم تكن هناك أمة فرنسية أو إسبانية . وإذا ما كانت إنجلترا  
 قد صارت دولة موحدة ، فإن رجال عظم الطغاة الأرستقراطية الإنجليزية  
 شعروا برباط أقوى مع قتلهم من السلا غير بمصر المانش أكثر من رباطهم  
 مع جيرانهم في أرض الوطن . ويحكي فرواسار أن الطبقة الأرستقراطية  
 خلقت نيا انتصار العرسيين على الملكيين في روزييك Rosebuck  
 بكل الرضا والارتياح . « لم يأسف قبلا إنجلترا عند سماع ذلك الخبر ،  
 لأنهم قالو ، إذا ما قدر للطغاة العامة من شعب الفلاندر الانتصار على  
 ملك فرنسا ، وقتلوا طبقة السلا في فرنسا ، لارداد شعور طبقة العامة  
 بالاعتداد بأنفسهم إلى الحد الذي يجعل كل طبقة السلا يشعر بالحرر  
 والأسى » (١٦) ٢

كان فرواسار أحد مواليد إمارة هايوت Hainaut ، وهي إحدى  
 مجموعة الإمارات التي تقع بين فرنسا وألمانيا . وتمتعت بصلات قوية مع  
 إنجلترا . ولم توجد روح الحكم الذاتي في أي مكان بأوروبا سوى في شمال  
 إيطاليا . وبالسبب لفرواسار فإن قفلا من التحرر من الاتحاد المحلية  
 والأفريقية لمتروح بيه إلى هايوت . وهذا نتيجة لحد الحقيقي للفروسية  
 أينما وجدت ، يصف إليها إعجابه بالطبقة الأرستقراطية في كل البلاد  
 دون تمييز .

وإذا ما استطاع القاري الملتحق للحوليات أن يشجع قعدا من تحول التعاطف مع الانجليز إلى الفرنسيين ثم إلى البورجوازيين ، فإن هذا الدليل واضح على تلفظ فرواسار على انصاف الملتحق على كل الرجال المشجعين ، مهما كان أصلهم ، والذين اظهروا شجاعة في ساحة الوعى ، ومن التادر وجود صفحة واحدة في الحوليات لا يطلع عليها اسكتلندي ، أو انجليزى أو فرسى ، أو قستالى *Castilian* إلا وشعر كلهم جسيما بغير صعبا من الرضا والارتياح . فالطريقة التى وصف بها فرواسار القتال الشرس الذى دار بين الحرب بينه الانجليز والاسكتلنديين قبيل معركة أوتنبورن *Onebourne* فى سنة ١٢٨٨ م توضح رغبته فى الرضا كل الأطراف حيث دار القتال بين أنساع دوجلس *Douglas* وعشارى *Partey* ، والأتان من ألح الشخصيات في تاريخ القتال الطويل الإمد على إصدار الحدود الفاصلة بين اسكترا واسكتلندا . ويؤكد فرواسار للقاري منذ البداية ، « لقد استعيت معلوماتى من كل من الطرفين » ثم قال « اتفق الطرفان على أنها كانت اشرس وأعنف معركة جرت بينهما . وأعنفه عن يقين فى ذلك لأن الانجليز والاسكتلنديين محاربون ممتازون . ولا يرحم أحدهما الآخر إذا ما التقوا فى معركة » ولا يعوق شجاعتهم شيء طالما كانت أسلحتهم قادرة على مواصلة القتال . وعندما يلحق كل منهما ضربات منهكة بالفرق الآخر ، ويتهوى الأمر بانتصار أحد الفريقين . يشعرون بالفرح الشديد لاتصارعهم ويسارع الفريق المنهزم بافتداء أسراه على الفور . واعادوا على معاملة الأسرى معاملة طيبة ، لدرجة أنه عند رحيلهم يسودون ثمانية لتقديم الشكر - ومع ذلك فلا يعرفون سوى الجدية فى القتال لذا ما دارت رضى الحرب . ولا يتقاعسون عن خوض المعركة على الإطلاق . وسنرى أعمالا بطولية متتابة ذكرتها كما حدثت بكل دقة فى التفاصيل التى أوردتها عن تلك المعركة » (١٧) .

وإذا كان فرواسار موقفا فى الاحتفاظ بوضع مستقل بصفة عامة عند وصفه للمعارك بين الجيوش المختلفة ، فإن هذا لا يضى أنه لم ير أن الشعوب المختلفة لها ملامح وسمات مختلفة . وانما وجد البرتغاليين « يميلون إلى سرعة الانفعال ، والاستبصار ، أما الانجليز فوجههم يميلون إلى الحماة الآخرين وللى الحقد والظروسة » (١٨) - وعندما كتب فى أوائل عهده عن الاسكتلنديين قائلم انما فترة اقلته المؤنفة فى بورديو *Bordeaux* . وجد أنهم كانوا متكبرين أيضا . أما ، مؤلف هذا التاريخ كنت فى بورديو وعندما تحرك أمير ويلز بحبسه إلى أسبانيا ، وشامت كبرياء الانجليز الشديد ، الذين لم ينصرفوا لمعاقبة مع أى أمة سوى أنفسهم ، وكما ثم يستطع كسر الشخصيات فى جامسكونى أو أوكونين

أن يحصلوا على منصب أو وظيفة في بلادهم ، برغم أنهم افنوا أنفسهم في الحروب ، وذلك لأن الانجليز قالوا عنهم أنهم ليسوا في مسبوهم ، وأنهم غير حذرين بالانعاج في مجسمهم ، وهو الأمر الذي جعل أهالي جامسكوني في حالة سخط وقمة « (١٩) » .

ونظرا للمستويات التي قضاها فرواسار في اسكترا ، فليس من المدهش أن بعضا من كرامة اسكترا للاسكتنديين انتقلت اليه في إحدى تطبيقاته الأولى عن الاسكتنديين صرح بأنهم « شعث ثاقه وسط » ، وأعلى مرة ثابة ، « لأن سط رجلا يديرا بالأحرام » في اسكتلندا ، أنهم مثل الحيوانات للوحشة ، هم لا يرغبون في التكيف الاجتماعي مع أي شخص ، ويشعرون بالخس من ثروه الآخرين إلى حد كبير ، وغير آمين على ما في أيديهم ، لأن بلادهم فقيرة جدا « (٢٠) » . فذات مرة كتب عن قصة الجاسوس الانجليزي الذي سرق جوائه علما كان يقوم ببعض أعمال التجسس على امتداد الحدود الشمالية ، فلاحظ فرواسار أن تلك الحادثة لا يصح اعتبارها غير عادية لأن الاسكتنديين « كلهم لصوص » (٢١) .

ومن ناحية أخرى ، فإنه امتنع الاسكتنديين على بسائهم في القتال بشكل مستمر ، « أن الاسكتنديين شعث جري ، ومقدم ، وشديدا الجلد ومتمرس على الحرب » (٢٢) . على أن الانطباع الذي أحده عن بعض شعوب اسبانيا وإيطاليا كان مختلفا تماما - فكتب : « يشبه القشتاليون Cantillones والجاليكاني Galicians اللومبارديين والايغالون إلى حد كبير ، هم جميعا مع الجانب الأقوى ، وصيحوون ، « المنصر على الدوام » . (٢٣) ويبدو من الأهمية بكان عدم توجيه فرواسار كلمة نقد واحدة للفرنسيين .

وإذا ما وضع المرء في اعتباره دعية فرواسار في التعبير عن نفسه باستخدامه عبارات الإرداء لتلك الشعوب المختلفة فمن المدهش أنه لم يذكر شيئا يحط من قدر اليهود - إحدى الكناسيات القليلة التي اهتم بهم فيها كانت متعلقة بانضهاد من الواضح أنه كان واسع الاشار ، واعتبرا منه سنة ١٣٤٩ . فكتب يقول : « وفي ذلك الحين ، تعرض اليهود في كل أنحاء العالم للقضى عليهم والموت حرقا ، وقام ساداتهم الاقطاعيون بالاستيلاء على ثرواتهم باستثناء مدينة ألبون Avignon ، وأراضي الكنيسة التابعة للبابا . واعتبر أي يهودي فقير نفسه آمنا إذا ما استطاع إخفاء نفسه ، والوصول إلى تلك الأراضي » (٢٤) .

ونظرا لأن فرواسار كان مؤزجا حوليا للمبارك والأعمال البطولية التي جرت في صاحة الوغي ، وإبان حصار المدن والقلاع ، أو الميازلنة

الفروسية فمصعب تقريبا ، فان المسألة المتعقبة بنوعية الفلسفة التاريخية التي اقترحها وأيضا لم تثر اهتماما كبيرا . على أن فرواسار نفسه لم يقل سوى القليل الذي يمكن اعتباره وثيق الصلة بهذا الهدف كما أن كتاباته لا توحي بأي فعالية للمبادئ أو القواميس التي يمكن أن يكون لها تأثير أو توجيه على مجرى الأحداث - ولو أن فرواسار غطى السنوات الخمس والسبعين في وحدة كاملة موجزة ويصل لها بداية وحاشية ، لأعطى الإيجاز بافتراض وجود قوى كانت توجيه سلوك الناس لكي تكشف عن بعض المبادئ في الطريقة التي جرت بها الأحداث - وتتكون حوليات فرواسار من سلسلة مستمرة من الأحداث المترابطة في الحياة الواقعية والأحداث العريضة عرضها مرتبة وفقا لتسلسلها الزمني إلى حد كبير ، وعلى ما يبدو فقد عالجها في سياق غير متزوج ، وهو نفس الأسلوب الذي استمر بعد أن انتهى فرواسار من كتاباته .

ويشير فرواسار من حين لآخر إلى طبعه التعليل الفلسفي الشائع بين كثير من الكتاب مثل ، « لكل شيء في الوجود نهاية » (٢٥) وهناك العديد من المناسبات التي عزا فيها حادثة إلى الصفة أو إلى حس الخط أو عدم حسنه ، « وإذا ما شاء الله شيئا فلا راد لقضائه » ( ٢٦ ) وسبب هذه الملاحظة الجمة إلى دوق لانكستر Lancaster عسحا علم بفرق الأسطول الذي أرسله أروندين Artundel لبحره دوق برناني في محاصرة . وهناك إشارة مشابهة مسوبة للقوى الخارقة للطبيعة ، وظهرت هذه القوة المتعلقة بالسحر والشعوذة في ارتباطها بشبوب الفال في بلاد الفلاندرز - فكتب فرواسار أن الإيرل earl . الذي كان حكيما واعتبرا بمواقب الأمور « حاول أن يحول دوق تشوب هذه الحرب يد أنه أحقق في ذلك » . أن هؤلاء الدين يقرأون هذا الكتاب أو يستمعون إليه ، فيقولون أنه من عمل الشيطان . فاست تعرف أن العقلاء يعتقدون أن الشيطان الحديث والمخادع يصل ليلا ويهارا لأشغال بيران الحرب حيث يوجد سلام وتآلف ، ويسعى بالوسائل التي لا تخطر على بال لتحقيق أهدافه . وهكذا حدث في فلاندرز ، كما سنرى بوضوح ، وتعلم من المفاوضات والمعادات والأوامر للجلبة ذات الصلة بتلك الأمور » ( ٢٧ ) .

ولا ريب أن الفكرة المطروحة هنا تعبر عن مسيحيين في العصور الوسطى ، علاوة على ما يتوقعه المرء من القسيس فرواسار . وعلى ذلك ربما افترض البعض أن فرواسار اتفق في الرأي مع لورانس من فونجاسي Lawrence of Fongase ، الذي كان يعمل مرافقا في خدمة ملك البرتغال ، والذي نسب حسن حظ بلاده ومنها دوق جوا Don John إلى فضائل ذلك الصالح - إذ قال عن الملك أنه « يتق الله ويصل

ما يرضاه ، وقله معلق بالكنيسة ، التي عمل على بنائها بكل ما يملك من قوة ٠٠٠٠ وفوق كل ذلك ، عمت المداولة أرحاء دولته دون تحيز ، وحصل الفقراء على حقوقهم ( ٢٨ ) -

ومع ذلك يجيب القارئ المحب للصراع والأعمال الرياضية الكثير والذي يوافق ميوله ، مثل الملاحظة التي أبدعها فرواسار في سياق حديثه عن القصة السلية عن أميريغوت مارسيل Amergot Marcell ، قائد جماعة من الرفقاء الأحرار ٠٠ وتكون هؤلاء الرفقاء من الجنود المتعطلين الذين مارسوا عمليات العنف والسطو على المناطق الريفية أبان السنوات التي أعقبت انهيار فرنسا بعد معركة بواتيه Poitiers ( سنة ١٣٥٦ م ) ٠ واضم كثير من الجنود السابقين إلى مارسيل الذي حقق قدرا من النجاح المتواصل في عمليات السلب والنهب ٠ بل أنه سجع في الاستيلاء على قلعه لاروش دي فيندهياس La Roche de Vendais ، التي اتخذها وأتباعه قاعدة انطلاقا منها لتهب المناطق الريفية المجاورة ٠ يبه أنه سجنه أحد في الأقول في النهاية ٠ فقد قويت المقاومة تدريجيا إلى الحد الذي جعله يخاف على نفسه من الاعتقال ٠ وكانت غنظته الكبرى في طلبه العوذ من أحد أقاربه الذي أرسله على الفور ٠ وأنهى فرواسار هذه الحادثة الواقعية بالتمليق التالي ٠ وهكذا تعامل إليه الحظ عبد الرومان أسماها ، متقوم بحملهم إلى أعلى نقطة في عهدها ٠ ثم تنفذ يوم في الوحل ضحاة ٠ ويشهد على ذلك أميريغوت مارسيل فكان هذا الشخص الأصغر يمتلك أكثر من مائة ألف فرنك نقدا ٠ ثم حصرها وحسرت نفسه في يوم واحد ٠ ولذلك أقول أن السعة الهبة الحظ dame Fortune جدمته ، كما جعلت الكثيرين من قبله ٠ ويستندع الكثيرين من بعده ( ٢٩ ) -

على أن طيسعة ومضى مصادر المعلومات التي رجع إليها المؤرخ ٠ عامل حاسم في تحديد مصداقيته ٠ ويظهر هنا سجل فرواسار الذي يستحق الثناء كما أن كلماته باعته على الاطمينان ٠ ٠ ربما يسأل البعض عن كيفية المامى بالأحداث في هذا التاريخ ، وعن حديثي عنها بتفصيل دقيق وردى عليهم أي بذلت جهودا قضية وسجلت الجسام ٠ ويبحث في الممالك والإقطار عن الحقيقة ، أو ما ذكر عنها : كما أن الله منحني النعمة والفرصة لأشاهد بنفسى ، وأكون عارف لى مع المالبة العظمى من كبار السادة الإقطاعيين في فرنسا وهي انحلترا ٠ ويجب أن يكون معلوما أنه سنة ١٣٩٠ م كنت قد قضيت سبعة وثلاثين عاما في كتابه هذا التاريخ ٠ وفي ذلك الحين كنت قد بلغت السابعة والخمسين من عمري ٠ ولذلك كان يمكن للمرء أن يتعلم الكثير في تلك الفترة ٠ عندما كان في تمام الصحة والعافية وكان يمكن له أن يلتقى بكل الأطراف ٠ وأبان شبابه ، كنت

على صلة مع ملك وملكة انجلترا لمدة خمس سنوات . وقصبت مرة طيبة في قصر حاكم مرسيا وابنه الملك شارل : ونتيجة لذلك كنت قادرا على ان اسمع الكثير في تلك الاوقات ، وبالتاكيد كانت تمنحني كبيرة عنها . تمكنت من الاستمرار عن كل شيء يتعلق بما يدور في هذا العالم ثم تمت بتسجيل كل ما سمعت وعرفت « (٣٠) »

ولم يقتصر فرواسار على بدل الجهود المضنية في جمع المعلومات ، وانما أدرك ادراكا كاملا أهمية الحصول على التفاصيل من طرفي أي براع . فقبل ان يبدأ وصفه للمعركة التي دارت بين الانجليز والاسكتلنديين في أوتربرورث Otrbore سنة ١٢٨٨ م يحكي فرواسار عن جهوده في الحصول على المعلومات فيقول : « كنت على علم بكل تفاصيل هذه المعركة من الفرسان وحلة الدروع الذين اشتركوا فيها من كل من الجاسي . وكان مع الانجليز فارسان شعبان من أعالي دوايه Foix ، وساعدني الحظ بمقابلتهم في اوربه Oribes بعد انتهاء المعركة بعام . وبعد عودتي من دوايه ، قابلت في أمبون Avignon فارسا واثني من حملة الدروع الاسكتلنديين في حملة الايرل دوجلاس Earl Douglas وتعرفوا علي ، من خلال الذكريات التي ذكرتهم بها عن بلدهم . لاني في مرحلة شبابي ، أنا مؤلف هذا التاريخ ، تحولت في كل أنحاء اسكتلندا ، وقضيت خمسة عشر يوما كاملة مع وليام ايرل دوجلاس والد الايرل جيمز James ، احدى شخصيات عه الآن في قلعتي في دالكيث Dalkeith التي تبعد خمسة أميال عن اديسبره Edinburgh وعلى ذلك قد حصلت على معلومات من الطرفين « (٣١) » -

ولا بد ان فرواسار قد قام برحلات أقصر بهدف الحصول على معلومات مستقاة من مصادرهما الأول عن الأحداث المختلفة التي عقد العزم على وصفها . وفي سنة ١٣٩٤ م قام فرواسار برحلة قصيرة الى أبقيل Abberville حيث استمع بها المخلصون الانجليز والفرنسيون لبحث ترتيبات السلام ، وذهب فرواسار ، ليعرف حقيقة ما يجري هناك « (٣٢) » . وعندما حانت الفرصة جمع مؤرخنا بعد العمل والمتعة . فقال أنه قام بزيارة قصيرة الى باريس سنة ١٣٨٩ م ، ، ليكون على علم بتفاصيلات المؤتمرات التي كانت متجدة في ليولنجم Leulinghem بين الفرنسيين والانجليز ، وليحضر الولائم الرائعة بمناسبة دخول الملكة ايزابيلا Isabella باريس « (٣٣) » وسبق مدقق فرواسار ، وحضر حفل زواج دوق بيري Berry في ذلك العام . « كان حفل الزواج رائعا جدا ... واستمرت الولائم والمبازيات أربعة أيام ، أما أنا ، كاتب هنا الكتابي ، فكننت مشاركا في كل ذلك « (٣٤) » -

وإذا ما وضع المرء في اعتباره طبيعة مصادر معلومات فرواسار المتنوعة وغير الرسمية ، فإن القارئ الذي يسلم بصحة كل ما في حويلاته على نحو مقبول يكون قارئاً سهلاً الانخداع ، وربما يشمر القارئ بالاطمئنان على نحو مقبول عندما يورد فرواسار مصادرة ، ويصبح أكثر يقيناً عندما يعلن مؤرخ الحوليات أنه استقى المعلومات من المصدر الأصلي ، ولا يحتاج المرء إلى أساء أكثر من قوله إن الملكة فيليب Philipp حقت إيرادا متفوقاً قدره خمسة وعشرين ألفاً من البوصلات nobles (٤) ، من أكبر عزيمة قدمت إليها كهدية ، وذلك لأنه « خدم تلك الملكة الطيبة الذكر » وعمل سكريراً لها ، وسمح من السادة الاقطاعيين وروجاتهم ، ومن الفرسان الذين حصلوا على نصيبهم من ربح تلك المزب « (٣٥) » وفيما يتعلق بزمارة دومة لانكستر وابنتها إلى ملك وملكة البرتغال سنة ١٢٨٦ م ، كتب فرواسار قائلاً : « اجتهد القصر كله إيهاماً عظيماً عند وصول هاتين السيدتين . بيد أني لن أدعى لنفسى ذكر تفاصيل ما حدث لأنى لم أكن هناك ، فكل معلوماتى تعاد عن الفارس لشهم السر حين تبادلت بوانتلت Sir John Fernando Portelet الذى كان هناك » (٣٦) .

وإذا لم يقتصر القارئ صحة كل ما كتبه فرواسار من معلومات تاريخية ، فعليه أن يعلم أن الحالة سيحدثها عندما يرجع إلى كل الكتب الذين سبقوا عصر فرواسار تقريباً ، والذين انفقوا على عائلتهم القيام بدور المؤرخ - فيقول هيودوت أن الجيش الفارسي الذي غزا أفسس سنة ٤٩٢ ق-م راد على مليونين من الجنود . وهذا الرقم رفضه كل العلماء باعتباره صالحاً منه إلى حد اتارد السخرية - وكثير مما تضمنته تاريخ المؤرخ الروماني ليفي ليفي لا بد وأن يسل في إطار الأساطير - ومن ناحية أخرى كان العلماء على استعداد لقبول الدقة الواقعة لوصف فرواسار للحركة كريس ، على سبيل المثال ، بل والاستعداد بقوله بخصوص الإمداد الذى ذكرها والتي اشركت في تلك الحركة . ويجب على القارئ أن يضع في اعتباره أمرين عندما يقرأ ما كتبه فرواسار أولاً ، أنه فرواسار عاش قبل العصر الذى أصبح فيه التاريخ علماً ، فهو لم يزر أماكن حفظ السجلات ، ولم يدرس أو يقارن بين المعلومات المتعارضة كما هو ضرورى في عصرنا هذا (٣٧) . ثانياً ، أن هدفه لم يكن كتابة تاريخ متوازن عن الأمور السائدة في تلك الفترة وإنما أن يكتب سجلاً عن أعمال البطولة التى ظهرت في الحروب بين فرنسا وإنجلترا وجيرانهما . « وأن يقدم وصفاً دقيقاً » .

(\*) noble من كلمة ضد ذميمة لاتينية تعنيه تعبتاً شاملاً

ونصف - للرجل .

عن كريمة مهاجمة القلاع والمدن وكيف تم الاستيلاء عليها . وبدلاً من نقد فرواسار لعدم دقته ، و قائلاً ستكون ملهشين الى حد ما للمصادقية العامة لتلك الحوليات أكثر مما بها من أخطاء خاصة ، ( ٣٨ ) .

وقيل أن يعتبر فرواسار صاحب الدور الأعظم كدورخ للرومانية في غرب أوروبا في القرن الرابع عشر . فمن المفيد أن تلقى نظرة على أنواع المعلومات الأخرى التي قدمها للقارئ في حولياته . وإذا كان العديد من الأطباء قد ذهبوا بعيداً جداً في إعجابهم بفرواسار إلى حد أنهم اعتبروه حيروذوت وأخر العصور الوسطى ، فإن ذلك لم يكن من الواقع في شيء . وإذا كانت المروبة هي موضوع الكتابة عند فرواسار وحيروذوت ، إلا أنه في الوقت الذي قدم فيه المزج اليوناني كثيراً من المعلومات المتعلقة بالعرف والعادات والأساطير الاجتماعية للشعوب المختلفة التي ذكرها في تاريخه ، فإن فرواسار لم يذكر شيئاً بالكامل تقريباً عن هذه النواحي . ومع ذلك فليس من الإنصاف في شيء أن يعيب على فرواسار لانتقاره إلى الاهتمام بعامة الشعب ، وماذا يفعلون وكيف يعيشون حيث كان عامة الشعب لا يقعون في ملهى مطلق اهتماماته التي جعلها كل سبيله في الحياة . وكان هدف فرواسار من تقديم وصفه للمحارب وأعمال البطولة ، استناداً إلى حلقة من التاريخ المساسي . من أجل المنفعة والتسلية ورفع الروح المعنوية بين أسباده واصفائه على الطيفه الارستقراطية .

على أن فرواسار نظر إلى الطبقة الأدنى من الطبقة الارستقراطية من حين إلى آخر - وعند الكتابة عن المحارب لا يد أن يشمل ذلك بالطبع حمله اللروح والجند . وهناك مناسبات عندما كانت الطبقات الدنيا يصلو أراجا لم هم لعل منهم اجتماعاً - وكانت ثروة المزارعين في إنجلترا مسة ١٣٨١ م تشد تلك المناسبات خطورة . وكما يتوقع المرء تعاطف فرواسار مع هؤلاء الذين يمثلونه الوضع السائد من أصحاب السلطة العليا ضد هؤلاء الذين يسكرون صفو الأوضاع . على الرغم من أنه بذل جهداً في تقديم الوقائع والمجج المؤيدة لموقف المزارعين . ولما كان لدى فرواسار أمل في أن يكون تاريخه . مثلاً يتحدث به لكل البشر - لذلك فإنه يستنتج القارئ باعتباره متوازناً بفرجة مقبولة .

من المتعارف عليه في إنجلترا ، وفي العديد من البلدان الأخرى أيضاً أن لطبقة النبلاء امتيازات كمية على طبقة الصامدة الذين ظلوا في حالة استرقاق ، وإعني بذلك ، أنهم كانوا ملزمين بحكم القانون والعرف أن يحثوا أراضي التسيه ، ويحصلوا الميوب ويحولونها إلى محزون الميوب . ويترسونها ويقومون بتدريتها ، وكانوا ملزمين أيضاً بصنع الفس المستخدم كملف للمباشية ونقله إلى المرل . وكانت طبقة العامة

هزيمة بأداء كل تلك الخدمات لمادتهم الاقطاعيين ، وكان هذا الوضع أكثر شيوعاً في امجتراتنا عنه في أى بلاد أخرى . وكانت هذه الخدمات تؤدى لصالح الاساقفة والانتباه . وكانت هذه الخدمات ثقيلة البوالة في كوتليات كيمت ، واسكس ، وسكس ، وبيدورد ، عن أى منطقة أخرى في المملكة » .

« وبدأت عناصر السخط في تلك المناطق تترى عن نفسها قاتلة أهم يتعرضون لظلم صارخ ، وأنه لم يكن هناك عيب عند بدء الخليفة ، ولا يصح أن يعامل أحد كسب ، ما لم يكن قد اقترف جريمة ضد سيده الاقطاعي ، كما عصى ايليس ربه . غير أنهم لم يفعلوا مثل ذلك ، لأنهم ليسوا ملائكة أو انبياء ، وإنما بشر مثل سادتهم الاقطاعيين تماماً بشأن ، ولكنهم عابوهم كالانعام . وأن هذا الأمر لن يسكوا عليه ما يوم عخلوا الهرم على الحياة اسراراً ، وأنهم يجب أن يسألوا أجورهم على أعمالهم التي يقصونها للخدمة الاقطاعيين » .

وحمل حيا يول « القس المخبول » (\*) من ضمه متحدنا باسم هؤلاء الزارعين الذين كانوا يعاونون من الشعوب بالمسخط والاستبداد - اعتاد القاد خطاب عليهم بعد قتلهم الأجد في ساحة السوق عن الظالم التي يعرضون لها على أيدي سادتهم الاقطاعيين . وقال لهم اسفدقائي الكرلم ، ان الأمور لا يمكن أن تستقم ، وإن تستقم ما لم يكن كل شيء متسكراً ، عندما لا يكون هناك تابع أو سيد اقطاعي ، وعندما تدوب كل الفوارق بين الطبقات . وعندما تكون والسادة الاقطاعيون سواء بسواء . ألم يستملونا ؟ وما هو السبب الذي يحصلهم يستعملوننا ؟ السنا حسبنا ابناء لأدم وعواء ؟ وما هو دليلهم ؟ وما هي ميراثهم التي تجعل لهم السيادة علينا ؟ اللهم الا لاجبارنا على العمل بكل جد وكد من أجلهم ليعموا . أنهم يرتدون الملايس الحريرية وكل ما هو غالي وقصير ، ويتزينون بغراء القاموم الأبيض (\*\*) . في الوقت التي اجبرتنا فيه على ارتداء الردى من القماش - أنهم ينعمون بالنبيذ ، والتوابل ، والحبز الفاخر ، في الوقت التي لا يبقى فيه لنا سوى الحبز الأسمر المصروع من دقيق الجواتاد (\*\*\* ) ، ومن بقايا القش والتبن ، ولا نشرب سوى الماء . أنهم يمتلكون التصور

(\*) لا يعتقد أن حيا يول كلف مشهورا ويرجع استخدام لرواسر لكونه الصفة لاد محارته لرواسر الخليفة التي كتب لها وعثي على موافقها . - المترجم .  
 (\*\*) القاموم الأبيض ermine هو فراء القاموم الذي كان يرتديه الملوك والنبلاء - المترجم .  
 (\*\*\*) الجواتاد ziz هو نبات من الفصيلة البقية ينسج حيا ، وبقية ينسج خيلا أسمر . ويستخدم حبه في صناعة الخمر . - المترجم .

القاهرة . وعلينا نحن التعرض للرياح والأمطار ابان اعمارنا القصية في الحقل - وبفضل نتاج جهتنا يمشون في رفاحية وأبهة - ويطلقون علينا لفظ عبية ، ويمتدحون علينا بالصرب انما لم قم بأعمالنا ، وليس لنا سيد نشكو اليه ، بل لا يوجد من لديه الاستعداد للاستماع اليينا ومحقق العدل - هيا بنا الى الملك الشاب ، لنشكو اليه حالنا ، واجبارنا على حياة العبودية ، وليقله أننا لن نرضاهم بعد اليوم ، وأما سنبحت عن وسيلة شرعية لاسترداد حقوقنا » (٣٦) .

وأدان بعض النقاد فرانسيس لاتخاذ موقف التبله المشاعر أمام مصاداة الطبقات الدنيا . واستشهدوا بفقرة من جوليانه ، لكي يبرهنوا على صحة دعواهم . وتعلق هذه الفقرة باستيلاء الأمير الأسود على بلدة ليوجير *Liojers* ، وأعلم كل سكانها بناء على أوامره - وكانت أبناء اقسام ملك البلدة قد اتارت حق ذلك الأمير الذي اقسم بروج والده ، والذي لم يسبق له ان حدث في ذلك القسم ، ان يعمل على استرداد ملك البلدة ... وأن يجعل سكانها يدفعون تمنا غالبا لخياتهم » (٤٠) - وبعد أن حاصر الجيش البلدة من جميع الجهات ، شرع المحاربون في حفر نفق تحت أسوار البلدة . وبعد مرور حوالى شهر أبلغوا الأمير الأسود بانتهاء مهمتهم . كان ذلك الخبر باعثا لسرور الأمير ، الذي رد عليهم قائلا : أتمنى أن يتحقق كلآنكم غدا في الساعة السادسة صباحا . وأشعل المحاربون النيران في المواد القابلة للاحتراق في نازل الحفر ، وفي صباح اليوم التالي ، دمروا جزءا كبيرا من السور الذي ملا الحفر .

وشاهد الانجليز ذلك وهم في غاية السرور ، لأنهم كانوا جميعا مسلحين ، وعلى استعداد لفتح البلدة . وقام المشاة باقتحام بوابة البلدة ، بعد تعطيلها وتعطيل كل الحواجز حيث لم يكن هناك دفاعات غيرها ، وتم كل شيء على وجه السرعة الى الحد الذي لم يدع فرصة للسكان لبدء أي مقاومة .

وانفتح الى داخل البلدة كل من الأمير ، ودوق لانكستر ، وإيرلات كامبردج وبيبروك *Pembroke* ، والسير جومسكارد دى أنجل *Sir Guscard d'Angle* ، وآخرون وسعهم رجالهم . فقام الجميع بعمليات سلب وهب ، ولكن سرعان على الخلق الذي بمن في البلدة . ثم قاموا بقتل الرجال والنساء والأطفال . وفقا للأمر . لقد كانت هجمة جنونية تقريبا . فالجميع من كل الأعمار والأجناس ركعوا أمام الأمير ، طالبين الرحمة . بيد أنه كان في حالة غضب شديد ، ولم يستمع الى أحد منهم ، ولزم بأعمال السيف في رقابهم ، أيضا وجندوا حتى أولئك الذين لا ذنب لهم ، لأنهم أعلم أن الفقراء تعرضوا لنفس المصير ، وهم

الذين لم يشاركوا في الخيانة ، بيد أنهم تعرضوا لنفس مصير قادة الخيانة .

وفي ذلك اليوم تعرضت بلدة ليسوجين الى أحداث مؤسفة جعلت أشد الناس قسوة ، أو من لديه أدنى احساس ديني ينظر قلبه من هول الكارثة ذلك لأن أكثر من ثلاثة آلاف من الرجال والنساء والأطفال لقوا حتفهم . اللهم أرحمهم جميعا أنهم شهداء بكل حق وصديق ( ٤١ ) .

على أن الشيء الذي يهشم القارئ في أياها منه عن العمل الوحشي الذي افتترقه الأمير الأسود أن عصره اعتبره مثالا للشهامة والعروسة . وربما كان من الأفضل اعتبار هذا التصرف أحد صفات الأمير الأسود بدلا من اذاعة فرواسار . حيث أوضح فرواسار بشكل لا ريب فيه أسفه الشديد للمأساة باعجاوها أمرا ليس له ما يبرر وجوده بهذه الصفة الكالحة ، وصفة خاصة لدائه لقتل « الفقراء » . كما أنه اذا ما حاول الإشارة الى حقيقة المجاميع يتعبر أكثر الما وامزعاها عن قوله « انه عمل مشر لا لكتاب » . ربما عرصة لأن يفقد أسبائه الذي عاش في كنفهم ، وجمهور القراء والمستمعين . وحولياته . وأنه أشار الى الضحايا المتساء بوسنهم « شهداء بكل حق وصديق » .

وللسبب نفسه لم يذكر فرواسار المرأة الا في مناسبات قليلة ، اللهم باستثناء الحالات التي تدخل في نطاق ما لمعد نفسه لوصفه . ولا يمكن تفسير صمته النسبي على أنه مبني عن شعور بالامبالاة تجاه العنصر النسائي أو أنه دلالة على التحيز التقليدي للذكور . وإنما عظمنا نحن الفرصة ، كان يقوم بوصف العمل البطولي أو الجريء لأي شخص . سواء أكان نبلا ، أم مرارعا أم امرأة . وكان يفعل ذلك دون ايذاء معاني اصافية قد تثير استياء جماعة معينة . وهنا في روايته التاريخية وصف الطريقة التي سلكتها الكونتيسة Countess صاحبة مونتفورت Montfort ، « التي امتلكت شهامة الرجال ، وقلوب الأسد » عندما هبت للدفاع عن مدينة هينيبور Hennebon . في اقدم برلمان ضد الفرنسيين . وكان زوجها أسيرا في أيدي الفرنسيين . كما قام الفرنسيون بمحاصرة المدينة لمدة ايام تحت قيادة اللورد شارل دي بلواه Lord Charles de Blois . وكانت الكونتيسة من بين القلة الذين عارضوا الاسلام ، ومارعت في طلب الحجة من اسطرا . « وارتدت بدلة حربية كان يرتديها النبلاء في العصور الوسطى . وامتطت صهوة جواد حرب ، وأخطت نغمو مسرعة عبر شوارع المدينة ، تستحث المواطنين وتشجعهم على الدفاع عن أنفسهم بكل قوة . وأمرت سيدات الحربة والنساء والأخريات أن يحسن العوائق في الشوارع ، وادى ينقلن

الأحجار إلى الاستحكامات والتنايرس ، وأن تلقى الأحجار على الأعداء ، وأمرت بأعداد القذور التي بها جبرحي للفرض نفسه .

وفي اليوم نفسه قامت الكونتيس بعمل بطولي رائع : إذ صنعت برجاً عالياً ، لترى كيف يتصرف شعبها وبعد أن شاهدت أن كل الموردرات الآخرين في جيش العدو ، وقد غادروا حياتهم ، وأوشكوا على شن الهجوم . عند ذلك نزلت على القور من البرج ، وامتنعت صهوة جوادها ، وهي في كامل عدتها الحربية ، وامطمت معها ثلاثمائة من الفرسان وشنوا هجوما مضادا على مصكر العدو ، وهدموا ذلك المصكر ، وأشعلوا فيه النيران دون أن تحدث إصابات في قواتها ، لأن الحمم والفتية الذين كانوا بمصكر الأعداء كانوا قد لاذوا بالقرار بمجرد الترابها منهم .

واستطاعت الكونتيس قيادة قواتها العسكرية إلى بلدة بريست Brest حيث استطاعت جمع حصانة رجل آخرى - ونجحت في قيادة ثمانية ثمانية إلى داخل مدينة غيببون في منتصف الليل دون أن يعلم الفرنسيون بما جرى - ورغم بطولتها فإن المدينة كانت قد قررت كلها تقريبا الاستسلام للفرنسيين في اللحظة الحاسمة التي وصلت فيها نجدة إنجليزية تحت قيادة السير والتر ماني Ser Walter Manny

ويصف فرواسار في وصف كيف استطاع الإنجليز شن هجوم غير متوقع على برج كبير استخدمه الفرنسيون في السيطرة على أسوار المدينة ، وقصوا على من فيه من المقاتلين ، ودمروه ، ثم استطاعوا ليجبار قوة فرنسية على التراجع كانت قد حاولت مهاجمتهم . وعلمنا عادوا إلى القلعة ، ذهبت الكونتيس لمقابلتهم ، وقبلت السير والتر ماني ، وكل القوات المرافقة له ، واحدا بعد الآخر ، كما تفعل أي سيئة شجاعة من طبقة النبلاء ( ٤٢ ) .

ويقدم فرواسار كونتيس أخرى أبليت شهامة من نوع مختلف . وهذه السيدة هي زوجة إيرل ساليردوري Salisbury الذي كان محباً في فرنسا ، والتي عملت على طرد الإسكتلنديين الذين ماحوا قلعة يارك York - واضطر الإسكتلنديون إلى الانسحاب من المنطقة على أثر انتشار نيا قوم ادوارد الثالث وجيشه - ثم ذهب الملك إلى الكونتيس ليصبر لها من تحياته . وذهبت السيدة لمقابلته ، وقد ارتدت أفخر أروع الثياب وأغلاها إلى المد الفى لم يحسن فيه أي شخص من التحول عن النظر إليها دهشة وإعجاب بسبب سلوكها الراقي ، وجمالها الساحر ، وخلقتها اللامت . وعندما اقتربت من الملك قامت واحملت التحية له وهي ساجدة . وشكرته على حضوره لمساعدتها ، ثم رافقته إلى القلعة ، لاستضافته ، وتقديم واحلات الاحترام بكل ما في استطاعتها ، وكان الجميع ميتها بانتظر إليها : ولم يستطع الملك أن يحول نظره عنها ، واعتقد أنه لم يسبق

له أن شاهد سيدة في مثل ذلك الجمال والمرح والحبوبة إلى حد أن أصابته شرارة من الحب الجارى ، والتي استمرت لفترة من الوقت ، لأنه لم يصدق أن العالم كله به امرأة جذابة بالحب سواها .

واضطجعت الكونتيس للملك إدوارد الثالث إلى حجرته التي أعدتها خصيصا له . ثم ذهبت لمزجج بالود المراق للملك ، وبعد أن صدرت الأوامر بإعداد الطعام وترتيب القاعة ، عادت إلى إدوارد لتجده غارقا في بحر من الأفكار . وعندما حاول إيقافه من حالة الاستغراق في التفكير ، أبلغها أن أمرا قد استحوذ على قلبه للرجة أنه لم يستطع أن يبعد عن أفكاره منذ أن قدم إلى القلعة . وعندما أشارت عليه الكونتيس أن يوقف القلق بشأن الاسكتلنديين ، مضرة أن ذلك هو السبب لحالة الاكتئاب التي يمر بها ، أفصح للملك لها عن شيء آخر تماما ، وقال لها أن هذا الشيء ليس سوى ميسه بها . وقال لها : « سعادتي متوقفة على ذلك » .

قررت عليه الكونتيس : « مولاى العزيز ، لا بأس بمسك ياخذنى عادة للتسلية ، أو بمحاولة تعرضي على الانحراف الحلقى ، لأنى لا أستطيع أن أصدق أنك تمنى ما قلته أو أن ملكا بيلا وشهما مثلك قد يفكر فى تلويث سمعته وسمعة زوجته ، وهو الفارس الشجاع ، الذى حمله بإخلاص ، والذي يمانى من الأسر الآن ، دفاعا عنك . سيبنى ، أن ما قلته لى يضيف إليك لى مجد بكل تأكيد . لو نكون أفضل مما أنت عليه . إن ما يحاول بغاظره لم يطرُق إلى أطرافنا ، وأسأل الله ألا يحدث لى مثل هذا الشيء من المستقبل نحو أى رجل على وجه الأرض ، وإذا ما كنت استحق اللوم ، فإن من حقه أن توجه لى هذا اللوم ، وببذلك بمافية جسدنى بالمعدل الكامل » .

وعندئذ تركت الكونتيس الملك إدوارد الثالث ، وهو يمانى من الشعور بالفشل ، وذهبت لتأدية الاستعدادات النهائية ، ثم عادت إلى إدوارد ومعها العديد من الفرسان لتسعهو لحضور طعام العشاء . وأبان تناول الطعام ، « أكل الملك قليلا جدا ، وكان فى حالة استغراق فى التفكير طوال الوقت ، ومالتيا بجسده تجاه الكونتيس كلما منحت الفرصة له . » وبعد أن قضى الملك ليلة ، وهو فى حالة من القلق ، دعاها فى الصباح وطلب منها أن تقدم له « إجابة مختلفة » فى المرة القادمة التى يراها فيها . فأجابته الكونتيس : « مولاى العزيز ، فليحفظك الله فى نمى الصلاح الأبدى ، وليبعد عن قلبك تلك الأفكار البغيضة ، لأننى على استعداد لحديثك فى الحاضر والمستقبل وعلى الدوام مع الاحتفاظ بشرفى وشرفك » (٤٣) .

غير أن هذا لم يته المسألة فبعضى فرواسار كيف أن إدوارد نظم سلسلة من الولائم ، وعباديات ميقات الفرسان ، بعد ذلك بوقت قصير ،

عن لبس ، ودعا إليها اللوردات وأرواحهم في اجترأ وفريسا \* \* \* وطلب  
 ادوارد صراحة من إيرل ساليربوري أن يحضر زوجته معه \* - ( كان  
 الايرل قد عاد من الأسر ) \* \* \* وظهرت زوجات كبار رجال الدولة وفتياتهن  
 في أبهى مظاهر الرتبة في اللبس والمظهر ، وفقا للمرجاتهن باستثناء  
 كوسيمس ساليربوري ، التي حرصت مرتدية أبسط أنواع الملابس \* ( ٤٤ ) -  
 ونظرا لأن المؤرخ لم يكن لديه ما يمكن إضافته الى هذه القصة الرومانسية ،  
 فيمكن للقاري أن يفترض أن ادوارد قد أدرك الرد في النهاية \* .

تجنب فرواسار الى حد ما موضوعا مهما ، وهو موضوع الكنيسة  
 والشئون الكنسية بصفة عامة - . وإذا ما كان قد اجترأ الذين قليل  
 الأهمية ، وهو ما يتخالف الواقع ، فما كان للقاري أن يتوقع منه الكتابة  
 كثيرا عن هذا الموضوع \* . ويتفق صيته هنا مع خلفه المجدد والمتعلق  
 بالكتابة عن الباروك ، وعن الرجال المشجعان - واهتم فرواسار بالشقاق  
 للبايوي الى حد ما ، وذلك بسبب تناشئة العيساميه بصفة أمامية ، فيه  
 أنه تجنب تأييد قويق ضد آخر \* . وهذا ما كان يتوقفه المرء للمرة الثانية ،  
 إذ أدخل فرواسار في حسابيه استفتاء الاسترطاطيين في كل من  
 المسكرين - وشايخ الاسلحيز وكثير من سكان الأراضي الواطئة البانا  
 الرومانى ، في الوقت الذي ايد فيه الفرنسيون والاسكتلنديون ، والأسباب  
 البانا الموجود في آقيتون \* . وإذا ما حاول فرواسار التماطف مع هذا  
 البابا أو ذاك لمرضى نفسه لثمانين يصر استغاثته -

وعلى الرغم من أن فرواسار لم يوجه كلامه الى موضوع الايمان  
 والدين بشكل مباشر فانه غالبا ما ذكر أن الملوك ، والجيوش ، والتسعة  
 قسوسا صلواتهم قد والممرد \* . وهذا ما فصله دون حيولبرز الذي  
 نجح في الحاق حربه مكررة بحيش البرابنتين Brabanters بعد قتل  
 من مرسانه \* . وأصر هذا الفوق ، بعد النصر أن ينفرد أولا ، فضلا ذلك  
 على انقهاب العورى الى القصر القلنس ، وسعه ما غمه من الأسرى \* . لقد  
 تذرث سبدهنا في نيميجون Nimègue ، عسا غادرت تلك المدينة ،  
 وقمت بجدد هذا المرد ، علفما بانانا للمركة \* . واعتالا لهذا الفتو ،  
 قامى أمرت أن تعود باجتهاج ومرح الى سميجون ، وأن يقدم صلوات الشكر  
 للممرد المقدسة الى مساعدتنا على تحقيق النصر \* . وتم تنفيذ هذا الأمر ،  
 ولم يترص أحد عليه ، ووجهوا عند نودتهم الى سميجون ، ( كسى سرعه \*  
 وبلغت المسافة بين ميدان المركة ومدينة نيميجون قرسحين (٢) طولا ،  
 بد أنهم وصلوا إليها في وقت قصير \* .

(٢) القرسح خمسة كيلومترات أو ثلاثة أميال - للفرج \*

« وعبر مكان المدينة من كل من الفرنسيين عن فرحة كبرى ، وابتهاج شديد عند سماع هذا الخبر السعيد ، وخرج رجال الدين المسيحي في مركب لحافة اللوح ، واستقبلوه بالهائل ، ولم يلبث الدوق ذات اليمين أو ذات الشمال ، وإنما توجه على الفور وسه قرساته إلى الكنيسة التي يوجد بها تمثال لسيدها ، والذي يؤمن بها إيماناً عميقاً ، وعندما دخل حصل الكنيسة ، جرد نفسه من كل سلاح حتى سترته الفضية - ووضع بذلته الحربية على اللوح ، مبتللاً لسيدها ، وقدم صلوات الشكر لانصاره على أعدائه » (٤٤٥) \*

وفي عصر كان يشار إليه عاطفياً « عصر الايمان » يقرأ المرء دون استعاش أن الإنجليز كانوا يسعون في مواكب ثلاث مرات في الأسبوع ، في حالة عليهم أن الفرنسيين على وشك مهاجمة بلادهم ، « ويتضرعون إلى الله ، بكل ورع وقوى ، أن يمتنعهم هذا الخطر » ، ويهو أن فرواسار سبب إلى الطبقة الاستقرالية الإنجليزية ، إيماناً أقل من الايمان الذي أبدته الطبقة العساسة : إذ كتب أن البابا ثوربان Urban وبعد الناس « بنسجهم الحق والفران من كل الخطايا » ، مقابل تصديهم للدين يؤيدون البابا الاتينيوي Avignon Pope ، يسه أن اللوح علق على ذلك بأسلوب خالف : « كان من الضروري أن يكون تحت يد هذا البابا مبلما كبيراً من المال - إذا ما رغب أن يصح حمله موضع التنفيذ ، لأنه من المعروف تماماً أن النبلاء الإنجليز لن يقووا بعمليات عسكرية ، ما لم تعرض عليهم الأموال مبدلاً ، مهما كانت مميزات الفران - كما أن الجنود لا يقتاتون الفران - ولا يمدون بمعاملة شديداً به إلا في لحظة الموت » (٤٦) \*

كان فرواسار مؤرخاً للقرومية في ليلام الأول فكتب عن الطبقة الاستقرالية ، وعن المارك ، وعن مباريات سباق الفرسان ، وعن الزواج ، والاشغلة الأخرى المتعلقة بتلك الطبقة ، ومع ذلك ، فإن حويلاته لا تشكل تاريخاً رسمياً عن الطبقة العليا أو الملائكة - الله انتهى ما كان يعتبره جديراً بأن يذكر عن هذه الطبقة - فأنغل ذكر لخسارة الاقطاعات ، وسن القوانين ، بل وحتى صراع السلطة بين التاج والطبقة الاستقرالية - وربما سببت قراءة تلك الموضوعات عيشاً من اللال ، أو ربما اعتبروها بانهة الدقة إلى الحد الذي يصعب عليهم فيه تيلل الأوكا حويله ، وفي الكتابة عن الاستقرالية - قدم موضوعات عن القصص المعبرة عن المشاهدة ، والمطولة ، والشجاعة ، وهي التي كلاً متأكداً من أنها مستعمل السرور على القاري أو المستبح -

إن صفحات حويلات فرواسار تعج بالمحاوكت المعارضة والقصر التي تدخل البهجة في قلوب معاصريه من بين الطبقة الاستقرالية .

وحقيقه كبير من المؤمنين بالقصص والمفانيك على عصره . وكان فرواسد  
 أحد المجيدين للتصديق لواجب القرومية ، والشهادة . وهناك إحدى  
 القصص التي تنضج بالقرومية المثالية بكل معنى الكلمة . وهي تنطت  
 عن روبرت بروس Robert Bruce ، ملك اسكتلندا ، وهو على فراش  
 الموت ، المكان الكثيب هوما تكن الظروف ، لا أنه كان أشد كآبة بالنسبة  
 إليه ، ذلك لأنه لم يتمكن من الوفاء بعهده ، في الدعاب لمحاربة أعداء  
 المسيح عيسى . وأعداه الايمان للمهني . ولولا أن اضطررب الأحوال  
 في ملكته شغلته ، بصفة مستمرة ، عن الدعاب بنفسه الى الأرض  
 القصة ، ونظرا لاستحالة تنفيذ هذا الأمر في ذلك الحين ، وهو على فراش  
 الموت ، لذلك تمنى أن يعجب قلبه لل ملك ، على الأقل ، نياية عن  
 جسده للوفاء بالعهده ، ومن ثم طلب من السفير جيمس دوجلاس  
 Sir James Douglas ، أن يأخذ على عاتقه تنفيذ هذه المهمة .  
 « لاني واثق من شهادتك ، وولائك ، وأنتك اذا ما فعلت بها فسيكون  
 التوفيق حليفك » . وعندها قبل دوجلاس المهمة ، زوجه الملك بالتعليمات  
 التالية : « أوصيك بزرع قلبى من جسدى بمجرد وفاتى ، وبأن تحتفظ  
 بطريقة جيدة ، وأد تأخذ من حزانتى كل ما يكفيك من أسواله لأجاز  
 مهمتك ، وما يكفى لولئك الذين تختارهم لمساعدتك فى مهمتك ، وأن  
 تدفع قلبى فى القبر المقدس ، حيث دفن ريبا Our Lord . نظرا لعدم  
 استطاعة جسدى الدعاب الى هناك ، وأوصيك بعدم التقدير فى الافراق -  
 واصطحب معك ما يتناسب مع منزلتك من الرجال ، والأشياء المناسية -  
 وفى أى مكان تسره عليك بالإعلان أنك تحبل قلب روبرت ملك اسكتلندا ،  
 وأنتك حملته عبر البحار بنه على كره . نظرا لاستحالة دعاب جسده  
 الى هناك » .

وبعد موت بروس بجميلة أيام ، ركب السفير دوجلاس سفينة فى  
 ميناء مونروز Montrose فى امهنة القسمة ، وأبحر صوب سلويج  
 St. Boys . ثم ظل بها اثني عشر يوما ينتظرا للرياح المواتية : « أعد  
 مائمه فخمة ، على أنغام الأوتوق والطبول كنا لو كان حرم ملك اسكتلندا  
 يصيبه . وتكون الوفد المرافق له من قصيلة من الفرسان تحت ليارنه  
 فارس له مكانة هائلة يحمله فرسان يسلمون تحت لوائه ، وسبعة آخرين  
 من أكثر فرسان اسكتلندا شجاعة ، بالإضافة الى حرمه الشخصى ، وأهل  
 بيته . أما أدوات طلائمة فكانت من الذهب والفضة ، وتتكون من القنور ،  
 والطسوت ، والظواجر والكزوس ، والزجاجيات ، والبراميل ، وأشياء أخرى  
 من هذا القبيل . ويضاف الى الوفد المرافق ستة وعشرون مرشعا لرتبة  
 فارس من أشجع شباب الأسر الاسكتلندية مكانة على خفمة دوجلاس -

وسلط كل من جاء لزيارة دوجلاس بخطوة بالغة . إذ كان يقدم اليرم من  
المحور نوعين ، ومن التوابل نوعي أيضا - وكان ذلك قاصرا على الطبقات  
العليا -

علم دوجلاس وهو في طريقه جنوبا من سلوير Sluys أن الفونسو  
Alfonso ، ملك أسبانيا ، كان يقش حربا ضد حاكم غرناطة  
المسلم ، ومن ثم قرر أن يقطع رحلته ويشارك في حملة مسلمية في  
أسبانيا قبل مواصلة رحلته . وبعد ذلك بوقت قصير جاء اليوم الذي  
اصطف فيه الجيشان المسيحي والمسلم استعدادا للمعركة . « ولا لاحظ  
السير دوجلاس أن القوات المتحاربة في كل من الجانبين في حالة استعداد  
كامل ، وأن ملك أسبانيا في حالة حركة مستمرة ، تصور أنهم على وشك  
بدء الهجوم . وكان دائما يفضل أن يكون من بين الذين يبدأون الهجوم  
في مثل تلك المواقف ، لذلك انطلق معه كل رجاله يسيرون ، حتى  
صاروا في وسط جيش ملك غرناطة ، وشنوا هجوما شرسا على المسلمين .  
وكان على ثقة من مساندة أبناء أسبانيا له ، بيد أن حساباته لم تكن  
صحيحة ، إذ لم يساعد أحد من أبناء أسبانيا في ذلك اليوم . فاضط  
الأنصار بالفارس الشجاع ورجاله ، ولظفروا أروع أمثلة البطولة ، بيد  
أن ذلك كان صون جنوى لأن للمسلمين قضا عليهم عن بكره أيهم - أن  
عدم مساعدة أبناء أسبانيا لهم أدت إلى تلك الكارثة الفادحة » (٤٧) ،

ولا بد أن هذه القصة أدخلت السرور على فرويسار بقدر ما أسعلت  
قلوب كل مستعبيه ، باستثناء أبناء أسبانيا . أما النادبة المسلمة التالية  
مهي نموذج من الكثير في الحروب التي تضي الشرف والفخر على كل من  
السادة الإقطاعيين والفرسان بل وحتى المرشدين لرتبة الفارس المبتدئين .  
وكان اللورد جيمس أودلي Lord James Audley أحد النبلاء الشجعان  
الذين ساعدوا الأمير الأسود في إحراز النصر الساحق في معركة بواتيه  
Poitiers سنة ١٣٥٦ م . فبعد انتهاء المعركة ، « أخذ أربعة من  
الفرسان المساعدين المسلمين إلى منطقة بها مياح من الشجيرات ، اتجأ  
نفسه ، وابتعد أقامه إذ كان في حالة ومن شديد وجه حروخ ، وحملوا  
ملابسه الحربية بركة متناهية ، لكي يتفحصوا جراحه ، وضموها  
وساكروا الجراح الأكثر خطورة . » وعندما عاد الأمير الأسود إلى معسكره ،  
سأل عن أودلي ، وعرف أنه « أصيب بجرح خطير وأنه يرقد على نقالة في  
مكان قريب جدا . » فامر الأمير بإحضاره إليه إذا كان ذلك ممكنا ، والا  
فإنه سيذهب إليه بنفسه إلى الفارس لينني على بطولته - وعندما أحضر  
الرافقون أودلي ، امتدحه الأمير الأسود على شجاعته « وقال له ، « لقد  
تفرقت علينا جميعا ، بما أحرزته من مجد وشهرة ، وأثبتت بسلتك أنك

انسحب فارس . - ثم أعلن الأمير الأسود فتح الفارس أولئ دخل سنويا عقباره جسمائه مارك كرمز مائى تقديرا له ، مع ضمه الى طمته - وبعد دهب الأمير ، أرسل أولئ فى طلب مساعديه الأربعة من الفرسان المساعدين ، والذين قاموا على خدمته وقال : « أيتها السادة ، تفصل سيدي الأمير بسحي جسمائه مارك كمحه سنوية - وهذه الهبة حقايل خمسة جسدية تافهة قمعتها اليه - انكم ترون ها هؤلاء الفرسان المساعدين ، الذين ساعطوني على الدوام لمخلص نام ، وبطاسة مي معركة هذا اليوم - ان ما حقته من مجد كان يفصلهم ، وفضل بسالتهم ، ولذلك لود ان اكافئهم ، لذلك اعطيتهم او اصح تحت أيديهم الجسمائة مارك التى تفصل سيدي الأمير الأسود بالانعام بها على شخصي » (28) -

وبعدها علم الأمير الأسود بما فعله أولئ اتنى عليه على صبيحه ، وأصر على ان يقبل أولئ صمائة مارك أخرى شريطة أن يحتفظ بهذا المبلغ الأخير لنفسه (29) .

لم يحدث في أى وقت في تاريخ الحروب أن كانت تقاليد وقواعد اعلان الحرب بل والقتال القليل متقدمة بالسير على نحو مفصل وبالاعتراف على المحافظة على الشكليات متلما كان الحال ابان العصور الوسطى العاليه والمتأخرة . قبل سبيل المثال ، عندما أرسل شارل الخامس ملك فرنسا اذارا باعلان الحرب الى ادوارد الثالث ملك إنجلترا على يد خاتم خاص مهمته العناية بملابس سيده كلى ذلك أمرا مستهجنا لمخالفته لقواعد والأسول المتبعة في مثل ذلك الأمر إذ كان من الواجب عليه أن يعهد بيده الهمة إلى أحد كبار السادة الاقطاعيين ، لو إلى أحد الاساقفة - ويحكي غرواسار أنه ما أن شعر شارل بأنه على استعداد لاستئناف القتال حتى أرسل خادما مهمته العناية بملابس سيده Valot ، يحمل اعلان الحرب إلى ادوارد . وعندما دخل الخادم على الملك الإنجليزي ، وجلسه الاستشارى ، فقصوا الأوراق - « وقاموا بفحص الأوراق جيدا ، وكذلك الشمع والخم ، واتضح لهم أن اعلان الحرب صحيح ولا ريب فيه - ثم أمروا الخادم بالتصرف ، ولتبروه أنه قد أدى مهمته على ما يرام ، وأنه في استطاعته العودة بأمان ، ولى صبيحه مكروه في عودته . وعلى ذلك عاد إلى فرنسا بأسرع السبل ... ومن لهم القول أن الملك ورجال مجلسه الاستشارى غضبوا بشدة للقيام خادم بتسليمهم اعلان الحرب ، وقالوا أنه ليس من اللائق أن يتم تبليغ واعلان الحرب بيد عاقلين كبريين مثل ملكي إنجلترا وفرنسا على يد خادم عادى إذ كان من الواجب أن يتم ذلك على يد أحد الاساقفة ، أو أحد البطاركات أو الفرسان الشجعان » (30) -

وتحرم قواعد الفروسية قتل الفارس الا بالوسائل العديدة بالاحترام والتقدير ، وبلا ريب ليس عن طريق الطعن من الخلف - ولم يتم غرواسار

وحده بإدانة القصة التالية ، وإنما أناتها الفرنسيون والاجنيز أيضا .  
 وكلن الضحية فارس من أمال ويلز يدعى ايضاً *Evans* . وكان ايفان  
 هذا يساعد الفرنسيين بوثيق كبير ضد الانجليز في اكويتين ، وكان  
 في ذلك الحين يتولى أمر محاصرة قلعة موربيان *Mortain* ، التي كانت  
 تحت قيادة سولدتشي *Souldich de L'Esclade* و ايفان غيرة  
 الحصار جاء من انجلترا من جنود مقاطعة ويلز فارس مساعد من ويلز  
 يدعى حنا لامب *John Lamb* ، الذي كان مجرداً من الشهامة تقريباً .  
 والواقع أنه أظهر ذلك ، إذ ليس من الشهامة في شيء ، أن يفعل الانسان  
 ما فعله من ذلالة حقيرة . \*

ودهب حنا لامب الى بوانو *Poitou* ، ويلز بالحظوة عند ايفان  
 بالحديث معه بلهجة ويلز ، وأخبره أن « كل المقاطعة ( ويلز ) توافقة الى  
 وجوده سيلاً اقطاعياً عليها » . وحفظت عنه للملومة حب ايفان الجيم لحننا  
 ( لأنه من الطبيعي أن يرغب المرء في العودة الى بلده ) الى حد أن عيته  
 ايفان حاجباً خاصاً له على الفور . - واستمر في فرواسار القول بأنه ثبت  
 أن ما فعله ايفان كان خطأ ماداماً . -

كان من عادة ايفان الاستيقاظ مبكراً في الصباح ، واتخاذ مجلسه  
 امام قلعة مورتيان ويتناول مشطه ويمشط شعره . وهو يستمتع بالمشط  
 الحويل . - وفي نهاية زيارته الأخيرة التي كانت في الصباح الباكر  
 والجو صحو . ونظراً لعدم تمكنه من النوم ليلاً لشدة الحرارة ، فانه  
 ذهب الى المكان الذي اعتاد التقلب اليه ، ولإزار ملايبس مفكوك .  
 وارندى صبرته وقميصه فحصب ، ووضع عناءه على كتفيه ، وفلم حنا  
 لامب مضطحة . وكان الجميع قائماً . ولا يوجد أحد يبول بالحراسة . . .  
 وبعد أن جلس ايفان على جذع شجرة قال لحنا لامب : « اذهب وأحضر  
 مشطى ، لأنه سيجعلني أشعر بالانتعاش قليلاً » . فأجاب حنا : « على  
 الرحب والسعة يا سيدي » . وفي طريق حنا لاحتضار المشط ، أو في  
 طريق عودته لا بد وأن دخل الشيطان جسده ، لأنه أحضر مع المشط  
 خنجراً اسبانياً قصيراً ذا نصل عريض ، لينفذ نوابه الشريرة ، لا طمن  
 هذا الخنجر في جسد ايفان الذي كان عارياً تقريباً . وجعل الخنجر  
 ينوصر في الجسد حتى غر ايفان صريعاً . \*

وبعد أن انتهى حنا لامب من فعلته ، اتجه الى القلعة ودخلها ، حيث  
 قابل سولدتشي *Souldich* ، وقص عليه ما فعله ، وقال لسولدتشي :  
 « سيدي ، لقد آذنتك في ذلك أعذالك » : « من ؟ » . « من ايفان  
 الويلزي » . « اجاب حنا . وسأله سولدتشي : « بأي الوسائل ؟ » فقال  
 حنا : « بتلك الوسيلة » . ثم قص عليه الظروف التي سمحتموها منذ

قليل . وعندما سمع مولدش رداً حياً ، نظر إليه بتعجب شديد وأجاب : « انك قتت باغتيالته بطريقة وحشية ، واسمع مني ، انه لولا أننا استغفنا كثيراً من جراء عملك السيئ ، لأمرت ببق عتقك ، لأن ما فعلته لا يصح أن يحدث ، إذ أن تلك القطة لا تليق بالرجل الشهم ، وأنها تعرض من يفعلها إلى اللوم أكثر من النناء » (٥١) .

تطلب الصراع الإقطاعي تقاليداً تفوق من كثرها أي عصر آخر . وفي الوقت نفسه ترك هذا الصراع مجالاً لوجود القصص الطريفة التي غالباً ما تميل على تخفيف حدة عملية القتل التي تتم للاشتراخ مثل القصة التالية . وتصف هذه القصة مبارزة بين شخصين وهي إحدى القصص المديفة التي أفرد لها فرواسار مكاناً في حويلاته . فطلب ( فارس ) مساعد فرنسي مبارزة أحد الانجليز ليبري لحبونه على احلاصه لها . وفي أحد الأيام أتاه حمار قلعة في بريثاني ، خرج هذا الفرنسي من القلعة التي حاصرها الانجليز وسخطى أحد الأعداء أن يقبل مبارزته . وطلب قائلاً : هل يوجد فارس بينكم على استعداد أن يخرب معي أحد أعمال الحرب الطويلة من أجل حبه لسيمة . إذا كان هناك من بينكم من هو مثل وضعي ، فاني على استعداد تام أن أبازره . وأنا في كامل عدتي الحربية ومعتطياً صهوة جوادتي . على أن تكون المبارزة ثلاث مرات باستخدام الرمح ، وثلاث ضربات بفأس الحركة ، وثلاث طعنات بالخنجر . أيها الانجليز اجثوا عن أي شخص فيما بينكم يعيش قصة حب . . . . . ويصلي هذا الفارس المساعد الفرنسي جوفيان ميكائيل Gauvain Micaille وداع عرضه وطلبه بين الانجليز على الفور ، ثم تقدم فارس مساعد ، خبير في مبارزات السيوف يسمى جوشيم كانور Joachim Canor وقال : « سوف احلصه من المهد الذي أخذ على نفسه ، ودعوه يسرع بالخروج من القلعة » .

وعند ذلك ذهب اللورد فتزولتر Fitzwalter . قائد الجيش إلى الحلود وأبلغ السير حوي لومانوي Guy de Bavenis « دع فارسك المساعد يخرج : لقد وجد شخصاً سيخلصه من قسمه على نحو حار . وأنا حتمتجه كل أمان » .

فشر جوفيان ميكائيل بانتهاج شديد عند سماع تلك الكلمات . واستعد في تمليح نفسه على الفور ، وفقاً للإرشادات التي استلهاها اللوردات إليه ، وارتدى قطعا عديدة من الدروع ، واستولى صهوة جواد أعدوه له . ثم خرج جوفيان ميكائيل من القلعة في صحبة اثنين من رملاته ، بالإضافة إلى غلمانته الذين حملوا ثلاثة رماح ، وثلاثة قشوس حربية ، وثلاثة خابرج . وظهر الانجليز إليه بالعمان وتفرس شديد لأنهم

لم يكونوا يتصورون أن الشخص الفرنسي غلب استعداد أن يقاتل فرداً  
لثرد . وأضيف ثلاث ضربات بسيف . وأحضر جوفيان معه من كل أنواع  
الأسلحة ثلاثة خشية أن ينكسر أحدها .

وعندما سمع إيرل بكنجهام عن هذه المباراة ، قرر مشاهدتها ،  
وامتطي صهوة جواده ، وصحبه إيرل ستافورد Stafford ، وإيرل  
ديفونشاير Devonshire ولهذا السبب توقف الهجوم على توري Tury  
وقدم الإنجليزي المعتد للمبارزة ، وهو في كامل ودائه العربي ،  
وصطيا صهوة جواده قوى . وعندما اتخذ كل منهما موقفه تسلم كل منهما  
رمحا وبدات المبارزة ، ولكن لم يصب أحدهما الآخر بسبب شدة نشاط  
جواديهما ، وقاما بالهجوم الثاني . بيد أنه انتهى بانطلاق مصحبهما فجأة  
وبسرعة مما جعل إيرل بكنجهام يصيح قائلاً : « حسناً ! حسناً ! » ، حين  
وقت الرحيل . ثم أمر كبير الحراس : « عليك بإيقاف هذه المبارزة ،  
إذ يكفي ما بدلوه هنا اليوم ، وستحصلهم يكلونها عندما يكون لدينا وقتنا  
أكثر مما نحتاج فيه الآن ، عليك بالمعاطفة التامة على حياة الفارس المساعد  
الفرنسي محافظتك على فارسنا المساعد ، وعليك بأن تأمر أياً من أتباعك  
بإبلاغ هؤلاء الذين بالقلمة ألا يلقوا عليه » . لأننا سنأخذهم معنا ليكمل  
هذه المبارزة وليس كأسير ، وبمعنا سترسله إليهم مصحوباً بإجراءات أمن  
مشددة ، إذا ما قدر له البقاء » .

ونفذ القائد تعليمات الأيرل وأبلغ الفارس المساعد الفرنسي ، « انك  
ستكون معنا في أمان ، وعندما يحين الوقت المناسب لسيدي سنعود إلى  
مسكرك » .

فاجاب جوفيان « اللهم وفقني وأعني ! » ثم مضوا برسول إلى القلمة  
لإبلاغ الفرنسيين بها بما سمع .

« ( وبعد ذلك بأيام قلائل ) ، وفي عيد البشارة ( في الخامس  
والعشرين من مارس ) استعد كل من جوفيان ميكائيل وجوشيم كاتور  
Joseph Cator ، لانتهاء مبارزتهما . ولأول مرة كل منهما الآخر بالحراش  
يتحد شعيد ، وبذل الفارس الفرنسي جهداً استحق ثناء إيرل بكنجهام .  
بيد أن الفارس المساعد الإنجليزي سدد ضربة منفضة بجسده  
يحرجه أصابت فخذ فخذه الفرنسي . وغضب إيرل بكنجهام لذلك كثيراً  
وكذلك باقي اللوردات ووصفوا المبارزة بأنها حقيرة بيد أنه تلمس  
المنور . بالإعلان بأن ذلك لم يضره إلا نتيجة لجروح جواد الفارس المساعد  
الفرنسي . ثم استعلا السيف في تنفيذ ضربات ثلاث . وأعلن الأيرل  
أنها قد بدلا ما يكفي ، ولا داع للاستمرار لأنه لاحظ أن الفارس المساعد

الفرنسي كان ينفذ بغزارة : ووافقته اللوردات الآخرون الرئي وتمت عملية  
تصميم جرح جوفيان بعد أن حطوا عنه الرعدة الحربي ثم منحه الأيرل  
حاتة فرنك وأرسله إلى قوته الفرنسية في أمان تام ، معلنا أنه راس تماشا  
عما يقوله من جهده ( ٥٢ ) .

وعاشيت للطلعة بين فودين مباريات السيوف الجماعية على نحو  
مصر - في أواخر القرن الرابع عشر توقفت تلك المباريات التي كانت مهد  
للحرب و « تدهورت » حتى صارت لا تزيد عن مهرجان الأقليل .  
ويستطيع المرء أن يستخلص الكثير من وصف مراسل للبارزة بين  
الفرسان التي عقدت في سمينفيلد ( Smilfield ) سنة ١٣٩٠ م ، التي  
نظمها ريتشارد الثاني للاحتفال بدخول الملكة إيزابيلا فرنسا . فكتب  
يقول : « وأقيمت المباريات الضخمة ، والأعياد الضخمة » في مدينة  
لندن ، وحضرها مسون من الفرسان ومسجون من السيدات من طبقة  
النبل ، وتزين الجميع بأجمل وسائل الرنة والملاهي وتبارز الفرسان  
لعدة يومين ، وأعتى بذلك يوم الأحد بعد عيد القديس ميكايل ، كبير  
الملك ( ٢٩ سبتمبر ) ، ويوم الاثنين الذي تلاه ، سنة ١٣٩٠ م . وبدأ  
الفرسان الستون ، معهم زوجاتهم في البحر في حوكب عبر الشوارع من  
برج لندن إلى ميلفن سمينفيلد . وكان على الفرسان الانتظار يوم الأحد  
لاستقبال الفرسان الغرباء الذين لديهم الرغبة في البارزة ، وأطلق على  
احتفال يوم الأحد اسم « عيد التبارزين » وحدثت الاحتفالات نفسها يوم  
الاثنين ، وكان الفرسان الستون على استعداد للبارزة كل الثمانين بلفظ ،  
ومستظمين رماحة غير حادة ويمنح لهم الفرسان من بين المتنافسين  
تاجا ذهبيا نقيما ، ومنح الفائزون ميدالية ذهبية قيمة لكل منهم ، بناء  
على قرار السيدات اللاتي يحضرن في صحبة ملكة إنجلترا ، وكبار  
المستأجرين لأراضي التاج الذين حضروا كمتفرجين واستمرت المباريات  
يوم الثلاثاء بين الفرسان المساعدين مع من يتنافسون من زملائهم . على أنه  
يحصل المتنافسون على جائزة كانت جوائز مرميا مبرجا ، وكامل المدة  
أما اتباع حلبة البارزة . فكان يحصل الواحد منهم على مدفع صغير ويتم  
عملية الاحتفال ، بعد إرسال المبلين للذين يمثلون عنها ، في كل أنحاء  
بريطانيا ، واسكتلندا ، وهابنوت ( Hainaut ) ، وألمانيا ، وفلاندرز ،  
وفرنسا . وكان المجلس الملكي الاستشاري يحدد الأماكن التي سينصب  
اليها المبلتون . قبل الأعداد بوقت كاف ، ويصلون عنها في معظم البلاد  
- واستعد كثير من الفرسان - والفرسان المساعدين لحضور الاحتفال :  
بعضهم لمرفة طباع الإنجليز والبعض الآخر للمشاركة في المباريات . وفي  
الاحتفال الذي وصل خبره إلى هياتوت ، صمم السير ولیم دی هياتوت  
كونت دی لوستريفانت Ostrevant والتي كان شابا شجاعا في ذلك

الحسين . ومفرما بالمبارزة . أن يحضر ويحضره بالتعرفه على قريبه . الملك ريتشارد ويأتى أمراد أسرته ، لفتين لم يره من قبل - ولذلك طلب من كثير من الفرسان ، والفرسان المساعدين أن يصحبوه .

« ولم يرض والده كونت حيانتوت على ذهابه الى إنجلترا . وسأل أن يثنيه عن الذهاب بالاعتناع خشية أن يؤثر عليه الإنجليز ، ويسلوا على التحلل من الارتباطات الفرنسية ، بينما أصرو الضاب على الذهاب . وفي الوقت المحدد كان موجودا في سينفيلد ، في يوم الأحد حوالي الثالثة بعد الظهر . وتحرك الأميراض من برج لندن وتقدم ستوف مرصا من النوع المربع . وعليها السروج المزركشة حصيها للاستعراض . وعلى كل فرس منها فارس شرف مسلح ، وصارت تلك الخيول الهولندية ، ويخطوات موزونة ، ومن بينهم ظهرت منور سيدة من الطبقة الأرستقراطية يستلطن خيولا صغيرة . وقد ارتدجن لفخر وأعلى الثياب ، وصارت السيدات واحدة خلف الأخرى ، وخلف كل سيدة يتبعها فارس في كامل عدته الحربية ، وجانب هذا الكوكب شوارع لندن ، في صحبة أعداد من الفتين ، وحلة الأبواق حتى حيطان سينفيلد . ووصلت الملكة إنجلترا ومعها الوصيفات ، وفتيات الطبقة العليا ، وجلسن في فناء مزينة على أكمل وجه .»

وشهد اليوم الأول للمبارزة فرسانا من الأجانب تبارزوا حتى أجبرهم الليل على التوقف . ويعتقد ذهب كثير من الضيوف الى قصر أسقف لندن قرب كنيسة القديس بولس حيث أقامت هناك الملكة . وتناولوا جميعا ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وفي اليوم التالي وصلت المباريات الى ذروتها .

« وفي الصباح التالي ، يوم الاثنين يمكنك أن ترى الفرسان المساعدين وغلمان الفرسان يعملون بهمة ونشاط . في مناطق مختلفة من لندن . يلعبون الدروع ، ويسمون الأسلحة ، والخيول لسادتهم الذين سيشاركون في المبارعات بالسيوف اظهارا للبراعة والشجاعة . وطعنا في الحصول على جائزة . ودخل الملك ريتشارد ميدان سينفيلد بمنظمه وجلال بعد الظهر . وفي صحبته الأدواق ، واللوردات ، والفرسان لأنه سيدهم الاقطاعي الأعلى . واتحدت الملكة مكانها التي كانت به في اليوم السابق في غرف أعدت خصيصا لذلك .»

« وبدأت المباراة في ذلك الحين . وبدل كل فرد لكى حده ليبر الكرانة : وتبارى الكتدون دون استعمال خيولهم . وفقد الكثيرون خوذهم . واستمرت المبارعات بالسيوف بشجاعة ومثابرة كبرى حتى انتهت بحلول الظلام . ثم ذهب الجميع الى غرفهم أو مساكنهم وغنما حانت

ساعة تناول طعام المشاء ذهب اللوردات وزوجاتهم لتناولوه - وكان طعاما فائرا ومعدا على ارقى مستوى - أما الجائزة الأولى فقد حصل عليها كونت أوستريانت بناء على قرار السيدات واللوردات والنادين إذ تفوق حقاً الكونت على كل من تبارى في ذلك اليوم : أما الأراضي المستأجرة التابعة للتاج فقد أعطيت لفرانس انجليزى شجاع يدعى السير هوج سبنسر Sir Hugh Spencer

وفي يوم الأربعاء التالي أقيمت مباريات أكثر وولائم أكثر في الوقت الذي استمرت فيه حللات الرقص حتى مطلع الفجر - وخصصت باقي أيام الأسبوع للتسلية - وللمتعة والروح - وكان آخرها الأعمال الرائعة التي قام بها الملك في وندسور Windsor ، وهي قلعة ضخمة ، متينة البناء ، وعزينة على أكمل وجه ، وتقع على نهر التيمز Thames وعلى بعد عشرين ميلا من لندن - ويصلت تلك الانحصالات الختامية ذروتها عندما عرض للملك ريتشارد على كونت أوستريانت ومسام العضوية في فرسانه الساقط البريطانى The Knights of the Garter وكان قبوله لهذه العضوية ولهدا الشرف اثره على الفرسان الفرنسيين المعاشرين - إذ جعلهم يتهامون قائلين : ان كونت أوستريانت يظهر بلا أدنى ريب ان قلبه أكثر تعلقا بانجلترا عن فرنسا -

ونظرا لاهتمام فرسانا بالحرب الاقطاعية ، فان حويلياته قدمت اسلحات مهمة في معرفتها عن فن الحرب في أواخر القرون الرابع عشر ، وهنا نجد وصفه لجيش ادوارد الثالث عند تقدمه صوب باريس سنة ١٣٥٩ م - يجب ان أبلغك ان ملك انجلترا ، وكبار الاقطاعيين التابعين له ، أخذوا معهم عربات محملة بالخيام الصغيرة ، والخيام الكبيرة ، ومطبخات الحبوب ، والأدوات اللازمة للطبخة لصناعة حبات لحبوتهم ، وكل شيء من هذا القبيل هم في حاجة اليه - ونتيجة لذلك كان هناك ما يزيد على ستة آلاف عربة ، لكل واحدة منها أربعة من الخيول الجيدة والقوية ، تحملت جميعها من انجلترا - وعلى تلك العربات كثير من الأوعية والآنية والقوارب الصغيرة ، المصنوعة بطرق مدهشة من الحديد المدبوغ ويصح القارب منها ثلاثة رجال تمكنهم من صيد الأسماك من ألى بحيرة أو بركة ، مهما كان حجمها - وكانت تلك القوارب مهمة بالنسبة للوردات والبارونات امان فترة السوم الكبير ، بعد أن طبخة العائمة استفادوا من الوسائل التي كانت متاحة لهم - وبالإضافة الى ذلك أحضر الملك ثلاثين من البازدارية التابعين له - على ظهور الخيل - ويضربون من طيور البارستين روجا ومثلهم من كلاب صيد الثعالب ، وعمد كبير من كلاب أخرى صرية العدو ، وذلك لكي يستمتع بوجها بصيد الطيور والثعالب

جرا أو يصيد السمك بحرا - واحضر الكثيرون من اللوردات طيور الياز  
التابعة لهم ، وكلاهما الصيد أيضا » -

« وظل جيشهم منفصلا الى اقسام ثلاثة ، ولازم كل فرد القسم  
النابع له : وحال طليعة لكل قسم من الاقسام الثلاثة ، وتبعد قيادة كل  
قسم عن الاخرى مسافة فرسخ واحد - وكان الملك ادولف الثالث على رأس  
القسم الأكبر - وظل هذا التقسيم قائما منذ تحركهم من كاليه **Chalieu**  
حتى وصولهم امام بلدة شارتر **Chartres** » (٥٣) -

ويتناسب الوصف السابق مع الطريقة التي كان يتحرك بها جيش  
مرود بالامكانيات المناسبة في عصر فرواسار - أما الشعب الاسكتلندي  
لغائه لم يهتم على الاطلاق بالاسباب الرقاعية والترف طرا لفقرا اراضي  
اسكتلندا - وعادة الاقتصاد في الانفاق دلتى فرصت نفسها على الشعب -  
« يميز الاسكتلنديون بالاقدام ، وقبلة المقدرة على التحمل والتمرس على  
القتال ، فعندما يشرون غزواتهم على انجلترا كانوا يسمون ما بين عشرين  
الى أربعة وعشرين فرسخا دون توقف ليلا ونهارا ، وهم على ظهور  
خيولهم ، باستثناء حنام المسكر الذين كانوا من المشاة - وكان الفرسان ،  
والفرسان المساعدين يركبون خيولا كمناشبية كبيرة ، ويركبه ياقى الجند  
خيولا صغيرة قوية - ولم يحضروا معهم عربات بسبب الجبال التي يحتم  
عليهم اجتيازها ، في بورنميرلاند ، أو يحملون معهم أى مؤن أو امدادات  
من الخبز أو البيرة ، اذ كان من عادتهم في وقت الحرب ، الاعتدال في  
الطعام ، وكانوا يعيشون فترة طويلة على اللحم المسلوق جزئيا مع علم  
تناول الخبز ، ويشربون ماء المهر دون سائبة الى الخمر - لذلك لم يكن  
هناك داع لاحفاظهم بالفقور أو اوعية لاعداد الطعام ، لانهم كانوا يسلقون  
لحوم الماشية جزئيا في جلودها بعد مزج تلك الجلود ، ولم يحملوا معهم  
ماشية لتاكلهم من الحصول على اعداد واقرة منها في البلاد التي يفترونها -  
وحمل كل جندي منهم طبقا ممدتيا عريضا تحت طرف سرج الحصان  
وحقيبة صغيرة بها طحين الشوفان حلف السرج ، وعندما يكونون فيه  
اكلوا ما فيه الكفاية من اللحم المسلوق جزئيا ، ودفن ممداتهم متعبلة  
وخاوية - وضع كل فرد منهم هذا الطبق على النار وخطط طحين الشوفان  
بالماء ، وعندما يستغن الطبق يضع الفرد الليلا من المبيضة عليه ، صائما  
بذلك كسكة رقيقة تشبه التمرحة الهشة أو البسكويت ، وبأكلونها تفتلة  
ممداتهم - وليس من المستغرب أنهم يؤدون مسيرة يوم أطول من الجنود  
الآخرين » (٥٤) -

تألفت الحرب في القرن الرابع عشر عادة من معارك عنيفة وقصيرة  
الأمم يسبقها أو يتلوها الاستيلاء على مدن أو قلاع - بل أنه عندما بدأ

جيش ضخم في التحرك لا يحصى طموحه أكثر من الاستيلاء على القنينة ،  
 وسلب ونهب سكان المناطق الريفية . ذلك كان هدف إدوارد الثالث عندما  
 ذهب إلى إقليم نورماندي في يوليو سنة ١٣٤٦ م . حيث قام بسلب ونهب  
 مدينة كاين Caen ، ثم قاد جيشه إلى السين Seine ، عندما علم باقتراب  
 الفرنسيين . وحاول إدوارد تجنب مواجهتهم بقدر المستطاع ، نظرا لأن  
 قواته لا تريد عن ثمن تمديد قوات ملك فرنسا . وأخيرا تراجع إلى  
 كريس Cracy حيث اختار « موقعا أفضل » إلى الشمال من المدينة ،  
 وقسم قواته إلى ثلاثة أقسام ، وانتظر الهجوم . ووصل الفرنسيون في  
 أواخر النهار ، واستمع إليسب ملك فرنسا إلى نصيحة مستشاريه .  
 وأصدر أوامره بالانتظار حتى الصباح نظرا لأنهم كانوا مرهقين من جراء  
 المسافات الطويلة التي قطعوها . بيد أن الأوامر التي أصدرها الملك بهذا  
 المعنى إما أنها لم تصل إلى مؤجرة الجيش أو أنهم لم يستطيعوا إيقاف  
 حركتهم إلى الأمام » .

« وتوقفت القوات الأمامية بيد أن القوات من خلفهم قالوا أنهم لم  
 يستطيعوا التوقف . حتى صاروا متفهمين مع القوات الأمامية . وعندما  
 أدركت القوات الأمامية أن القوات الخلفية تضغط عليهم ، اتفهموا إلى  
 الأمام ، ولم يستطع الملك أو قادته إيقافهم . وسرّكوا إلى الأمام دون أي  
 أوامر ، حتى أصبحوا على مرمى بصر أعدائهم . وما أن شاحلت القوات  
 الأمامية العدو حتى تراجعت على الفور ، في حالة من الفوضى الشديدة ،  
 التي أدت إلى إصابة مؤجرة الجيش بحالة من الفزع لاعتقادهم أن القوات  
 الأمامية قد اشتبكت في القتال مع العدو . ومارالت الفرقة أمامهم كافية  
 للتقدم إلى الأمام ، لو أنهم كانت لديهم الرغبة . وعلى أية حال فقد تقدم  
 البعض في الوقت الذي تحسب ذلك الآخرون » .

« وكانت كل الطرق المؤدية إلى أبيفيل Abbeville وكريس مزدحمة  
 بالمجاهدين التي امتلئت سيوفها ما أن أصبحت على مدى ثلاثة فراسخ  
 من أعدائهم . وهم يهتفون بأعلى أصواتهم « أقتل ، أقتل » ، ومعهم  
 كثير من كبار السادة الإقطاعيين الذين كانوا يأتون إلى الظهار شجعانهم .  
 ولا يستطيع انسان أن يتصور ، أو يصعب بدقة حالة الاضطراب في ذلك  
 اليوم ما لم يكن موجودا هناك . وبخاصة معالجة الفرنسيين للتوقف ،  
 بطريقة سيئة وحالة الارتباك التي سيطرت عليهم ، رغم أن قواتهم كانت  
 كثيرة العدد » .

« وعندما لجق فيليب الإنجليز « بدأ دمه يتور غصبا » وصاح على  
 قادته « . أصدروا الأوامر إلى أهالي حنوه بالتقدم ، وأبدأوا المعركة باسم  
 الله ، وببركة القديس دينيس St Denis » . فقد كان هناك خمسة

عشر ألفا من الرامين بالنوم والشباب من أمالي جنوه ، بيد أنهم وصلوا إلى حد الاعياء التام لأنهم قطعوا ستة مرامخ في ذلك اليوم منيرا على الأقدام ، وهم حاملون أسلحتهم ، وهم أقواسهم ونشابهم و « » .

« وسقطت أمطار غزيرة في ذلك الحين ، مصحوبة بالرياح ، وكسوف للشمس منير للرجبة جدا ، وقيل سقوط تلك الأمطار سامت أمراب عديدة من الغربان ، فوق تلك القوات محدثة ضجيجا مرعبا . وبعد ذلك بوقت قصير تحسن الجو ، وسقطت الشمس من جديد ، بيد أنها كانت في مواجهة الفرنسيين ، ومن خلف الإنجليز » .

« وعندما كان أمالي جنوه في حالة من النظام إلى حد ما ، واقتربوا من الإنجليز ، واطلقوا صيحة عالية بهدف إثارة الرعب عند الإنجليز ، فإن الآخرين ظلوا ساكنين ، ويبدو أنهم لم يعبثوا بها . ثم أطلق أمالي جنوه صيحة أخرى . وتقدموا قليلا ، بيد أن الإنجليز لم يتحركوا على الإطلاق . ثم أطلقوا الصيحة الثالثة ، وأيديهم على القوس والشباب ، وبدلوا في الإطلاق . عند ذلك تقدم الرماة بالسهم من الإنجليز خطوة إلى الأمام . واطلقوا سهامهم بقوة وسرعة جعلت الأمر يبدو وكأن السماء نطرت حليها » .

« وعندما غاب الحدود المترفة ، من أمالي جنوه ، من شدة السهام التي احترقت أسلحتهم ورؤوسهم . وتلفت خلال دووهم قطع بعضهم أسلاك وأوتار أقواسهم ونشابهم ، وألقي الآخرين بأسلحتهم أرضا ، وانقلبوا على أعقابهم ، وانسحبوا مدحورين تماما . وكان لدى الفرنسيين عدد كبير من الفرسان ، لمساعدة للقائين من أمالي جنوه » .

« وعندما شاهدتهم الملك الفرنسي يتقهقرون على هذا النحو صاح قائلا ، « أقتلوا هؤلاء الأوغاد ، لا هم يرقلوا صبارنا ، دون أي سبب » . فقام الفرنسيون من حولهم بأعمال القتل في أولئك الفارين قفو استطاعتهم . واستمر الإنجليز في إطلاق سهامهم بنشاط وقوة : وسقطت بعض سهامهم بين الفرسان الفرنسيين - الذين كانوا يسيرون بالأسلحة على أعلى مستوى ، وسقط العديد منهم ما بين قتل وجرح . وتساقطوا بين أمالي جنوه ، وأصبح من المستحيل على الفرنسيين لم شعثهم من شدة حالة الارتباك التي وصلوا إليها . وكان هناك بعض من أمالي ويلز ، وأماي كورنويل من المشاة الذين سلحوا أنفسهم بالسكاكين الطويلة ، وتقدم هؤلاء بين القوات . بيد أن أقبح لهم الرامون بالسهم الطريق ، وانقضوا على الفرنسيين على حين غرة ، وقتلوا العديد من الأيرلات ، والبارونات ، والفرسان ، والفرمان المساعدين . مما أثار غضبه ملك إنجلترا كثيرا فيما بعد » (٥٥) .

على أن ما أثار غضب إدوارد كان التفكير في كل أموال القديسة التي  
صاعت عليه نتيجة لقتل كبار الاقطاعيين والفرسان . وكان من الممكن أنه  
يحصل إدوارد على أموال تكفي لتغطية نفقات الحملة كلها . ويوضح  
الوصف التالي عن أسر الملك حنا الطيب ملك فرنسا ( ١٣٥١ - ١٣٦٤ م ) -  
في معركة بواتيه Poitiers سنة ١٣٥٦م الأهمية الكبرى التي يحرص  
عليها الدين يأسرون للحصول على فدية الفرسان الهادين ويعرض الموقف  
الأمير الأسود ، وهو في حالة إجهاد شديد ، لكنه كان عتبة بالصر  
الساحق ، ومستلقيا مع علمه المروع على شجرة عالية ليتجمع حولها  
رجال الذين انتشروا حنا وهناك أبان المعركة . وعندما حضر اليه قادته  
سأله واحدا بعد الآخر عن أي أساءة تتعلق بالملك حنا الطيب ، وعندما  
لم يصل الي معلومات كافية ، أرسل اثنين من كبار رجاله لمعرفة ما في  
استطاعتهم الوصول اليه . واحتل البارونان صهوة جواديهما . وترك  
الأمير الأسود ، وسارعا تجاه قل صغير ، حتى يسكن من رؤيته مأحولها .  
ومن ذلك المكان شاهد مجموعة كبيرة من الفرسان وقد مزوا  
من فوق خيولهم ، وبدأوا يتقدمون صوبها ببطء شديد . وكان ملك  
فرنسا يقف وسطهم ، وفي تطل شديد ذلك لاستطاعة الاقطاعي ، والجاسكون  
Gascons أخذه بالمره من السير ديمس دي موربيك Derna de  
Morbeque وكانوا يتنازعون على تطريد من له أهمية الاحتفاظ بـ  
الذي صاح فيه أقواهم بأعلى صوته . « اني أنا الذي أسرته » ، فأجاب  
الآخرون « لا ، لا » . « اننا نحن الذين أسرمه » فقال لهم الملك محاولا  
تجنب الخطر المحقق به : « أيها السادة ، أيها السادة ، ارحموني  
معاذتي ، ومعاملة ابني معاملة طيبة لأن الأمير أحد أقاربى ، ولا داعي  
لهذه الجلبة والبراك من أجل أسرى . فانا سيد اقطاعي كبير ، ومن  
استطاعني تحريككم جميعا الى أنرياء بالقدر الذي يكفيكم . » وكانت تلك  
الكلمات وغيرها التي صدرت عن الملك عاملا على تهدئتهم بعض الشيء .  
بيد أن المنازعات ظلت تتجدد ، ولم تحركوا خطوة واحدة الى الأمام دون  
مشاغبات . وعندما شاهد البارونان هذا الحشد من رجالها ، نزلا من  
التل الصغير ، وانطلقا بجواديهما بسرعة صوبهم . وعند وصولهم عرفا  
حقيقة الأمر . وهى أن ملك فرنسا وقع أسيرا . وأن ما يريد على عثرته  
من الفرسان ، والفرسان المساعدين يتنازعون بشأن أهمية كل منهم في  
الحصول على نصيب من الفدية . ثم اندفع البارونان بين المختلفين ،  
وأمرهم بالتسنى جانبا وأمرهم باسم الأمير ، والتهديد بالثعرض لعقوبة  
القتل الفوري ، أن يظل كل فرد منهم بعيدا ، والا يقترب أحدهم من  
أن يصدر اليه أمر بذلك . فتراجع الجميع بعيدا عن الملك . ونزل  
البارونان من فوق جواديهما ، وتقسما نحو الملك في أمسي بظواهر الاحترام

والتيجيل ، واصطفياه في أمس وسلام الى أمير ويلز « (٥٦) » .

سأعنت إمكانية الحصول على مبالغ هائلة كعديه ، على الحد من  
أوراق الدماء ، إبان عصر الحروب الاقطاعية - وعلاوة على ذلك ، فقد  
مساعدة استنقاذ الجيش الذي يحاصر أية مدينة لقبول استسلامها ،  
واستسلام حاميتها ، علينا يفتقد هؤلاء الذين وقوا تحت الحصار الأمل  
في وصول امدادات ، على الحد من الطابع القسوى للحرب في ذلك الحين .  
فقد اضطرت قلعة لارويل La Roche إحدى القلاع الفرنسية الأشعة  
في القليم جاسكوني Gascony الى الاستسلام للانجليز إبان السنوات  
الأولى من الحرب - وهنا يقدم لرواسار الوصف التالي لاستسلام القلعة  
الفرنسية « لقد خرب الانجليز الحصار حول قلعة لارويل La Roche  
واستمر ذلك الحصار أكثر من ثلاثة أسابيع ، وشيدوا برجين ضخمين  
من قطع ضخمة من الأخشاب الطويلة وكان ارتفاع كل برج ثلاثة طوابق ،  
واقام كل طابق على عمالات ، وغطي كل طابق بالجلد لحماية الأبراج  
من النار والسهم : وتجمع في كل طابق مائة من الرعاة بالعصا الانجليزية  
ويفضل عزم الرجال تم تحريك هذين البرجين بالقرب من أسوار المدينة ،  
وردعوا حادق الدقاق عن المدينة إبان تقفهم ، وتكنوا من المرور فوقها .  
وبدا الجود الانجليز بإطلاق سهامهم بسرعة ودقة ، لدرجة أنه لم يجرؤ  
أحد من النين بالاستحكامات الفرنسية على الظهور الا اذا كان مسلحا  
تسلحا جيدا ، أو يحمل ترسا - ونجح مائة من الجنود الانجليز الذين  
كانوا في البرجين في إحداث فجوة بسور المدينة ، وانتزاع الأحجار  
مستخدم الماويل والقضبان الحديدية وما إلى بلغ إيرل ديرباي  
earl of Derby الموقف حتى أرسل كلا من السير والتر ماني Sir Walter  
Manny ولورد سنافورد Lord Stafford اللذان وجدا سكان المدينة  
على استعداد للاستسلام ، شريطة تأمينهم على أرواحهم وممتلكاتهم » .

وقبل الانجليز شروط التسليم ، بيد أن السير أجوسو دي بان  
Sir Agostino de Bani قائد القلعة الفرنسية فضل الانسحاب الى داخل  
القلعة وبها حدوده . حيث « الكميات الهائلة من التبن والمؤل الأخرى » ،  
التي مكنتهم من مواصلة النضال تم تحرك الانجليز تجاه القلعة .

« ونصب الانجليز كل معاتهم الحربية تجاه القلعة ، بيد أنهم  
أدعوا القلعة من الأبرار لأن القلعة كانت عالية ، ومظلمة في منطقة  
صخرية - وبذلك القلعة بنما المسلمون منذ زمن بعيد . ووضعوا لها  
أسبابات قوية جدا - وهي على قدر رائع من الصنع والتنشيد للدرجة  
أنه لا يمكن مقاومتها بأي من الماني التي تشيد في أيامنا هذه » . وعندها  
وجد الأيرل أن آتاه الحرية لا مفعول لها ، أمر العاملين عليها بالكعب

عن العمل ، وأمر الجنود في جيشه بحفر خنادق الدفاع عن القلعة حتى يتمكنوا من المرور عن طريقهما ومع ذلك فإن هذا الأمر لم يتم على وجه السرعة » .

وبعد مرور أكثر من أحد عشر أسبوعاً أحوز البحارون بعض التقدم وحفروا تحت كل الأسوار ، باستثناء أسوار البرج المصطنع ، لأنه كان مهيأ على صخره صلبة للغاية » . وعندما أدرك سكان المدينة خطوره موقعهم ، اقتنعوا السير أجوس بمفاتيح الانجليز بشأن الاستسلام . وبالفعل أحد بمشورتهم . بيد أن الانجليز رفضوا أية شروط ما عدا الاستسلام غير المشروط . ومع ذلك فإن المفاوضات بين السير أجوس إيرل ديرباي تمخضت في نهاية الأمر عن إنهاء الحروب المتفرقة . وسمح الانجليز للفرنسيين بفائدة القلعة ومعهم أسلحتهم وحيلهم فحسب . ومع الفرنسيين أنفسهم ورفضوا الأعطية المروكشة على سروج خيولهم ، التي لم يبق منها سوى حصة . واشترى بعضهم الخيول من الانجليز الذين تقاضوا منهم مبالغ باهظة ثمناً لها .

ولم يحدث طوال تاريخ الحروب أن كان القتال شخصياً وفردياً مثلما حدث في عصر الإقطاع . وقتضى قواعد الحرب أن يكون الصراع العربي بين اثنين من المصارعين ، ولا يحدث أن يكون اثنان ضد واحد . وعلى سبيل المثال ، ما أن يتمكن أحد المصارعين من أن يضع خصمه تحت رحلته ، حتى يصبح الأخير أو هذا الغريم أسيره الجدير بالاحترام والتبجيل . وعمل تزويد جندي للفرسة بالقوس والنشاب . والقوس الطويل ، والمذبة على تغيير هذه الحالة المقبولة ، وتحول الحرب تدريجياً حتى صارت أكثر وحشية ، على نحو يمكن إدراكه . وحسب عهد مرواسار ظل الشعوب السائبة التقليدية قائما ، وبخاصة بين الفرنسيين الذين كانوا يدخلون المارك بحساس يتأرب حاس فريقي كرة القدم في عصرنا هذا . ويظهر من وصف غرواسار استخدام الجيش الانجليزي ، والجيش الفرنسي للمعركة قرب إيوراي Auzay في إقليم بريتانى Brittany سنة ١٣٦٤ م . وأن كل المقاتلي الجيش كانوا يتألفون في ملابسهم الزاهية الألوان ، ويظهرون في نشوة لفناء الخصوم لأفكار جلهم ، وقوة تحملهم مصاعب القتال ، وهو الأمر الذي قد يختلف قليلا إذا ما حاول كاتب في عصرنا هذا أن يصف فريق كرة القدم الذين يستعدون للمباراة في يوم السبت بعد الظهر . وثما إلى علم الانجليز أن اللورد شارل دي بلوا Charles de Blois يحتقم . ومع قوات من المقاتلين المدربين أحسن تدريب ومزودين بالأسلحة الشخصية ، وعلى أعلى قدر من الانضباط والربط شهدته فرنسا .

« وتلقى الانجليز نبأ قدوم الفرنسيين باهتمام شديد ذلك لانهم كانوا ينتظرون لقاء الفرنسيين بكل تلهف . لذلك قامت القوات الانجليزية باعداد أسلحتها للقتال على القور . وقامت تلك القوات باعادة فصل وتجميع رماحها ، وخناجرها ، وسيفوها ، وكل أنواع الأسلحة التي توقع الانجليز ضرورة استغلالها » ١٥٠ »

« ومرت تلك الليلة في هدوء وفي الصباح ، الذي كان يوم السبت . انطلق الانجليز والبريتون Bretons من مواقعهم ، وتقدموا في ترتيب قتال في مرح واحداهج . الى مؤخرة قلعة أيراي Aury ، حيث توقعوا . واحتاروا موقعا . وأعلنوا انهم سيستطرون قدوم اعدائهم »

« وظهر اللورد شارل وجيشه بعد الفجر مباشرة . . . لما القوات . . . فكانت في حالة انضباط شديدة . واصطف الجنود في أروح الأضلاع التي يمكن أن يراها الاسلح أو يتصورها - وسار جنود شارل وكانهم يتيان مرصوص اذ لا يمكن للمرء أن يلقى بكرة لتتس بينهم . الا اذا اصطدمت بأمتة رماحهم ، والتي حصلوها بقوة وثبات . واستمع الفرنسيون بالخطر اليهم . . . »

« وفي يوم السبت الموافق الثامن من أكتوبر سنة ١٢٦٤ م . اصططف الجيشان وجها لوجه في سهل منبسطة بالقرب من أوراي Aury في إقليم بريتانى - ومن الواجب على القول أنه كان منظرًا جميلًا يستحق للمشاهدة ، وأن يحكر المرء فيه مليا . اذ كانت الأعلام التي يحملها المشاة ، والإعلام الطويلة المعلقة على الرماح والتي حملها الفرنسيون ترفرف جميعها بين الاستعدادات الرائعة في كل من الجانبين » (٥٧) .

وإذا كان قيام فرواسار يوسف هذا الجانب عن الحربية امرًا مستعاضا له إلا أنه لم يصب عن ماله ما له من جوانبه تفتقر الى المنفعة ، بل ويضحي على النفس تحصيلها . وفيما يلي يقدم فرواسار وصفه للاستعدادات الضخمة التي قام بها الفرنسيون سنة ١٢٨٦ م لمشروع غزوهم لاجنيزرا . « شملت فرنسا قوات حربية تفوق جيشها في أى وقت مضى - وقرضت خراائب باعثة على كل اللد ، والمناطق الريفية ، وأجرت استعدادات في البر والبحر . وكل ذلك لم تشهده فرنسا صد قرن مضى . وانقضى الصيف كله . وحتى شهر سبتمبر ، في طعن الفلال وفي اعداد الخبز الجاف -

وأجرت الفولة الكثيرة من اغتياها فرنسا على دفع ثلث أو رابع ثروة كل منهم لبناء سفن متاعسة ، وقرضت خراائب على من دولهم من أجل الاضاق على المحاربين . »

Seville • ولم تترك سفينة هذه كان جنبها من مياه سبيل  
إلى بروسيا Prussia إلا ووضعت فرنسا يدها عليها ، وتم ذلك  
بناء على أمر ملك فرنسا سواء بالطرق المشروعة أو غير المشروعة .  
ووصلت المؤن من كل الجهات . وأرسل إقليم فلاندرز كميات كبيرة جدا  
من البيض ، والحبوم المذقة ، والشوفان ، والأعلاف ، والبصل ، وعصير  
التفاحية ، والخبر الجاف ، والطحين ، والرمد ، ومسحوق صغار البيض  
المحفوظ في براميل ، وكل الأشياء الضرورية الأخرى . . . »

• وبمك ملك فرنسا الرسائل إلى اللوردات والهرسان في الأماكن  
لثانية يطلب منهم مصاحبتهم في هذه الرحلة . . . »

• ولم يحدث منذ أن خلق الله العالم أن تم حشد مثل عدد العدد  
الصخم من السفن التي علأت حوامي سلويز Slays وبلانكينبورج  
Blanchenburgh لأن عددهم في شهر سبتمبر في ذلك العام بلغ ألفا  
ومائتين وثمان وسبعين وسبعين سفينة - وظهرت صواريخها وكأنها غابة  
كبيرة . . . »

• إن أي شخص كان موجودا في دم Dammo ، أو بروج Bruges  
أو سلويز Slays كان معرضا للإصابة بالحمى الشديدة في ذلك  
الوقت ، عند رؤيته الجميع وهم يعملون على قدم وساق في شحن القوارب  
والسفن بحزم الأعلاف ، والنوم ، والعمل ، وآنية الجبن ، والشعر ،  
والشوفان ، والحوادير ، والقمح ، والشعير ، ولوازم البيت ، والأحذية  
القصيرة ، والأحذية الطويلة ، والحوادث ، والمجازات ، والمسكوكات ،  
والبلطاعات الصغيرة ، والأوتاد ، والمناول ، والخطاطيف ، والأوساد  
الخشبية ، والصاديق الملوثة بالزهر ، والأقمشة ، وربطة الملاج ،  
والطاطين ، وسنابير جنوات الخيل ، وزجاجات عصير الفواكه ، والحل ،  
والآنية المصنوعة من الصلصال ، والآنية الممدية ، والقفور الخشبية ،  
والأطباق والشعومات ، والطقوس ، والأوعية الطويلة ، والخناوير  
المكتنزة ، وأدوات إعداد الطعام ، والآنية اللازمة لحفظ الضور ، واللازمة  
للأغراض الأخرى ، وكل سلعة ضرورية . ولازمة للإنسان أو  
الحيوان . ( ٥٨ )

وكانت القصة التي حكها فرويسار في حولياته ذات الطابع السلي  
هي الأخيرة التي يمكن أن نودعه بها عن برتراند دي حوزكلين  
Bertrand du Guesclin البطل الفرنسي الذي أخذ فرنسا بعد الكارثة في  
بوانيه Poitiers - وكيف عمل على الحصول على حريته . وكان برتراند  
من بين الأسرى الذين وقعوا بين يدي الأمير الأسود في القتال في  
اسانيا ، في ربيع سنة ١٣٦٧ م . ويتضح من هذه القصة أنه لم يكن

هجرة شخصية بارزة في من التكتيك الحربي ، وإنما كان يجمع بجمع  
واخر من الذكاء والمهارة .

« حدث ذات يوم ( كما بلغني ذلك ) ليد الأمير الأسود كان في  
حالة ابتهاج شديد ، واستلقى السير برتراند دوجيوزكلين ، وسأله عن  
حالته ، فأجاب السير برتراند « لم أكن في مثل السعادة التي بها حاليا ،  
ولا يمكن إلا أن أكون سعيدا ، لأنه برغم وجودي في الأسر ، فأني أعظم  
فارس في العالم » - فرد عليه الأمير ، « كيف ذلك ؟ » فأجاب السير  
برتراند ، « أهم يقولون في فرنسا وهي بلاد أخرى ، أنك شديد الخوف  
منى وابتك تشعر بالفرح من إطلاق سراحك ، ولا تجري على ديك ، ولهذا  
السبب أفكر في أهميتي الكبرى وسمتي العالية » - فأجاب الأمير ،  
« ماذا تقول ! يا سيد برتراند ، هل تصور أننا نحفظ بك أسرا حشية  
بمثلتك - أقسم بالقديس جورج St George ، ليد الأمر بالنسبة  
الينا غير ما تقوله ، وأنه إذا ما دفعت مائة ألف فرنك فدية ، ستطلق  
سراحك يا عزيزي » .

وتظن لأن السير برتراند كان عريضا على الحصول على حريته  
لذلك فإنه ما أن سمع شروط الأمير التي استطاع تنفيها تمسك بما  
داله الأمير ، ورد قائلا « سئى مشيئة الله لن أدفع أقل من هذا  
الملخ » - وعندما سمع الأمير ذلك ، بدأ يشعر بالنعم على ما فعله .  
ويقال أن بعض مستشاريه قالوا له « سئى ، لقد تصرمت تصرما  
خاطئا بصحة حتى دفع الفدية بمثل تلك السهولة » - وأراد مستشاروه  
أن يعملوا على عرقلة تنفيذ ذلك الاتفاق - بيد أن الأمير الأسود ، الذي  
كان فارسا نبلا ووفيا لحاب : « طالما أننا منحناه حق دفع الفدية ،  
فيجب علينا الوفاء بهذا العهد ولا نتصرف غير ذلك ، لأن ذلك سيكون  
مصدرا خزي وعار ، وسيلومنا كل فرد لفهم موافقتنا على قبول فديته ،  
في الوقت الذي عرض علينا مثلما ضحينا » .

« ومنذ هذه الحادثة بذل السير برتراند جهودا مضنية للبحث عن  
المال ، وكان في غاية النشاط لدرجة أنه استطاع الحصول على مساعدة  
ملك فرنسا ، ودوق أنجو Angou ، الذي كان شديد الحب له ، وبذلك  
استطاع بمقدار مائة ألف فرنك في أقل من شهر ، وذهب لمساعدة  
دوق أنجو ، وحمة التين من القاتل في مقاطعة بروفانس Provence (٢٥٩) .



## ابن خلدون

ولد ابن خلدون في تونس سنة ١٣٣٢ م ، وقد وصف أوبولد بونيني Arnold Toyabco مقدمة ابن خلدون قائلا . « انها انواع كتاب من نوعه ولم يحدث حتى الآن ان جاد فكر أي معكر يمثيل له في أي زمان أو مكان » (١) . ولقد حقق أسلوبه من ناحية والده شهرة لعدة عرون . واليمن هي الوطن الأصلي لأسرته التي انتقلت منها إلى إسبانيا في القرن الخامس الميلادي ، ثم أصبحت أحد السلالات الحاكمة في اسبيليه Seville في أواخر القرن العاشر الميلادي . ولمع اسم بعض الشخصيات في أجداد ابن خلدون في السياسة والعلم في كل من اسبيلية وشمال إفريقيا ، حيث انتقلت أسرته إليها قبل احتلال فرديناند الثالث Ferdinand III لتلك المدينة سنة ١٢٤٨ م ، بوقت قصير . ومن شمال غرب أفريقيا انجحت أسرة ابن خلدون إلى تونس وهناك تم اعتماد الحد الأكبر لابن خلدون ، ربما بسبب مخالقات عالية في حزة بيت المال ، إذ كان هو المسؤول الأول عنها . ذلك المصير المزم بالسياسة لأفراد عائلة ابن خلدون كان غير عادي . فسواء بمضى حسن الحظ أم يفضل الحكمة السياسية ، فقد عملوا على أن يكونوا مع الكفة الرابعة في أي ثورة سياسية .

أما والده ابن خلدون فقد تعلق بالسياسة ، وعياً لاجته الفرصة للحصول على أكبر قدر من التعليم القائم على دراسة القرآن الكريم ، والحديث ( النبوي الشريف ) واللغة العربية ، والأدب ، والفقه . والواقع أن ابن خلدون لم يتوقف على الاطلاع على العلم والمعرفة . إذ استمر طوال حياته يزود نفسه بكل فرع للمعرفة استطاع الحصول عليه ، بما في ذلك المذاهب الصوفية ، فلسفة الإغريق ( وفقاً لتفسيرات

المصريين العرب) . وايضا ذهب ابن خلدون فكان من عاداته بدل قصارى جهده في التعرف على العليلة الذين يهتمون له شيئا مفيدا ، في الوقت الذي قام فيه بمشاركه الآخرين معلوماته بعد أن جديتهم اليه شهرته في المعرفة - وحقق ابن خلدون تفوقا ساحقا لقدمته على عرص وجهات نظر مصممة بشأن القوى والعوامل التي اثرت على مجرى الحضارة ، وسمي بذلك ، « العلم الجديد » الذي كشف عنه في مقدمته . « وظهر المقدمة بكل وضوح أن ابن خلدون لم تكن لديه الرغبة أو الوسيلة لتقديم اسهامات جديدة لها أهمية عن أي فرع من فروع المعرفة القائمة آنذاك » (٢) .

يمتد أن والد ووالدة ابن خلدون قد توفيا ابلن حدوث الموباء الأسود ، وكان ابن خلدون في السابعة عشرة من عمره في ذلك الحين . فاضطر للعمل لكسب قوت يومه في تونس . ثم رحل الى قاس في المغرب حيث عمل وريزا للسلطان هناك . وتدل السرعة والمهولة التي أجز بها تلك الاشتغلات على نسط حياته لثة خمسين عاما . وبين الاضطرابات السياسية التي لا علاقة لطموحاته بها ظل ابن خلدون حريسا في شرك السياسة ، واستمرت حياته كسلسلة متعاقبة من شغل المناصب العليا والمصول على مظاهر التثريف ، والطرء في العمل في الحكومة والمكبات ، ولم تنته تلك السلسلة الا بوفاته سنة ١٤٠٦ م .

وقضى ابن خلدون الحرة الأكبر من الفترة ما بين ١٣٥٧ . ١٣٥٨ م . في السجن بحابة Bougie ، حيث كان من الممكن أن يظل سجيناً مدة أطول لولا وفاة السلطان الذي سجنه لتأمر - وصحه السلطان الجديد في ديوانه ، بيد أن الاحساس بعدم الأمن دفع ابن خلدون الى الاستئذان في الذهاب الى غرناطة . التي كانت في ذلك الحين الملكية الإسلامية الوحيدة التي نحت من حركة الاسترداد التي قام بها المسيحيون . واستقبله سلطان غرناطة استقبالا وديا ، لوجود صداقة قديمة بينهما منذ فترة تقي السلطان في قاس ، حيث تقابلا هناك . وفي سنة ١٣٦٤ م أرسله السلطان في مهمة لاجراء مباحثات سلام مع يدرو السفاح **Pedro the Cruel** حاكم قشتالة **Castile** : ونظرا للانطباع القوي الذي تركه أسلوب ابن خلدون المهذب ، وعصواء الثقافي الرفيع ، والفكر الدبلوماسي القاتق . في نفس يدرو ، عرض عليه أن يبقى في مملكته ، مقابل فعارة أملاك أسرته في اشبيلية . Seville اليها . بيد أن ابن خلدون عاد الى غرناطة برغم أنه لم يستمر بها فترة طويلة . (٣) رحل الى بحاية Bougie . حيث شغل وظيفة كبير رجال القصر ، أو الوزير الأول عند حاكمها النصري الجديد . واستمرت التساعب السياسية تلاخقه لمدة

الثمان أو السبع سنوات التالية . حيا في فارس ، وأخر في غرناطة .  
ثم في تلمسان Therapsa . بعد أن أجبر على مفارقة غرناطة .

وارناح ابن خلدون من متاعبي السيلية في الفترة ما بين ١٢٧٥ -  
١٣٧٨ م عندما لجأ الى حرية قلعة ابن سلاحة في إقليم اوران Oran  
وتضم بحماية القبائل الحرية المحاورة لمدة أربع سنوات - ولا بد أن  
تلك السنوات كانت من أضع سنين حياته - إذ حصل على تفرات مادية  
من الراحة ، وتمتع بصحة روحه وأطفاله - وفوق كل ذلك ، وجد  
الوقت الذي خصصه للكتابة وفي تلك الفترة كتب مقدمته ، وهي مقدمة  
لتاريخه العالمي .

وكانت الرغبة في الحصول على الوثائق اللازمة لأعداد هذا التاريخ  
دافعه للذهاب الى تونس سنة ١٣٧٨ م - وظل يدرس ويكتب - ويعمل  
مع الأحداث التاريخية لمدة أربع سنوات إذ لم يقتصر عمله على اكمال  
كتاب مصر وديوان المبتدأ والخبر ، وإنما حدث سنة ١٣٨٢ م أن طلب  
من السلطان أن يأذن له بإداء فريضة الحج ، بعد أن شعر بالخوف على  
حياته أو حريته ، وطلب أداء فريضة الحج ، لا يمكن أن يرفضه السلطان .

ومع ذلك ، قهقروا أن السلطان احتفظ بزوجة وأطفال ابن خلدون  
كرهائن رهبا لضمان ولاه ابن خلدون في فترة غيابيه ، أو لاجباره على  
العودة الى تونس . وما أن وصل ابن خلدون الى الاسكندرية حتى ذهب  
الى القاهرة حيث قضى بها سنتين وبعثى عنهما الى أن وافقه المنية - ولم  
يرأسه ثانية . وكان السلطان يرقوق ، حاكم مصر قد بدل مساعيه  
الحبيسة في اتباع حاكم تونس بضرورة إرسال زوجة وبنات ابن خلدون  
الى القاهرة - غير أن السعيبة التي كانت تعلمهم غرقت ابان إحدى  
العواصف - ونظمت بيتان على قيد الحياة لم يقدر لهما الوجود بالسفينة ،  
تجبر أنسا لا تعلم شيئا عنها - إذ تمرد ابن خلدون الرام المصمت في  
المسائل الأسرية -

وبالنسبة لابن خلدون ، فلم تكن حياته في مصر أكثر استقرارا عما  
كانت عليه في تونس وشمال أفريقيا برغم ما يبدو على أنها لم تتعرض  
للخطر على الإطلاق في مصر . ففي المائدة استطلاع ابن خلدون الاعتماد  
على عطف وناييد السلطان - بعد أن حاكم الملاد اضطروا الى عزل هذا  
العالم من المناصب التي أسندوا اليه تحت الطاح بعض الأمراء وأصحاب  
التفرد في العولة إذ تقلد منصب قاضي القضاة للمذهب المالكي بحسب  
مرات برغم تعرضه للعزل من هذا المنصب - ثم تولى هذا المنصب للمرة  
السادسة في فبراير سنة ١٤٠٦ م ، قبل وفاته ببيعة أسابيع .

وربما تقسم هرواق عديدة سلسلة المتاعب المتصلة التي تعرض لها ابن خلدون . ومن الجائز أن المفاتيح المربعة التي عرض لها في سنتيه الأولى لم تقيد كليفه ميله للكيد السياسي ولا شك أن اعتباره « شخصاً أجنبياً » وهي صفه عملت على زيادة انزاعها تمسك ابن خلدون بوجه القوي . جعل يوان الحق والحسد يشغل في قلوب رجال السياسة في مصر شعبه ، ومن ثم انهزموا بالشديد عند تعمير ونطيق الشريعة . ولا ريب أنه اعتبر مصر في حالة من التدهور والتخلف برغم ازدهار ثقافتها . وليس هناك أدنى شك في أنه رفض التفاضل عن المعادلات التي ربما كانت أمراً تقليدياً في عصر ( ٣ ) ، والتي تعارضت مع ما تميز به في مستوى رفيع في الكياسة والأدب .

وكانت فترة إقامة ابن خلدون في القاهرة من أروع فترات حياته . ففي أواخر سنة ١٤٠٠ خلف فرج والده بقوق على عرش البلاد . وأرسله فرج في صحبة الجيش الذي ذهب إلى دمشق للتصديق لسيور الأعرج الذي كان ينتجه صوب المدينة من الشمال . وما أن وصلوا دمشق حتى عاد فرج والأمراء إلى القاهرة على وجه السرعة على أثر انطلاق شائعة بطلون انقلاب وشيك . وظل ابن خلدون في دمشق لأسباب ليست معروفة ، على الرغم من أنه حاول اتخاذ موقف الجياد إبان المناقشات التي أجراها مختلف القادة بشأن قبول مطالب تيمور أو تحمل معاناة الحصار ( ٢ ) . ومهما يكن من أمر ، يبدو أن تيمور طلب مقابلة لعالم الشهير . ونظراً لأن جماعة من الجيش رفضت إجراء مفاوضات مع تيمور وكانت تحرس بوابات المدينة ، لذلك ذهب ابن خلدون إلى معسكر المنول ، بعد أن تسلف سور المدينة ، مستمناً بسلام مصنوع من الجبال .

وظل ابن خلدون حراً في السفل بين معسكر المنول ودمشق لمدة خمس وثلاثين يوماً . وأجرى ابن خلدون عدة مقابلات مع تيمور الأعرج . وعاون المترجمون في اتجاه المباحثات التي شملت موضوعات مختلفة وتضمنت ذكر أشهر الشخصيات في التاريخ ونظريات ابن خلدون عن التاريخ . وأبدى تيمور اهتماماً خاصاً بصر وشمال أفريقيا وأمر العالم أن يقدم له تقريراً عن بلاد المغرب . ولو صح الاعتقاد بأن ابن خلدون تعمد تقديم دراسة غير مشجعة إلى شخص مولع بالفتوحات ، فيكون له حق الثناء عليه لتحويله اهتمام تيمور عن مصر وتحويله تجاه الصين . وعلى أية حال ، نجح ابن خلدون في الحصول على تصريح من تيمور للسماح له وأصدقائه بالعودة إلى مصر . وعند عودة ابن خلدون إلى مصر

(\*) كانت مصر آنذاك تدرج تحت حكم المماليك المراكمة الذين استمروا الحياة الاقتصادية والسياسية والفرج بصراعاتهم الداخلية في القرون ٤ و ٥

لا بد أنه قد نجح في اقتناع هرج أنه لم يساوم على مصالحه أبداً مقابلاته مع تيمور الأعرج - وتم إعادة تسمية ابن خلدون قاضياً للقضاة المالكيين ، وشغل هذه الوظيفة ، بين مره وأخرى حتى وفاته ، ولولا صدور مقبلة ابن خلدون ، والتي جعلها مقبلة لتاريخه العالمي ، لا اعتبره الباحثون المحدثون إلا مجرد أحد المؤرخين العرب في أواسر العصور الوسطى .

والمف ابن خلدون العديد من القطع الأدبية الصغيرة . وبينما في علم الحساب ، على سبيل المثال ، وموجزا في علم المطلق ، بيد أن قليلا منها قدر له البقاء . وكتاب « التعميم » هو كتاب قليل الأهمية لأنه نضت فيه عن سيرته الذاتية ، وكان قد لخصه في أوله إيلامه ، وكثير كتاب السيرة الذاتية معروفا في العالم الإسلامي كنوع من الأدب ، وعلى أنه ليس الانتاج الوحيد لابن خلدون . أما من وجهة النظر الغربية فالكتاب محبوب للأعلام . ولم يتضمن الكتاب معلومات شحصية عن ابن خلدون تتجسج فضول القاري . وأعقل الإشارة إلى كتابات ابن خلدون باستثناء التقرير الذي أعده عن تيمور الأعرج ، ونصص الكتاب استطرادات عن موسوعات تاريخية وأخرى مختلفة ومسوعة وكلها ليس بها سوى القليل عن حياته .

بيد أن الكتاب يحرك الأسطباع الذي أراد ابن خلدون أن تأخذه الأجيال القادمة عنه (٤) -

أحد أبني خلدون مسودة « المقدمة » إبان فترة إقامته في قلعة بن سلامة . ويرجع بعض أجزاء من تاريخه إلى هذه الفترة برغم أنه أكمل معظم تاريخه وراجع تلك الأجزاء إبان سنيه الأخيرة في القيامة . ويصل مؤلف ابن خلدون عنوان « كتاب العبر » ، ويتكون من سبعة أجزاء . وتمثل المقدمة الجزء الأول . وتحدثت الأجزاء من الثاني إلى الخامس عن تاريخ العالم قبيل ظهور الإسلام وعن العرب والمسلمين بالشرق . أما الجزء السادس والسابع فيتحدثان عن المسلمين في الغرب . على أن عبارة المادة التاريخية التي جاءت في « المقدمة » ، وبراعتها الغربية ، أفضت إلى الاعتراف بأنها دراسة قائمة بذاتها ، إبان حياة ابن خلدون نفسه .

ومع ذلك ، فقد تمخض التاريخ العالمي لابن خلدون عن شيء من خيبة الأمل والإحباط بالنسبة للباحثين - وإذا ما أدخل المرء في اعتباره الصفات المميزة والعريضة ، « المقدمة » وبعد النظر المدرك في تفسير ظهور الحضارات وتدهورها ، فللقاري أن يتوقع وجود سرد تاريخي للأحداث تشمل وأعم من أي مصدر ظهر قبل ذلك - قطي سبيل المثال ، يتطلع القاري للاطلاع على التفسير الذي صيغته مثل هذا الممثل التقدير لسقوط الامبراطوريتين الآشورية والكلدانية - بيد أنه يصاب بالإحباط -

ولم يحاول ابن خلدون تطبيق آرائه الاجتماعية الفلسفية فيما يتعلق بتاريخ شعب سوى في حالة اليهود فحسب . ويؤيد تاريخه عن مصر حول التطورات في داخل مصر السلطان . ويختصر في ذكر الأحداث العسكرية والسياسية - بل أن ابن خلدون اعتل ذكر مجاعة داهمت مصر إبان وجوده بها . وفي حالة الأحبار المتصارفة المتعطفة بحياة زرادشت . لم يسجل ابن خلدون جهما في التوفيق بينها . وإنما اكتفى بسجود ذكرها ، كما يفعل كتاب الحواريات .

ومع ذلك فهدف التحقيق من حجة نواحي الصحف تلك ، استطاع ابن خلدون الإشارة إلى القصور الموجود في المصادر التاريخية التي كانت في متناوله . على أن أهميته كتاب الداعية المسيحية أوروسبيوس Orosius أهم المصادر التاريخية عن الشعوب غير القريبة قبل ظهور الاسلام . يشير إلى حالة القصور المؤسفة التي كان يعاني منها وعلى ذلك ، فبرغم أن دراسه عن التاريخ القصرى وعن العالم الاسلامى في المشرق لا تفوق ما كتبه أي من المؤرخين الآخرين ، فإن ما كتبه عن المغرب . وبخاصة البربر ، أفضل مما جاء عند أي مؤرخ آخر . ومع ذلك ، فربما يضطر المرء إلى الاعتراف . بأنه من الممكن أن يفوق تاريخه عن المغرب إلى معرفته الشخصية لهذا الجزء من العالم . أنه كان شاهد عيان لبعض الأحداث التي ذكرها - على أن ما يفتد به من عدم اهتمام بالتواريخ الدقيقة هو أمر يتوقمه المرء من فيلسوف في التاريخ ، ويحصر تحفظه الفكري علم الترابط المنتشر هنا وهناك في كتابه بشأن تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وفقا لتسلسلها الزمني .

وكما سبق ذكره ، لم يحاول ابن خلدون أن يطبق وجهات نظره الاجتماعية الفلسفة للمنطقة بتاريخ شعب سوى في حالة اليهود فحسب . وإحدى نظرياته عن السلالة الحاكمة هي أنها لا يمكن لها الماء في المادة سوى لمدة ثلاثة أجيال أو أربعة . ولكن يقيم ابن خلدون الدليل على هذه النظرية . قدم سجلا المنجاح الذي أحرره اليهود في عهد الآباء إبراهيم ، واسحاق ، ويعقوب ، ويوسف الذين خلف أحدهم الآخر ، وعن النعمور الذي حدث بعد ذلك - ووجه ابن خلدون أيضا ، في « كتاب التوحيد القديم » كيف أن بني إسرائيل قضوا أربعين عاما في سيناء قبل دخولهم أرض كنعان . وهي الفترة التي حددها لحياة حبل . وبناء على ما ورد عنه ابن خلدون ، كان من الضروري على بني إسرائيل قضاء أربعين عاما ، وأعني بذلك ، فترة حياة حبل كامل حتى تتكون « عصبيتهم » ، من بعد المائاتة إبان فترة السودية في مصر (5) .

ومهما كانت توافقي الصعاب الموجودة في تاريخ ابن خلدون ، فإنها لا يمكن أن تقلل من روعة ، المقامة ، بنى شكل من الأشكال . فها زالت « المقامة » أكثر المراسلات تقفنا في الحضارة وفلسفة التاريخ ، قبل العصر الحديث ، وفقا لكل الاعتبارات . وتفسر ظروف عديدة تفوق هذه المقامة . فلمرة الأولى ، أمدى المؤلف مقدرة على قوه الملاحظة في مجال الفكر ، وهو امر لم يسبق له أن بحث فيه . وعملت معرفة ابن خلدون لمجموعة مسوعة من الثقافات ، التي كشفت كل واحدة منها عن مستوى مختلف للتقافة الرميعة ، على امدهاته بقاعدة أسلميه رائدة للمراسلة . وتراوحت تلك الحضارات ، على طول الخط ، من المادات والتقاليد البدائية لقبائل البربر في المغرب ، إلى العالم المزدهر في غرناطة ، إلى الحضارة المصرية التي كانت تعانى من التدهور ، برغم احتفاظها ، بكل عناصر القوة والتأثير . وقضى ابن خلدون سنوات في بلاد كثيرة مختلفة ، وعامر دورا فعلا في الشئون السياسية حيثما ذهب ، وكان على دراية تامة بالإبجازات الفكرية للشعوب التي عاش بينها . ولابد ان علما له اهتمام ابن خلدون بالجنس الانساني قد عرف الحالة التسمية لتلك الشعوب بالنسبة للمصنع الثقافي سواء قرنا منه أو بعدا عنه . وأخيرا ، كان لانتقال ابن خلدون بالتصوف أثرا كبيرا في دوره كفيلسوف اجتماعي .

ويبدو ان ابن خلدون اعتمد على مؤلفات علماء مثل المسعودي ( ت ٩٥٦ م ) ، بشأن الأفكار التي عبروا عنها عند تحليلهم للتطويع الاجتماعي أو عند تفسيرهم للتاريخ ولكن لا يمكن للمعلم الا ان يحسوا مدى هذا الاعتماد - ومن هؤلاء الكتاب الأول ، كان المسعودي ، بلا ريب ، أكثرهم اتجاها ، وربما أوسعهم معرفة ، به ان ما قدر له البقاء من أعماله ليس سوى مجرد شذوذه . وطرا لعدم وجود محاولات سابقة لعهد ابن خلدون ، برقي لمسوى تفسيراته عن المجتمع والتاريخ ، لذلك كان العلماء على اتفاق ، من المادة ، على أن ينسبوا اليه الأفكار التي عبر عنها في « المقامة » . واتفقوا على أنه ليس في استطاعة أحد أن يجد تفسيرا وافيا لمضج أفكاره المبكرة المنخفضة عن قدرات عقلية فائقة في الحكم على الطبيعة البشرية وفي حسن حظه في الحياة الشطة وسط بيئات ثقافية مهيمنة . فعلى سبيل المثال ، لو قدر لابن خلدون تأليف « المقامة » قبل زيارته إلى مدينة غرناطة التي كانت ترخر بشتى الألوان الثقافية ، لما ظهرت المقامة على هذا النحو وكانت أقل تأثيرا . ولهذا السبب قد يأسف القارىء لأن ابن خلدون لم تكن لديه سوى معلومات شحلة عن العالم المسيحي في بزنطة وأوروبا اللاتينية - وربما كانت له

ملاحظات رائدة عن المقارنة بين أثر ضرورة الاحتفاظ بزوجة واحدة في المسيحية على التطور العقائى في أوروبا ، وأثر تعدد الزوجات في العالم الاسلامى ، على مجيل المثال -

واختلف العلماء في الرأي عند تقديرهم لمضى تأثير العلوم المبتاعيزيقية على فكر ابن خلدون - فبصر محبس مهلى على أنه لم يقم أحد من المفكرين قبل ابن خلدون أو في معاصر له يربط تاريخ المجتمع بالفلسفة السياسية ، أو حاول أن يطور علم المجتمع في إطار الفلسفة التقليدية - وبناء على رأى مهلى ، فإن « العلم الجديد » عن المجتمع الذى عدسه ابن خلدون كاد قسرة جهوده في تطبيق مبادئ الفلسفة اليونانية في دراسته للتواهر الاجتماعية في مواجهة التفسيرات الدينية عن العالم (٦) -

ومن ناحية أخرى ، يؤكد فرانس روتال ، على أن ابن خلدون ارتأب في التفكير التاملى برغم معرفته الواسعة للفلسفة اليونانية والعرب الذين قاموا بتفسيرها - واعتقده قرأ أن ابن خلدون أقام مبادئ علمه الجديد على الملاحظة وليس على التفسيرات التى استعملت سرراتها من الفلسفة ، وأنه عقد الجزم على الوصول الى معرفة سبب تقدم الأمم والحضارات وتدهور أحوالها على أساس أن ذلك يتم بتأثير عوامل اجتماعية واقتصادية وليس بفعل القوى المبتاعيزيقية ، فالمبدأ الاجتماعى الذى يبدو أن ابن خلدون نسب اليه التأثير الأكبر على ظهور وسقوط الحضارات هو « العصبية » أو « الشعور الجماعى » Group Feeling وهو مبدأ لم يسبق لأحد من الفلاسفة الإشارة اليه (٧) والواقع أنه وفقاً لما ورد في رأى روزنتال - قد يميل المرء الى اعتبار ابن خلدون رائداً في التاريخ الوسيط للمنصب المادى الحديث لو لم يكن قد نسب كثيراً من التأثير على تطور الحضارات الى تلك القوى النفسية كالدين -

وهما يكن من أسر ، فيبدو أن ابن خلدون ترك تأثيراً قليلاً أو ربما لم يترك تأثيراً على معاصريه في مجالات الفلسفة السياسية وعلم الاحصاء ، أو لعدة قرون تلت عصره - ولو أن ابن خلدون قد عاش قبل قرنين من عصره عندما كان العلماء العربيون يترجمون المؤلفات العربية على قدم وساق ، لترك سمعة مثيرة للانتباه على الفكر الغربى - وكالمادة ، فلم يهتم به معاصروه الى حد كبير ، ومعاصروه مؤرخاً عتيقاً ، الى أن اكتشف الغرب أهمية أعماله -

واختتم ابن خلدون « مقدمته » بضرع الى الله - تكتب يقول :  
بسم الله الرحمن الرحيم - والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا

(٨) آخر للرحم أن يبدأ سيرة الاستقصاء النفسية من ابن خلدون بصفة صريحة تبعاً على القارىء غير المتخصص -

محمد وعلى آله وصحبه وسلم . عبد الرحمن بن محمد بن خلدون  
المصري ، عبد الله والفقيه إلى الله الذي وسعت رحمته كل شيء .  
الحمد لله . ولا حول ولا قوة إلا بالله . يبلد الملك وهو على كل شيء  
قدير . له الأسماء الحسنى . وسبح عليه كل شيء . يعلم خائنة الأعين  
وما تخفي الصدور . ولا ينهي عليه حافية في الأرض ولا في السماء (٨) .

وهناك المزيد من ملك الإبتهالات . وعلى الرغم من أن هذا النوع  
من المقدمات الدينية كان شاعرا بين الكتاب المسلمين ، فهي حالة  
أين خلدون . ومن خلال التناقض الذي نسبته إلى الله عالم الأسرار والقوى  
في علاه . يستطيع المرء أن يستنتج أن الورع الصادق عمو الدافع إلى  
التعبير عن تلك المشاعر الرجائية .

ثم واصل ابن خلدون بذكر تقديم للكتاب . فبعد معنى التاريخ ،  
يرتبط على عيوب من سبقه من المؤرخين ، وقدم صورة صحيحة لاحتويات  
تاريخه وتسيقه العام . وبدأت الفقرات الأولى من تقديمه بما يلي :

« التاريخ فرع من فروع المعرفة تهتم به الأمم والأجناس . ويعد  
في طلبه بكل تلهف وشوق . فيتوق رجل الشارع والعامة لمعرفة  
التاريخ ويتناصس الملوك والقادة على الحصول على المعلومات التاريخية .

فالتقنون والأميون قادرون على فهم التاريخ . من الساحة  
السطحية . ليس التاريخ سوى مجرد معلومات عن الأحداث السياسية ،  
وتاريخ الأسر الحاكمة ، وأحداث الماضي البعيد ، وكلها تقدم على نحو  
شيق ويضاف إليها بعض الأمثلة الشعبية والحكم . ويساعد التاريخ على  
حلب المنفعة والتسلية للمحاضر المريضه ، ويجعلنا نقف على أحوال  
البشر . ويوضح لنا كيف تؤثر الظروف المتغيرة على شئون البشر ،  
وكيف تستطيع أسرة حاكمة مميّنة قادرة على احتلال أجزاء شاسعة من  
العالم وتمكن من الأرض إلى أن تصبح أثرا بعد عين .

ومن ناحية أخرى ، فالمعنى الباطني للتاريخ ، هو أنه يتم التفكير  
والتأمل وهو محاولة للوصول إلى الحقيقة ، وتفسير دقيق للأسباب والجدور  
التاريخية للأحوال القائمة ، ومعرفة راعية عن كيفية وقوع الأحداث  
وأسبابها . ولذلك فقد جذور التاريخ يمتد في الفلسفة . ويستحق  
التاريخ أن يعتبر أحد فروع الفلسفة » (٩) .

ويعد لنا ابن خلدون عيوب من سبقه من المؤرخين ذاكرا الشائعات  
والأخبار الكاذبة ، والاعتقاد إلى الروح التقديس ، والثقة العمياء في صحة  
العوادات والتقاليد وقبول كل ما هو مكتوب دون تنقير أو تمحيص .  
وبالإضافة إلى ذلك ، فكنايت كثير من المؤرخين عملة « أو ( على أية

حال ) لم يحاولوا الا تكون حيلة . • واتهم ابن حلقون بعض المؤرخين بعدم الاهتمام بالتغيرات التي طرأت على الأحوال والعادات للأمم والأجناس والتي حدثت بمرور الوقت . • لقد أهملوا أهمية التغير عبر الأجيال عند معالجتهم للمادة التاريخية لأنهم لم يجدوا الشخص الذي يقدر لهم تلك التغيرات . • (١٠) • وكان يأمل في علاج كل ملك العيوب ، ورغم احتواء التقديم الموجز لكاتبه على اعتراف ما لديه من قصور ، وربما كان ذلك ادعاء تقديريا بعدم الكمال . • ورغم كل ما قيل فاني أشعر بالنقص عندما أتصفح كتب العلماء القدامى والمعاصرين . • وأعترف بعدم مقدرتي على التعمق في موضوع شائك جدا كهذا • (١١) .

وفي المقدمة المطولة ، التي تلت التقديم المختصر ، بحث ابن حلقون في قيمة علم تدوين التاريخ historiography . وفي الطرق المختلفة التي يستعملها المؤرخون والأخطاء التي ارتكبوها . فكتب يقول . • يجب أن يكون معلوما أن التاريخ فرع من فروع المعرفة وله طرق كثيرة في كتابته . • تظاهرها السابعة كثيرة • وهدده بنبيل • ويجلس على معرفة بالأمم الماضية • ويخلصنا على سبب الأنبياء ، والأسر الحاكمة ، ومسياسات الحكام • وبذلك يستطيع المرء أن يحصل على النتائج النافعة إذا ما حاول تقليد القدوة التاريخية في الأمور الدنيوية والدينية • (١٢) •

هذا هو كل ما قلعه ابن حلقون بشية ذكر للبروات لدراسة التاريخ ، ويبدو أنه قد أغفل في ذلك بعد أن أعطى • لقصته • طابع التحليل النقدي • ثم امتلح مباشرة إلى الحديث عن مواطن ضعف معينة تعرض لها المؤرخون - منها عدم مراعاتهم الدقة عند ذكر الإحصائيات • فأنشأ قائلا • ذكر المسعودي وكثير من المؤرخين أن موسى ( عليه السلام ) أحصى جيش بني إسرائيل في الصحراء • وأخذ معه كل قادر على حمل السلاح ، وبخاصة أنه اعتبر كل من جاور الناصرة والمشرقيين متناسبا • ووصل عدد هذا الجيش إلى ما يزيد على مئتي ألف مقاتل • وبذلك يكون ( المسعودي ) قد نسي أن يصحح في اعتباره إذا ما كان في استطاعة مصر وسوريا حشد جيش بهذا العدد • فمن الممكن أن تحشد كل سلطنة أكبر قدر من قوات المقاومة الشعبية militia ولكن في حدود امكانياتها البشرية والمادية • وتؤكد الماديات المروعة والأحوال المألوفة على صحة هذه الحقيقة • ويضاف إلى ذلك ، عدم استطاعة جيش في مثل هذا الحجم ، التحرك للاقتحام العدو وغرض المعركة كمجموعة متكاملة • وستكون كل أراضي الحدود التي يمكن استغلالها غير كافية لمثل هذا الجيش • وإذا ما اتخذ مثل هذا الجيش وضع استعداد للمعركة فسيقتل مساحات

تفوق نطاق الرؤية . وإذا كان الحال كذلك ، فكيف يتقاتل جيشان .  
أو ينتصر أحد لجيشة جيش في الوقت الذي لا يعرف فيه جناح ماذا يفعل  
الجناح الآخر ؟ ( ١٣ ) .

وانتقد ابن خلدون المؤرخين العرب على الخطأ الشيع الذي وقعوا  
فيه والمتعلق بقصة العباسية شقيقة هارون الرشيد ، وحفر رقعة في المرح  
والسمر . واعتمد في هذه القصة على رواية الطبري الى حد كبير ،  
وحدثت لرغبة الحليقة في قصص ساعات المرح والسمر بصحبة جعفر  
وتشقيقه العباسية ، لذلك زوج شقيقته جعفر حتى لا يجد جعفر حرجا في  
الجلوس مع الحليقة وتشقيقته . ومع ذلك فمن المفهوم أن هذا الزواج لم  
يكن مقدرا له أن يتم بحلول جعفر على العباسية . بعد أن العباسية هامت  
حبا في جعفر . الذي نجح في هيلثرة حقه الشرعي منها بعد أن .  
لمست الخسر بلبه . وعندما علم هارون بأن زواجها الشرعي أضر عن  
طفل . واستشاط غضبا . ثم أمر بعد ذلك بقتل عتي جعفر .

ورفض ابن خلدون أن تكون هذه القصة مجرد شائنة قصد بها  
الاساءة الى العباسية . إذ يرى أنه من المستحيل الاعتقاد في أن امرأة مثل  
العباسية ، وهي صاحبة الحسب والنسب ، أن تفعل ذلك . إن العباسية  
إبنة حليقة وشقيقة حليقة . وولدت في بيت الخلافة . وهي من سلالة  
بيت النبوة . ومن ذرية أهل محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ( ١٤ ) . وأعمامه  
وأقاربه . وهي مرتبطة بالرعيل الأول من الصحابة بحكم أصلها ومولدها ،  
وبنور الوحي المنزل ، وبالمكان الذي هبط فيه جبريل ( عليه السلام ) ( ١٥ ) .  
وكانت العباسية تعيش وفقا للمشاعر والتقاليد العربية الصادقة . ووفقا  
لجائده الاسلام السمجة التي ظلت بعيدة عن مظاهر الرفاهية والتشرف  
وعن مواطن انتشار الرذيلة . وأين يجد المرء الطهارة والهمة والجداء اذا  
لم يجدهم عند العباسية ؟ وأين يوجد الحفة والتشرف اذا لم يجد لها وجود  
في ذلك البيت ؟ وكيف تمتطيح العباسية أن تربط شجرة نسبها العربية  
بشجرة جعفر بن يحيى وتلطمح أصلها العربي العربي بأصل ذلك الفارسي  
التابع ؟ ( ١٤ ) .

وإذا ظل القاري الحديث غير مقتنع . فعلى الأقل سيتفق مع  
ابن خلدون في أن هذه القصة . حتى ولو حدثت ، ربما لم تكن الدافع  
الذي حرك هارون للقضاء على جعفر ، ووالده وشقيقه ، وكل أفراد أسرة  
البرامكة . وقد يشك المرء في أن ابن خلدون كان يدرك أن شجبه لقصة

( ١٣ ) ما بين خلدون من هذه القصة .

انحراف العباسة -خلقي قد يدخل البهجة والسرور على قراء النص بنفس قدر ادانته للقرية الزراعية بأن حارون كل « منعا للمخور » . على أن الأسلوب الجاف الذي عبر به ابن خلدون عن علم اعتقاده في صحة قصة العباسة وحسن يقدم لنا مثلا رائعا عن مدى الخطأ الذي يمكن أن يقع فيه كبار العلماء عندما يسمحون للافتكار أن تحجب عنهم حقيقة أصواء أو تقلبات الطبيعة البشرية -

ويبحث ابن خلدون بالتفصيل في قصص مشابهة تتعلق بسوء السلوك الأخلاقي لبعض الخلفاء الأول ثم قسم قصصا يمكن أن ينطبق على كل عصر -

« وهناك قصص كثيرة من هذا القبيل - وهي تبرز دائما على نحو غير متوقع في كتب المؤرخين - ويبدو أن الدافع على تلميق هذه القصص وذكرها وجود رغبة عامة في المنع للظورة وتضويه سمعة الآخرين بضروب الانتهاكات والافتراءات - وبرز الناس ضووعهم للملذات بذكرهم الرجال والنساء الذين سيقوهم ( والذين فعلوا نفس الأعمال التي يفعلونها ، حسب زعمهم - ومن ثم ، فضلا عما يبدو منهلين جدا لمعرفة تلك الملذات ويشمرون عن سواها الجهد في البحث عنها بين طبقات صفحات الكتب المنشورة » (١٥) -

وعلاج هذه الآفة هو العمل على إحياد المؤرخ المدرب والمستول - ويكتب ابن خلدون عن هذا المؤرخ فيقول يجب أن يعرف هذا المؤرخ صائري السياسة ، وطسمة الكائنات الموجودة ، والفروق بين الأمم ، والأماكن ، والعصور ، مع الأحاد في الاعتبار بضروة معرفة أساليب الحياة ، والمبزات الشخصية ، والمعدات ، والمذاهب والمدارس ، وأي شيء آخر - ويجب أن يكون لديه الملم تام بالأحوال الحاضرة في كل تلك الحالات المذكورة - ويجب عليه أن يقارن بين أوجه التشابه أو الاختلاف بالنسبة للأحوال في الحاضر والماضي ، ويجب عليه أن يعرف أسباب التشابه في بعض الحالات ، وأسباب الاختلاف في الحالات الأخرى - ويجب أن يكون على معرفة بأسس السلالات الحاكمة والفرق الدينية وحفورها التاريخية بالإضافة إلى الأسباب والفوائع التي دفعت بهم إلى الوجود وظروف وتاريخ الشخصيات التي ساندتها - وأن يكون هدفه الوقوف على الممرقة النامة لأسباب كل حادثة ، وأن يكون على دراية تامة بالجلور التاريخية لكل حدث تاريخي - ثم يجب عليه مراجعة المعلومات المتقولة وفقا للمبادئ الأساسية التي يتركها » (١٦) -

ويقول ابن خلدون أن كتابه الأول « القسمة » يتحدث عن الحضارة وخصائصها الأساسية - ويتضمن ذلك « السلطة الحاكمة ، والإدارة -

والأصالة المريحة ، وحرص العمل ، والحرف ، والعلوم ، والمعارف ، ( ١٧ ) .  
وأعلى ابن خلدون أن غايته كتابه تاريخ واقعي ، وقصد بذلك ، أن يكتب  
تاريخاً يقارب أو يتجاوز ، « أي علم قائم بذاته » . وعاصم ابن خلدون  
على المعلومات المستقاة من البحث العلمي الدقيق ، ولم يصبه على الأساليب  
البلاغية ، إلا فيما يتعلق بدراسة لساليب السياسة ، وذلك منه اعتماد  
لهذا التاريخ الجديد ( ١٨ ) . وأعلى ابن خلدون أن دراسته هذه يمكن أن  
ينظر إليها على أنها « علم مبتكر بكل ما في الكلمة من معنى » ، ورغم  
أنه حرص على قبول احتمال أن المؤرخين الذين سبقوه ، ومن بينهم بعض  
الفرس والكلدانيين ، على سبيل المثال ، قد ساهموا ببعض مماثل للأفكار  
التي عرضها في هذه الدراسة - وعلى الرغم من اعترافه بأن كتابه قريب  
في نوعه وأنه « فتنم على معلومات مختلفة ما كان شاكاً وألوفاً » ،  
فإنه اعترف « بطم مطفوفة على التعمق في موضوع شديد الصعوبة » ،  
ورجاء ابن خلدون الباحثين « أن يفحصوا الكتاب بعين الناقدة وليس بعين  
المجامل » ، وأن يخلصوا في ملءه ويتفاوضوا عن الأخطاء التي تقابلهم ( ١٩ ) .  
وهنا يستمد ابن خلدون ثلثه في بحثه عن الصفات المميزة  
للحضارة في مظاهرها المختلفة ، وهي دراسة من الممكن أن نرودنا  
بالأسس والبادئ الخاصة بتاريخه العالمي . ويتفق ابن خلدون مع  
الآخرين في أن الأساس الاجتماعي بطبيعته وعلى ذلك فهو في حاجة إلى  
عون بني جنسه كي يعيش مسجماً مع طبيعته . فكذب ابن خلدون .  
« أن قدرة الفرد من بني البشر لا تكفيه للحصول على الطعام الذي يحتاج  
إليه ، ولا يمدد بالكمية اللازمة كي يعيش » ، وحتى لو افترضنا الحد  
الأدنى من الطعام - ونعني بذلك قوت يومه ، ( حنة ) من القمح ، على  
سبيل المثال - فإن هذا القدر من الطعام لا يمكن الحصول عليه إلا بعد  
اعتماد كثير مثل الطحن ، والسجن ، والخبر ، وكل من تلك العمليات  
الثلاث تحتاج إلى أبنية ، وأدوات وكلها لا يمكن أن تتوفر دون مساعدة  
العديد من أصحاب الحرف ، مثل أصحاب حرف الحفلة ، والتجارة ،  
وصناع الفخار . وإذا ما افترضنا أن في استطاعة الإنسان أكل القمح  
قيل أن يصير خبزاً ، فمن الضروري أن تمر حبات القمح بعمليات عديدة :  
منها ينقو الحبوب ، وحصد القمح ، وتدرس الحبة لفصلها عن متاعيل القمح ،  
وتتطلب كل عملية من تلك العمليات السابقة عدداً من الآلات وعدداً يزيد  
على عدد الحرفيين الذين سبق ذكرهم . وهي عمليات تفوق طاقة شخص  
بفردة ، بل أنه لن يستطيع القيام بجزء منها ، وحده ( ٢٠ ) .

وإذا ما افترضنا أن ظروف أخرى لا يمكن فيها الاستعانة عن  
مساعدة الجماعة من أجل صالح الفرد ، فالفرد يحتاج للمساعدة عدداً

يشعر بضرورة الدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة ، على سبيل المثال ، أو ضد عدوان من داخل الجماعة . وفي الحالة الأخيرة فمن الواجب على الحاكم أن يقدم المساعدة . ومن ثم فمن الواضح أن سلطة الحاكم لازمة طبيعية للإنسان وضرورية للجنس البشري بلا أدنى ريب ، ( ٢١ ) . ويمكن ابن خلدون يحزم وإصرار على أن فتلة الحاكم للسلطة لا يستلزم بالضرورة أن مشيئة الله هي التي أرادت ذلك . ولعلنا أيضا أن الحاكم لا يستمد سلطته من الله ، كما كان يدعى بعض الفلاسفة .

ثم اعتقد ابن خلدون أن الأرض : « عتود من العنب يفتو فوق ماء » ( ٢٢ ) ، البحار ، والمحيطات ، والأنهار . وكذب عن نهر النيل . فقال إن مبعده عند سفح جبل عظيم على بعد ست عشرة درجة حطب خط الاستواء : « ولا يعرف جبل أعلى منه في العالم » ( ٢٣ ) . وقدم للقارئ خريطة تمكنه من متابعة بحثه عن المناطق السبع التي تحتويها الأرض . وقدم ابن خلدون معلومات جغرافية تشابه تلك التي تم التسليم بصحتها ، على وجه التعميم ، في عصره . وكما أوضح ابن خلدون نفسه ، فإن كثيرا من تلك المعلومات مأخوذة عن كتاب مثل بطليموس Ptolemy في الجغرافيا ، ومن بعده مؤلف كتاب دوجو The Book of Roger ( بواسطة الإدريسي ) ( ٢٤ ) .

وركز ابن خلدون على المناطق الهائلة ، والرابعة ، والخامسة ، والتي تشكل جميعها المناطق المصنفة . وإن الشعوب التي تعيش في تلك الأقاليم المتعددة هي أكثر الشعوب تنوعا . ثم قال : « إن سكان تلك المناطق أكثر اعتدالا وأقربا ( وفي تلميح جيد ) بالنسبة لاجسادهم ، وقوتهم ، ومخاطباتهم العقلية ، وأحوالهم العامة . وأوضح أنهم يميلون إلى الاعتدال في حد كبير في مساكنهم ، وملابسهم ، وأطعمتهم ، وحرفهم ، ويسكنون بيوتا مصنوعة من الأحجار ومزينة بأدنى العمال الماهرة . ويتناسلون بعضهم بعضا في إنتاج الفضل الأدوات والآلات . ويبدد المزايا عندهم المبادئ الطبيعية ، مثل الذهب ، والفضة ، والحرير ، والتفاح ، والرصاص ، والقصدير . ويستعملون المعدنين النقيين ( الذهب والفضة ) في معاملاتهم المالية . وغالبا ما ينعتبون الإسراف في كل شؤونهم . تلك كانت أحوال سكان المغرب ، وسوريا ، والعراق ، وغرب الهند ( الهند ) ، والذين ، بالإضافة إلى أسانيسا ، وأيضا المسيحيين الأوربيين المجاورين » ( ٢٥ ) .

وكان ابن خلدون يرى أن الأحوال الصحية لسكان الصحاري أفضل من مثلها عند سكان التلال ونسب ذلك إلى تقشفهم في نظامهم الغذائي -

وأضاف أن الناس الذين يكتفون بالقليل من الطعام دون تقديرهم أكثر الناس تمسكاً بتعاليم الإسلام كقاعدة عامة ، ويصورون أكثر من غيرهم . وكانت هذه الصفات الحميدة نتاجاً لبيئة الحظيرة بهم . بيد أن الله يحب يوصا من خلقه قدرات طرفة من عباد الصيرة كما فعل مع الأنبياء . وأقر ابن خلدون ، قوة روي ، بصحة تلك القدرات ، كما أم بقدره بعض الناس على تعبير الأحلام : « الرؤى » التي يراها الناس ، « في مناه » . واعتقد ابن خلدون أن بعض الناس لديهم القدرة على التنبؤ بالغييب بالنظر بتركيز لفترة من الوقت في المرايا أو الأتة التي بها ماء ، وبالإضافة إلى ذلك ، « تلك المباركات المتعلقة بأمور الغيب التي برد على السنة المتخلفين عقلياً » ( ٢٦ ) .

وقد يتمتع القاري الذي لديه فكرة عن المكانة المالية التي يحظى بها ابن خلدون لعق تفكيره ، عند سماعه لتلك المفاجآت الأخيرة . إلا أنه سيجد ما يعيد الطائفة إلى نفسه في الفصل الثاني من الكتاب الأول لابن خلدون حيث يؤكد هذا العالم على أنه يتمتع بمكانة مرموقة . وهنا يقدم ابن خلدون تحليلاً علمياً عن حضارة البدو والشعوب المتنقلة بصفة عامة . وتصور الفقرات الأولى تلمس الحياة وتطورها من حياة القبيلة البدائية إلى أرقى المراحل الحضارية - « اتخذ يطي الناس الزراعة كوسيلة لكسب عيشهم وزرعوا الخضروات والبقول » واتخذ البعض الآخر تربية الحيوانات الداجنة من الأغنام ، والماعز ، ومحل العسل ، وود الفز ، للاستفادة منها ومن نتاجها ولا يستطيع أولئك الذين يعيشون على الزراعة أو تربية الحيوانات العمل دون استغلال الصحراء لأنها دون غيرها هي التي تتيح لهم فرصة الحقول الشاسعة - والأراضي الزراعية ، والمراعي ، وكل شيء غير سائر المحصول عليه في المناطق المأهولة بالسكان . لذلك كان من المحتم عليهم للعيشة في نطاق الصحراء - ولم يتوصلوا في معيشتهم إلا إلى حد الكفاف لمهم مقوماتهم على الحصول على غير ما تحت أيديهم ، وسار نظامهم الاجتماعي والتمالي قائماً على سد متطلبات الحياة من مأكول ، وماوى ، ودفع . وساعدت أحوالهم الأتة في التحسن على التوالي - وزيادة ثروتهم عن حاجتهم ، على ترايد شعورهم بالطائفة وتقل الأمور في يسر . ثم تعاونوا من أجل أمور خارج نطاق الضروريات فينوا المساكن الضخمة ، ويميدوا القرى والمدن لحماية أنفسهم - وتبع ذلك مزيداً من الرفاهية وسهولة في سبل العيش ، مما أدى إلى تكوين عادات متطورة قائمة على الرفاهية وروح العيش - وبدلوا يقارون بأعساد الطعام ومطابخ إعداد الطعام الفاخر ، وباستعمال الثياب الفاخرة المصنوعة من الحرير ، والقمش المطرز ، والمنسوجات الأخرى الفاخرة ، وبتشديد

«الياني السالية والأبراج ، والآلات المأخر من حياتهم . وتقدموا في أساليب الزراعة - وبنوا القلاع والقصور ، وزودوها بملياء الجارية ، وزادوا في علو ارتفاع قلاعهم . وتنافسوا في تزويدها بكل المتطلبات اللازمة - واختلقوا في أنواع ملابسهم ، وصرهم ، ومركباتهم ، والآلات النافعة التي يستخدمونها في أغراضهم - والآن نتقل إلى « الناس الذين يعملون وهم جالسون ، وسنى بهم سكان المدن والريف ، الذين يعملون في الحرف الفنية كوسيلة لكسب عيشهم ، وبعضهم يشتغل بالتجارة . وهم يكسبون أكثر من البدو ، ويسبقون في دغدغه من العيش . وتعتبر حياتهم على نرانيهم » (٢٧) .

ويرى ابن خلدون أن معظم أصحاب الحرف كانوا في الأصل من البدو ، وعاشوا في مستوى حضارى بنوى - وعظما لأن البدو كانوا ملزمين باحتياج حياة قائمة على ضروريات الحياة ، دون رفاهية أو ملذات . « فإن عاداتهم النسيجة ، وصفاتهم المستحقة للوم تكون طيبة . ويكونون أكثر قربا من حالتهم الأولى ، وأكثر بطلا عن العادات المميمة التي آثرت على أصحاب الحرف من خلال العادات الطيبة والنسيجة » (٢٨) .

شكل لسيطرة التشريعات والاعتماد عليها لتحقيق الحماية علامة كبرى في تطور الحضارة - فقبل تلك المرحلة كانت الفضائل القبطية كافية لحماية الإنسان وعندما ظهرت القوانين عملت على الإقلال من قوة الإنسان على التيسات والجلد والقدرة على التحمل . ولو مثل ابن خلدون إذا ما كان هذا الرأي ينطبق على التشريعات التي وجدت في القرآن الكريم ، لبادر بالقول إن القيود التي فرضتها الشرائع الدينية حامت من اللبس وليس كنسيجة لمعرفة فنية أو ثقافية علمية . وظلوا محتفظين بشائهم وحظهم دون أن يصبية الزمن ، ولم يعتدوا الفصل سواء بالتعليم أم على يد السلطة الحاكمة . - إلى أن تضائل أثر الدين بينهم ، فوضعوا التشريعات الملزمة (٢٩) - وبعض آخر ، فإن التشريعات المستمدة من الحكومة أو التعليم تؤدي إلى الفصل على القدرة الذاتية على الحسد والنبات لأن أثرها القيد والملازم يأتي من خارج تفسير الفرد . ومن ناحية ثانية ، فإن تطبيق التشريعات الدينية لا يصل على إضعاف القدرة الذاتية على الحسد والنبات لأن قوتها الملزمة أمر نظري .

وكتب ابن خلدون عن مبدأ الشعور الجماعي « الصبيبة » وهو مفهوم أعطاه معناه واشتهر به فالشعور الجماعي هو الذي يمكن القتال البدوية من الدفاع عن نفسها ضد الأعداء ودون انتظار تعرضات أو

الأمم من شيوعها - « ولا يكتب التوفيق لهم في الدفاع وحماية أنفسهم إلا إذا كانوا مجموعة مترابطة على الحب ووحدة الأصل - وذلك يقوى من قدرتهم على التحمل ، ويجعل أعدائهم يعملون لهم ألف حساب ، طالما كان حب الفرد منهم ومطلقه بأسرته وعشيرته يفوق أي شيء آخر - نافذ ( سبحانه وتعالى ) وضع في قلب الإنسان المودة والرقة للنوى القريب ، ولبنى البشر ، ويجعل هذا على الترحام ، والتعاطف ، ويجعل الأعداء يشقون بأسهم » (٣٠) .

وتتمد العصبية لتشمل الأنبياء والحلفاء أيضا لأنها « تؤدي إلى الاتصالات الحميمة تملأ ، أو تقبل كما يقبل الأصل للمشارك على وجه التعريب » (٣١) وكل هؤلاء الناس - الذين انصهروا من جذ واحد على استعداد أن يمتثلوا وصحهم الأنبياء والحلفاء بقيادة أحدهم عن طيب خاطر - وكل ذلك بفضل الشعور المشترك .

يبد أن شعبا وحدثه العصبية ذات مرة . من الممكن أن يفقدوا علمها يربط بشعوب أخرى أو عتلتها يركن هذا الشعب إلى حياة النعمة والاستقرار - وهناك بعض الناس يجتمعون معا شعور حساسي رائق . وينطبق ذلك على بني إسرائيل - فكتب ابن خلدون أن بني إسرائيل هم أشد الناس تمسكا بهذا الشعور الجماعي . وفي الأصل كان لبني إسرائيل « أسرة » من أشهر الأسر في العالم لسببين ، أولهما - ظهور عدد كبير من الأنبياء والرسل من بين أجدادهم ، وأهمهم إبراهيم وعيسى الذي وضع تعاليمهم الدينية ، وثانيهما : شدة تمسكهم بشعورهم الجماعي واعتقادهم بأنهم شعب الله المختار - ثم تم مجردهم من كل ذلك ، وكنت عليهم الذلة والمسكنة وصرصوا للفقر والفاقة - وعاشوا مشتهين في أسوأ المصوبة - وظلوا لمدة آلاف من السنين لا يعرفون سوى حياة الاستعباد والارتياح في أمرهم . ومع ذلك مسطر عليهم الاعتقاد الرائق بأنهم شعب الله المختار . ورد الفرد منهم القول - « بأنه من أتباع هارون . ومن سلالة يشوع ، ومن قبيلة يهوذا » - (٣٢)

إن الشعور الجماعي قوة مؤثرة طالعة الحساسية - أنها ترفض قيادة أي أسرة خارج نطاق الجيل الرابع . وتعلم اليهود المختل الواقعي على تلك الظاهرة أيضا . إذ قبلوا حكم أسرة واحدة - إبراهيم ، واسحق ، ويعقوب ، ويوسف - لمدة أربعة أجيال . « ويسلم الفرد الذي حقق المجد والتمهرة لأسرته الثمن الذي دفعه مقابل ذلك المجد ، ويظل محافظا على الخصائص التي أوجعت هذا المجد وعملت على استمراره » - ويتعلم الآن من والده هذه الأمور بحكم الصلة والشخصية - ومع ذلك فهو أقل حسرة

في هذا الجيل من والده ، ينحني قدر تبعية المرء الذي يتلقى معرفة الأفكار في حلال الدراسة النظرية على يد شخص عرفها عن طريق الممارسة العملية . أمة الجيل الثالث ولابد أن يكون قائما بالالتزام بالمحاكاة والتقليد ، ويعتمد على العرف والتقاليد على وجه الخصوص . وهذا الجيل أقل مرتبة من الجيل الثاني وهو يشبه المرء الذي يمشي كلبه على التقاليد ويكون في مرة أدنى من الذي يمارس رأيا مستقلا .

وحينئذ يكون الجيل الرابع أقل مرتبة من الأجيال الثلاثة السابقة من كافة النواحي ولابد أن هذا الجيل قد فقد الصفات التي حفظت بها الجهد الضخم . ومن الناحية العملية فهو يحتقر تلك الصفات . ويتصور الجيل الرابع أن هذا البناء الضخم لم يتم من خلال العمل والجهد . إذ يعتقد أن هذا الجهد إنما هو محصلة ما فعله الأجداد وليس نتيجة الجهد الجماعي والصفات الفردية . ذلك لأنه ينشأ على الاحترام الكبير الذي يحظى به أمام الناس ، بيد أنه لا يعلم كيف نشأ هذا الاحترام وسبب ظهوره . وهو يتصور أن ذلك كله مرجعه إلى أسلافه ولا شيء سواه . ويتبعه عن الدين يشاركهم الشعور الجماعي مستغفلا أنه خير منهم . ويحس أنهم سيظفرونه لأنه ولد ليكون مطاعا بينهم . ورغم أنه يعرف الصفات التي تجعل الطاعة أمة ضرورية . ومن بين تلك الصفات التواضع عند التعامل مع أولئك الناس واحترام مشاعرهم . ومن ثم فهو يعتبرهم جديريين بالادراء ، وهم ينورهم ، ينورون ضلله ويحتقرونه . وينزعون القيادة السياسية منه ومن ذريته ويسلمونها إلى أحد أقاربه ، امتثالاً لشعورهم الجماعي كما سبق أن ذكرنا . ( ٢٢ )

إن الإحساس بالولاء للجماعة إلى زوال ، كحال أي شيء في الوجود . والإنسان والحيوان . والنبات والجماد ، وكل المخلوقات الأخرى تنشأ ثم تمضي ، وهذا هو ما يستطيع المرء ملاحظته بنفسه . وتنطبق الحالة نفسها على الأحوال التي تأثر على سائر المخلوقات . ( ٢٤ ) وعلى الرغم من غاية الإحساس بالولاء الجماعي هو تحقيق التفوق على الشعوب الأخرى ، فإنه ما أن يتم التوصل إلى تلك الحالة ، حتى يكون التهور أمرا يحس المحذور لا محالة . إذ إن السبب الأساسي في حدوث هذا التهور هو حياة التره والترق التي حققها الأمة عن طريق توطيد دعائم تفوقها على الشعوب الأخرى . وعندما تأخذ خشونة حياة البداوة في الانحسار ، يبدأ الإحساس بالولاء للجماعة ، والشجاعة ، في التور . ثم تحل الهزيمة ، ويليهما ، الخضوع لحكم أمة أخرى ، وأخيرا مرحلة الانحسار .

أحد الأعراب ابن خلدون يحظم المادة العلمية التقابلية التي  
يضي عليها تصوراتها - ويشكل أدراكه لأحوال الأعراب وتعليله لسماتهم  
وصيغاتهم الطابع العام للسيطرة على ما كتبه - واعتبرهم ابن خلدون غير  
عندهم بطبيعتهم ، ويميلون إلى السلب والتهيب والتخريب والتدمير -  
وهم أعداء للتدين - إذ قال - « ويرجع السبب في ذلك إلى أن البدو أمة  
غير متدنية ، واعتادت على التصرف بهجبة وعلى الأمور التي تدل عليها -  
وصارت الهجبة طبيعتهم المبررة والمبررة عن شخصيتهم - فاسلوهم  
الهجبي يعني التحرر من قيود السلطة وعدم الخضوع للقيادة - ومثل  
هذا الميل الفطري إنما هو بمثابة رفض للتدين وتقيض له - ونتجته كل  
أنشطة البدو المألوف لديهم إلى السفر والانتقال - ولذا كان الاستقرار  
يؤدى إلى التدين فإن تلك الأنشطة القائمة على الترحال لم تقا  
وتسارس مع التمسك - فكل سبيل المثال ، يحتاج البدو إلى الأحجار  
لاستخدامها كعلائم يضمنون عليها قدور الطبخ - ولذلك ينتزعونها  
من المباني التي يعمونها للحصول على تلك الأحجار لاستعمالها في ذلك  
الغرض - ويحتاجون للخصب أيضاً لاستخدامه كعلائم لحياهم ، وكاعلمة  
للغنام التي يسكنونها - وطبيعة علم الحاسة في تمارس تام مع إقامة  
المباني التي تشكل القاعدة الأساسية للتخضر » (٣٥)

وما زالت هناك سمات أخرى لدى الأعراب جعلتهم صلايين للتخضر -  
وقد أصلوا تشجيع تطوير الحرف والمهارات ، وكان ينقصهم الاحتسام  
بالتشريعات التي تكبح حياح الدين مألوا إلى فعل الشر ، وكل العرب كان  
لديهم الطموح في أن يكونوا قادة - ولذلك فمن حسن الطالع أنه ظهرت  
قوة برود الوقت عملت على تهذيب الفرد العربي البدائي ومكنته من  
إقامة حضارة مزدهرة - وكان الدين هو تلك القوة التي تحصل على  
القضاء على الفظاظة والمفظة ، ويكبح حياح العقد والحسد فيما بينهم - -  
وبالإضافة إلى ذلك فلا يوجد شعوب في مثل سرعة العرب في تقبل  
الحقائق الدينية والمعومات الحق ذلك لأن طباعهم ظلت بعيدة عن المبادئ  
السنية ولم تتأثر أخلاقهم بالصفات الشخصية الوضيعة ، وتكن  
المشكلة الوحيدة في توعية النطفة ، ومع ذلك فمن الممكن العمل على  
التخفيف من حدتها طالما ظل الفرد على سجيته الأولى وبعبارة عن التقاليد  
القيمة والمبادئ القبيحة التي تترك أثرها في النفوس (٣٦) .

واعتبر ابن خلدون السلطة الحاكمة في تعرض مع مشيخة القبيلة ،  
وقي علاقاتها بالشعوب بالولاة الحماة - ويرغم أن أي دولة تتألف من  
عدد من القبائل قد تكون من الضخامة إلى الحد الذي يقل من وضوح

عوامل الضحية بها - فإن هذا الضمور الجماعي يظل قائماً بقوة بين الأسر التي تنتمى على القضاة - وما أن تصفق أسرة معينة تقوتها حتى تنسى الظروف التي حققت لها النجاح للوصول الى مركز القيادة - ثم يصبح أمراً متعارف عليه لتمام كل أفراد القبيلة أن تخضع لتوجيهاتها - وعندما تتحقق هذه الفكرة تستطيع الأسرة أن تتجاهل ، بإمان ، أى اعتبارات أخرى تتعلق بالضمور الجماعي ، لأن الدين يعمل بقوة معزلة على أن يشد الشدب أزو يقضه البعض

واعتقده ابن خلدون أنه الاجازات فى أسرة حاكمة . وعلى وجه الخصوص الآثار للمادية التي تركتها فى الأجيال القادمة ، كانت تناسب مع قوتها الأصلية . فعلى سبيل المثال كانت الاجازات الكبرى للخليفة المأمون تغييراً عن اتساع رقعة الدولة فى عهده . وعن الثروة الهائلة التي كانت تحت يد السلطة الحاكمة . والأعبد الفقيرة من الأيدي العاملة التي سخرتها الدولة لصالحها - وحشية أن يصل القاريء أبه الاضطرابات التي لم يجد لها نظير مماثلها فى عصر حكى ابن خلدون كيف أن وزير سلطان مرينيد Merinid أجاب على شكك فيما يتعلق بمدى صحة ما ذكره ابن بطوطة : « يجب ألا مرضى تلك المعلومات عن أحوال الأسرة الحاكمة لأنك لم تترك الأشياء بنفسك » والا فذلك ستكون على مثال ابن الوزير الذي تروى فى السجن . وكان هذا الوزير مسجوناً لمدة سنوات بأمر حاكم البلاد . وتروى أبه معه فى السجن . وعندما شرب الخمر بدأ يسأل والده عن اللحم الذي يأكله . فاجابه والده أنه لحم الضأن . فسأله أين هو عن لحم الضأن وعندما وصف له والده الحمل بالتفصيل . قال الابن : « انك يا والدى تعنى أنه يشبه الفأر » فغضب والده منه وقال : « وما هى العلاقة بين الحمل والفأر ؟ » وحلت التى نفسه بين لحم البقر ولحم الحمل فيما بعد . واعتقد الابن أن كل الحيوانات من صنف الفأر لأنه لم ير سوى الفأر فى السجن » ( ٣٧ ) .

وبعد تقديم ابن خلدون لدراسة عامة عن الحكماء المسلمين قدم وصفا موجزا عن الكنيسة النصرانية . وذكر أن الله أرسل عيسى الى بنى اسرائيل ، وألقى بعض التشريعات التي وهدت فى التوراة ، « وجرى على يديه بعض المعجزات . مثل شعله المرعى ، واسيه البحر » . ( ٣٨ ) وذكر أن عيسى أرسل الحواريين الى أنحاء العالم ، وبذلك أثار حقد هيرود Herod عليه ، ومن ثم أكتنح الأخير الامبراطور أوغسطس بضرورة صلب المسيح .

ووصف ابن خلدون السياسة التي انتهجها الرومان تجاه النصرانية على أنها كانت متناقضة ، فارة عنادية وأخرى محايدة ، إلى أن جله قسطنطين الذي اعترف بالنصرانية كاحدى الديانات الشرعية بالامبراطورية . وكتب عن الخلافات حول العقيدة والتي مزقت الجميع النصراني ووثقت القوض في داخله . وعن مجمع نيقية الأول ، وعن ظهور البابوية . وإذا كانت صرخته لتاريخ الكنيسة النصرانية صحيحة مائة . فإن تفسيره للحلاقة بين البابا والامبراطور الروماني المقدس تكشف عن نقص مروع في معلوماته عن حدين العاملين وما كتبه عنهما من الممكن قبوله في بعض المناسبات في لوائح الصور الوسطى ، بيد أن الحالة اختلفت على عصره بكل تأكيد . إذ من عادة البابا فيما يتعلق بالنصارى في أوروبا مطالبتهم بالخضوع لحاكم واحد وإن يلتزموا منه المون عند احتفالهم في الراي وعند اتفاقهم حتى يتجنبوا التفرق والتفرق شيئا وأجزاء . وهذه من ذلك أن يسود بينهم الصور الجماعي وإن يكون أقوى للشاعر بينهم ، ومركزا في حاكم واحد ، حتى يتمكن هذا الحاكم من فرض سيطرته عليهم . وأطلق على هذا الحاكم لفظ « امبراطور » واعتُمد البابا على أن يقوم بنفسه بوضع التاج على رأس الامبراطور حتى يتال البركة في احتفال مهيب . ومن ثم أطلق على الامبراطور « المتوج » وربما كان ذلك يعنى كلمة « امبراطور » ( ٣٩ )

ثم انتقل ابن خلدون إلى كبار الموظفين الذين يعملون في الحكومة . وإلى مسئولياتهم والقضايا . ودرجة أهميتهم . محددًا من يعمل في الوظائف الحربية ومن يعمل في الوظائف المدنية . ومهما كان عمل هؤلاء الموظفين . وكانت درجة كفايتهم فإن الشعب الأسلم للحكم الساجع يقع على عاتق الحاكم . « يجب على هذا الحاكم أن يمارس سلطة القيادة السياسية وأن يخضع الشعب لأرادته . مذكرا إياهم أنه الوحيد الذي له حق السيادة العليا . ويطلب ذلك قدرا كبيرا من معرفة نفسية الشعب . ولذلك قال أحد الحكماء : « إن تحريك الجبال من أماكنها أمون على من التأثير على الشعب نفسيا » . ( ٤٠ )

ومن مناقشة ابن خلدون للحرب . قام بالتفريق بين الصراع العاطل والصراع غير العادل . ويبدو أنه واقف على الحروب المصادلة . والتي تصفها التصريحات الدينية باسم « الجهاد » ( ٤١ ) وكذلك الحرب ضد « المرتدين » . ودرس الطرق الحربية التي تستخدمها الشعوب المختلفة . وكان تحليله للمواضع التي تحقق النصر الحاسم في أي حرب يستحق التفكير بلسان على يد كل أولئك الذين يحاولون تحقيق مصائرهم بتلك

بالوسيلة . ، ليس هناك شك كاملة لتحقيق النصر في الحرب حتى لو وجدت المبادئ والقوة المادية التي تحقق النصر في الظروف العادية .  
 إذ يلعب الخط والصيغة دورهما في النصر والتفوق في الحرب - ويضر ذلك حقيقة أن أسباب التفوق كقاعدة ، هي مجموعة من العوامل المتعددة وهناك عوامل ظاهرية مثل عدد الجنود ، وصلاحية السلاح للاستعمال ، وجودة بوعيته ، وعدد الرجال الشجعان ، والمهارة في ترتيب صفوف الجنود ، واستتباب في تنظيم القوى الحربية وتحريكها ، وما شابه ذلك - وهناك العوامل الخفية - وقد تكون تلك العوامل الخفية نتيجة للحيل والخطط الذي يساوره الانسان ، كإطلاق الأنصار المثيرة للدعوى والشائعات بهدف خفض الروح المعنوية بين صفوف الأعداء ، وكاحتلال المواقع المرتفعة ، التي يمكن الانقضاض منها ومفاجأة العدو وتشبيحت شبكه ، والاحتفاء في الإدغال أو المحفضات وإخفاء أنفسهم من العدو في المناطق الصحيرية ، وبذلك يكون الطرف غير المختفي في حوقف مصوف بالمخاطر ، ومن ثم يلوذ بالفرار طلبا للسلامة بدلا من الدخا على نفسه .  
 وقد تكون العوامل الداخلية مسائل الهبة لا دخل للانسان فيها - وتؤثر هذه العوامل الخفية في الناس من الناحية النفسية وتزرع في قلوبهم الخوف وتحتل الأسباب الخافية القوض والامتناع في مراكز الجيش ثم تحمل الهزيمة المتكررة ، ان الهزائم المتكررة هي في غالب الأحوال سببة للأسباب الخافية ويصل كل من الجيشين المحاربين على اغضام القرصة من أجل استغلالها على أحسن وجه في إحراز النصر - ( وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ) ( ٣ ) « العرب خبيثة » . ( ٤٤ )

وقد يرفض القارئ قبول إشارة ابن خلدون التي لا تتفق مع العلم بشأن العوامل « الالهية » للأثرة على نتيجة المارك ، في حين قد ينظر بعين العطف الى ما عرصة هذا العلامة فيما يتعلق بموضوع الموارد المالية العامة . إذ ذكر ابن خلدون أن الأسرة الحاكمة هي أوائل عيدها اكتصت بقرض ضرائب متواضعة لأن الموارد المالية التي حددتها التشريعات الدينية كانت كافية لسد الاحتياجات . وأبان الفترة التي كانت فيها الضرائب منخفضة كان لدى الناس الحافز على العمل بكل جهد وكد ، والانطلاق ومزاولة الأعمال التجارية الجريئة - ونتيجة ارتفاع المستوى الثقافي في عهد تلك الأسر الحاكمة ، غير أنه يبرور السنين بدأت مظاهر الرقابة من جانب الأسر الحاكمة ، وتضمن عنها زيادة الأعباء الضريبية، التي أدت بدورها الى انخفاض في النمو الاقتصادي والثقافي ، وعلمنا

استمر الأسرة الحاكمة في السلطة وجميع حكائهم بعضهم بعضا على التوالي  
يزدادون حكمة . وبدأت طريقه ابتداء للتشاعر والسلوك التبدلية تنفذ  
أهميتها ومغراها ، واختفت صفات الاعتدال والانزاع ، وبدأ ظهور  
السلطة الحاكمة بها من حكم استبدادي ، وكذلك الثقافة المستمرة  
التي تشجع الحكمة . وحيث اكتسب شعب الأسرة الحاكمة صفات  
شخصية تم عن الدكا ، وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم واحتياجاتهم أكثر  
تفاوتا نتيجة لحياة الازدهار الاقتصادي والرفاهية والترف التي انغمسوا  
فيها . وكنتيجة لذلك ازدادت الرسوم والضرائب المفروضة على رعايا  
الدولة . من الزراعيين والفلاحين . وكل الذين كانوا يدفعون الضرائب .  
واردادت الرسوم والضرائب على الأفراد إلى حد كبير لتحصيل أكبر قدر  
ممكن من الدخل الحكومي الميسر . وتحدثت الرسوم الجمركية على  
التسلح التجارية وتم جبايتها عنه بولايات المدن ، كما ستذكر فيما  
يعد . ثم بيع ذلك ريادة تدرجية في السب الضريبة على نحو منظم ،  
وفقا للريادة التدريجية ونتيجة لذلك ، فرضت ضرائب باهظة على رعايا  
الدولة وأثقلت كاهلهم . وأصبحت الضرائب الباهظة أمرا ملزما وعادة  
معارف عليها ، لأن الزيادة حدثت تدريجيا . ولم يعرف أحد على وجه  
التخصيص المسئول عن زيادتها أو فرضها . وأثقلت كاهل الرعايا  
كأأمور الملزمة والعادات المتعارف عليها . ( ٤٢ )

وقد يتعذر القارئ الشك في النتيجة النهائية التي من الممكن أن  
تنتظر عن الارتفاع المستمر في تقدير الضرائب - عندما تنطلي القيم  
الضريبية المقيدة حدود العدالة والإنصاف يفقد رعايا الدولة الرغبة  
في مراعاة المشروعات الصناعية - ويصبح من الممكن أن تكون النتيجة  
النتيجة هي الدخل الحكومي الأقل ، والذي بدوره يؤدي إلى ارتفاع  
الرسوم الضريبية في المستقبل كما حدث في الماضي مما يشكل نواحي  
الضعف في الدولة . وتكون المحصلة النهائية هي القضاء التام على  
الحضارة .

« ولذا ما استوعب القارئ ذلك - فسيبصر أن أقوى العوائق لزيادة  
النشاط الثقافي يمكن أن يتحقق بتحصيل أدنى قدر ممكن من الضرائب  
والرسوم من الشخصيات القادرة على مراعاة الأعمال الثقافية - وفي هذه  
الحالة ، تكون تلك الشخصيات ميالة إلى مراعاة عملها الثقافي ، لأنهم  
يكونون على ثقة من أنها ستدفع عليهم أربابا » ( ٤٣ )

ومن ناحية أخرى ، فإن الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الشعب  
عملت على إضعاف وحود الحافز على زيادة حجم الملكية رويدا رويدا .

وما أن توصل الشخص إلى أن الرياضة التي يحققونها في مقدار دخلهم  
ستمنعها خزانة الدولة بكل وضوح ، حتى تقوموا بالدفع على نفس  
إيجازاتهم الثقافية .

وهي الفصل الرابع من الكتاب الثاني اعتقد ابن خلدون أن إقامة  
المدين وما بها من آثار ضخمة ومباني فنية ليست سوى نتاجا للحضارة  
راسخة . وأن تلك الإنجازات لم تظهر إلى حير الوجود إلا بعد ظهور  
سلطة قوية ورسوخ أركان أسرة حاكمة . « أن تفسير ذلك هو أن تنظيم  
المبنى وإقامة المدينة وما هو إلا علامات للحضارة الراسخة المنبثقة عن  
الرفاهية والاستقرار » كما ذكرنا آنفا . وجعلت مظاهر الاستقرار  
الحضاري بعد انتهاء الحياة البدوية ومظاهرها - وبالإضافة إلى ذلك وإلى  
المدن الصغرى والكبرى بما بها من إنجازات معمارية ضخمة كلها أقيمت  
من أجل الجمال وليس من أجل الأقلية . ومن ثم تضاعفت الجهود  
من أجل إنجازها . ولذلك فإن الأسر الحاكمة والسلطة القوية كلها  
من الأمور الضرورية عند إنشاء المدن وتنظيمها . ( ٤٥ )

وفي الفصل الخامس من المقدمة بدأ ابن خلدون يكتب عن الوظائف  
المختلفة وعن درجات المال ولها مهاراتهم وعن الحريريين أنفسهم . أما  
عن التجارة فكانت في رأيه وسيلة طبيعية لتحقيق الربح .  
ومع ذلك لم يظم خطواتها وأساليبها تعتمد على المهاراة والمخادع للحصول  
على الربح وهو الفرق بين ناس الشراء وبين البيع . وهذا الفاض هو  
الربح . لذلك فالعرف يسمح بالدهاء والمكر في التجارة ذلك لأن التجارة  
تحتاج إلى الخسارة . ومع ذلك فليس معناها أن يستول المرء على ممتلكات  
الآخرين دون مقابل . ولذلك فهي مشروعة ( ٤٦ ) .

ويقول ابن خلدون أن العرب أقل الشعوب مهارة في الأعمال  
الحربية . ويشرح ذلك قائلا إن السبب في ذلك هو أن العرب أكثر  
التصاقا بالصحرى وأبعد الناس عن الاستقرار والحرف والأمور الأخرى  
التي تتطلبها الحضارة المستقرة . وهي ناحية أخرى فالشعوب غير العربية  
في الشرق والأمم النصرانية على امتداد شواطئ البحر المتوسط لهم جميعا  
بإع طويل في الأعمال الحربية لأن لهم حضاراتهم المرفقة وهم أكثر بسالة  
عن الحياة البدوية ( ٤٧ ) .

ثم أورد ابن خلدون ذكر الحرف المختلفة . يبيد أنه لم يذكرها  
جميعها ، إذ أن ذلك من الأمور المستحيلة . « فهذه الحرف من الكثرة  
صا يجعلها تفوق الحصر » ( ٤٨ ) . ويجب أن الرعاة هي أقدم الحرف  
جميعها . ويستند ابن خلدون إلى حرفة التجارة أدخلها نوح ( عليه

(السلام) • طبعاً لما ذكرته كتب التراث • • ويفضل حرفة النجارة  
 يسمى روح ملكه • • (٤٩) وقسم ابن خلدون وصفاً مفصلاً عن • حرفة  
 القبائل • • وعند حديث ابن خلدون عن • جهة الطب • ذكر الحديث  
 النبوي الشريف الذي وصف الطعام بأنه أصل الداء • وقال ابن خلدون:  
 • أن المعدة بيت الداء • وأن الحمية هي الدواء • وإن ملأ البطن بالطعام  
 أساس كل داء • • (٥٠) واعتبر ابن خلدون حرفة كتابة الخط الجيد •  
 حرفة سامية • إذ أنها أعطى الصفات الخاصة التي يمكن من خلالها أن  
 يميز الإنسان نفسه عن الحيوان • • (٥١) وكانت حرفة نسخ الكتب  
 خاصرة على المدن التي لها ماضي ثقافي عميق • أما الموسيقى فكانت حرفة •  
 لها ارتباط وثيق بقرى الشعر • • (٥٢)

ثم انتقل ابن خلدون إلى دراسة العلوم • مستتبلاً كلية علم يسمى  
 المعرفة التي يحصل عليها الإنسان من خلال الملاحظة • والدراسة •  
 والتجربة • ويشمل ضمن نطاق العلوم دراسة الملائكة • والأنبياء والرسل  
 والشريعة • والفقه • والتصوف • وتفسير الأحلام • وعلم العروض •  
 والفلك • والفيزياء • والسحر • والكيما • • ولا يعرف أحداً في العالم  
 استطاع التوصل إلى العاية من علم الكيما • • (٥٣) أو استخلص أي  
 نتيجة مرغوبة منه • وأما علم التنجيم • وشجب ابن خلدون التنجيم  
 لأسباب دينية وطبيعية ولأن المنجم يمكن أن يشجع أعداء الأسرة الحاكمة  
 على الثورة إذا ما ظهرت علامات التنجيم المباشرة بنجاح مثل تلك المنامة •  
 وكتب أيضاً عن تربية التلاميذ وطريقة التعليم المتبعة في المدن  
 الإسلامية • وبالرغم من أنه رأى أن العلماء هم صناع الحضارة فإنه أعلن  
 أنهم غير مؤهلين في الحل السياسي •

• ويرجع السبب في ذلك إلى تعود العلماء على التأمل الفكري  
 والدراسة المتقنة للأراء التي يستخلصونها من الدراسات الحسية •  
 ويعتبرونها كالتقاضي العامة • حتى يتمكنوا من تطبيقها على بعض الأمور  
 بصفة عامة وليس على أمر بعينه • وعلى الفرد • والجسد • والآلة • أو  
 جماعة من الناس • وستتخلف هؤلاء العلماء تلك القضايا الصلة عن  
 التأكيده على صحة الحقائق عن العالم الخارجي •

دس ثم بعد اعتداد العلماء على معالجة الأمور بالفكر والابتكار في كل  
 انشطتهم الفكرية • ولا يرمون سوى ذلك • ومن ناحية أخرى • فلا بد  
 للممارسين في السياسة من أجله الاهتمام البالغ بحقائق العالم الخارجي

(\*) ما بين حاصرتين من هذه الترجم •

والأحوال المرتبطة بالسياسة والقائمة عليها . ( وتلك الحقائق والأحوال يشوبها الغموض . . والأحوال الموجودة في الحضارة لا يمكن أبداً تقارب بعضها ببعض على الدوام . فقد يتشابه من ناحية في الوقت الذي قد تختلف فيه من نواحي أخرى . . . )

والآن لقد اعتاد العلماء على التعميم والنتائج القياسية . وعندما يكون آرائهم في الأمور السياسية . يصحسون ملاحظاتهم للنقص والتعويض ولأساليبهم في استخلاص النتائج . ومن ثم ، يقومون في كثير من الخطأ . أو على الأقل لا يمكن الاطمئنان إلى علم وقوعهم في الخطأ . . .

ولا يملك الشخص العادي صاحب العقل السليم ، والدكاء المتوسط ، النظرة العقلية التي تمكنه من التعامل أو مجرد التفكير فيه . ولذلك فهو يقتصر على قبول كل شيء كما هو ، والحكم على كل موقف وكل فرد وفقاً لظروفه الخاصة . ولا يتأثر رأيه بالقياس والتعميم . ويتوقف معظم تأمله عند الأمور التي تمر كها الحواس ولا يخرج عن نطاقها في التفكير . . .

ولذلك فمثل هذا الرجل يمكن الاعتماد عليه عندما يفكر ملياً في المجالات السياسية . إذ لديه النظرة الناقية عند التعامل مع بني جنسه . . ( ٢٥٤ )

ومن هنا قدم ابن خلدون بحثاً مستفيضاً عن علم التاريخ والصرف والأدب واختتم به كتابه المعروف باسم « المقدمة » ويمكن للمرء القول بأنه في نطاق أوسع المأني للتاريخ فحسب يستطيع العالم-المحدث أن يبرر وجود تلك الأفكار في مقبلة تاريخية .

وذكر الأسانيد للمؤرخين السابقين ، فيما يتعلق بالجنود التاريخية لكتابة التاريخ الإسلامي ، وذكر سلسلة من المصادر ، لإقامة الدليل على إسمالة ومصداقية كل ما حاول إثبات صدقه وصحته . واهتم المؤرخون الأول بذلك عن طريق التأكيد على صحة الأحاديث النبوية الشريفة ، وما قلته للمؤرخون فيما بعد لاثبات صحة الأحداث التاريخية السابقة . وعرض ابن خلدون في مقدمته تفسيراً واقعياً لسلسلة من الأسانيد التي تتعلق بقصة المهدي المنتظر ، والذي اعتقد كثير من المسلمين أنه سيظهر في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلاً وسلاماً . ( ٢٥٥ )

## التعريف

ومما لا شك فيه كانت مقابلة ابن خلدون لتيغور الأعرج أحضر  
حادثة مشيرة في حياته المليئة بالمفاجآت المنيمة ، ولا سيما أن اسم هذه  
القائد المتهول انار الذعر في قلوب حكام أوروبا وآسيا بعد أن استطاع ،  
بمرور الوقت ، إقامة واحدة من أكبر الإمبراطوريات في العالم ، وبصفة  
عامة صارت واقعه مقابلة ابن خلدون مع تيجور صالة مسلم بها عند  
الجميع ، بيد أن ظهور السيرة الذاتية لابن خلدون ( التعريف ) أكد على  
صحة هذه الواقعة وأمدنا بوصف مفصل ونابض بالحياة والحيوية عن  
هذا اللقاء غير المتوقع وغير المأدب ، وفيما يلي نعرض جزءا يسيرا التيسر  
من كتاب التعاريف ، « عندما وصلت الأتية إلى مصر يأخذ الأمير تيجور  
قد غره أسيرة الصغرى ، وحزب مبرواسه ، ثم أتجه إلى سوريا ، حشد  
السلطان فرج جيوشه ، وفتح خزينة الدولة ، وأمر الجند بالتحرك إلى  
سوريا » .

وفي ذلك الحين كنت خارج دائرة الحكم ، بيد أن يشبك ، دويدار  
السلطان استعانى ، وطلب مني الذهاب معه في الرحلة السلطانية ،  
وعندما أبدت عدم رغبتى في ذلك ، حدثنى بعزم ، برغم رقة حديثه  
وكبرم أخلاقه المندية » .

ومن ثم ذهبت معهم في صباح اليوم التالي ... ووصلنا إلى غزة ،  
واسترحنا هناك لمدة أيام انتظارا للأخبار ، ثم اتجهنا صوب دمشق  
كما كصلها قبل أن يصلها القطار ، وعسكرنا في شقيب ، ثم بدأنا المسير  
ليلا حتى وصلنا دمشق في الصباح » .

وتصيب السلطان قسطنطلة وخيلاه ولائعاته الأخرى في سهل  
قبة يلسا ، ولا ينس الأمير تيجور من عدم القدرة على الاستيلاء على  
المدينة بالقوة ، ظل لمدة تزيد على الشهر على الشبر في رابية فوق قبة يلسا ، ينظر  
الينا بكل حذر ، في الوقت الذي كنا فيه نراقب تحركاته أولا بأول ،  
واشتباك الجيشان ثلاث أو أربع مرات خلال تلك الفترة مع تعاقب  
التصارات متخلولة » .

ثم علم السلطان وكبار الأمراء الخوارج له أن بعضا من الأسرى الآخرين - يديرون مؤامرة للاستيلاء على السلطة - ويسعون الفكة للمردة سريعا إلى مصر لإعلان الثورة هناك - ومن ثم عادوا جميعا إلى القاهرة - -

وفي صباح اليوم التالي كان أحوال دمشق في حيرة من أمرهم لأن أبناء ما حدث كانت غامضة بالنسبة إليهم - وقابلني القضاة ورجال الشرطة - - واتفقوا على أن يطلب من الأمير تيمور الأمان على ديارنا وأسرا - - وذهب القاضي وشيخ الصوفي لمقابلة تيمور خارج أسوار المدينة - ووافق تيمور على منح الأمان وإرسالها لاستعداد عليّة القوم والقضاة الآخرين -

وبلغني القاضي أن تيمور استنصر عسا إذا كنت قد ذهبت مع الجيش إلى مصر أو عازلت داخل المدينة - فأجابته القاضي أني عازلت موجودا في المدرسة التي أعمل بها - وبناء على ذلك قضيت الليل في الاعتصام لمقابلة تيمور -

ثم دب نزاع بين بعض الشخصيات في المسجد الكبير - لأن بعضهم رفض الثقة فيما قيل بشأن ترتيبات الاستسلام - ووصلني خبر ذلك في وقت متأخر من الليل وخشيت من حدوث محاولة اعتداء طائفة قد تؤدي بحياتي - ولذلك استعظمت عند الفجر وذهبت إلى جبانة في القضاة الذين كانوا عند بوابة المدينة - وطلبت منهم السماح لي بالخروج من المدينة من بابها - لو الموافقة على أن أتسلك السور إلى الخارج - - وفي بداية الأمر رفضوا - ثم مسحوا لي بتسلك السور في الصباح -

وبالتقرب من بوابة المدينة وجدت بعض ماشية تيمور - - ثم أحضروا عطية وكبتها وأرسلوا معي أحد حاشية السلطان تيمور - الذي أوصلني إليه - - وعندما نطلقوا أسرى مصحوبا بلقب « القاضي المالكى المبري » - استعدتني تيمور - وعندما دخلت حيمة القبايل - وجدته متكئا على مرقفه في الوقت الذي كانت تمر فيه أطباق كبيرة مملوءة بالطعام من أسامه والذي كان يأمر بتقديمها لمجموعات المتول التي كانت جالسة في حلقته أمام خيمته -

وعند دخولي قلت : « السلام عليكم » - وأبديت مظاهر التواضع - ثم نظر إلى ومد يده وقبلتها - وأشار على بالجلوس : وجلست حيث كنت - وطلب من أحد حاشيته إحضار أحد قضاة الحنفية الكبار - - ليقيم دعوى للترجم بيتنا -

وشالين من خستق راسي في بلاد القرب وعن سبب قلوبى صني  
عقال . فاجبت . اى عادت بلدى لأداء فريضة الحج . . .

ثم سالتى . وأين ولدت ؟ فاجبت . فى أعالي القرب حيث  
كنت أعمل مسبارا للملك هناك .

فقال : ما معنى . فى أعالي . عنه وصيى للقرب ؟ ( ويبدو  
وصيى لم يرعه ) عقال . اى لست مقصدا . والى أريد من ان نكتب  
وصفا عن كل بلاد القرب - أقسامها البعيدة . والقريبة ، وعن جبالها  
وانهارها ، وبراها . وعدها - بطريقه مفصلة نعلمنى وكأى شاهدتها .

قلت . سيم ذلك صحت رعايتكم . - تم طلب من حاسه ان  
يسمروا الى خيمته بضا من الطعام يطلقون عليه . ريشستا . وكانت  
لديهم مهارة فائقة فى صنعه - واحضروا بعض الأطباق بها الطعام ، ثم  
امرحهم بوضعه أمامى . ثم تناولت الطعام الذى أعجبني مذاقه ، وبلغ به  
السرور قدرا كبيرا لذلك .

ثم وصف ابنى حلقون مجادئاته مع بيور . وعودته الى محل إقامته  
فى دمشق . وقرار تيور بمهاجرة المدينة .

ثم شدد تيور الحصار حول القلعة بكل عزم وجهده . فأقام  
الحجريات أمامها ، وقاديات النقط . وأدوات دك الأسوار . وما شابه  
ذلك من آلات الحرب وم ذلك فى غضون سبعة يوما . واشتدت ضراوة  
الحصار الى أن انهار معنى القلعة من كل الحواص . . .

وحرم بيور سكان دمشق من أرطال من الأموال التى استولى عليها  
بعت النقيب بعد أن سلبهم كل الممتلكات ، والخيول . والخيام التى  
مركها حاكم مصر حلقه - ثم ادخ بيور لجنوده بالسوط على بيوت أهالى  
دمشق ، واستولى هؤلاء الجند على كل ما فيها من أثاث ومنازل . وأضرمت  
الجند النيران فى أثاث المنازل وكل مستلزماتها وفى الأبنية وأدوات المطبخ  
التي لا قيمة لها وأضمت البيور الى حطام المنازل التى كانت تحمل عروق  
المستوفى الخشبية واستمرت النيران فى الاشتعال الى أن وصلت الى  
المسجد الكبير . وامتد اللهب حتى وصل الى سقف المسجد . وأدب ما به  
من رصاص الى أن انهار السقف والجدار . ولا ريب ان ما عمله بيور  
وجنوده كان عملا يعلى على الحسة والفكر . وإن كل من تحمل الأحوال بيد  
الله وحده - يقدر فى عبادته ما يشاء . وله الملك وحده . . .

وكان أحد اصغياتى الذى كان على معرفة بمخازن الخزائن قد نصحتنى  
بأن أقدم لتيور بعض الهدايا عتسا ذهبت اليه عبر بيور المدينة كما

ذكرت من قبل ... وعلى ذلك أخذت معي نسخة من القرآن الكريم كان  
مجهزها بأحرفا للقراءة ... وسجادة ... ونسخة من قصيدة بهج المردة  
للجوسري ... وأربع علب ملوئة بالحلوى المصرية القديمة - وكان تيمور  
جالسا في قاعة الاستقبال في قصر الأيلى عندما أحدثت معي تلك  
الهدايا -

ووقف تيمور عندما ساعدني وأشار على بالجلوس عن يميني ،  
وعندما جلست اصططف بعض قاذبه على الجانبي ، وبعد ان جلست هناك  
نقده قصيدة في الوقت وقتت امام تيمور وانتشرت الى الهيايا التي ذكرها  
والتي حملها حملي ، ثم وضعت الهدايا على الأرض ونظر تيمور اليها ،  
وفتحت القرآن الكريم ، وعندما رآه تيمور وقف على رجل ووضعت المسند  
على رأسه ثم قدمت اليه كتاب بهج المردة ، وسألني عنه وعن مؤلفه ،  
فأخبرته عن كل ما أعرفه عن ذلك الكتاب ، ثم سلمته المسجادة ،  
فأخذها وضعا ، ثم وضعت أمامه علب الحلوى ، وأخذت قطعة من الحلوى  
وسألها ، وبناء على عادة المحاملة ، وعام تيمور يتورع الحلوى على انفسه ،  
مجلسه ، وقبل كل الهدايا وعبر عن أعتانه بها -

وعندما حان موعد رحيل تيمور وقرر ان يصادر حشيق ، دعيت  
للمقابلته في أحد الأمام وبعد أن انتهيا من سادى الحديث المألوفة ، نظر  
تيمور الى وقال : « هل لديك بعل الآن ؟ » فعلت : « نعم » فقال  
« هل هو من النوع الجديد ؟ » فقلت : « نعم » فقال : « هل من الممكن أن  
يسمى لي ؟ » لاني أرغب في شرائه منك - « حاسب - » وبفك الله - ان  
شخصا حتى لا يبيع لشخص مثلك - بعد ان سألتهم لكم من باب الولاء  
والطاعة - بل وأنتم غيره اذا ما كان تحت يدي - « فقال تيمور : « لقد  
تصلت من ذلك أن أقدم لك مكافأة مقابل كرمك » ( وكان تيمور صادق  
الوعد مع نفسه وسحق لابن خلدون بالعودة سالما الى مصر )

« عهد السلطان أبو سعيد وأبو ثابت ابنا عبد الرحمن

و حفيلا أبي يحيى »

كان أسلوب ابن خلدون في « المقدمة » مشحونا بعنصري التشويق  
وإثارة الاهتمام إلى الحد الذي يحمل القاري ، عادة ما يسي الى المزج  
لم يستهدف من هذا الجهد سوى مجرد أن يكون مدخلا لتاريخه العالمي -  
ومع ذلك يستحق أحد أجزاء التاريخ العالمي ، أن يقرأ بساغة ، وهو  
الجزء الخاص بالمغرب ، في شمال أفريقيا وغرب مصر قريبا ، كما أن

ما كتبه ابي حنبلون عن حيائل البربر يعون ما ورد في لى مصدر موجود حاليا . من ناحية التفاصيل الدقيقة والرقعة المكانية . ويستطيع المرء من خلال اطلاعه على الجزء التالي المختطف من التاريخ العالمى لاي حنبلون . ان يتوصل الى معرفة نوعية الحرب المواصله التى ميرت الحياة بطابع خاص في ذلك الجزء . من افريقيا لعدة قرون . بل وحتى القرون الحالى . ويشته كل منهما القمر الفنى يضى . في كنه سماه امبراطورية عبد الرحمن . وكل منهما بمثابة نجم يتلأل شهابه ومهابه . وكل منهما بطل لا يقهر . ويسمى الناس اليهما للحصول على الأمن والأمان . فكان الأول سلا يحضى في الودء والورع . أما الثاني فكان كالكليت الذى يقص على فريسته . اذا ما دارت رحى الحرب . وكان الأول ينبرى للعدل . أما الثاني فكان بحرا في الجود والكرم . ومصدرا لجبر المملكة بعد ان كانت محرومة منه . واستطاع كل منهما معالجة مواقف صعبة يمت وكاتها مسجحة . وكرس كل منهما حصه من أجل العمل على اصلاح ما بهتم . وإعادة بناء أسوار العاصمة . واستمادة شهرة الامبراطورية .

وسيج كل منهما في جمع سبل افراد عائلتهم التى اجبرت على العيشه في المعى في اراضى عبر صحيه لا يصنع سوى لرعى لحشيه والاعنام . لقد نادوا افراد عتبرهم الى طريق المجد . وسماي كل منهما في الجهود الزامية الى تحقيق الرجا والرعايه لهذه الامبراطورية العظيمة . وفي ارساء القواعد السليمه في مجال السياسه والاداره . وعمل كل منهما بكل حرص وحد . أحدهما انتشغل في مواصلة الحرب . والآخر في تطبيق مبادئ القوى والورع . وادارة الشؤون الداخليه . أما الآخر فظل يطارد العرب الى المناطق الجبلية التى يمشون بها . وكان كل منهما مثلا يحتذى في القوة والفضيلة . وحافظ كل منهما على العلاقات الودية مع الآخر . وصحا في اغلاق باب الخلاف . وتكلمت انجازاتهما بالنجاح . وكانت لهما اليد العليا في صراعاتهما مع الأعداء . وأصلحا كرا ما تهتم . وامتصحا سياسة ادارية حكيمة . ونشرا العدل في ربوع الامبراطورية .

وبالأسف ! ان الأيام كفيلة بالقضاء على أروع الانجازات . اذا جاء اليوم الذى رفض فيه العديد أن يطلق شررا . وذلك عندما صار أحد سعب غير ماضى . الا يأتي اليوم الذى تنتهى فيه كل الشخصيات التى لا تهزم ؟ الا لحل التفتة محل السعادة ؟ ان الملك لله وحده . ملك الملوك .

واستطاع هذان الملكان الاسلاء على تلسان Tienoen في يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادى الثانية سنة ٧٤٩ هـ ( سبتمبر

١٣٤٨ م ) ، كما أشرنا سابقا . وفي صباح اليوم التالي أغلقت قبيلة  
 بني عبد الواد السلطان أبو سعيد ملكا - رحمة الله - وقتد أجبرته  
 للتصديق السياسية على القاء القبض على عثمان بن يحيى بن حرير ،  
 الذي مات في السجن في رمضان في العام نفسه ( نوفمبر - ديسمبر  
 ١٣٤٨ م ) .

واختار الماعلان أبو سعيد وأبو ثابت وورثا لهما يدعى يحيى  
 ابن داود بن علي الملقب ، واختار مسبقا لهما يدعى عبد الواحد بن محمد  
 الفواقي ، الذي طردوه من الخدمة فيما بعد . لادانته في أمور حكمه -  
 عينوا مكانه علي بن محمد بن مسعود بعد عودته من تونس . كما سرى  
 ذلك فيما بعد ، ابن شاء الله تعالى .

وللقضاء على سلطة القاضي تم تعيين الفقيه أبو العباس أحمد  
 ابن أحمد بن علي القيسي ، والمعروف باسم الوشاوش ثم أبو العباس  
 أحمد بن الحسن بن سعيد .

وبعد ذلك ، حل كل منهما شاركت السلطة ، وتلقى كل منهما  
 الباييد الرسمي ، وأصدرا الأوامر للتعيين في الوظائف . وأعلنوا الأوامر  
 المنظمة برأيه الضرائب - بيد أن الحكم كان في يد أبو سعيد الذي كان  
 يذكر اسمه مقرونا بالدعاء له في صلاة الجمعة . وكان اسمه مسعوثا على  
 العيلة . في الوقت الذي كان فيه أبو ثابت مستولا عن الشؤون العسكرية  
 والأمور الإدارية الخاصة بالأقاليم والحرب . وكان هذا النظام المذكور  
 دليلا على مشاعر الوحدة والمحبة بين الآخرين . وحلّى هذا التنظيم لإداره  
 دقة الأمور بموافقة تقيدها الأكبر الذي ظل معتكفا في نيدروما Nedroma  
 حتى يتفرغ للعبادات .

وعلى النطاق ، ( في إقليم كوما Koumeya الواقع بين تلمسان  
 ورشجون Rachgoun ) تنق إبراهيم بن عبد الملك الكومي عصا الطاعة .  
 بقصد استرداد عرش عبد المؤمن بن علي لمصلحة الشخصي . وتحسرك  
 السلطان أبو ثابت - سامحه الله ! للقضاء على الثورة . في الماشر من  
 وجب ( أكتوبر ١٣٤٨ م ) . واسطلق على وجه السرعة وأضجع كل الاقليم  
 على امتداد الساحل ( وهو إقليم ترارزا Trars حاليا ) ، حاصدا الأرواح  
 وحاميا الأسرى - واستولى على مدينة نيدروما . وهوسان Honsan وحاصر  
 وهران Oran بقواته التي كانت تحت قيادة عبد بن سعيد بن أمانا .  
 وأحكم أبو ثابت الحصار حول المدينة لعدة أيام ، غير أن بني راشد  
 ارتدوا ورددوا ابن أديانا المساعدة في الضراع ضد بني عبد الواد . ثم

شن حاكم وهران **Oran** حروبا مضادا على القوات الفشارية للمصار حول المدينة ، فاضطر ابو راشد الى التراجع - وقتل في هذا الهجوم محمد ابي يوسف بن عمار بن فارس بن ريان بن ثابت بن محمد وتعرض معسكر عائلة عبد الواد للمسلح والنهب ، غير أن السلطان أبو ثابت تمكن من النجاة ولاد بالقرار بفضل سرعة حواره .

واستعد للقيام بعملية ثانية ضد وهران . بيد أن أبناء وصول الناصر ، ابن السلطان أبو الحسن . حاكم تونس ، على رأس القبائل العربية من الموحدة ، بالإضافة الى الديلم ، والمطلف ، والحركان ، منعه من ذلك . وأرسل ملك تلمسان تحذيرا الى السلطان أبو عمار أو صرف النظر عن مشروعته لمهاجمة وهران ، واستعد للاقاء جيش أعمامه القضايمي والأقوياء الذين يقتربون من المدينة .

وفي بداية شهر المحرم ٧٥٠ هـ ( مارس - ابريل ١٣٤٩ م ) ذهب كل أفراد عائلة عبد الواد الى المغرب ، ووصلوا الى تلمسان باسم السلطان أبو عمار لكي يؤيدوا جهود ملك هذه المدينة ضد الناصر . ووجد أبو ثابت بينهم ابن أخيه ريان . ابن السلطان أبو سعيد - رحمه الله - وكان هذا الأمر قد لحا الى فارس بموافقة والده ، عند رحيل الأخير الى إفريقيا مع السلطان أبو الحسن .

ثم ذهب السلطان أبو ثابت - رحمه الله - للقاء الناصر وجيش الأعداء . ابان الفترة أيام الثانية من شهر المحرم . وبسب وصول الى الفشارية ليذكروهم بضرورة الانضمام اليه بناء على شروط المعاهدة المبرمة بينهما . بيد أنهم رفضوا الاستجابة الى طلبه .

وواصل أبو ثابت مسيره ( تجاه الشرق بالقرب من سهل حلف Chelif ) . وقابل ساعات المدو بين جانبي وادي أووك **Oruk** في أواخر ربيع الأول ( يونيو ١٣٤٩ م ) ، والحق بهم غريمة تكراء . وأطلق سراح القنصة أبو الحسن على بن مسعود الذي كان مسجوناً في ذلك الحين - ثم عاد السلطان عبد الواد الى عاصمته التي دخلها في أواخر شهر ربيع الثاني من السنة نفسها ( يوليو ١٣٤٩ م ) . وحل في أعماق قلبه القضية ضد الفشارية ، الذي رفضوا تقديم مساعدتهم ضد عدو مشترك ، وبذلك تقضوا شروط المعاهدة ( التي وُجِعت بينهم ) .

ونظرا لترايد حجم كراجه واستيائه من الفشارية . خرج أبو ثابت لمهاجمتهم في يوم الأحد في الثالث والعشرين من شوال ٧٥٠ هـ ( أول يناير ١٣٥٠ م ) . وكان اللقاء مع المدو بين جانبي وادي الرحي **Rihou** في يوم الجمعة في السافس والمشرش من ذي القعدة . وكانت المعركة

شروحة واستمر الثقال الى ان منى المغاربة يهرية تشبه وصارت جموعهم  
أثرا بعد عبي - واستجيب القلول المهزومة الى قسم الحبال وإلى سموح  
الوديان - واعتبرت مذبحة مارونا *Mazouna* بسيادة السلطان أبو سعيد.

وفي أوائل سنة ٧٥١ هـ ( ١٢٥٠ - ١٢٥١ م ) تلقى السلطان  
أبو تاجت أبه فقوم السلطان أبو الحسن إلى الجزائر ومساندة الشيخ  
وغيرهم - تم عقد ملك تلمسين - رحمه الله - معاهدة سلام مع المغاربة  
واستعد لمحاربة حشود العدو الجديد - وبعد ان عبر حصصه المتداس  
*Minors* توقف عند المديرة *El-Moudairien* في ميسمو *Serson*  
في أوائل ربيع الاول ( مايو - ١٢٥٠ م ) ، وأحضر الشيخ وبرمار عارف  
والقوات التي سمحت بميادته على الهروب من أمامه - وظل السلطان ثابت  
هناك عندما انضم إليه يحيى بن راجون *Rahoun* ( بن تشقين  
ابن معاطي ) على رأس جماعة من الجند الذين أرسلهم السلطان أبو عنان  
لمساعدته - ثم اتجه شرقا - متجها حصومه - وتوقف أمام ميديا *Medes*  
التي احتلها - وهاجم المناطق المحلية التي تحصن بها الأعداء وحسم  
المرحاني ثم فرض سيطرته على أراضي حمرة ، وأنضغ الأقسام تحتكم ،  
وقضى على البورات ، وحطم الحصون ، وسلك طريق الغرب للعودة إلى  
عاصمته - ووصل إلى المكان المعروف باسم الأشير *El-Achbour* وهناك  
قابل عيسى بن يعقوب بن عبد الحاج الذي كان قد أرسله السلطان  
أبو عنان لرأس الجند - ومن هناك أسرع السلطان في العودة إلى عاصمته  
في السادس من رجب من السنة نفسها ( ٧٥١ هـ ) الموافق الماشر من  
سبتمبر ١٢٥٠ م .

وبعد ذلك بوقت قليل وصلته الأخبار بأن الماصر بن السلطان  
أبو الحسن - قد قتل عمران بن موسى الجني - وأمسوى على ميديا  
*Medes* ميليانا *Milyana* وتيموروت *Timourat* وأن السلطان  
أما الحسن يسر نجاه الغرب على رأس عدد كبير من المحاربين صدمه  
من بين الديلم وغيرهم - ثم علم بعد ذلك أن على من دشمة قد هرب مع  
قبيلته إلى بلاد عبد الوود .

وعاد السلطان أبو تاجت تلمسين وهو في حالة من التضاعف تفوق  
الوصف ، وعلى الرغم من أنه كان يفكر في النتائج المخيبة للمعركة ،  
فإنه لم يفكر في الهروب على الإطلاق - إذ كان في منتهى التضاعة كاتمل  
التسامح ، وكان يتخفق حملا - تأثرت به قواته ، وبغضب وطننة  
تلميع بها جنوده ، عند تقصمهم - وأمسوى على تاحسه أو نصف

**Taghlt-ou-Nrît** حيث انضم اليه علي بن رشيد وقبيلته - وبعد أن سادل الماعلان النحية وهما على ظهور الجبل - ساحا مالتصصيل في الطريقه التي يحتاجون بها العدو - وألقى السلطان أبو ثابت المسئولة على السلطان أبو الحسني ، عندما هاجم على من رشيد بن أبو الحسني ومن معه - وفي يوم الأربعاء ، في المأثر من شبان ( ١٤ أكتوبر ١٢٥٠ م ) ، دارت الحركة في مكان يدعى بريري **Tizirin** في المنطقة المجاورة لخنيف **Chelir** وكان القتال شرسا على كل الجبهات ، وشيخه ثم الولدان - ومنى المغرب وقبيلته بهزيمة نكراء ، وأحرر السلطان أبو ثابت صرا مباشرا على أعدائه .

وكان أبو الحسني وجيشه قد تعرض لهزيمة متكررة عند قدوم الليل - ولقي عدد كبير من مواته حتفهم . كان من بينهم ابنه الناصر ، ومحمّد ابن علي بن العربي ، قائد جيشه ، وبركات بن حوصي بن البواق ، رئيس الشرطة ، وعلي بن القلي ، مستشاره الخاص وكاتب العلامة ، وامسوي المستروين علي نروان ، ابن الحسني ، وأمتخته ، ورجاله ، وسانه . والواقع أن العالم يحمر ، وأن الحرب ملته المصادفات ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله !

ومبار أبو الحسن مدينا بعيانه لمرعه جواده - إذ حرب وإبرام **Wanzamar** من عازف بالمغرب من أراضي قبيلة السوايد ، ومن حبات ذهب السلطان المهروم تحاه الغرب ، وعبر الصحراء ، معتزلا من ملكه السابق في المغرب . ثم عاد السلطان أبو ثابت - رحمه الله - إلى عيسنه التي غطتها أكاليل العار ، وعنه غنائم نفيسة ولا مثيل لها ثم دخل تامسان في أول شوال من العام نفسه . ( أكتوبر ١٢٥٠ م ) .





- Procopius. H. B. Dewing. Trans., 7 vols. (Cambridge, Mass. Harvard University Press, 1914-1940), vol. II, p. 21. Hereafter, volumes I-IV will be cited as *Wars*, vol. VI as *Secret History*, and volume VIII as *Buildings*..... ١
- Alfred Bel, ed. and trans., *Histoire Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Tlemcen Jusqu' au Regne D'Abou El'Ammon Moussa II* par Abou Zakarya Yah'ia Ibn Khaldoun. (Algiers P. Fontana, 1963), p. 211. ٢
- Sir John Froissart's *Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries*, 5 vols., Thomas Johnes, trans. (London The Haford Press, 1803-10), vol. I, p. 517. ٣
- Chronique De Abou-Djafar-Mohammed-Ben-Hjariydon* Yacidi Tabari, Hermann Zotenberg, trans. (Paris : Imprimerie Imperiale, 1963), vol. I, p. 9. ٤
- Bel, *Histoire Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Tlemcen*, p. 213. ٥
- Procopius, vol. IV, p. 221. ٦

Matthew Paris, <i>Matthew Paris's English History</i> , J. A. Giles, trans. (London : H. G. Bohn, 1854), vol. III, p. 115.	— ٧
Paris, Mathew Paris's <i>English History</i> , vol. I, p. 487	— ٨

### الفصل الأول :

<i>Secret History</i> , pp. 87, 98.	— ١
Wars, vol. IV, pp. 71-72.	— ٢
<i>Buildings</i> , p. 3.	— ٣
J. A. S. Evans, <i>Procopius</i> (New York, Twayne, Publishers 1972), p. 78.	— ٤
<i>Buildings</i> pp. 25, 27 29.	— ٥
Wars, vol I, pp. 3, 5.	— ٦
Wars, vol. II, p. 95.	— ٧
Wars, vol. I, p. 3.	— ٨
Wars, vol. I, p. 5.	— ٩
<i>Buildings</i> p. 3.	— ١٠
<i>Secret History</i> , p. 2.	— ١١
<i>Secret History</i> , pp. 5, 7.	— ١٢

### ١٣ - المصادر

<i>Buildings</i> , pp. 29, 31.	— ١٤
Wars, vol. II, p. 43.	— ١٥
Wars, vol. IV p. 191.	— ١٦
Wars, vol II, pp. 3, 5.	— ١٧
<i>Secret History</i> , p. 5.	— ١٨
H. B. Dewing, <i>Secret History</i> , p. ix.	— ١٩
<i>Secret History</i> , p. 106.	— ٢٠
<i>Secret History</i> , p. 149, 151.	— ٢١

<i>Secret History</i> , pp. 97, 98, 101.	— ٢٢
So writes (I. A. Williamson, <i>Procopius, The Secret History</i> (Baltimore: Penguin Books, 1966), p. 28.	— ٢٣
<i>Wars</i> , vol. III, pp. 41, 43.	— ٢٤
<i>Secret History</i> , pp. 180, 181.	— ٢٥
See <i>Wars</i> vol. I, p. 291.	— ٢٦
<i>Secret History</i> , pp. 75, 77.	— ٢٧
<i>Wars</i> , vol. IV, p. 419.	— ٢٨
<i>Secret History</i> , p. 188.	— ٢٩
From the Greek word for goat.	— ٣٠
<i>Wars</i> , vol. IV, pp. 11, 13, 15.	— ٣١
<i>Wars</i> , vol. III, p. 317, 319.	— ٣٢
<i>Wars</i> , vol. III pp. 317-319.	— ٣٣
<i>Wars</i> , vol. I, p. 3.	— ٣٤
<i>Secret History</i> , pp. 21, 23.	— ٣٥
<i>Wars</i> vol. II, pp. 85, 97.	— ٣٦
<i>Wars</i> , vol. III, pp. 80, 91.	— ٣٦
<i>Wars</i> , vol. I, p. 223.	— ٣٧
<i>Wars</i> , vol. III pp. 253 266 267	— ٣٨
<i>Wars</i> vol. III, pp. 2/1, 203, 205 207	— ٣٩
<i>Wars</i> vol. I, pp. 109, III, 113.	— ٤٠
<i>Wars</i> , vol. LI, p. 21.	— ٤١
٤٢ - ضابط في جيش ترميس.	
<i>Wars</i> , vol. V, p. 397.	— ٤٣
<i>Wars</i> , vol. V, pp. 385, 387	— ٤٤
<i>Wars</i> , vol. I, 453.	— ٤٥
<i>Wars</i> , vol. I, p. 341.	— ٤٦
<i>Wars</i> , vol. I, p. 343.	— ٤٧

Warr, vol. II, p. 125.	— ٤٨
Warr, vol. I, p. 287.	— ٤٩
Warr, vol. IV, p. 405.	— ٥٠
قع على الساحل بين روما و نابولي	٥١ —
Warr, vol. III, p. 106.	— ٥٢
Warr, vol. V, p. 61.	— ٥٣
Warr, vol. I, pp. 51, 53.	— ٥٤
Buildings, p. 69.	— ٥٥
رأى حلقه بطرس أنهم قد ورثو مكانته المرموقة نظرا لأن وهو أول حواري المسيح كان أول أسقف لروما .	٥٦ —
Warr, vol. III, p. 25.	— ٥٨
Warr, vol. III, p. 221.	— ٥٩

## الفصل الثاني

S. J. Crawford, <i>Anglo-Saxon Influence on Western Christianity, 600-800</i> (New York: Barnes and Noble, 1996), p. 103.	١ —
<i>Bede's Ecclesiastical History of the English People</i> , Bertram Colgrave and R.A.B. Mynors (Oxford: Clarendon Press, 1969), p. xxiii.	٢ —
<i>Bede's History</i> , p. 587 (v. 24) The v. indicates the twenty fourth chapter of the fifth book.	٣ —
See Bede's <i>History</i> , p. 595.	٤ —
اعتقد البعض أن إشارة فيرجيل الشاعرة اللاتينية الأشهر في المصور الوسطى لولده طفل يستهل عصرها دعيا إشارة إلى ظهور المسيح .	٥ —
He was "authoritatively recognised as saint" only in 1886.	٦ —
See Butler's <i>Lives of the Saints</i> , ed. Herbert Thurston and Donald Attwater (New York: Kenedy, 1956), Vol. II, p. 404.	

Charles W. Jones *Bede's Pseudepigrapha: Scientific Writings Falsely Attributed to Bede* (Ithaca: Cornell University Press, 1939), p. 1. - ٧

Bede's *History*, p. xix. - ٨

Bede's "System of dating by the year of grace ... is his main contribution to historical writing."

٩ - بعد أربع سنوات وسنة أشهر من تولد يوليوس قيصر الحكم تاجر على حياته بحر ستي بيلا من أعضاء مجلس الشيوخ وطفة الفرنسي لأنه آمن في الصلح والفرد .

*Monumenta Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi*, ed. Theodor Mommsen (Berlin - Hildebrand, 1961), vol. XIII, p. 280.

Crawford, *Anglo-Saxon Influence*, p. 103. - ١٠

*Bede's History*, p. 3, Preface. - ١١

*Ibid.* - ١٢

*Ibid.*, pp. 3, 5, 7, Preface. - ١٣

*Ibid.* p. 7, preface. - ١٤

*Ibid.* - ١٥

*Ibid.*, pp. 133, 135 (l. 1). - ١٦

١٧ - كانت حارر تقع على صد أعمال قليلة شرق سور عدويان .

١٨ - أحد الأقاليم الفرنسية التي هاجر إليها البريون بأعداد كبيرة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

*Bede's History*, pp. 15, 17 (l. 1). - ١٩

20. *Ibid.*, pp. 19, 21 (l. 17). - ٢٠

٢١ - شن يوليوس قيصر حملتين في عامي ٥٥ و ٥٤ ق.م .

*Bede's History*, pp. 21, 23 (l. 2). - ٢٢

*Ibid.*, pp. 29, 31, 33 (l. 7). - ٢٣

*Ibid.*, p. 39 (l. 10). - ٢٤

*Ibid.*, p. 45 (l. 12). - ٢٥

*Ibid.*, pp. 55, 57 (l. 17). - ٢٦

*Ibid.*, pp. 63, 65 (l. 20). - ٢٧

*Ibid.*, p. 69 (l. 22). - ٢٨

*Ibid.*, p. 107 (l. 30). - ٢٩

<i>Ibid.</i> , pp. 77, 79 (i. 28).	- ٢٠
<i>Ibid.</i> , pp. 127, 129 (ii. 1).	- ٢١
<i>Ibid.</i> , p. 165 (ii. 9)	- ٢٢
33. <i>Ibid.</i> , p. 183 (ii. 13).	- ٢٣
34. <i>Ibid.</i> , p. 183 (ii. 13).	- ٢٤
36. <i>Ibid.</i> , p. 185 (ii. 13).	- ٢٥
<i>Ibid.</i> , pp. 185, 187 (ii. 13).	- ٢٦
37. <i>Ibid.</i> , p. 215 (ii. 1).	- ٢٧
<i>See Venerabilis Baedae Historiam Ecclesiasticam Gentis Anglorum ... Recognovit ... Innotuit Carolus Plummer</i> (Oxford · Clarendon Press, 1961), pp. lxi-lxv.	- ٢٨
<i>Bede's History</i> , pp. 243, 245 (iii. 9).	- ٢٩
٤ - دعى الملك أوزلد أيدان للتشيع بالمسيحية .	
<i>Bede's History</i> , pp. ٢٤٨, ٢٤٩, 261 (iii. 14)	- ٤١
<i>Ibid.</i> , pp. 265, 267 (iii. 17).	- ٤٢
<i>Ibid.</i> , pp. 299, 301 (iii. 25)	- ٤٣
<i>Ibid.</i> , p. 301 (iii. 25).	- ٤٤
<i>Ibid.</i> , pp. 307, 309 (iii. 25).	- ٤٥
<i>Ibid.</i> , p. 309 (iii. 26).	- ٤٦
<i>Ibid.</i> , pp. 333, 335 (iv. 2).	- ٤٧
<i>Ibid.</i> , p. 189 (iv. 18).	- ٤٨
<i>Ibid.</i> , p. 415 (iv. 34).	- ٤٩
<i>Ibid.</i> , p. 417 (iv. 34)	- ٥٠
<i>Ibid.</i> , p. 419 (iv. 34)	- ٥١
<i>Ibid.</i> , p. 513 (v. 17).	- ٥٢
<i>Ibid.</i> , p. 515 (v. 18).	- ٥٣
<i>Ibid.</i> , p. 557 (v. 23).	- ٥٤
<i>Bede's History</i> , p. 571 (v. 34).	- ٥٥

## الفصل الثالث

- Muhsin Mahdi, *Ibn Khaldun's Philosophy of History* (Chicago University of Chicago Press, 1964), p. 125. — ١
- أقوال وأعمال أبي سلفية — ٢
- Selections from the Annals of Tabari*, ed. M. J. De Goeje — ٣  
Leiden E. J. Brill, 1902), p. ix
- D. S. Margolouth, *Lectures on Arabic Historians* — ٤  
(Calcutta University of Calcutta, 1930), p. 110.
- A. J. Butler, *The Treaty of Mir in Tabari* (Oxford, Clarendon Press, 1931, pp. 8-11. — ٥
- Mahdi, *Khaldun's Philosophy*, p. 138. — ٦
- See The Reign of Al-Mutawakkil*, trans. Eliaz Martin (New Haven American Oriental Society, 1951), p. xvi. — ٧
- From Ibn Khaldun's *Ta'rif* See Walter J. Fischel *Ibn Khaldun and Tomarion* (Berkeley University of California Press, 1953), pp. 27. — ٨
- Chronique de Abou-Hjafar-Mohammed Ben-Djarirben* — ٩  
*Yusuf Tabari*, trans. Hermann Zotenberg (Paris Imprimerie Impériale, 1888) vol. I, pp. 9-11. Translation by author.
- Geschichte Der Perser Und Araber Zur Zeit Der Sassaniden* — ١٠  
Aus Der Arabischen Chronik Des Tabari, trans. Th. Noldeke (Leyden E. J. Brill, 1879), pp. 151-72, 239-53, 386-99. English translation by the author.
- E. W. Brooks, *English Historical Review* (London, 1900). — ١١  
vol. XV, pp. 736-47.
- As quoted in *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire* by Edward Gibbon (Philadelphia, John D. Morris & Co., 1845), vol. V, pp. 446-47. — ١٢
- Ibid.*, p. 447. — ١٣

## فصل الرابع

<i>The Deeds of Frederick Barbarossa by Otto of Freising.</i> trans. C. C. Mierow (New York : Columbia University Press, 1963), p. 5. Hereafter, this work will be cited as <i>Deeds</i> .	- ١
<i>Ibid.</i> , p. 79.	- ٢
<i>Ibid.</i> , pp. 246-47.	- ٤
The edition used in this study is that translated by C. C. Mierow, entitled <i>The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1148 A.D.</i> by Otto, Bishop of Freising (New York : Columbia University Press, 1928). Hereafter, this volume will be cited as <i>Two Cities</i> .	- ٤
<i>Deed</i> , p. 29.	- ٥
<i>Two Cities</i> , p. 205.	- ٦
<i>Ibid.</i> , p. 172.	- ٧
<i>Ibid.</i> , pp. 83-84.	- ٨
<i>Ibid.</i> , p. 95.	- ٩
<i>Ibid.</i> , p. 191.	- ١٠
<i>Deeds</i> , p. 24.	- ١١
<i>Two Cities</i> , pp. 87-88.	- ١٢
<i>Ibid.</i> , pp. 84-88.	- ١٣
<i>Ibid.</i> , p. 89 .	- ١٤
<i>Ibid.</i> , p. 93.	- ١٥
<i>Ibid.</i> , pp. 96-98	- ١٦
<i>Ibid.</i> p. 187.	- ١٧
<i>Ibid.</i> , p. 188.	- ١٨
<i>Deeds</i> , p. 169.	- ١٩
<i>Two Cities</i> , p. 417.	- ٢٠
<i>Ibid.</i> p. 394.	- ٢١

<i>Deeds</i> , p. 101.	- ٢٢
<i>Two Cities</i> , pp. 279-80.	- ٢٣
٢٤ - وصفه اوتو غير دقيق .	
٢٥ - يشير ثوتو دائما الى الالكب باعتباره البراس .	
٢٦ - ينقسم من كتابة اوتو تحيرا للكنيسة حيث حور اسم علو ايايا من كلمت الى « كمت » التي تعني « متوه » .	
<i>Deeds</i> , pp. 28-30.	- ٢٧
<i>Two Cities</i> , pp. 90-91.	- ٢٨
<i>Deeds</i> , p. 51 and note 39.	- ٢٩
<i>Two Cities</i> , p. 90.	- ٣٠
<i>Ibid.</i> , pp. 443-44.	- ٣١
<i>Ibid.</i> , pp. 411-12.	- ٣٢
<i>Ibid.</i> , p. 378.	- ٣٣
<i>Deeds</i> , pp. 124-25.	- ٣٤
<i>Two Cities</i> , p. 392.	- ٣٥
<i>Ibid.</i> , p. 393.	- ٣٦
<i>Ibid.</i> , pp. 240-41.	- ٣٧
<i>Deeds</i> , pp. 120-22.	- ٣٨
<i>Two Cities</i> , p. 425.	- ٣٩
<i>Ibid.</i> , pp. 428-29.	- ٤٠
<i>Ibid.</i> , pp. 120-22.	- ٤١
<i>Ibid.</i> , pp. 167-28.	- ٤٢
<i>Ibid.</i> , p. 91.	- ٤٣
<i>Ibid.</i> , p. 93.	- ٤٤
<i>Ibid.</i> , pp. 323-24.	- ٤٥
<i>Ibid.</i> , p. 462.	- ٤٦
<i>Ibid.</i> , p. 462.	- ٤٧

<i>Ibid.</i> , pp. 473-79.	- 24
<i>Ibid.</i> , p. 514.	- 27
<i>Ibid.</i> , p. 141.	- 28
<i>Ibid.</i> , p. 198.	- 31
<i>Ibid.</i> , pp. 271-82.	- 35
<i>Deeds</i> , pp. 80-81.	- 37
<i>Two Cities</i> , p. 428.	- 38
<i>Ibid.</i> , p. 349.	- 40
<i>Ibid.</i> , pp. 155-57.	- 43
<i>Ibid.</i> , p. 186.	- 46
<i>Deeds</i> , pp. 142-43.	- 48
	- 49
<i>Two Cities</i> , pp. 272-73.	- 51
<i>Ibid.</i> , p. 274.	- 51
<i>Ibid.</i> , p. 274.	- 52
<i>Ibid.</i> , p. 93.	- 55
<i>Two Cities</i> , pp. 183-94.	- 58
<i>Deeds</i> , pp. 67-70.	- 60
<i>Two Cities</i> , pp. 217.	- 63
<i>Deeds</i> , pp. 115-22.	- 66
<i>Ibid.</i> , p. 79.	- 68
<i>Ibid.</i> , p. I 43.	- 69
<i>Ibid.</i> , p. 83.	- 70

See Richard Vaughan, <i>Matthew Paris</i> (Cambridge : University Press, 1953), p. 5.	- 3
See Vaughan, 1953, Paris, p. 7 and plate I. see also <i>Matthew Paris</i> , p. 7 and plate I ; see also <i>Matthaei Parisiensis, Monachi Albani Chronica Majora</i> , ed. Henry Richards Luard (London : Longman and Co., 1880). vol. V. p. 748 and note.	- 5
<i>Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle Ages</i> (London : Public Record Office, 1858-1896)	- 5
<i>Chronica Majora</i> , vol. III, p. 199.	- 1
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 184.	- 2
<i>Matthaei Parisiensis, Monachi Sancti Albani, Historia Anglorum</i> , ed. Frederick Madden (London : Longman, Green, Reader and Dyer, 1869), vol. III pp. 51-52, and and note 3. See also Vaughan, <i>Matthew Paris</i> , pp. 121-22.	- 7
<i>Ibid.</i>	- 8
<i>Matthew Paris's English History from J. A. Giles</i> (London : H.G. Bohn, 1954), vol III, p. 220.	- 8
<i>Chronica Majora</i> , vol. IV. pp. 644-45.	- 9
<i>Matthew Paris's English History</i> , vol. II, p. 415.	- 10
<i>Chronica Majora</i> , vol. II, p. 486.	- 11
<i>Matthew Paris's English History</i> , vol. II, p. 602.	- 12
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 231.	- 13
<i>Ibid.</i> , vol. II, p. 242.	- 14
<i>Ibid.</i> , pp. 482-83.	- 15
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 384.	- 16
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 261.	- 17

Ibid., vol. I, p. 312.	- ١٨
Ibid., pp. 262-72.	- ١٩
Ibid., vol. III, pp. 262-67.	- ٢٥
Ibid., vol. I, p. 32.	- ٢١
Ibid., vol. I, pp. 38-39.	- ٢٢
Ibid., p. 332.	- ٢٣
Ibid., pp. 277-78.	- ٢٤
Ibid., vol. II, pp. 196-97.	- ٢٥
Ibid., p. 422.	- ٢٦
Ibid., p. 347.	- ٢٧
Ibid., vol. I, pp. 67-68.	- ٢٨
Ibid., vol. I, pp. 165-66.	- ٢٩
Ibid., vol. III, pp. 135-18.	- ٣٠
يشكك متى في صحة رقم الاميراطور	- ٣١
Matthew Paris's English History, vol. I, pp. 22-25.	- ٣٢
Ibid., pp. 127-32.	- ٣٣
Ibid., vol. II, p. 22.	- ٣٤
Ibid., p. 54.	- ٣٥
Ibid., vol. I, p. 47.	- ٣٦
Ibid., pp. 225-32.	- ٣٧
كان بوليفس يدين بانتخاؤه الى تاتير الملك هنرى .	- ٣٨
Matthew Paris's English History, vol. I, p. 220.	- ٣٩
Ibid., vol. III, p. 305.	- ٤٠
حرم الجميع من اجتماعه الرابع ١٢١٥ انشاء نظم جديدة .	- ٤١
Mathew Paris's English History, vol. II, p. 25.	- ٤٢
الرحبان الفرنسيون سكان والدموليكان .	- ٤٣

<i>Matthew Paris's English History</i> vol. I, pp. 475-78.	- 11
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 140.	- 10
<i>Ibid.</i> , pp. 183-84.	- 17
<i>Ibid.</i> , p. 78.	- 19
See <i>ibid.</i> , vol. I, pp. 314-15; also <i>ibid.</i> , pp. 15-30.	- 1A
<i>Ibid.</i> , vol. II, p. 279.	- 19
<i>Ibid.</i> , pp. 401-2.	- 2-
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 333.	- 21
<i>Ibid.</i> , p. 193.	- 22
<i>Ibid.</i> , p. 451.	- 24
<i>Ibid.</i> vol. II, p. 251.	- 28
<i>Ibid.</i> , vol. III, pp. 312-13 see also pp. 285 and 283.	- 20
<i>Ibid.</i> , p. 118.	- 27
<i>Ibid.</i>	- 29
<i>Ibid.</i> , vol. II, p. 42.	- 2A
<i>Ibid.</i> , p. 405.	- 25
<i>Ibid.</i> , pp. 406-10.	- 3-
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 1.	- 31
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 481.	- 32
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 287.	- 32
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 461.	- 34
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 193.	- 30
<i>Ibid.</i> , vol. II, p. 410.	- 37
<i>Matthew Paris's English History</i> , vol. III, p. 244.	- 39
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 100.	- 3A

The edition of Froissart's chronicles used in this study in <i>Sir John Froissart's Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries</i> , (trans. Thomas Johnes, 5 vols., London: The Haford Press, 1803-1801). Hereafter cited as <i>Chronicles</i> .....	- 1
Charles Dunn, "Introduction" in <i>The Chronicles of England, France Spain</i> by Sir John Froissart (New York: Dutton, 1961, p. p. ١-١٠٠)	- ٧
<i>Chronicles</i> , vol. I, p. 2	- ٢
<i>Ibid.</i> , vol. IV, p. 13.	- 1
<i>Ibid.</i> , p. 300.	- ٥
<i>Ibid.</i> , p. 426.	- ٦
<i>Ibid.</i> , p. 409.	- ٧
<i>Ibid.</i> , p. 388.	- ٨
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 73.	- ٩
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 1.	- ١٠
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 414.	- ١١
<i>Ibid.</i> , p. 475.	- ١٢
<i>Ibid.</i> , p. 475.	- ١٣
<i>Ibid.</i> , p. 642.	- ١٤
<i>Ibid.</i> , p. 414. For a study in support of Froissart's reli- ability, see Leonard Manyon, "An Examination of the His- torical Reliability of Froissart's Account of the Campaign and Battle of Crecy," <i>Papers of the Michigan Academy of Science, Arts and Letters</i> , VII (1927), pp. 207-24.	- ١٥
<i>Chronicles</i> , vol. II, p. 649.	- ١٦
<i>Ibid.</i> , vol. IV, p. 13.	- ١٧
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 503.	- ١٨

<i>Ibid.</i> , p. 200.	- 44
<i>Ibid.</i> , p. 18.	- 45
<i>Ibid.</i> , vol. IV, p. 4.	- 46
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 31.	- 47
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 525.	- 48
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 322.	- 49
<i>Ibid.</i> , p. 512.	- 50
<i>Ibid.</i> , vol. II, p. 351.	- 51
<i>Ibid.</i> , p. 308.	- 52
<i>Ibid.</i> , vol. III, pp. 364-65.	- 53
<i>Ibid.</i> , vol. IV, p. 203.	- 54
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 452.	- 55
<i>Ibid.</i> , vol. IV, pp. 12-13.	- 56
<i>Ibid.</i> , p. 330.	- 57
<i>Ibid.</i> , p. 73.	- 58
<i>Ibid.</i> , p. 69.	- 59
<i>Ibid.</i> , vol. II, p. 409.	- 60
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 353.	- 61
<i>Ibid.</i> , vol. I, p. 512.	- 62
<i>The Chronicles of Froissart</i> , trans. John Bourchier, Lord Bernes (London: D. Nutt, 1903), p. v.	- 63
<i>Chronicles</i> , vol. II, pp. 468-69.	- 64
<i>Ibid.</i> , p. 61.	- 65
<i>Ibid.</i> , pp. 65-67.	- 66
<i>Ibid.</i> , vol. I, 306-10.	- 67
<i>Ibid.</i> , pp. 199-201.	- 68
<i>Ibid.</i> , pp. 226-27.	- 69

Ibid., vol. III, p. 643.	٢٠٠
Ibid., vol. II, p. 683.	٢٠١
Ibid., vol. I, pp. 49-51.	٢٠٢
Ibid., pp. 143-44.	٢٠٣
Ibid., pp. 448-49.	٢٠٤
Ibid., pp. 791-82.	٢٠٥
Ibid., vol. II, pp. 247-48.	٢٠٦
Ibid., pp. 332-35.	٢٠٧
Ibid., vol. IV, pp. 229-43.	٢٠٨
Ibid., vol. I, pp. 549-50.	٢٠٩
Ibid., pp. 31-32.	٢١٠
Ibid., pp. 323-25.	٢١١
Ibid., p. 440.	٢١٢
Ibid., pp. 269-74.	٢١٣
Ibid., pp. 647-51.	٢١٤
Ibid., vol. III, pp. 286-87.	٢١٥
Ibid., vol. I, pp. 753-54.	٢١٦

### المجلد السابع

Arnold Toynbee, <i>The Study of History</i> (Oxford : Oxford University Press 1934), vol. III, p. 322.	٢١٧
<i>Ibn Khaldun : The Muqaddimah ; An Introduction to His- tory</i> , trans. Franz Rosenthal (New York : Pantheon Books, 1958), vol. 1, p. xliii. Hereafter cited as <i>Ibn Khaldun</i> .	٢١٨
See Walter J. Fischel, <i>Ibn Khaldun and Fama ar-Ras</i> (Ber- keley : University of California Press 1962, p. 69, n. 48, Timur the Lame is also known as Tamberlane.	٢١٩
<i>Ibn Khaldun</i> , vol. I, p. lxxix.	٢٢٠
عن تناول ابن خلدون لليهود في تاريخه انظر :	٢٢١
Walter J. Fischel, <i>Ibn Khaldun in Egypt</i> (Ber- keley : University of California Press, 1967, pp. 152-55.	٢٢٢

See Muhsin Mahdi, <i>Ibn Khaldun's Philosophy of History</i>	- 1
(Chicago : University of Chicago Press, 1957, chaps. 2 and 3. See also M. M. Sharif, ed. <i>A History of Muslim Philosophy</i> (Wiesbaden : Harrassowitz, 1966, vol. II, Political Thought, chap. 49.	
See <i>Ibn Khaldun</i> , vol. I, p. lxxvii.	- 7
<i>Ibn Khaldun</i> , vol. I, p. 3.	- 8
<i>Ibid.</i> , p. 6.	- 9
<i>Ibid.</i> , p. 6.	- 9
<i>Ibid.</i> , p. 14.	- 12
<i>Ibid.</i> , p. 15.	- 14
<i>Ibid.</i> , pp. 16-17.	- 15
<i>Ibid.</i> , p. 20.	- 18
<i>Ibid.</i> , p. 40.	- 20
<i>Ibid.</i> , pp. 53-55.	- 23
<i>Ibid.</i> , p. 11.	- 24
يرى أن كتاب لوسطو عز حنا الموضعو يفتريه النفس	- 24
<i>Ibn Khaldun</i> , vol. I, p. 14.	- 25
<i>Ibid.</i> , p. 89.	- 27
<i>Ibid.</i> , p. 92.	- 28
<i>Ibid.</i> , p. 94.	- 29
<i>Ibid.</i> , p. 103.	- 30
<i>Ibid.</i> , p. 97.	- 31
<i>Ibid.</i> , pp. 105-106.	- 32
<i>Ibid.</i> , p. 214.	- 33
<i>Ibid.</i> , pp. 219-220.	- 34
<i>Ibid.</i> , p. 254.	- 38
<i>Ibid.</i> , p. 260.	- 39

<i>Ibid.</i> , p. 263.	— 7-
<i>Ibid.</i> , p. 265.	— 74)
<i>Ibid.</i> , p. 273.	— 75
<i>Ibid.</i> , pp. 279-80.	— 77
<i>Ibid.</i> , p. 278.	— 81
<i>Ibid.</i> , pp. 302-3.	— 70
<i>Ibid.</i> , pp. 306-8.	— 71
<i>Ibid.</i> , p. 311.	— 74
<i>Ibid.</i> , p. 478.	— 48
<i>Ibid.</i> , p. 381.	— 73
<i>Ibid.</i> , vol. II, p. 3.	— 1-
<i>Ibid.</i> , p. 47.	— 31
<i>Ibid.</i> , pp. 85-86.	— 17
<i>Ibid.</i> , p. 90.	— 17
<i>Ibid.</i> , p. 91.	— 12
<i>Ibid.</i> , p. 236.	— 10
<i>Ibid.</i> , p. 317.	— 17
<i>Ibid.</i> , p. 338.	— 14
<i>Ibid.</i> , p. 338.	— 24
<i>Ibid.</i> , p. 365.	— 13
<i>Ibid.</i> , p. 372.	— 21
<i>Ibid.</i> , p. 377.	— 21
<i>Ibid.</i> , p. 386.	— 44
<i>Ibid.</i> , vol. III, p. 271.	— 45
<i>Ibid.</i> , pp. 308-10.	— 62
<i>Ibid.</i> , vol II, pp. 187-62.	— 22

*Ibn Khaldūn and Tamerlane : Their Historic Meeting in Damascus, 1401 A.D., (309 A.H.) . A study based on Arabic manuscripts of Ibn Khaldūn's Autobiography with a translation into English and a commentary by Walter 1952), pp. 29-42.* \_ 27

*Histoire Des Beni 'Abd El-Wad Koif De Tlemcen Jusqu'au Regne D'Abou H'Awmon Hous II par Abou Zakarya Yah'ia Ibn Khadioun. Ed. and tr. Alfred Bel (Algiers : p. Fontana Publishers, 1903-, pp. 199-203. English translation by the author.* \_ 28



## مراجع وبعوث مختارة

- Anderson, Gilman, and William Anderson, eds. *The Chronicles of Jean Froissart, Carbondale*. Southern Illinois University Press, 1906.
- An Arab Philosophy of History : Selection from the Prolegomena of Ibn Khaldun of Tunis. Translated by Charles Issawi. London : John Murray, 1950.
- Archambault, Paul. *Seven French Chroniclers*. Syracuse : Syracuse University Press, 1974.
- Barnes, Harry Einar. *A History of Historical Writing*, 2d. rev. ed. New York : Dover, 1962.
- Blair, Peter. *The World of Bede*. New York : St. Martin's Press, 1971.
- Bouher, Gerald. *Parables Christi : Essays in Commemoration of the Thirtieth Centenary of the Birth of the Venerable Bede*. London : S.P.C.K. 1967.
- Brown, G. F. *The Venerable Bede, His Life and Writings*. New York : Macmillan, 1930.
- Butler, A. J. *The Treaty of Meers in Tabari*. Oxford : Clarendon Press, 1913.
- Colgrave, Bertram, and R.A.B. Mynors, eds. *Bede's Ecclesiastical History of English People*. Oxford : Clarendon Press, 1969.

- Coulton, G. G. *The Chronicle of European Chaucry*. London : The Studio. Ltd., 1930.
- Crawford, S. J. *Anglo-Saxon Influence on Western Christendom, 600-800*. New York : Barnes and Noble, 1966.
- The Chronicles of Froissart. 6 vols. Translated by John Bourchier, Lord Berners, with an introduction by W. P. Ker. London : D. Nutt, 1891-1903.
- Dunn, Charles W. "Introduction". In *The Chronicles of England, France, and Spain*. H. P. Munster's condensation of the Thomas Jokes translation. New York : Dutton, 1961.
- Evans, J.A.S. *Procopius*. New York : Twayne Publishers, 1972.
- Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamerlane*. Berkeley : University of California Press, 1952.
- Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamerlane*. Berkeley : University of California Press, 1967.
- Gillett, H. M. *Beate the Venerable*. London : Burns, Oates, and Washbourne, Ltd., 1925.
- Grancham, Antonia. *Historical Writing in England, c. 950 to c. 1307*. Ithaca : Cornell University Press, 1974.
- von Grunbaum, G. E. *Medieval Islam, 275-37*. Chicago : University of Chicago Press, 1946.
- Ibn Khaldun, The Muqaddimah : An Introduction to History*. Translated by Franz Rosenthal. New York : Pantheon Books, 1958.
- Jelliffe, John, ed. and trans. *Froissart's Chronicles*. London : Harvill Press, 1927.
- Ker. W. P. *Essays on Medieval Literature*. London : Macmillan, 1911.
- Knowles, David. "Introduction". In *Beate's Ecclesiastical History of the English Nation*, rev. ed. New York : Dutton, 1900.

Lewis, B., and P. M. Holt, eds. *Historians of the Middle East*. Oxford : Oxford University Press, 1962.

Mahdi, Muhsin. *Ibn Khaldun's Philosophy of History*. Chicago : University of Chicago Press, 1944.

Margoliouth, D. S. *Lectures on Arabic Historians*. Calcutta : University of Calcutta, 1939.

Otto of Freising. *The Deeds of Frederick Barbarossa*. Translated by C.C. Mierow. *Records of Civilization*. New York : Columbia University Press, 1953.

Otto of Freising. *The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1118 A.D.* Translated by C. C. Mierow. *Records of Civilization*. New York : Columbia University Press, 1928.

Paris, Matthew. *Matthew Paris's English History*. Translated by J. A. London. H. G. Bohn, 1854.

Pactow, L. J. *A Guide to the Study of Medieval History*, rev. ed. Millwood, N.Y. : Kraus Reprint Co., 1973.

Procopius. 7 vols. Translated by H. B. Dewing. Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1914-1940.

Procopius : *Secret History*. Translated by Richard Atwater, foreword by Arthur Bosk. Ann Arbor : University of Michigan Press, 1961.

Rabi, Muhammad Mahmood. *The Political Theory of Ibn Khaldun*. Leiden : E. J. Brill, 1967.

*The Begin of Al-Mu'tasim*. Translated by Ekma Murin. New Haven : American Oriental Society, 1951.

Rosenthal, E. I. J. *Political Thought in Medieval Islam*. Cambridge : University Press, 1958.

Rosenthal, Franz. *A History of Muslim Historiography*, rev. ed. Leiden : E. J. Brill, 1958.

Sauvaget, J., and C. Cahen. *Introduction to the History of the Muslim East : A Bibliographic Guide*. Berkeley : University of California Press, 1955.

- Schreidt, M. Ibn Khaldun, *Historian, Sociologist, and Philosopher*. New York : Columbia University Press, 1930.
- Sherley-Price, Lee, ed. and trans. Bede : *A History of the .....English Church and People*. Harmondsworth, Middlsex : Penguin Books, 1965.
- Sir John Froissart's *Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries* 5, vols. Translated by Thomas Johnes. London : The Haford Press, 1803-1810.
- Sussex, Beryl *Historians in the Middle Ages* New York Charles Scribner's Sons, 1974.
- Thompson, A. Hamilton, ed. Bede, *His Life, Times and Writings*. Essay in Commemoration of the Twelfth Centenary of his Death Oxford . Clarendon Press, 1965.
- Thompson, J. W., and B. J. Holt. *A Historical Writing*, 7 vols. New York : Macmillan, 1967.
- Thurston, Herbert, and Donald Attwater, eds. *Butler's Lives of the Saints*. New York : Kenedy, 1956.
- Vaughan, Richard *Matthew Paris*. Cambridge : University Press, 1955.
- Vryonis, Speros, ed. *Readings in Medieval Historiography*. Boston : Houghton Mifflin Co., 1968.
- Williamson, G. A. "Introduction", In *Procopius, The Secret History*. Baltimore - Penguin Books, 1964.

## فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
١ - بروكوبيوس	١٥
٢ - بيسه النجل	٤٩
٣ - الطبرى	٨٧
٤ - اتوا الفرزنجى	١٢١
٥ - متى باريس	١٥٣
٦ - حنا فرواسار	١٨٩
٧ - ابن حليون	٢٢٩
الصريف	٢٥٥
مراجع وبحوث مختارة	٢٨٥



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٤١/١٦٨٨

١ - ١٦٧٠ - ٠١ - ١٧٧ - ISBN





يضم هذا الكتاب بين صفحاته سبعة مؤرخين من أشهر  
المؤرخين في المصور الوسطى.

والكتاب جديد في فكرته - ألفه الأستاذ جوزيف داموس  
أستاذ تاريخ المصور الوسطى بالولايات المتحدة الأمريكية  
ويتيح هذا الكتاب الفرصة للباحث والقارئ المتق لمعرفة  
أهم المؤرخين الذين كتبوا عن التاريخ الإسلامي وحضارته ،  
والتاريخ البيزنطي وحضارته ، وتاريخ أوروبا في المصور  
الوسطى وحضارته - ويتميز أسلوب المؤلف بالعمق  
والموضوعية والتدقيق والتفد العلمي القائم على الصلح  
والأمانة .